

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

متاهة إبليس

رواية

بُرهان شاوي

NOVEL

Satan's LABYRINTH

BURHAN SHAWI

متاهة إبليس

SATAN'S LABYRINTH

رواية

بُرهان شاوي

Burhan Shawi



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1177-6



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: ————————

لوحة الغلاف: ————————

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

جهنم رقدتْ والفردوسُ البهي كذلك،

ليس هناك من لا يرقد في بيته بمثل هذه الساعة.

الرب قد رقد، فالأرض غريبة الآن،

فالعيون لا تبصر، والآذان لا تصغي،....

يوسف برودسكي

من قصيدة (مرثية كبرى إلى جون دون)

ترجمتي

لقد بلغت من العمر عتيا..

بحيث تعرف معنى كل هذه الإيثاكات

قسطنطين كفافيس

من قصيدة إيثاكا

المحتويات

1

هواجس حواء الكرخي

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. غرفتي، التي تقع في بداية الممر قرب السلّم بالطابق الخامس من الفندق، مضاءة بضوء شاحب من المصباح الموجود قرب سريري، بينما خيط من النور يتسرب من فتحة الباب السفلى قادما من جهة الممر الذي يغمره صمت يكاد يُسمع طنينه في الأذن. حتى فندق (الشام) نفسه، الذي يقع في شارع ميسلون، على مقربة من بوابة الصالحية بدمشق، يطبق عليه صمت مشحون بترقب مريب.

أنا حواء الكرخي، أشك في كل شيء. طمأنينة اليقين تخيفني، بينما قلق الشك يمنحني الطمأنينة. الشك هو الذي يقودني إلى الحقيقة، لكن الحقيقة متاهة.. متاهة تفضي إلى شك جديد.. نعم الحقيقة هي متاهة صامتة.

أعتقد أن الله يحب الشكّاكين أكثر من المؤمنين.. إنه يبارك قلقهم العظيم.. لأن الشكّاكين، يفكرون فيه دائماً.. يحبونه.. يريدون أن يعرفوه بجلاله وعظمته ووجوده. المؤمنون قطيع مطمئن راكن لمصيره.. قطيع مطمئن ينتظر تبن الفردوس.. لا أكثر.. نعم.. نعم.. إنني أرى البعض يحمل صليبه الثقيل بصبر.. وبمعاناةٍ.. وألم.. يصعد إلى الجلجلة بصمت الشهداء والقديسين.. بينما أرى الملايين تئن تحت شليفات من التبن.. لكن من أنا حتى أطلق أحكامي على الآخرين..؟ الله نفسه يتردد أمام ضعف الإنسان فيبحث له عن حجج؛ ليغفر له خطاياه..، بينما نحن البشر نلقي بالآخرين إلى قاع الجحيم دونما رحمة.. من أنا كي أحكم على هذه المرأة التي اسمها حواء ذوالنورين..؟ ولماذا افترض أنها خاطئة..؟ ربما هي تحمل صليباً ثقيلاً، خفيا، بينما أنا العمياء لا أستطيع أن أراه.

لكني لا أستطيع أن لا أفكر بغموضها.. حتى اسمها غامض.. حواء ذو النورين..

وكأنها تذكرني بعثمان بن عفان الذي كان يلقب بذي النورين... نعم هي غامضة وغريبة.. أحس أنها تخفي شيئاً ما، سراً ما، فهي مهما حاولت أن تبدو طبيعية، ومرحة أحيانا، إلا أن حزناً كثيفاً يستقر في أعماق عينيها.

أحاول أن لا أواجهها بما أفكر فيه.. ولا أسألها عن تفاصيل حياتها.. فعلاقتنا لم تتعمق إلى هذه الدرجة.. هي رفقة طريق من بغداد إلى دمشق قضتها هي ما بين النوم أو التظاهر بالنوم.. وفي حالات صحوها كانت تبدو مرعوبة ومرتبكة.. لم تهدأ إلا بعد أن وصلنا دمشق.. ونزلنا في هذا الفندق.. بل حتى خلال الأيام الثلاثة الماضية أحسستُ أنها تخاف من شيء ما. إنها كتومة.. لا تتحدث عن نفسها مطلقاً.. بل هي تتجنب أن تسألني عن حياتي؛ كي لا أسألها بالمقابل.. وهذا لا يعني أنني لم أحاول أن أستكشف هويتها.. لكني لم ألح بالسؤال.. لقد حاولتُ حينما جلسنا في المطعم بعد وصولنا مباشرة أن استفسر منها عن سبب مجيئها إلى دمشق، وماذا تنوي أن تفعل، فارتبكت جداً.. لذلك لم أشأ أن أربكها أكثر، ولم أكرر بعد ذلك أي سؤال يدور حول هذا الموضوع.. لكني أيقنت أنها تخفي سراً ومعاناة كبيرة.

ربما هي هاربة من خطر ما..! فملامحها، برغم محاولاتها أن تكون طبيعية معي، تكشف عن رعب خفي.. أنا أدرك أنها تحاول أن تجاريني وتسايرني.. لكني أعرف أن كل هذا ليس إلا القناع.. فهي تخفي وجهاً آخرَ مجهولاً بالنسبة لي.. وبرغم ذلك لا أحاول أن أبدي لها بأني أعرف أنها تتصنع كل هذا، وبأنها لا تكشف عن نفسها.

أحياناً أحس أنها تخافني.. أو تشك فيّ.. لا أعرف.. مجرد إحساس.. فأجد نفسي أفكر بهذا الرعب الذي صرنا فيه.. نحن نخاف من أنفسنا، ومن الآخرين، حتى ونحن بعيدون عن العراق.. أي رعب هذا..، وأية بلاد هذه..؟

الحقيقة أنا نفسي كنت خائفة.. فقد تم اغتيال صديقتي حواء الزاهد وابنها آدم الملاك وسائق التاكسي من قبل ملثمَين كانا يقودان دراجة نارية.. أمطرانا بوابل من الرصاص بمسدساتهم كاتمة الصوت.. وفرّا.. أنا لم أصب لأني كنت أحتضن الطفل الرضيع هابيل في المقعد الخلفي، وصرت في لحظة تحت المقعد.. ويبدو أنها كانت المقصودة.. لذا هربت بالرضيع هابيل ابن صديقتي حواء الزاهد، وكذلك بمخطوطات الكاتب آدم البغدادي.

الغريب هي لم تسألني قط عن هابيل، سوى مرة عندما جلست إلى جانبي في الباص

المتجه إلى سوريا إذ سألتني إن كان الطفل ابني، فأجبتها بنعم.. لكنها لم تسألني أي شيء بعد ذلك.. لا عن نفسي ولا عن هابيل، وهذا ما أيقظ منذ البداية شكوكي.. من هي.. يا تُرى..؟.

ربما هي امرأة مسكينة.. مثلي ومثل حواء الزاهد، القديسة، التي قُتلت وهي في طريقها للهروب من هذا الجحيم الذي اسمه العراق.. فهذه تبدو لي أيضا كأنما تحاول أن تهرب من أهوال خلفتها وراءها في بغداد.. تحاول أن تهرب بأية وسيلة.. تبدو لي وكأنها تخاف من يقظتها.. من صحوتها.. لهول الكوابيس التي تحوم حولها في الواقع، لذا تلوذ بالنوم..!.

حين وصلنا دمشق دبت الحياة في روحها.. لكنها ظلت باباً مغلقا أمامي.. وحينما طلبتْ مني مساعدتها بالحصول على شقة، لم أجد سوى أن نذهب إلى أي فندق أول الأمر.. لكنها فاجأتني بطلبها أن يكون الفندق نظيفا جيدا بخدماته وقريبا، وبكلمة مختصرة: راقياً.. ولم يكن أمامي سوى أن تذكرت هذا الفندق الذي سكنت فيه بضع ليال قبل أشهر.. على الرغم من أني لا أستطيع البقاء فيه لأسباب أمنية واقتصادية..، لذلك سعيت منذ الساعات الأولى بعد وصولي إلى الإتصال بصديقي آدم أبوالتنك، وهو عراقي يعيش في دمشق منذ ثلاثين عاما تقريبا.. وذهبت للقائه في مقهى الروضة.. حيث تركت الرضيع هابيل عند صديقتي في الفندق.. وفعلا..إتصل بي اليوم عصراً؛ ليخبرني بأنه وجد شقة بغرفتين وصالة في منطقة الطبالة في طرف المدينة بالقرب من منطقة جرمانا التي تكتظ بالعراقيين أيضا.

منذ أن اتصل صديقي آدم أبوالتنك بي وأخبرني عن إيجاده للشقة وأنا في حيرة من أمري.. هل أدع حواء ذوالنورين تعيش معي.. أم أنسحب وأتركها تواجه مصيرها وحدها..؟

* * *

بالأمس خرجنا من الفندق كي نتمشى قليلا في المدينة، لاسيما والفندق يقع بالقرب من بوابة الصالحية. كنت أدفع العربة التي تحمل الصغير هابيل، بينما كانت هي تمشي إلى جانبي مبهورة بالحياة التي تتدفق حولنا. مررنا بمكتبة قريبة، أعتقد كان اسمها يحمل اسم الشارع الذي يقع فيه الفندق (مكتبة ميسلون). أحسستُ بأن لديها رغبة في استطلاع عناوين الكتب، وبدا لي ثمة فضول في نظراتها، وهذا الشيء أفرحني

حقا، إذ ظننتها عند رؤيتي لها أول مرة بأنها من هاتيك النسـاء الجميلات اللاتي ليس لديهن من هم سـوى الأزياء الفاخرة، والمجوهرات، على الرغم من أنها لا تتزين بأية مجوهرات.. تُرى من أين جاءتني هذه الفكرة عنها..؟ لا أدري.

ما أن دخلنا المكتبة، حتى لاحظت أن دفقاً من الحيوية والألق دبّا في كيانها. كنت أنـا مشـغولة أيضـا بالبحـث عن إصدارات دور النشـر البيروتيـة، بينما هي توجهت نحو الكتب المبوبة والمعنونة بالروايات والشعر. كنت أراقبها من بعيد، منتبهة لما سوف تهتم به من كتب، فهذا سيكشـف لي الشـيء الكثير عن شـخصيتها. لكن الغريب أنها أخذت تستعرض الروايات دون أن تمد يدها إلى أي كتاب أو رواية. أنا أنشغلت عنها بالصغير هابيـل الـذي أخـذ يبكـي فجـأة. وحينما هدأته ووضعت المصاصـة في فمه، التفت فلم أجدهـا. وبينمـا كنـت أتلفـت هنـا وهناك باحثة عنها، صارت أمامي فجأة وبيدها كتابان، فانتابني الفضول لمعرفتهما، ويبدو أنها انتبهت لنظراتي القلقة الفضولية فمدت الكتابين لترينـي عناونيهمـا. كانـا: مجموعة قصائد لكفافيس من ترجمة سـعدي يوسـف، ورواية اسمها (البريء) لكاتب عرفت أنه إيطالي من اسمه، غابرليلي دانوزيو. استغربت قليلا لذائقتهـا الأدبيـة، فكفافيـس ليـس بالشـاعر العاطفي الذي تميل النسـاء إليه، أما الكاتب الإيطالي فلم أقرأ له سابقا، لذلك سألتها بفضول:

– أتحبين قراءة الأدب..؟

ابتسمت بحزن وقالت بهدوء:

– نعم.. لكني لست من المتابعات.. فقد صار لي في حدود الستة أشهر لم أمسك فيها كتاباً.. علماً أن لدي في البيت مكتبة هائلة.

راودني فضول في أن أعرف عنها أكثر، فسألتها:

– ولِمَ اخترت هذين الكتابين..؟

– لا أعـرف.. لقـد أعجبنـي عنوان الكتاب..(وداعا للإسـكندرية التي تفقدها..).. وكأنـه يقـول لـي (وداعـا لبغداد التـي تفقدينها).. أعرف أنـه كتاب يضم قصائد مترجمـة لشـاعر يونانـي كان يعيش في الاسـكندرية.. أما هـذه الرواية (البريء) فاسمها مس قلبي..

– هل تحبين الروايات الايطالية..؟

– أنا أقرأ كل شيء... ليس بالضرورة الروايات الإيطالية.. أقرأ الروايات الفرنسية

والروسية والإنكليزية.. والعربية.. ولم أكن أعرف أن هذه الرواية إيطالية..

- إذاً لماذا أخذتها.. هل تعرفين الكاتب.. قرأت له سابقا..؟
- لا.. شدني اسم الرواية أولا..(البريء).. ثم شدتني أول صفحة فيها.. أول مقطع فيها.. فقررت أن اشتريها فوراً..
- وماذا كان هذا المقطع..؟

فتحتُ الكتاب على الصفحة الأولى من النص الروائي، فقرأت:

" طوبى للأطهار.. هل أذهب إلى المحكمة للمثول بين يدي القاضي وأقول له: (لقد ارتكبت جريمة). فإن تلك النفس المسكينة ما كانت لتموت؛ لو لم أقتلها أنا (توليو هبرميل). لقد قتلتها أنا بنفسي قتلتها عمداً مع سبق الإصرار في منزلي وقمت بارتكاب جريمتي وأنا مالك لجميع قواي العقلية وعارف ما أفعل حق المعرفة، ثم بقيت أعيش مع هذا السر الدفين في منزلي سنة كاملة حتى اليوم.

واليوم هو الذكرى الأولى لهذا الحادث الأثيم. وها أنذا بين يديك فاستمع إليّ واصغ إلى ما أقول وحاكمني على ما جنت يداي؟ هل أستطيع حقا أن أذهب إلى القاضي وأتحدث على هذا النحو..؟

اني لا أستطيع ولا أريد، فعدالة البشر لا تصل إليّ وليست هناك محكمة في هذا العالم تستطيع أن تحاكمني. ومع هذا يتحتم عليّ أن أتهم نفسي وأعترف بجريرتي. أكشف سري إلى أي إنسان.. ولكن تُرى لمن..؟".

هذا المقطع شدني أنا أيضاً، وأحسست بأني أمام امرأة لديها من الأسرار ما تلمّستْهُ كلمات بطل الرواية في بوحه الغريب والموجع. ابتسمتُ لها بحزن، وفي الوقت نفسه تولد في أعماقي حاجز خفي صدّني عنها، فأنا إذاً لست أمام امرأة بسيطة، وإنما امرأة تودع ماضيها وحياتها، مخلفة جريمة وراءها.

الليلة.. كنا معا في المطعم الصيني. والحقيقة لم أشأ أن أذهب إلى هذا المطعم، وإنما أردت أن نخرج إلى الشارع ونأكل شيئا في المطاعم المنتشرة هناك، إلا أنها لم تشأ أن تخرج، بل مررنا على ثلاثة مطاعم من المطاعم الستة في الفندق، فأعجبها المطعم الصيني الذي ترددتُ فعلا في دخوله، لكنها دعتني وهي تدخل قبلي إليه. كانت منبهرة بديكورات المطعم، وهي فعلا ديكورات مبهرة لحد كبير. حين جلسنا أخذت قائمة الطعام، وبدأت تقرأها.. وحين جاء النادل أخذت تطلب أصنافاً عديدة. لم أستطع

أن أكبح جماح رغبتي في شرب النبيذ. والحقيقة أردت أن أطلب عرقاً، لكني ترددت فطلبت قنينة من النبيذ الأحمر..

لـم تشـرب. كانـت ترتشـف النبيـذ ارتشـافاً خجـولا.. ضايقني ذلـك.. فأخذت من غضبي المكتوم أشرب بسرعة. شربت كأسي.. فطلبتْ لي قننينة نبيذ.. ثم قنينة أخرى.. لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من الغناء.. أنا هكذا.. وكأني أرشيف أغان.. لدي ذاكرة مرعبة. أتذكر الأغاني بلحنها وكلماتها، كما أن صوتي ليس سيئا؛ فإذا بي أنتبه لتصفيق الجالسين حول المائدة المجاورة. وما أراحني وضايقني في الوقت نفسه، أنها هي التي تحملت نفقات العشـاء والشـرب؛إذ وقعت على فاتورة الحسـاب... وهذا ما أثار شـكي أكثر في غموض شخصيتها.

تُرى هل هي مجرمة.. هل قتلتْ شخصاً ما.. زوجاً عجوزاً مثلاً.. وهربت ليلتحق بها عشـيقها في ما بعد؟ هل هي سياسـية هربت من الملاحقة..؟ هل هي موظفة كبيرة تعرضت لتهديد من قبل المتنفذين في الحكم الآن..؟ هل هي سنية هاربة من المليشيات الشـيعية..؟ هل هي شـيعية هاربة من تنظيمات القاعدة والمليشـيات السـنية..؟ من هي يا تُرى..؟.

مـرة أخـرى.. مـن أنـا كي أحكم على هذه المرأة التي اسـمها حـواء ذو النورين..؟ ولمـاذا أفتـرض أنهـا خاطئة.. ومجرمة وليسـت ضحية مثل حـواء الزاهد..؟.. ربما هي تحمل صليبها أيضا.. بينما أنا العمياء لا أستطيع أن أراه..!

2

هـواجـس حـواء ذو النـورين

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. غرفتي التي تقع في أقصى الممر بالطابق الخامس من الفندق غارقة في الظلمة، بينما خيط من النور يتسرب من فتحة الباب السفلى قادما من جهة الممر الذي يغمره صمت يكاد يُسمع طنينه، حتى فندق (الشام) نفسه، الذي يقع في شارع ميسلون، على مقربة من بوابة الصالحية بدمشق، يطبق عليه صمت مشحون بترقب مريب.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. في غرفتي الأنيقة، شرقية الطراز حيث الأزرق النيلي يبدو الآن معتما، وحيث ثريّا الكريستال المتدلية من السقف، والسجاد الفارسي الذي يغطي الأرضية، والرخام الابيض في الحمامات، في هذه الغرفة الأنيقة لا يُسمع الآن سوى حركة عقرب الساعة الجدارية، وأصوات ناعمة لأبواق السيارات بشكل متقطع تأتي من بعيد.

في هذه الغرفة الأنيقة الغارقة في الظلام أجلس أنا حواء ذوالنورين وحيدة، مفتوحة العينين، أحدق بتوجس في المرآة المعتمة التي أمامي وكأني أريد أن أخترق عتمة الزئبق وأنفذ إلى ما وراء العتمة، أن أهرب إلى مكان مجهول لا يعرفني فيه أحد. التفتُ الآن إلى الساعة الجدارية محاولة أن أتتبع الوقت وكنه الزمن، لكني لا أستطيع سوى رؤية ظلال عقربيّ الساعة.

مضت ثلاثة أيام على وصولي إلى دمشق هاربةً من جحيم بغداد. صحيح أنني رافقت السيدة حواء الكرخي الطريقَ، وهي التي ساعدتني في إيجاد هذا الفندق، كما هي باقية معي خلال منذ ثلاثة أيام في الفندق أيضا، في غرفة قرب السلّم في بداية الممر، لكن بدا لي أنها لم تود أن تأتي إلى هذا الفندق الغالي نسبيا، غير أنها، وهذا ما ظننته، لم تشأ أن تبدو أقل مستوى مني حينما طلبتُ منها أن تجد لنا فندقاً راقياً، ومعقولاً.

الليلـة انتبهـت إلـى ترددها في الدخول إلى المطعم الصيني لتناول العشـاء.. فوجبة الطعام هنا تكلف خمسـة أضعاف ما يمكن أن تكلفه في أحسـن المطاعم المنتشـرة في المدينة كما قالت لي حواء الكرخي.

لقد اسـتمتعتُ خلال وجودي في المطعم الصيني؛ إذ اصابتني الحيرة وأنا أتجول بناظري في ارجائه. فالسقف بمربعاته الذهبية مزدان بنقوش صينية، والجدران المكسوة بالاخشـاب تحمل رسـومات صينية على لوحات زجاجية. كما تلفت النظر المنحوتات الصينية المنتشرة في الزواية. أحسست أنني أخرج من كابوسي شيئا فشيئا.

صديقتي حواء الكرخي كانت محرجة في أول الأمر.. كانت تحاول العناية بصغيرها هابيـل الراقـد فـي عربتـه، طلبنـا كأسـين مـن النبيذ، لكنهـا بعد الـكأس الأول من النبيذ استرخت، بل استبد بها مرح، لكنه مرح نابع من روح مثقلة بالحزن؛ فطلبت قنينة نبيذ شربتها وحدها.

أنا لم أشـرب سـوى كأس واحدة. أردت أن أشـرب أكثر.. أحسسـتُ برغبة في أن أشـرب؛ حتى أثمل لأنسـى مأسـاتي، لكني خفت من أن أنهار وأكشـف عن شـخصيتي، وعن كل ما جرى معي.. لذا، فبرغم طيبة حواء الكرخي إلا أنني بقيت منكمشـة على نفسي، فأنا لاأعرف حواء الكرخي جيداً..

هي رفيقتي في السـفر من بغداد إلى دمشـق.. غريبة الأطوار قليلا.. تبدو شـجاعة لحـدود التهـور.. منفتحـة.. محبة للحياة والفرح والمتعة.. تدندن بالشـعر والغناء معظم الوقـت.. وكأنهـا تحـارب عزلتهـا بذلـك.. لقـد غنت الليلـة بصوتٍ عـالٍ أغاني عراقية متنوعـة.. حتـى أن بعـض رواد المطعـم انتبهـوا إليهـا.. بـل ومن طاولـة قريبة صفق لها الجالسون هناك، فرفعت كأس النبيذ تحية لهم..

ثـم فجـأة أخـذت تشـتم القائميـن علـى الحكم في العراق حاليـاً، وفي نفس الوقت تلعن النظام السـابق أيضا.. تشـتمهم بكلمات بذيئة.. وهذا ما أربكني.. لم أسـتطع أن أحدد هويتها.. هي مع مَن..؟ لذا ترددت في أن أسـترخي أمامها وأكشـف عن نفسـي، وعن تفاصيل ما جرى لي.

ولكي أزيل الحرج عنها وعني.. طلبت قنينة أخرى من النبيذ، وشاركتها في كأس منها، كما وقعت على حسـاب العشـاء بنفسـي، وعلى رقم غرفتي. لكن ما أثارني حقا أن حواء الكرخي لا تسكر..!! فهي تعب النبيذ وكأنها تشرب الماء.. بينما أنا أحسست

بدبيب الدفء والخدر يسري في أوصالي بعد أن شربت الكأس الثاني.

وعلى أية حال، فقد أخبرتني حينما جلسنا بعد العشاء في الباحة قبل أن نصعد إلى غرفنا لننام، بأنها ومن خلال أحد معارفها من العراقيين الذين يعيشون في دمشق منذ عقود، استطاعت تأجير شقة لنا، وأننا سننتقل إليها غداً. صُدمت.. لم أستطع أن أقول لها أي شيء.

* * *

ها أنا أجلس الآن في غرفتي الأنيقة، وأنا بملابسي التي كنت قد أمضيت السهرة فيها. أحاول أن أستعيد ما جرى.

منذ لحظة جلوسي إلى جانبها في الباص المتجه إلى دمشق، بعد أن هربتُ من بيتي في المنصور، في ذلك اليوم المشئوم الذي استيقظت فيه على الاتصال الذي جرى من خلال الهاتف النقال لزوجي الثاني قابيل العباسي، وعرفت بأن ابني آدم، من زوجي الأول، قد انتحر بعد أن قتل بعض المخطوفين، وبعد أن شاهد الفيلم الذي تم تصوير اغتصابي فيه، فلم يكن أمامي سوى أن أهرب بأقصى ما أستطيع.

لقد خسرتُ كل شيء... أفلستْ كل حساباتي بضربة قاضية.. لقد قبلتُ السقوط، والإذلال، والهبوط الأعمى إلى قاع الجحيم، من أجل أن أحافظ على حياة ابني الوحيد آدم ذوالنورين.. لكن، فجأة، انهار كل شيء.. فقد انتحر ابني بعد أن شاهد الفيديو الذي يصور عملية اغتصابي من قبل أحد افراد الجهة الإسلامية التي اختطفته.. لم يكن أمامي في ذلك الصباح الباكر سوى أن آخذ جواز سفري، وكمية كبيرة من المال، ووثائق بيتي، وبعض الوثائق الأخرى، وهربتُ إلى كراج السيارات المتجهة إلى سورية والأردن، في الجهة المقابلة لبوابة معرض بغداد الدولي، ولم يكن أمامي سوى أن أصعد أول سيارة مستعدة للإنطلاق دون تحديد الهدف، فكان هو الباص المتجه إلى دمشق. وشاءت الصدف أن أجلس إلى جانب هذه المرأة التي تحمل طفلا في حجرها، والتي عرفتني بنفسها: حواء الكرخي.

أنا لا أشك في طيبة حواء الكرخي وشجاعتها، بل لولاها لتهت في دمشق، لاسيما وأنا نفسيّاً شبه منهارة، وكل هذا الرعب الذي يتجمع في أعماقي مثل ورم سرطاني خبيث.

أنا لا أعرف دمشق، ولم أزرها من قبل، رغم أني مع زوجي الأول، المحامي

والقاضـي لاحقـا ووالـد ابنـي الوحيـد، زرت بلغاريـا ورومانيـا وتركيـا، ولبنـان ومصر وتونس.. لكني لم أكن يوما في دمشـق، ربما بسـبب العداء بين الحزبين الحاكمين في البلدين طوال عقود من الزمان..

لأنني كنت هاربة من بغداد.. ومشوشة التفكير من عبء المأساة التي تحاصرني ذهنا وفكريا وروحيا؛لذا فقد تركت نفسي تُقاد بسهولة واستسلام من قبل حواء الكرخي التي رافقتني الطريق، والتي لم تتركني حينما عرفت أني غريبة ولا أعرف أحداً في دمشق.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. أنا وحدي في هذه الغرفة المعتمة، وفي هذا الفنـدق الـذي ينبـض بالحيـاة، الحياة التي تجري أمام ناظري مثل حياة الأسـماك داخل حوض زجاجي.

الحزن العميق استقر في أعماقي. أحس بشلل علاقتي مع الحياة. لقد خسرتُ كل شـيء. وليس أمامي سـوى الهرب الى المجهول كذئبة مطاردة. لا أعرف من يطاردني بالضبـط، لكنـي أعـرف أن علـيّ الركض والركـض والركض إلى الأمام؛ لذا عليّ تبديل هويتي، والابتعاد عن كل شيء، عليّ إلغاء ماضيٍّ أمام الآخرين، عليّ إطفاء ذاكرتي، و صياغة سيرة جديدة لحياتي.. لكن كيف يمكنني ذلك..؟ أنا أدرك بأني لا أملك القدرة ولا الأفكار ولا الخبرة للقيام بذلك..؟

دموعي تنحدر الآن بصمت وهدوء من عينيّ. أنا لا أبكي، لكن دموعي رغم ذلك تنهمر من عينيّ.. كيف هذا..؟ لا أعرف.

هكـذا مـرت الأيـام الثلاثـة الماضيـة. حين كنت آوي إلـى غرفتي بعد أن أفترق عن صديقتي، وأطفئ النور. أتمدد على سـريري في الظلمة.. وأحيانا أجلس على الكرسـي الوحيـد الـذي أمـام الطاولـة التـي ترتفـع عليها مرآة كبيرة، كما أنـا الآن، أجلس محدقة في المرآة المظلمة، أبكي وحدي دونما صوت، وأحيانا بصوت مكتوم جداً، مستذكرة تفاصيل ما جرى معي كأنه شـريط سـينمائي يُعرض على شاشـة ذاكرتي. أتذكر انتحار ابنـي الوحيـد، واغتيـال زوجـي الأول أمـام بـاب الدار عند خروجـه ذات صباح، إلّا أن مرارة فقداني لإبني المنتحر، حطم كل قدرة لي للإحساس بالحياة التي تجري حولي.

لقد خطفوا ابني الوديع المسالم، المهتم بالأدب والشعر والموسيقى؛ بسبب إصدار زوجـي القاضـي حكمـاً قضائيـاً على بعـض أعضاء تلك الجماعة التي خطفته بالسـجن المؤبد؛ نتيجة اشـتراكهم في ذبح شـابٍ بطريقة وحشـية، ويا ليته لم يفعل.. لكنه كان

عنيداً وحازماً.. وكانت نتيجة ذلك أن اغتالوه أمام باب الدار وخطفوا ابني..!

أدرك أنني فقدتهما إلى الأبد، بل أدرك ميتتيهما الفاجعتين، لكن ما يزيد من مأساتي هو أنني لم أر ابني منذ لحظة اختطافه في ذلك اليوم المشؤوم.

إن ذاكرتي لن تتخلى أبداً عن صور تلك اللحظات من ذلك الصباح الأخير الذي شاركته فطور الصباح، وأوصلته إلى الجامعة، وروايته لي آخر مزحة وهو يغادر السيارة راجياً أن لا أتأخر بسبب تجوالي في محلات المنصور.

أتذكر الآن بكل وضوح وعنف تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم. ذلك الصباح الآخر الذي فززت فيه على أصوات الإنفجارات التي أشعلتْ قلب بغداد الحزين. أردت الذهاب إلى غرفة الحمام لآخذ دشاً دافئاً، ارتديت ثوباً خفيفاً.. لكنني أتذكر الآن كيف أن قلبي انقبض؛ حينما سمعت رنين هاتف زوجي الثاني قابيل العباسي الذي كان لا يزال نائما. تكرر الإتصال ثلاث مرات وأكثر؛ مما دفعني إلى أن أحاول إيقاظه، إلا أنه لم يستيقظ، فقد شرب ليلة البارحة قنينة كاملة من الويسكي، فأخذت الهاتف؛ لأجيب وأطلب من المتصل بأن يتصل لاحقاً، إلا أن الصوت المرتبك على الطرف الآخر لم يتبين صوتي، وإنما أخذ يتحدث مباشرة قائلا:

- سيدي حدثت كارثة..آدم ذوالنورين دخل مكتبك.. ويبدو أنه لعب بأشرطتك.. ثم أخذ سلاحا، بعدها نزل إلى الطابق الأسفل فأعدم جميع المخطوفين، ثم انتحر بإطلاق رصاصة على رأسه.

أتذكر كيف ارتجفت يدي؛ فضغطت لا إراديا على زر الإغلاق، وكيف سقط الجهاز من يدي على الأرض، وكيف أحسست بساقيّ لا تستطيعان حملي؛ إذ كانتا ترتجفان، وجسدي يرتعش..، وكيف جلست لا إراديا على الأرض متكئة على جانب السرير.. وكيف أخذت الوسادة وضغطت بوجهي عليها، وكيف أخذت أبكي بصوت مكتوم.. وكيف أني بعد ربع ساعة من البكاء المخنوق أخذت أحبو كالمشلولة خارجةً من الغرفة... وأتذكر كيف أحسست بأني خسرت كل شيء.. وأن عليّ مغادرة هذه البلاد اللعينة فوراً... فلم يعد يهمني شيء بعد الآن.. فالذي ضحيت من أجله بكل شيء قد رحل عن هذه الدنيا منتحرا.

لكنني أتذكر الآن وبكل وضوح كيف أني أحسست، برغم هول المأساة، وخلال ثوان خارقة، بنشاط غريب لا يتناسب مع الكارثة التي حلّت بي، ولا مع حالة الارتباك

وشبه الشلل الذي انتابتني عند سماع الخبر..، كيف برقت تلك الفكرة في ذهني، فكرة السفر ومغادرة البلاد.. وتعجبت في ما بعد كيف هبط علي في تلك اللحظات سكون جامد.. غريب.. أحسست بأن عواطفي قد تجمدت وتجلد ألمي.

الساعة الآن قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. وحدي الآن في الغرفة المعتمة.. في متاهة ذكرياتي.. أتذكر الآن كيف دخلت إلى مكتب زوجي الأول، كيف دفعت أحد الرفوف جانباً، فانكشف الحائط عن خزانة موضوعة في الجدار. أخذت المفتاح الذي كان في جارور المكتب. فتحت الخزانة، وأخرجت جواز سفري وحزم كبيرة من المال، من الدولارات واليورات. أتذكر تلك اللحظات بدقة، كيف أنني فكرت بأن عليّ مغادرة البلاد بعد أن يذهب زوجي الحالي مع حراسه الذين يقفون عند الباب.

أتذكر الآن بوضوح كيف أني أول الأمر فكرت أن أسافر بسيارتي الخاصة، لكني خفت من قابيل العباسي الذي صار زوجي غصبا عني، تذكرت بأنه مسؤول كبير، وأن الطريق يمر بمناطق له سيطرة عليها وعلاقات واسعة بتلك العصابات المنظمة التي تقطعها؛ لذلك فضلت ألا أستخدم سيارتي الخاصة، بل عليّ ألا أثير أية شبهة؛ لذلك قررت استخدام سيارات النقل العام.. تلك السيارات التي تذهب الى سوريا أو الأردن، لاسيما وأن مقر انطلاق هذه السيارات يقع قرب منطقتنا، مقابل مبنى معرض بغداد الدولي. أتذكر تلك الهمة التي اجتاحتني، فلم أخذ ملابس كثيرة، سوى الضرورية جدا، بعض السراويل الداخلية وحفّاظات العادة الشهرية، لكني أتذكر جيدا أني أخذت أقل ما يمكن من أدوات الزينة، قلم الكحل وأحمر الشفاه وقنينة عطر تمنحني شعورا طيبا بالحياة، لكني عبّأت حقيبتي بأكبر كمية من المال الذي يمكن أن أحمله معي. أتذكر الآن كيف كنتُ جامدة المشاعر، وكأن مأساتي صارت ماضياً.. كان المهم عندي أن أغادر البلاد بأي شكل وبأقصى سرعة.

وها أنا الآن في غرفتي بفندق (الشام) بدمشق وحيدة، أجلس في الظلام. ولا أعرف لماذا أستعيد هول مأساة ما جرى لي منذ وصولي إلى هذا الفندق..؟ إنني أبكي كل ليلة بحرقةٍ ساعات وساعات..إلى أن أتعب وأسقط في بحيرة النوم السوداء دون إرادة مني.

الليلة.. أخبرتني حواء الكرخي بأنها وجدت شقة واحدة لنا، لكني لا أريد أن أسكن مع أحد. أريد أن أكون وحدي. لم أستطع أن أتحمل القناع على وجهي فهو يتعبني. أتذكر الآن أني طلبت منها، منذ اللحظات الأولى لتعارفنا في سيارة الباص بأن

تساعدني في إيجاد سكن لي.. وقد وعدتني بذلك، لكنها أشارت الليلة بأنها وجدت شقة لنا.. أنا لا أريد ذلك.. كيف لي أن أشرح لها ذلك دون أن أجرح مشاعرها، أو أوقظ الشك في نفسها، فقد كانت طيبة معي جداً.. أنا لا أريد أن أكون مع أحد. عليّ أن أكون حازمة في هذا الأمر وإلّا سأضيع مرة أخرى.

لكن كيف لي أن أفاتحها بأني لا أريد أن أنتقل معها إلى الشقة، وأني أفضّل أن أبقى في الفندق.. أن أكون وحدي؟! لربما ستفهم ذلك كنكران للجميل، أو تأخذ على نفسها بأنها ربما قد أساءت إليّ، بينما هي حاولت أن تساعدني، وأن تسري عني..، بل ذهبت معي مباشرة بعد وصولنا دمشق إلى شارع الحمراء لأشتري ملابس لي، واشترت هي عربة للطفل وملابس له ولها، لكن ثمة شيء غريب في علاقتها بهذا الطفل، لا أعرف كيف أفسر ذلك..؟

المهم.. كيف لي الآن أن أقول لها بأني لن أنتقل معها إلى الشقة..؟ ربما عليّ أن أوافق بالذهاب معها لفترة إلى أن تتضح الأمور لها.. وأستطيع حينها أن أقرر..؟ لكن لا.. أنا الآن متأكدة من شيء واحد فقط، بأن عليّ أن أكون وحدي، وبسيرة حياة جديدة وإلّا سأضيع. أحس أن وجودي في هذا الفندق يؤثر بشكل إيجابي على نفسيتي. ثمة هدوء بدأ يتسرب في أعماقي، وبعض الثبات يرسخ في نفسيتي.

يجب أن أخبرها بقراري.. أقول لها بأني استرحت في هذا الفندق وأريد أن أبقى فيه.. فوضعي المادي يسمح لي بالبقاء فيه إلى أي وقت أشاء..

لقد تعودت على الرفاهية.. وهذا الفندق الفخم يبعث الراحة في نفسي.. فروح الأصالة الشرقية في كل زاوية من زواياه، بدءاً من ردهة الاستقبال التي تنتشر فيها برك الماء الرخامية ذات النقوش والتي تعلوها النوافير، حيث تتوزع في ثنايا الباحة أرائك وكراسٍ من الصدف والخشب، مروراً بالأرضية، التي هي من بلاط الرخام بالأبيض والأسود على شكل المعين، والباحة المحاطة بالشرفات المزدانة بالخضرة المتدلية، أما السقف فيحمل نقوشاً شرقية تتوسطه قبة زجاجية مما يعكس الأنوار على أرجاء هذا الفندق الذي يضم غرفاً عديدة. كل هذا ينمحني بعض الثقة بنفسي.. ويعيدني شيئا فشيئا إلى الحياة..إذنْ سأبقى في الفندق.

كانت حواء ذو النورين في أعماق عتمة المرآة تنظر إلى حواء ذو النورين أخرى جالسة على الكرسي تنظر في أعماق المرآة.

3

جنّي في المصعد

في الساعة العاشرة صباحا كانت حواء الكرخي تجلس في ردهة الاستقبال المحاطة بالشرفات، والمزدانة بالخضرة المتدلية من الجوانب، وحيث السقف يحمل نقوشاً شرقية كما تتوسطه قبة زجاجية مما يعكس الانوار على أرجاء الفندق.

انتظرت حواء الكرخي صديقتها عند الفطور، لكنّ حواء ذوالنورين لم تظهر في المطعم المفتوح، وها هي تحمل معها حقيبة صغيرة فيها بعض المستلزمات الخاصة بالطفل هابيل، وحقيبة صغيرة أخرى تضم مخطوطات الكاتب آدم البغدادي، منتظرة كي تجريا إجراءات مغادرة الفندق.

تذكرتْ أنهما لم يتناقشا ليلة أمس حول الموضوع، فحتى حينما ذكرت هي أمامها بأنهما ستغادران الفندق غداً، لم تعلق هي بأية كلمة، بل ولم تنزل للفطور هذا الصباح.

وبينما حواء الكرخي مستغرقة في أفكارها وتساؤلاتها، لمحت صديقتها حواء ذوالنورين تقبل عليها وعلى وجهها بعض الارتباك، إلا أن ما أثار انتباهها أكثر هو أنها أقبلت دون أن تحمل معها أية حقيبة، فخمنت فوراً بأنها لا تريد مغادرة الفندق.

تقدمت حواء ذوالنورين من حواء الكرخي وهي تحاول أن تهدئ ذلك الانفعال الذي يفور في داخلها، تلك المشاعر المرتبكة من الخجل في أن تقرر بأن لا تغادر الفندق، ومشاعر الأسف على الابتعاد عن هذه الصديقة، التي قدمت لها العون خلال كل هذه الأيام التي قضيتاها معا، وفي الوقت نفسه تفكر في إيجاد مدخل مناسب لكي تبرر لها دوافع قرارها بالبقاء.

فجأة، وجدت نفسها تقف أمامها صامتة، دون أن تلقي التحية حتى. ظلتا تنظران إلى بعضهما البعض لحظات، ثم قالت حواء ذوالنورين وكأنها ليست هي التي كانت تتحدث وإنما امرأة اخرى:

- لا تؤاخذيني صديقتي حواء.. لقد قررت البقاء في هذا الفندق.. كان بودي أن نكون معا، لكنني مع كل الأسف أجد نفسي غير قادرة على مغادرة الفندق.. أحس بنفسيتي قد أخذت تتحسن في أجواء هذا الفندق.. أرجو أن تفهميني.. أرجوك.

إرتبكت حواء الكرخي من نبرة صوت صديقتها الحازم، والواثق، والذي ليس فيه أي ظل لإمكانية النقاش، وانبثق في داخلها يقين بأن هذه المرأة المثيرة التي تقف أمامها تخفي سراً غامضا وربما خطيرا، وإلّا ما الذي يمنعها من مغادرة الفندق..؟. بعد ثوان قليلة، أحست بهدوء وسلام يجتاحها، وكأن قرار حواء ذوالنورين أنقذها من متاعب وارتباكات في قصتها هي أيضا، لذلك ابتسمت لها بطيبة قائلة:

- أولاً: صباح الخير.. وثانياً: أنت حرة، وأدرى بما هو الأفضل لك. كان يسرني أن تكوني معي. لكن لا ضير. فما دمت باقية هنا سأمر عليك بين الحين والآخر..، كما يمكننا التواصل هاتفياً، فأنا أعرف رقم هاتف الفندق و الغرفة معا..

وعلى غير توقع مدت حواء ذوالنورين كفها إلى حواء الكرخي مودعة، وقبلتها، ثم انحنت على هابيل الرضيع في عربته وقبلته. نظرتا إلى بعضهما البعض وفي عيني كل منهما كلام كثيف صامت لا يُقال. ولكي تتخلص حواء الكرخي من ثقل الانفعالات التي اجتاحتها تحركت نحو إدارة الاستقبال؛ لتسديد الحساب، بينما استدارت حواء ذوالنورين نحو جهة المصعد التي جاءت منها متجهة نحو غرفتها.

* * *

حين صارت حواء الكرخي في الشارع شعرت بنفسها حرة، وكأنها قد تخلصت من عبء ثقيل، بالرغم من ظلال حزن شفيف خلفها موقف حواء ذوالنورين؛ فقد توقعت بأنها ستلتصق بها وتطلب حمايتها طوال وجودها في دمشق. لقد كانت سعيدة أن تلعب دور الحامي، ولم تكن تتوقع بأنها ستطلب الابتعاد عنها وتقرر الانفصال عنها بهذه السهولة، وبهذه الطريقة الغريبة.

فكرت مع نفسها بأن عليها الآن أن تأخذ تاكسي إلى منطقة الطبالة، حيث ينتظرها آدم أبوالتنك هناك في الشقة التي وجدها كي تستأجرها.

أشارت بيدها؛ فتوقفت أمامها سيارة تاكسي. أخذت الصغير هابيل بذراعيها، وقام السائق بوضع العربة وحقيبتيها الصغيرتين في الصندوق الخلفي. وانطلقت بهما السيارة.

* * *

توجهت حواء ذوالنورين إلى المصعد، حيث كانت هناك امرأتان تنتظران. لم تكن قد قابلت أي منهما في الباحة، وكأنهما انبثقتا من العدم. الأولى كانت سيدة تبدو في منتصف الثلاثين من العمر، ذات وجه جميل، مثير، حاد الملامح لكن برقة، أنيقة جداً، ذات بشرة ناعمة ملساء، وشعر أسود يتدلى على جانبي وجهها، وذات نظرات واثقة، ترتدي ثوبا أسود من قماش قطني عالي الجودة. ترتسم على وجهها ابتسامة متفائلة، ويشع من عينيها بريق غامض يمنح الناظر إليها شعورا خفيا بكثافة الوجود، وجودها ووجود الناظر إليها. تحمل حقيبة نسوية ليست بالصغيرة. أما المرأة الأخرى فكانت فتاة ليست بالطويلة، سمراء، ذات ملامح خليجية محببة، ترتدي بنطلون جينز أزرق وفانيلة صفراء اللون، وكانت تبدو منطوية على نفسها، مرتبكة من شيء مجهول، تتجنب الآخرين وكأن آلاف العيون تراقبها.

ما أن وصلت حواء ذوالنورين إليهما حتى انفتح باب المصعد، وخرج منه شخصان، امرأة ورجل.. مرّ الرجل سريعا، بينما ألقت المرأة الأنيقة التي خرجت من المصعد بنفسها على المرأة محتضنة إياها عند باب المصعد وهي تقول لها بفرح:

– غير معقول.. لا أصدق ذلك.. من أرى..؟ مدام إيفا سميث.. أنت هنا في الشام..

أُحرجت المرأة الأنيقة التي اسمها إيفا سميث من هذا الاستقبال غير المتوقع عند باب المصعد، لاسيما وقد رأت أن حواء ذوالنورين والفتاة الخليجية قد دخلتا إلى المصعد، وأن حواء ذوالنورين قد أوقفت المصعد بالضغط على الزر الذي يوقف اغلاق الباب. ولكي تتخلص من إحراج الموقف قالت إيفا سميث للمرأة الأخرى بأنها نسيت حاجة ما في غرفتها، وأنها ستنزل حالا، ويمكن أن تنتظرها في الردهة، فتألق وجه المرأة الأخرى وقالت لها بأنها ستنتظرها.

دخلت إيفا سميث المصعد، واعتذرت بلطف من المرأتين، فابتسمت لها حواء ذوالنورين التي كانت معجبة بأناقتها، ورزانة شخصيتها، وبالإبتسامة الواثقة على وجهها المثير، وبنبرة صوتها ولهجتها اللبنانية المحببة، بينما ظلت الفتاة الخليجة صامتة، وكأنها غير مقصودة بالإعتذار. نظرت إيفا سميث إلى أرقام الطوابق المضيئة، فخمنت أن إحدى المرأتين تسكن في الطابق التاسع والأخرى في الطابق الخامس مثلها، لكنها لم تحزر من هي منهما.

فـي الطابـق الرابـع توقـف المصعـد، وانفتح الباب، لكن لـم يكن هناك أحد. إنغلق باب المصعد وبدأ بالصعود. نظرت النساء الثلاث لبعضهن. ظلت الفتاة الخليجية صامتة كأنها في عالم آخر، بينما نظرت كل من حواء ذوالنورين وإيفا سميث لبعضهما، وابتسمتا لبعضهما برقة. كان واضحا أن كلاّ منهما قد استلطفت الأخرى، وأن كلاّ منهما على استعداد لأن تبادر الأخرى بالكلام، لكن كلاّ منهما كانت تنتظر الأخرى أن تبدأ أولا، وحينما قررت حواء ذوالنورين أن تبادر، حدث ما لم يكن متوقعا لكليهما.

فـي المسـافة مـا بيـن الطابق الرابع والخامس حدثت، فجـأة، قرقعة، واهتزاز عنيف في المصعد، وارتباك في حركة سيره، وتوقف محدثا اهتزازا أرعب النساء الثلاث.

أخذت الفتاة الخليجية تقرأ بصوت مرتبك وخائف وشبه مسموع آيات قرآنية، بينما أخذت حواء ذوالنورين تضغط على جرس التنبيه، عسى أن يسمع الموظفون في مكتب الإستعلامات، والتقنيون في غرفة طوارئ الفندق ذلك.

كانت المرأة التي اسمها إيفا سميث متوترة. وجدت نفسها تقول لحواء ذوالنورين محاولة السيطرة على نبرة صوتها المرتجفة من التوتر:

- أرجو أن يسمعونا..
- لا بد أن يسمعونا.. لقد ضغطت على جرس الأنذار مرات عدة..

قالت حواء ذوالنورين ذلك، ثم أخذت تضغط على جرس الأنذار بقوة، مرة أخرى، دون أن ترفع اصبعها.

لم تستطع الفتاة الخليجية أن تسيطر على انفعالاتها؛ فجلست على أرضية المصعد، وهـي تضـع رأسـها بيـن ذراعيهـا وتتمتـم بالآيـات القرانيـة وبأدعيـة لم تسـمع المرأتان الأخريتان بها أبداً. نظرتا إلى بعضهما وفي عينيهما نظرة إشفاق وطيبة واستغراب.

فجأة، اهتز المصعد منسـحبا للأسـفل قليلا وكأنه يفقد شـيئا من توازنه، فصرخت الفتاة الخليجية مرعوبة، بينما أمسكت كل من المرأتين الأخرتين مساند المصعد المثبتة على جوانبه.

قالت إيفا سيمث محاولة أن تستجمع شجاعتها:

- ما الذي يجري..؟ كأننا في واحد من أفلام هوليوود المرعبة..
- بل أسوأ من ذلك..إذ لا أحد يسمعنا بينما نحن عند الطابق الرابع، في هذا الفندق الفخم..

الفتاة الخليجية كانت جالسة تنظر إلى حذائيهما نظرات غامضة بعينين مفتوحتين، وكأنها تحاول أن تهرب مما هي فيه من خلال التركيز على أحذية المرأتين الواقفتين.

فجأة رفعت رأسها إليهما وقالت على غير توقع منهما:

- أنا أعرف من يفعل ذلك..إنه الجني..
- ماذا..؟

سألتها إيفا سميث مستغربة وهي تنظر إليها وكأنها تريد أن تتأكد مما طرق سمعها.
نظرت الفتاة الخليجية إليهما ثم نقلت بصرها نحو حواء ذوالنورين وخاطبتها قائلة:

- أنا أعرف ذلك..إنه الجني الذي يعشقني.. ألا تصدقين.. أقسم لك إنه هو.. إنه يؤذيني.. يلاحقني من مكان إلى مكان.. ومن دولة إلى أخرى.. صدقيني. إنه هو.. دائما يفعل بي مثل هذه الأمور.. لا تخافا.. هو لا يؤذيكما..إنه يريدني أنا..

أخذت المرأتان تنظران لبعضهما البعض وكأنهما تسمعان شيئا من عالم الشعوذة والجنون.. لم تعرفا ماذا تقولان.. كانت الفتاة الخليجية تنظر إليهما وكأنها تنتظر منهما تعليقا يؤيد ما قالته، أو على الأقل إبداء بعض الفضول للإستفسار منها عما قالته، فقد كانت تريد أن تشرح لهما مأساتها.

سادت لحظات صمت مشحونة. وقبل أن تعلق أي منهما على ما قالته الفتاة الخليجية، سمعوا صوتا رجاليا فيه بحة غير طبيعية، لايعرفان من أين مصدره، يخاطبهما قائلا:

- هل أنتم بخير..؟

فجاء جواب كلتا المرأتين متناغما وفي آن واحد:

- نحن بخير..
- كم شخص في المصعد..؟

نظرت المرأتان كل منهما للأخرى وكأنهما كل منهما تريد أن تدع الإجابة للأخرى، لكن بعد ثوان أجابت إيفا سميث بصوت عال:

- نحن ثلاثة.. لكن أسرعوا رجاء..
- حالاً.. دقائق.. حدث عطل في المحرك الأساس للمصعد.. لكن سنخرجكم.. انتظروا قليلا..

واختفى الصوت.

أحست المرأتان ببعض الأمل في الخروج من هذا المأزق الذي وجدتا نفسيهما فيه. كانت الفتاة الخليجية تنظر إليهما وكأنها قد وجدت تأكيدا لما باحت به قبل قليل، نظرت إليهما ثم قالت:

- ألم أقل لكما إنه هو.. هذا الجني الذي يتبعني..إنه هو.. الحمد لله إنكما موجودتان.. لكان قد لعب بي لعبا، وصرت في يده مثل فأرة بيد هر عجوز.

نظرت إليها إيفا سميث بتركيز من عينيها المتقدتين، وقالت لها بتوتر، وبغضب مكتوم:

- توقفي رجاء عن هذه السخافات..

فزعت الفتاة الخليجية من ردة فعل إيفا سميث؛ إذ لم تكن تتوقع ذلك، حتى حواء ذوالنورين فوجئت ببردة فعلها، فقالت لها مهدئة إياها:

- لا توتري أعصابك.. يبدو أن هذه الفتاة ليست طبيعية.. ربما من خوفها تقول ذلك..

أحست إيفا سميث بما يشبه الندم لغضبها الواضح على الفتاة المرعوبة، فقالت محاولة تبرير ما بدر منها، بنبرة متعاطفة:

- ألم تسمعي ما كانت تقول..؟ نحن في أي حال.. بينما تحدثنا هي عن جني يعشقها..

- لا تعيري قولها أي إنتباه.. بعض الناس هكذا.. يؤمنون بالخرافات..

سادت بينهما ثوان من الصمت. كان واضحا أن ما قالته حواء ذوالنورين كان له وقع حسن في نفسها، فجأة مدت إيفا سميث يدها إلى حواء ذوالنورين مقدمة نفسها:

- أنا إيفا سميث.. لبنانية.. من باريس..

- تشرفنا.. أنا حواء ذوالنورين.. عراقية من بغداد.. لكني لا أعرف لحد الآن أين سأستقر..

- تشرفنا.. لكن ماذا يعني أنك لا تعرفين أين ستستقرين..؟

- لقد غادرت العراق قبل ثلاثة أيام.. ولا أريد الرجوع إليه.. لكن في الوقت نفسه لا أعرف إلى أين أذهب..

نظرت إليها إيفا سميث بتعاطف، وقالت لها:

– وضعكم أيها العراقيون صعب جداً.. كان صعبا.. وصار أصعب..

في تلك اللحظة انطفأ النور في كابينة المصعد فعم الظلام. أخرجت إيفا سميث هاتفها النقال وضغطت عليه فأضاءت شاشته، ثم حركته قليلا، فتحولت الشاشة إلى مصباح نيون مشع، فأضاء كابينة المصعد قليلا.

بدت الفتاة الخليجية التي كانت لاتزال جالسة على أرضية المصعد، تحت ضوء جهاز الهاتف النقال الشاحب، وكأنها كائن خرافي. ولم تمض سوى ثوان قليلة حتى عاد النور إلى كابينة المصعد ثانية، بل وبدا المصعد يهتز قليلا، ويطلق هديراً..، ثم بدأ يتحرك صاعداً.

بعد أقل من دقيقة وقف عند الطابق الخامس وفُتح الباب، فخرجتا من الكابينة بينما ظلت الفتاة الخليجية داخله. فجأة قفزت الفتاة الخليجية إلى خارج المصعد وأخذت تهرول في الممر متجهة نحو السلالم، بينما أُغلق باب المصعد وأخذ يتجه للأعلى.

فوجئت المرأتان من قفزة الفتاة الخليجية. سارتا في الممر متجهتين إلى غرفتيهما. كانت كل منهما خائفة في داخلها لكنها لم تكشف عن ذلك.. مشيتا بصمت. فجأة، سمعتا هديراً قادما من جهة المصعد.. وأدركتا أن المصعد توقف مرة أخرى.. وعم سكون مريب.

بعد خطوات قليلة وقفت إيفا سيمث عند أحد الأبواب. نظرت إلى حواء ذو النورين ومدت يدها ثانية:

– فرصة سعيدة.. ربما سنلتقي..إذا أحببت سأكون بعد عشر دقائق في المقهى الموجود في الردهة.

– فرصة سعيدة.. وتشرفت بك. يسعدني ذلك؛ سأكون بعد عشر دقائق هناك..

وواصلت حواء ذوالنورين طريقها إلى غرفتها وهي تحس باسترخاء كبير؛ لأنها امتلكت القدرة لمواجهة اقتراح حواء الكرخي، فبقيت في الفندق، على الرغم من استغرابها مما قالت بذلك الحزم الذي لم يترك مجالا للمناقشة.. وكأنها لم تكن هي التي تتحدث.. وأيضا لتعرفها على السيدة إيفا سميث..

4

وادي الضباب

أقبلت إيفا سميث من جهة المصعد وهي تحمل حقيبة صغيرة ليست كتلك التي كانت تحملها حينما دخلت المصعد قبل نصف ساعة تقريباً. وقفت في الردهة، ثم أخذت تنتقل بنظرة بانورامية في أرجاء المكان، تفتش عن المرأة التي قابلتها عند باب المصعد، واتفقتا على اللقاء في المقهى الموجود في الردهة بعد عشر دقائق، لكنها تأخرت بسبب عطل المصعد. لم تجدها، لذا فكرت بأن المرأة ربما انتظرتها ولما تأخرت في مجيئها غادرت المكان. فجأة وجدت نفسها تفكر بالمرأة العراقية ذات الإسم الغريب، حواء ذوالنورين، التي أحست نحوها بإنجذاب خفي.

توجهتْ إلى طاولة فارغة حولها ثلاثة كراسي. جلست على الكرسي المقابل لجهة المصعد، والذي يمنح الجالس إمكانية متابعة ما يجري في الفندق ومشاهدة الداخلين والخارجين، أو مكتب الإستقبال، أو القادمين من جهة المصعد الذي يقود إلى الركن الذي فيه غرفتها.

لم تمض إلا دقائق حتى اقتربت منها فتاة أنيقة، عرفت أنها نادلة في المقهى التابع للردهة. سألتها إن كانت تود شيئا، فطلبت منها فنجان قهوة تركية مع كأس ماء. أخذت إيفا سميث تجول بنظرها في أرجاء الفندق وتتأمل قبته العالية وطرازه الشرقي فأحست بشيء من الراحة، لكنها كانت في الوقت نفسه تحس بعدم الإستقرار وبقلق غامض كأن ثمة شيئاً ناقصاً.

أحسّت بشيء من التعب فسرته مع نفسها بأنه نتيجة رحلتها الليلية، فقد وصلت صباح هذا اليوم قادمة من باريس بعدما اتصلت بها أم صديقتها الحميمة حواء دمشقيه تخبرها بأن ابنتها أقدمت على الانتحار، وقد نُقلت إلى المستشفى، في العناية المركزة، وحالتها حرجة جدا، وبرغم ذلك طلبت من أمها أن تتصل بباريس لتخبرها بأنها تريد

أن تراها، وها هي قد جاءت إلى دمشـق، بعد أن اتفقت مع زوجها، ودعت أمها التي تعيش في باريس أيضا أن تكون مع ابنيها.

لقد اتصلت قبل ساعة، بعد وصولها إلى الفندق مباشرة، بأم صديقتها حواء دمشقيه، واتفقت معها أن تلتقيها عصر هذا اليوم لتذهبا معا إلى المستشفى.. وليس عليها الآن سوى الإنتظار. صحيح أنها لم تنم كفاية وتشعر بنعاس خفيف أيضا، لكنها لا تستطيع النـوم. وبـدون وعـي منهـا أخرجـت من حقيبتهـا الصغيرة نظارة سـوداء ووضعتها على عينيها. بدت في تلك النظارة وكأنها نجمة سينمائية.

لم تكن تدرك بأن للنظارة السوداء كل هذا التأثير النفسي. لقد أحست بأن ثمة حاجزاً غير مرئي صار بينها وبين العالم المحيط بها، بينها وبين ما هو خارج ذاتها وأعماقها.. وبلا إرادة، انزلقت في واد غامض مليء بالضباب، وجدت نفسها لا تتبين سوى ما هو فـي حـدود المتـر ممـا يحيطهـا، وكأن الكون تقوس في ما حولها. فجأة، وكأنها صحت من غفوة، انتبهت إلى أنها الآن في دمشق وليس في باريس..

هـي لا تميـل إلـى دمشـق، فذكريـات طفولتهـا تحاصرها.. ها هي ترى مشـاهد في الضباب تتحرك أمامها.. حدّقت بإنتباه.. رأت نفسها طفلة صغيرة في قريتهم على سفح الجبل المطل على بيروت.. رأت رجالا مسـلحين يدخلون بيتهم بعد أن رفسـوا الباب بأقدامهم وجزماتهم العسكرية. كانت العائلة جالسة على الأرض وأمامهم العشاء.. الأب والأم والأخوة الأربعة..إبنان وبنتان.. وبدون أي كلام هجم أحدهم على الأب وسحبه من ياقته وهو يشتمه أمام عائلته:

– يا عرص.. بتجسس علينا..؟ راح نيك عرضك.. وعرض الذين خلفوك..

وسحلوا الأب فانقلبت صحون الطعام على بعضها، وتعالى بكاء الأطفال المرعوبين وعويل الأم التي احتضنت الأبناء ودفعتهم أمامها إلى الغرفة المجاورة، وأغلقت الباب عليهـم عائـدة إلـى الفدائييـن الفلسـطينيين الذيـن كان معهـم بعـض اللبنانيين، وأخذت تتوسـلهم مؤكـدة بـأن زوجهـا بـريء ولا علاقة له بالسياسـة ولا بالصراعات الحزبية أو الطائفية بين المسلمين والمسيحيين ولا بين اللبنانيين والفلسطينيين.. نزلت الدموع من عيني حواء سميث دون أن تدري.. واختفت الصورة في الضباب ثانية.

تقدمت إيفا سميث خطوات أخرى في وادي الضباب، فوجدت نفسها مع أخويها يختبئون تحت السرير، بينما جزمات الرجال المسلحين تجوب البيت مفتشة في جنباته

عن شـيء ما، لكن لا أحد في البيت سـواها مع أخيها، فأختها وأخوها الأكبر كانا مع الأم التي أخذت تدور على المتنفذين من الفلسطينيين والدروز من أجل إطلاق سراح زوجها البريء..

بل ها هي ترى من خلل الضباب أيضا، ذلك المشهد المرعب بالنسبة للطفلة التي كانتها.. دخل إثنان من المسلحين ومعهما رجل مدني لبناني وقالوا للأم بأنهم سيعدمون زوجها وأنهم لن يسمحوا لأحد سوى ابنه الذي في الخامسة من العمر أن يراه..

تلاشـى المشـهد في الضباب.. رأت نفسـها وهي صغيرة في الخامسـة تمشـي مع أمهـا وبقيـة أخوتهـا عائديـن مـن ضيافة في قرية مجاورة إلـى البيت، فقابلتهم جارة لهم وأخبرتهم بألاّ يعودوا إلى القرية لأن المسلّحين هجموا على البيت بعد دخول الجيش السوري مفتشين عنهم لإعدامهم.. لكنهم حينما لم يجدوا أحدا أحرقوا البيت بكامله..

ومن بين الضباب رأت نفسـها مع أخوتها في القرية الجديدة التي سـكنوها بعد أن تـم إنقـاذ الأب مـن التصفيـة قبـل دخول الجيش السـوري من قبـل عراقي كان من قادة التنظيمات الفلسطينية آنذاك..

ها هي ترى مرة أخرى كيف تم تهجيرهم من القرية الجديدة ثانية من قبل الجيش العربي السوري؛ فنزحوا إلى بيروت.. لكن الضباب يغمر كل شيء.. هي لا تعرف أين هـي.. فالضبـاب يحيطهـا مـن كل الجهات.. ليس هناك سـوى الضباب.. فجأة، تعثرت بحجر وكادت تقع في حفرة جانبية تبدو معتمة وسط الضباب الكثيف.. انتبهت لصوت انهمار شلال ماء قريب.. تقدمت فرأت الشلال وهو يفيض بمائه المنهمر في بركة تفور بالزبد.. تقدمت قليلا فرأت أخوتها يمرحون هناك.. أحست بفرح غامر يجتاحها.. وما أن همت بالتوجه إليهم حتى انتهبت إلى صوت النادلة وهي تضع فنجان القهوة أمامها وكأس الماء وصحنا صغيرا فيه قطعة من البسكويت. رفعت النظارة عن عينيها ووضعتها جانبا وهي تشكرها.

تصاعد أريج القهوة الممزوجة بالهيل إلى أنفها. أحست بفرح يغمرها. انتبهت إلى وجود رجال في كل الزوايا.. خمنت أنهم من رجال المخابرات.. تسرب خوف لا إرادي إلى ذهنها، لكنها صدته مباشرة، وأجابت نفسها بأنها ليست سياسية، فلِمَ الخوف..؟.. كما أنها تحمل الجنسـية الفرنسـية.. ولقبها الذي أخذته عن زوجها لا يشـي بأنه عربي، بالرغم من أن زوجها عربي، من أم لبنانية وأب لبناني أميركي من سلالة اللبنانين الأوائل

الذين وصلوا أميركا، وأنه يعمل مديراً لشركة أميركية كبرى في باريس.. لكن المخابرات تبقى مخابرات، لاسيما المخابرات العربية، وبالتالي فأنهم يراقبون حتى النمل الذي يدب بين البلاط وعلى حواف حوض الماء الذي يتوسط الردهة.

أخذت فنجان القهوة بيدها، وقبل أن ترتشف منه أخذت تشم عطر القهوة الزكي. وبينما هي ترتشف القهوة متلذذة بطعمها الأصيل لمحت الفتاة الخليجية التي كانت معهما في المصعد تقف عند بداية الردهة.. كانت تائهة النظرات، ومرتبكة.. أخذت تتلفت كالضائعة، وحينما وقع بصرها عليها ركزت للحظات ثم توجهت ببطء نحوها وكأنها تتقدم منجذبة إلى مصير مقدر.

توجست إيفا سميث قليلا.. أحست بتأنيب ضمير خفي؛ لأنها نهرتها حينما كانت الفتاة مرعوبة من توقف المصعد وانطفاء النور فيه، فهي عادة تتعامل مع الآخرين بإحترام ولباقة..إلا أن حديث الأخرى عن الجني العاشق استفزها، لاسيما وهم في تلك الحالة من الإنزعاج النفسي، لذلك أحست مع نفسها بأنها مطالبة بالإعتذار لها.. وبما أن الفتاة متوجهة نحوها؛ فأنها سترحب بها وتطيب من خاطرها.

لم تكن إيفا سميث تنتهي من قرارها مع نفسها بإستقبال الفتاة الخليجية حين وجدتها تقف أمام طاولتها دون أن تنطق بأية كلمة.. انتظرت هي للحظات فربما تود أن تقول شيئا، ربما تطلب السماح لها بالجلوس معها، إلا أن الأخرى ظلت صامتة تنظر إليها نظرات مليئة بالتساؤلات الممزوج بالرجاء.. أحست بموجة من مشاعر العطف.. ابتسمت لها وقالت لها بلطف:

- تفضلي..

بصمت، ودون أن تنطق بأية كلمة، جلست على الكرسي المقابل لها. امتد الصمت بينهما للحظات. كانت الفتاة صامتة.. لا تنظر إلى شيء محدد، لكنها تبدو وكأنها تنظر إلى نقطة ما على الطاولة. فجأة، رفعت رأسها للحظة، ألقت نظرة خاطفة على وجه إيفا سميث، تلفتت إلى أرجاء المكان، ثم عادت ثانية خافضة رأسها على تلك النقطة المجهولة التي تخترق الطاولة.. وأخيراً رفعت رأسها إلى إيفا سميث وقالت بصوت مرتجف من شدة التوتر:

- أرجو أن تعذريني عما بدر مني في المصعد.. ربما أرعبتكما، أنت وصديقتك، دون إرادة مني..

فوجئت إيفا سميث باعتذارها، فقد كانت هي التي تود الاعتذار منها؛ لذلك أحست بدفق من التعاطف والمودة نحو جليستها، وقالت لها بلطف:

- أنا التي عليّ أن أعتذر لأني صرخت عليك بصوت مرتفع..
- لا.. أنـت كنـت محقـة.. كان يجـب إيقافـي عـن الحديث عن الجني العاشـق.. فأنتما لا تعرفان شيئا عن هذه الأمور..

امتـدت بينهمـا لحظـات مـن الصمـت كانـت إيفـا سـميث تحـاول أن تـدرس هذه الشـخصية الغريبـة التـي تجلـس أمامهـا، إلا أن الفتـاة ربمـا انتبهت لمـا يجول في ذهن جليستها، فقالت:

- أنت تعتقدين أنني غير طبيعية.. وأني كنت أهذي من الخوف.. لكني كنت أقول الحقيقة..
- الحقيقة..؟!
- نعم.. الحقيقة..

رفعت رأسها نحو إيفا سميث ونظرت إلى وجهها مباشرة وقالت:

- أنت تعتقدين أنني ربما مريضة نفسياً.. أو أنني مشعوذة.. وأؤمن بالخرافات.. أليس كذلك..؟

فوجئـت إيفـا سـميث ثانيـة بهذه المواجهة والصراحة غيـر المنتظرة. إرتبكت قليلا. ترددت في إجابتها، لكنها أحست بأنها أمام فتاة أشبه باللغز، فقالت لها:

- شخصيا لا أؤمن بالسحر..

ارتسمت ابتسامة مرة على شفتي الفتاة الخليجية، ثم قالت لها بهدوء:

- أنا كنت مثلك.. أنا التي أجلس أمامك الآن.. قد درست الفن في موسكو.. ثم في أميركا.. وعشت في السويد.. وبقيت فترة في باريس وفلورنسا.. بل أنا من عائلة شيوعية.. لكن هذه العائلة تحولت إلى الإيمان بعد أن رأت ما رأت من عالم السحر والجن..

لم تسـتطع إيفا سـميث أن تصدق ما تسـمعه من هذه الفتاة الغريبة، بالرغم من أن حدسـاً داخليـاً كان يوحـي لهـا بأن ما تقوله صحيـح، لكن كيف..؟ فجأة غمرها فضول في أن تسمع، لكنها أرادت توضيح موقفها، فقالت لها:

- أنا مسيحية.. بالرغم من أني لا أذهب إلى الكنيسة.. لكن هناك آيات في الأنجيل

تروي عن الأبالسة والشياطين التي أمرها سيدنا المسيح بن العذراء بأن تدخل في أجساد الخنازير التي ألقت بنفسها من الجرف العالي إلى البحر.. لكن هذا يبقى من باب الوعظ.. نحن في عصر العلم.. وقد بلغ الإنسان القمر، وتوجه إلى المريخ.. فكيف تريدينني أن أصدق قصص الجن..؟

نظرت الفتاة الخليجية إليها نظرات قلقة، لكن مليئة بالتعاطف، فعلى الأقل أدركت بأن هذه المرأة الجميلة التي تجلس أمامها هي مؤمنة، وليست من هؤلاء العلمانيين المتعصبين ذوي اليقين الجامد في رفض الروحانيات.. وقبل أن تنطق بأية كلمة، كانت النادلة تقف عند طاولتهما، وسألت إن كانتا تودان شيئاً. رفعت الفتاة رأسها وطلبت كأساً من الماء فقط. عرضت إيفا سميث عليها أن تطلب أي شيء آخر فهي تضيفها على هذه الطاولة، إلا أنها أصرت أن تطلب الماء فقط..، حينها ذهبت النادلة، ووجهت نفسها بكل انتباهها نحو إيفا سميث وسألتها برقة:

- هل تودين أن تسمعي حكايتي..؟ بعدها أنت حرة في أن تصدقي أو لا تصدقي..

أحست إيفا سميت بأن الأمور تجري دون أيما تخطيط.. ثم وجدت في نفسها الرغبة في أن تعرف هذا العالم الغريب من فتاة، كانت تظنها فتاة مشعوذة، إلا أنها بدت الآن وكأنما هي فتاة مرت بتجربة استثنائية.. فقالت لها:

- طيب.. سأسمعك..
- قبل كل شيء أرجو أن لا تسأليني عن بلدي.. أو عن اسمي.. ومن أكون.. اتفقنا..؟

نظرت إيفا سميث إليها وعلى وجهها إبتسامة طيبة، وقالت:

- اتفقنا..

صمتت الفتاة للحظات، وأخذت تنظر إلى إيفا سميث وكأنها تحاول النفاذ إلى ما يدور في ذهنها، لكن قبل أن تبدأ كانت النادلة قد جاءت بكأس الماء ووضعته على الطاولة فشكرتها الفتاة. ما أن ذهبت حتى بدأت حديثها قائلة:

- أنا إنسانة بلا هوية محددة.. أمي نصف أسبانية ونصف روسية.. كان جدي، والد أمي، شيوعيا أسبانياً.. جاء خلال الحرب الأهلية الأسبانية إلى موسكو مع مجموعة كبيرة من المهاجرين الشيوعيين.. تزوج فتاة روسية، جدتي، فأنجبت له ثلاث بنات، أمي إحداهن. ترعرعت أمي في موسكو ودرست في جامعتها..

وهناك التقت أبي العربي، الخليجي، الشيوعي أيضا، وتزوجته.. فولدت أنا وأخ لـي.. لذلـك أنـا هجينة، عربية، أسـبانية، روسـية.. المهـم.. ترعرعت بين ثلاث ثقافـات.. عربيـة، أسـبانية، وروسـية.. وبيـن ثلاث عقائد، عقيدتيـن دينيتين هما الإسـلام والمسـيحية، بحكم إنتماء والديّ فأبي مسـلم وأمي مسـيحية، وعقيدة علمانية تنظر إلى الدين كأفيون للشعوب، وهي نظرة والديّ.. لكن بعد سنوات.. وبعد حدوث تغيير سياسي في البلد الذي جاء منه والدي، رجع مع أمي إلى بلده الخليجي، وطبعا كنا صغارا، أنا وأخي.. وهناك درسـت في المدارس العربية، دون أن أقطع صلتي باللغة الروسية وثقافتها طبعاً، وأيضا زيارتها صيفا سنويا..

صمتت الفتاة للحظات وكأنها تريد ترتيب أفكارها لما ستقوله لاحقاً، ولتتأكد من انتبـاه السـيدة إيفـا سـميت أيضـاً.. وحينمـا رأت أنها صامتة تنظر إليهـا بإنتباه منتظرة أن تواصل حكايتها، واصلت قائلة، بنبرة حيوية أكثر من السابق:

– حينما كنت ما بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة.. بدأت قراءة الكتب الدينية، والتعرف على الأديان وتأريخها وعقائدها.. كل الأديان بلا استثناء، المسيحية، الإسـلام، اليهودية.. لكن صادف ذات يوم أن جرى حوار بيني وبين شـاب في بيت أحد أقرباء أبي.. وكانت المرة الأولى التي أراه فيها عندهم.. فتحدثنا بكل أدب عـن مختلـف المواضيـع.. وكان الشـاب متدينـاً وبدا لي وقتها مثقفاً جداً.. بعدها بأيام بعث إلي برسالة مع أخته المتزوجة تحتوي على بحوث في العقيدة بلغة رائعة للغاية.. انجذبت إليه؛ لما له من معرفة لم أجد مثيلا لها في عمري ذاك.. وبدأنا المراسـلات حول قضايا الدين والعرفان..إلى أن جاء اليوم الذي التقيت به بشـكل منفرد في بيت أخته أيضاً، التي صارت راعية لعلاقتنا، والتي هيأت لنا الجو.. في ذلك اللقاء أسـقاني عصيراً.. طبعا وقتها لم أشـك في أي شـيء.. وشـربت ما قدمه لي.. كان مجرد عصير.. وإذا بي أغرم به لدرجة غير طبيعية..

نظرت إيفا سميث إليها غير مصدقة، وقالت مبتسمة، وفي صوتها نبرة فيها سخرية خفية:

– يعني السحر كان في العصير..؟ ربما كان مخدراً أو شيئاً من هذا القبيل..؟
– نعم.. لأني بعدها مباشرة صرت كالعمياء.. أتبعه.. أطيعه في كل شيء.. كلامه

كان دستورا بالنسبة لي.. ثم حدث في رمضان إن التقيت به في بيت أخته التي خرجت وتركتنا وحدنا.. ومارس الجنس معي.. على الرغم من أني أعرف إن ذلك محرم، لاسيما ونحن صائمان.. وأنا باكر..، لكني كنت كالمنومة مغناطيسيا. كان السحر في العصير أغلب الظن.. لكني بعدها سمعت من أناس يعرفونه أنه كان دائم التردد على المقابر. أخته أخبرتني في ما بعد بأنه سافر للهند من أجل الحصول على المواد التي تُستخدم في السحر.. لأني فعلا وجدت في أدراجه ذات مرة بقايا شعر وأظافر.. بعض أقربائي كان يقول عنه إنه غير طبيعي.. لكنه كان قد بهرني بعلمه.. وخطبه.. وطاقته اللغوية، التي اكتشفت في ما بعد أن كل ما كان يكتبه لي مقتبس من خطب للإمام علي بن أبي طالب، منشورة في نهج البلاغة، بينما كان هو ينسبها إلى نفسه..! كنت منومة مغناطيسيا..

نظرت إيفا سميث إليها غير مصدقة، وسألت بنبرة مشككة:

- كيف نمت معه.. وأنت قاصر.. وفي مجتمع خليجي..؟
- حينما عرف والداي بعلاقتي معه حاولا بشتى الطرق منع اقترابي منه.. حبسوني في البيت؛ كي لا أهرب معه.. أضربت عن الطعام.. بدأ في داخلي كره شديد لوالديّ.. لكن ذات فجر دخل أبي إلى غرفة نومي وأيقظني، قائلاً لي: تعالي أنظري حال أمك.. فهي في وضع سيىء.. حين نزلت إلى الصالون وجدت أمي كالميتة.. أبي أخبرني بأنها كانت تتحدث بصوت رجل، ومرة تتحدث بصوتها، وكأنها تتحاور مع شخص ما... حين تسأل بصوتها يأتي الجواب بصوت رجل من خلال فمها أيضا.. والعكس ايضاً.. كانت تطلب من شخص ما مجهول أن يخرج من جسدها وهو يرفض.. بدأت تشنجات تسري في جسدها وترتجف، ويخرج من فرجها ماء كثير.. كان أبي مصدوما، هرع للحمام وأتى بالمنشفة، امتلأت بالماء، جاء بأخرى، وكانت بنفس الحال.. الماء لا يتوقف عن التدفق من فرجها.. كنت أرى كل ذلك وأنا عاجزة عن فعل أي شيء.. بقيت أمي هكذا حتى الفجر.. ثم هدأ كل شيء.......... بعد أيام أخبرتني أمي بأني مسحورة.. وبالرغم من أن أبي كان شيوعياً وكذلك أمي.. وهما لا يؤمنان بالدين وينظران إلى هذه الأمور كخرافات وشعوذة.. لكن ما رآه أبي من حالة أمي دفعه إلى أن يعيد النظر بالكثير من قناعاته الفكرية.. وتأكيدا لتحوله الفكري أخذني إلى

شيخ عجوز..... أتذكر لحيته الصفراء لحد الآن.. نظر الشيخ إليّ ثم إلى كتاب أمامه.. وقال لأبي: ابنتك مصابة بأقوى أنواع السحر.. سحر العشق.. وهو سحر لا علاج له... والدي طلب منه بأن يشفيني وسيدفع له ما يريد.. غضب الشيخ وقال بأنه ليس لي علاج..، وإذا بقيت على هذا الحال فسأذبل وأموت.. البعض من الساحرات والمشعوذات والسحرة أشاروا على والديّ بأن أعبر البحر ليخف مفعول السحر.. تصوري... والدايّ الشيوعيان يؤمنان بالسحر..!! طبعا أنا في تلك الاثناء لم أكن أعي أي شيء مما يجري حولي. أمي الروسية، الشيوعية، استنتجت بأن ذلك الشاب، حبيبي، بعث لها هي بجني فسكنها هي لكي يؤذيها.. لكنها كانت في داخلها إنسانة قوية جداً.. ولم تستسلم له فأخذ الجني يعذبها ويهددها.. لكنها كانت تقاومه..إلى أن خرج مع الماء من فرجها... تصوري.. خرج الجني مع الماء من فرجها.. من يصدق هذا..؟ المهم.. أهلي أخبروني أنهم وجدوا في حقيبتي المدرسية قطعة خشب.. ظنوا أنها جزء من السحر، فأخذها والدي ليحرقها.. واذا بها لا تحترق... هل تصدقين ذلك..؟ أشعل والدي النار، وألقى بتلك الخشبة في أتونها. هل تصدقين أنه من منتصف الليل إلى شروق شمس الصباح وتلك الخشبة وسط النار ولا تحترق..!! لدرجة أن قطعة الحديد التي كانت قطعة الخشب قد وضعت عليها قد ذابت بينما قطعة الخشب لم تحترق..

استمعت إيفا سميث إليها وهي غير مصدقة أي شيء مما يروى، لكنها كانت تتأمل وجه الفتاة، فربما تجد في ملامحها شيئاً من سمات الهلوسة..إلا أن الفتاة كانت تتحدث بوعي كامل، فسألتها من باب الفضول:

- وماذا جرى في ما بعد..؟
- سافرت مرغمة إلى موسكو.. ليس لشيء وإنما لأعبر بحراً، كما أوصى السحرة التي تمتلئ بهم بلادنا.. وأيضا لأبقى وأواصل دراستي.. وحين وصلت موسكو لم أكن أعي ما يدور حولي.. خالتي استقبلتني هناك.. لكني كنت أعيش في شقة والديّ.. لثلاثة أيام كنت أهذي ولا أعرف ماذا حصل لي... بعد فترة بدأت الدراسة.. لكني كنت أشعر بوخز في صدري.. وخز يكاد يخترق أضلعي.. كأن ثمة سكّيناً حادة في أعماقي.. تكرر الأمر كثيراً.. لكني برغم كل ما جرى لي..

لم أتمكن من نسيان حبيبي.. أو نسيان جريمة والدي في حقي بتسفيري إلى موسكو.. كنت مسحورة به.. لذلك عدت سراً لبلادي.. دون أن يعرف أهلي شيئا.. وذهبت إليه.. ثم ذهبنا معا إلى المحكمة وتزوجنا.. لكن الصدمة كانت حينما اكتشفت أنه لا يعمل، ويسكن مع والدته، ووالده شبه سكير.. وبعد شهر بدا مفعول السحر بالتلاشي.. وصرت أرى الأمور كما يجب.. فها أنا في منزل قذر.. لا أكاد أجد المال لشراء الملابس... ثم بدأ هو يخرج كل ليلة مع جماعة من المتصوفة.. ليمارسوا طقوسهم الغريبة.. لكن هناك تفصيل لم أخبرك به..

- ما هو..؟
- في موسكو.. بعدما سافرت إليها مبعدة من قبل أهلي.. وصلت لحالة نفسية متردية.. قلت لنفسي: طز في كل شي بعدما فقدت بكارتي؛ لذلك عاشرتُ رجالا لمجرد أن أثبت لنفسي أنني لست تحت وصاية المجتمع أو أي عرف أو تقاليد.. لكني لم أتمكن من الاستمرار، لأن حبيبي كان في بالي.. كنت حتى وأنا في تلك اللحظات الحميمة مع الآخرين أفكر فيه هو... كيف أشرح لك ذلك.. كانت ممارسة الجنس شبه يومية. كنت أعيش مع شاب يهودي، وفي الوقت نفسه إذا ما كنت في حفلة، لم أمتنع من ممارسة الجنس مع شخص آخر هناك.. ثم أعود الى صديقي اليهودي في الليل.. أتذكر كان هناك أيضا شاب يعزف في فرقة روك روسي، وكان هناك طيار.. وهناك فلسطيني.. حتى السائق الخاص لي، مارست معه في السيارة، بل وحتى في بيته، بالرغم من أنه كان متزوجاً.. المهم بالنسبة لي أن أكون مرغوبة ومشتهاة.. وكان هذا أمراً رائعا بالنسبة لي.. بقيت كذلك إلى أن جاء اليوم الذي فكرت فيه: الى أين سائرة أنا..؟ وماذا أريد من كل هذا..؟ لقد حصلت على كل أنواع الرجال الذين رغبت فيهم.. ماذا بعد؟ لا.. لا أريد. وتوقفت.. طردت الشاب اليهودي الذي كانت أمه تريد تزويجه مني.. وقطعت علاقتي بالطيار والفلسطيني ووووو. وصرت ألملم نفسي..... الفن كان دوائي وملاذي.. لكن بدأت أحس بوخز قوي في صدري.. وخز مؤلم.. راجعت الأطباء فلم يجدوا أي شيء مريب.. تدهورت حالتي النفسية.. حين تتبعت أمر الوخز الذي كان ينتابني في موسكو، علمت من أخت حبيبي الذي تزوجته بعدما عدت، بأنه كان يحرق البخور والأوراق

في نفس الأيام التي كانت تنتابني فيها الوخزات.. وكان يخبرها بأن سيجعلني أعـود إليـه.. وبالفعـل، بعـد حيـاة العربـدة المؤقتـة، بدأت أحن اليه، واسـتحوذ علـى كل تفكيـري.. هـل تصدقيـن ذلـك..؟......... روت لي ابنة خالتي في ما بعد بأنها كانت في زيارة لبيتنا في بلادي الخليجية أثناء وجودي في موسـكو، وكان أهلي قد أسكنوها في غرفتي من منزلنا.. قالت لي بأنها لم تستطع النوم في سـريري.. كانت تشـعر بأحدهم يمشـي في الغرفة.. بدأوا في تفتيش غرفتي لمعرفة السـبب أو لإيجاد أي أثر.. فوجدوا في أسـفنج سـريري، بعدما ازالوا الملاءات، دبابيس مغروزة بشكل معين في الزوايا.. لا أحد يعلم كيف وصلت إلـى هنـاك.. وبعـد أن أزالوهـا، تمكنت بنت خالتي من النوم في الغرفة وكذلك لم تعد تحس بوجود أي شخص يمر في الغرفة...... هل تصدقين ذلك..؟... بل أتذكر أن والدتي كانت تملك بعض الشـموع الصفراء كتلك التي يشـعلونها فـي الكنائـس، ورغـم أنهـا كانت تكرر دائما بأن الدين أفيون الشـعوب..إلا أنها أشعلت ذات ليلة شمعة واقتربت من باب غرفتي.. المذهل في كل هذا هو أنها ما أن تصل إلى باب غرفتي لتمسك بمقبضه كي تفتحه حتى تبدأ الشمعة المتقدة بالفرقعة والاشـتعال كما لو أنها ليسـت شـمعة وإنما لعبة من الألعاب النارية.. وحيـن تبتعـد أمـي عـن البـاب تعود الشـمعة إلى الإتقاد الهـادئ.. بل إنها حين ترفع الشـمعة بمحاذاة الحائط تكون الشـمعة عادية، لكن ما أن ترفعها لمسـافة معينة، حتى تبدأ الفرقعة من جديد.. وقد لاحظت أمي بأن الارتفاع الذي تفرقع عنده الشمعة هو طول قامتي بالضبط.. لذلك أطفأت الشمعة، ثم دخلت عليّ، وأخذتني من يدي، وخرجت بي من الغرفة، أوقفتني.. ثم أشـعلت الشـمعة من جديد وأخذت تمررها حولي..، وإذا بالشمعة لا تتوقف عن الفرقعة.. لكن ما أن تبعدها عن دائرة جسـدي حتى تعود الشـمعة للهدوء، بل لشـبه الانطفاء... هذا رأيته بأم عيني ولا أجد تفسيرا له سوى السحر..

لـم تكـن حـواء سـميت تفهـم ما الذي تريده هذه الفتاة مـن رواية قصتها تلك، ولم تصدقها، لكنها تعاطفت مع معاناتها، ومع جرأتها في الحديث عن نفسـها بهذا الشـكل المكشوف، فسألتها من باب المجاملة وكأنها تريد أن تنتهي من هذه القصة الغريبة:

- وماذا جرى بعد الزواج..؟

- بعد الزواج.. أجلسني ذات يوم أمامه.. وأخذ يحكي لي عن كل رجل مارست معـه الجنـس فـي موسـكو.. كان يخبرني عن أوصافهـم.. قال لي إني ضاجعت رجلا أشقر، ذا شعر طويل، ومرة ضاجعت طياراً التقيت به مرة واحدة ولم يرق لي... وهكذا.. صدقيني أنه حكى عن علاقاتي الخاصة وكأنه كان معي.. لكني بعد الزواج بدأت أعي ورطتي.. انتبه هو لحالتي.. عندها بدأ يهددني إن فكرت أنـا بالطـلاق.. عندهـا سيرسـل جنّياً ليعذبنـي.. لكن الغريب أنني لم أعد أرغب فيه.. وهنا بدأت علاقتنا الجنسية تأخذ طابع الاغتصاب.. والإهانات والإحتقار والإكراه.. لكني لم أستسـلم.. هربت مرات عدة إلى المحكمة طالبة الطلاق.. لكن القضاء في بلداننا يقف إلى جانب الرجل..

أحسّـت إيفا سـميث بالتعاطف معها إنسـانيا بغض النظر عن تصديقها للحكاية أم لا، فسألتها:

- طيب.. وأهلك.. ألم ينتبهوا لوجودك في البلاد.. ألم يساعدوك..؟
- بلى.. عرفا بهروبي من موسكو وتورطي في الزواج.. وحينما عرفا أني أريد الطلاق وقفا إلى جانبي..إلا أن زوجي أشتكى في مراكز الشرطة وفي المحكمة ضد والدي.. فسُجن والدي بتهمة تحريضي على الطلاق.. العجيب أن القاضي كان يصدق كل أكاذيبه..

راودت إيفا سميث رغبة في نسف الحكاية من أساسها وتفنيدها، فقالت لها:

- لكن كيف سحرك في البداية، ولم يستطع أن يسحرك في ما بعد، وأنت تعيشين معه وفي بيته..؟

ارتبكت الفتاة قليلا.. ثم قالت بتردد:

- لا أعـرف بالضبـط.. ربمـا لأنـه ظـن بأنـه امتلكنـي للنهاية..؟ أو ربما صرت أنا أقوى من سـحره لأني وجدت القوة الداخلية لأقاومه.. بحيث لم يسـر السـحر أكثر..؟ لا أعرف بصراحة. كان غريب الاطوار..
- وكيف انتهت الامور بينكما..؟
- أذكر أنه بعد شهر رمضان الذي تلا زواجنا بدأت أصحو لنفسي.. كنت حبيسة البيت.. كان هو ينام والسكين تحت وسادته.. كنت أعيش رعبا حقيقياً.. ثم بدأ هو يجمع الملابس المستعملة من الناس لينقلها الى فقراء في بلد ما.. أو يبيعها

هناك.. لا أعرف.. فهو يجمعها بإسم الفقراء.. المنزل امتلأ بالملابس كالجبال. بعدها قال لي: إذا كنت تريدين الطلاق فليدفع لي والدك مبلغا.. وسمّى لي رقما..إلا أن المبلغ كان كبيراً جداً.. المهم بعد مداولات وافق على تطليقي بمبلغ أقل بكثير.. لكنه لم يتركني بحالي.. إذ نفذ وعده بأن أطلق جنيا خلفي.. لكن هذا الجني يظهر لي في غرفتي.. أسمع صوته وهو يتغزل بي.. أخبرني بأنه أُرسل لأذيتي..إلا أنه أحبني.. لذا فهو يتبعني في كل مكان.. حتى لو سافرت خارج البلاد.. ففي النهاية أنهم يتنقلون بلمح البصر.. كما أنهم، أقصد الجن، ليسوا مواطنين في بلد معين..

نظرت إيفا سميث إليها وكأنها تروز هذه التي تجلس أمامها إن كانت بكامل قواها العقلية أم لا، وإلا من يؤمن ويتحدث بكل هذا الهراء..!! فسألتها بنبرة من لم يصدق اي شيء:

- وماذا فعلت بعد الطلاق..؟
- بعد الطلاق سافرت الى إيطاليا.. إلى فلورنسا.. التقيت بفنان عراقي.. مارسنا الجنس في الفندق، كنت أريد التأكد من أن هذا ما أريده حقا..؟ وهل يمكنني أن أكون امرأة طبيعية في الفراش مع الرجال أم لا..؟ فيزيائيا كان كل شيء ممتاز.. لكني لم أجد العمق الذي أريده.. فتركته.. سافرت إلى الولايات المتحدة الأميركية.. وهناك.. في أميركا غصتُ إلى الأعماق في الدين.. وتحجبت.. أحد الشيوخ، الذي كان من معارف أهلي، تزوجني زواجاً عرفياً.. كان يحبني.. لكني لم أستطع الإستمرار معه أيضاَ.. ثمة أمر ما كان مفقودا.. كما كنت أحس بوجود هذا الجني الذي يكبس على عالمي..
- ماذا فعلت في أميركا..؟
- درست الفن لسنتين.. لكني تعرفت هناك على شخص كان يزور أميركا كسائح فأحببته.. كان هذا الرجل يعيش في السويد.. لذلك تركت أميركا وهاجرت إلى السويد.. وفي السويد حاولت أن أدرس الفن.. قدمت أوراقي.. الوثائق التي تتضمن درجاتي التي حصلت عليها في أميركا.. لكنهم رفضوني.. بسبب الحجاب.. أخبروني بأني لن استطيع أن أستمر بدراستي بسبب الحجاب.. قالوا لي كيف سترسمين موديلاً، رجلاً عارياً، وأنت محجبة..؟! لكني خلعت

الحجاب.. لم أخلعه في السويد استرضاء للسويديين.. وإنما خلعته حينما عدت لبلدي.. الخليجي.. خلعته إحتجاجاً، لأني اكتشفت تفاهات كثيرة وجرائم تقام باسم الدين.. كان هذا الأمر صدمة لأهلي وأقاربي..

- وماذا تفعلين هنا في دمشق..؟
- هل صدقتني الآن.. بأن هناك شيئاً ما يتبعني..؟
- لا أعرف.. لم أقل إني أصدقك أو لا..، لكن ماذا تفعلين هنا في دمشق..؟
- اكتشفت أن لي أخاً..
- ماذا..؟

لم تنتبه المرأتان إلا بوجود المرأة التي قابلت إيفا سميث عند باب المصعد ومعها رجل في حدود الخمسين من العمر، وسيم، طويل القامة، يقفان عند طاولتهما، فرحبت هي بالمرأة، وقدمت الرجل إليها بأنه آدم الشامي، المسؤول الأول في الفندق، وهو الذي يدير المطاعم والملاهي ومتعهد الحفلات في الفندق وفي سلسلة فنادق أخرى، فرحبت بهما.

أخبرتها صديقتها بأنها انتظرت عشرين دقيقة، وحينما يئست من مجيئها خرجت مع الأستاذ آدم الشامي.. واتفقتا على اللقاء مساء. فجأة، بادر المدعو آدم الشامي لدعوتها الى المطعم الإيطالي في الثامنة.. إذ هناك الليلة سهرة حافلة.. لم تعط إيفا سميث وعدا قاطعا، إذ شرحت لصديقتها ومرافقها بأنها جاءت إلى دمشق من أجل صديقتها التي ترقد في إحدى المستشفيات بالعناية المركزة.. وستزورها عصرا.. ولا تعرف برنامجها المسائي.. لكنها ستلبي الدعوة بالتأكيد إذا تمكنت من ذلك.. فودعهما ومضيا.

توترت الفتاة الخليجية، لأنها أحسّت وكأنما هناك من قطع عليها هذا الدفق اللغوي وهذا البوح الذي بدا وكأنها متلهفة لسرده؛ كي ترتاح من عبء ثقيل، فلم تترك فرصة لإيفا سميث، استأنفت سرد حكايتها مسترسلة:

- هل استمر..؟
- استمري.. أنا أسمعك..
- لقد اتصل بي أهلي وأخبروني بأن لي أخاً.. غير أخي الذي تربيت معه.. باختصار، عندما كانت أمي حاملا للمرة الثالثة.. سافرت إلى موسكو لتضمن

الولادة السليمة.. فدخلت هناك المستشفى..إلا أن الطفل ولد قبل أوانه.. ولد خديجاً.. فقالوا لها إنه قد مات.. ولم تستطع أن تراه.. فهناك في موسكو يأخذون الطفل من الأم بعد الولادة مباشرة.. وخاصة في حالة ولادته غير الطبيعية؛ لذا لم يسمحوا لها برؤية الطفل.. وطبعا كان لزاما عليها أن تغادر المستشفى بعد يومين..إلا أنه لم يكن ميتا..

فجأة أحست إيفا سميث بالتعاطف معها..إذ تذكرت على الفور أنها هي أيضاً قد فقدت جنيناً لها.. مات في رحمها في الأشهر الأولى، لكنها ظلت لأشهر حزينة جداً عليه.. لذلك وجدت نفسها تنفعل قائلة:

- أووففففف.. وبعدين..
- كانوا حينها يقومون بالتجارب على أطفال الأنابيب.. وكان أخي من ضمن الأطفال الذين لم يموتوا أثناء التجارب.. لكن كيف لهم إبلاغ والدتي..إنها جريمة.. وفضيحة سياسية.. لاسيما وهم يعرفون بأن الأب أجنبي.. ويمكن أن تنتشر القضية عالميا.. لذلك لم يبلغوها، و وضعوا الطفل الذي هو أخي في ملجأ للأيتام... ربما قصته يمكن أن تكون فيلما هندياً..

انتاب إيفا سميث فضول في تتبع هذه القصة التي ثارت فيها مشاعر الأمومة، وأحزاناً قديمة، فسألت:

- وكيف عرفتم..؟
- حدث صدفة حينما قامت صحافية بكتابة تحقيق عن ملاجئ الأيتام.. ووجدت أخي هناك.. فكتبت مقالة عن لقائها بطفل عمره ثلاث سنوات.. من أب أجنبي.. تركه أهله في دار الأيتام.. وأخذت تنتقد الأجانب.. وتدافع عن الدولة التي ترعى الأطفال اليتامى..
- وبعدين..؟
- والداي.. كانا في بلادنا حينها..إحدى خالتيّ قرأت المقال.. ثم أرسلته لأمي من باب الفضول.. حيث كانت ترسل لها بين فترة وأخرى صحف ومجلات روسية..
- وبعدين..؟ لماذا لم تأخذه خالتك..؟
- لا أعرف.. لم تكن تعتقد بأنه ابن أختها.. المهم..إن أخي كان يعلم أن أباه

أجنبـي.. لكـن لا طريقـة للوصـول إلى الوثائق، لاسـيما وأن الصحفية حينها لـم تصرح بالأسماء. كان ذلك خلال المرحلة السوفيتية.. لذا كان من الصعب جداً الوصول إلى الوثائق..

- ومتى بدأ أخوك البحث..؟
- بعدما كبر.. وبعد سقوط الإتحاد السوفيتي.. كانت الأوراق في الملجأ سرية، لكنه عثر على الصحيفة التي نشرت المقال.. بل ووصل إلى الصحافية التي كان مركزها حساسـا، وصعب الوصول لها أيام النظام السـوفيتي.. لكن المقال كان حينها قد دق جرس الإنذار في قلب والدتي فهي لـم تستلم أية شهادة وفاة، بل ولا شهادة ميلاد للطفل من المستشفى.. ولم يسمحوا لها برؤية الجثة.. كانت تملك إحساس الأم بأن ثمة شيئاً ما غير صحيح في أمر ولادتها، وفي ما يخص طفلهـا.. أتذكـر مـرة كنـت صغيرة جداً دخلت على والدتي فجأة، كانت تبكي.. نظرت إليها باستغراب.. لكنها قالت لي بالروسية: أحس أن أخاك لايزال حياً.. لم أفهم حينها.. لكنها لم تعقب ولم تضف كلمة أخرى بعدها بتاتاً.. الآن بعد هذه السنين فهمت ماذا كانت تقصد..
- كيف وصلتم إليه..؟
- بعد سقوط الإتحاد السوفيتي كُشف عن الوثائق السرية.. اتضح أنه في وثائق دار الأيتام قد تم تبني أخي من قبل امرأة تملك مزرعة.. وفي تلك الفترة كان تبني الأطفال لا يدخل في باب الإحسان بقدر ما كانت دوافعه اقتصادية.. فكلما تتبنـى عائلـة أطفـالاً أكثـر، تحصل على مسـاعدات حكومية أكثر.. وهكذا انتقل أخي للعيش مع عشـرة أطفال آخرين، حيث عاشـوا كالعبيد.. وفي أحد الأيام سـمع والدتـه بالتبنـي تتحـدث لأحدهـم عنه وعـن أبيه الأجنبي.. فـأراد التأكد، لكـن مـا مـن وثيقـة تؤكـد ذلك.. ثـم أن حريقاً اندلع في المنزل الخشـبي الذي كان يضـم مـا تبقـى مـن وثائـق الملجـأ، فقضى على كل ما يمكنـه اثبات هويته إن كان لهـا وجـود أصـلاً.. لكـن أخـي، وهربـاً من جحيمه، تطـوع في الجيش، هـذا الجيـش الـذي كان الشـبان الـروس يكسـرون أرجلهـم ويصيبون أنفسـهم بالعاهات؛ كي يتفادوا الانخراط فيه.. هو ذهب إليه بمحض إرادته.. كان يريد أن يملـك حريـة أكبـر.. وفعـلا.. كان فـي أيام إجازته يذهب إلى المدينة لإجراء

الاتصالات.. كان يتذكر أمر الصحافية التي نشرت المقال عن الملجأ.. بحث في أرشيف الصحف القديمة فوجد اسم الصحيفة.. وعرف اسم الصحافية.. وبطريقته حصل على رقمها.. فاتصل بها.. أنكرت في البداية كل شيء، وأقفلت سماعة الهاتف في وجهه.. لكنه لم ييأس إذ اتصل بها مجددا، كانت تتهرب منه..إلى أن هددها.. خافت.. أخبرته أنها لا تملك أية معلومات ولا تتذكرها.. طلب منها أن يعرف من هو..؟ وكيف صار في الملجأ..؟. فنصحته بالذهاب إلى أرشيف موسكو المركزي.. ذهب للأرشيف، وبعد البحث لأيام.. لم يجد لنفسه أي أثر.. فلا وجود لأي إثبات يؤكد أنه ولد في المستشفى المعين ولا التاريخ ولا اسم الأم.. لم يكن له وجود!... عاود الإتصال بالصحافية.. كانت خائفة جداً.. لأنها كما يبدو أضافت الكثير من خيالها على القصة المنشورة لدرجة أنه يمكن مقاضاتها قانونيا.. فطمأنها أخي مؤكدا بأنه لا يريد منها شيئا سوى معرفة الحقيقة، ويريد أن يعرف إن كانت أمه لا تزال على قيد الحياة، وأنه ليس لقيطاً.. الصحافية أخبرته بأنها لا تملك أي دليل أو معلومات عن عائلته سوى رقم تليفون خالته.. أعطته رقم خالتي الكبرى التي كانت مع والدتي حينما أدخلتها المستشفى للولادة.. وقالت له إنها ستختفي من البلاد.. بعدها اتصل هو بخالتي.. أغمى على خالتي حين قال لها معرفاً بنفسه: أظن أنني ابن أختك إيفا شوكشينا، الذي مات أثناء الولادة..؟ لم يكن أحد يصدق.. أمي فقط كان لديها إحساسها الأمومي.. على الرغم من عدم وجود أي دليل على بقاء طفلها على قيد الحياة..

- وهل قابلتموه..؟
- بعد أن اتصل بخالتي.. اتصلت هي فورا بأمي.. سافرت أمي إلى موسكو.. التقته.. أيقنت أنه ابنها مباشرة من أول نظرة لها إليه.. بدأت مرحلة تسريحه من الجيش بدفع الرشاوى وبالتوسلات، لكن كان هناك ضابط تفهم الوضع وساعد أمي كثيراً، طبعا كل هذا وأنا كنت حينها في السويد.. لكن لا أحد قد أخبرني.. لإعتقادهم أنني لست في وضع نفسي مستقر.. وربما هذا الأمر سيكون صدمة لي.. وحينما رجعت لبلادي.. قال لي أبي: أنا وأمك نريد أن نتحدث معك في أمر مهم جداً.. ثم أعطاني صورة فوتوغرافية وسألني: من

هـذا؟ تأملـت الصـورة وقلـت له: هذا ليس أخي لكنه يشـبهه كثيراً.. أمي كادت لحظتها تختنق بعبرتها، فسارع أبي قائلا: صحيح، هذا ليس أخاك.. لكنه أخوك أيضا.. كانت صدمة.. لكني عرفت أنها الحقيقة من تعابير والدي.. ثم أخبراني بأنه الآن في شـقتنا بموسـكو.. لذا أنا الآن هنا في دمشـق كي أتوجه إليه غداً.. لأراه.. أمي وأبي وأخي الآخر سيأتون بعدي بأسبوع.

سـاد صمت بينهما. لم تقل الفتاة شـيئا آخر. كانت تنتظر من إيفا سـميث أن تعلق، إلا أن إيفا سـميث كانت مثقلة بعبء هذه الكم من المعلومات والأحداث المتناقضة. طال إنتظار الفتاة لرأي إيفا سميث، وحينما استمر الصمت أطول نهضت فجأة، ابتسمت لإيفا سميث ابتسامة حزينة.. مدت يدها مصافحة.. قائلة:

- أشكرك لأنك تحملتني كل هذا الوقت.. واستمعت لي بصبر.. ولا أدري إن كنت قد صدقتني أم لا.. لكن مهما يكن أشكرك جداً على استماعك لي.

مضت نحو جهة المصعد ثانية من حيث أتت. انتبهت إيفا سميث إلى أن الفتاة لم تمس كأس الماء أبداً. ظلت إيفا سميث تتبعها بنظراتها المتأملة. أحست بالذنب لأنها خيبت أملها بعدم التعليق على قصتها..

لـم تمـض إلا دقائـق حتـى اقتربـت منهـا النادلـة مـرة أخرى وسـألتها إن كانت تود شيئا، فطلبت منها فنجان قهوة تركية آخر. لم تكن النادلة قد جاءت بفنجان القهوة بعد حينما لمحت إيفا سميث المرأة العراقية حواء ذوالنورين مقبلة نحوها. انتبهت إلى أنها قد غيرت ملابسـها. رفعت رأسـها نحوها وابتسـمت لها بمودة. أحسـت بشـعور غامض يجذبها نحو هذه المرأة، لم تدرك سره، ربما كثافة الحزن والارتباك والتردد الذي يشع من ملامح وجهها، وربما لأناقتها، أو بسبب الخطر الذي واجههما في المصعد والذي قرب بينهما نفسيا..، هي لا تدري بالضبط لماذا..؟ لكنها تعرف أنها ارتاحت لها وتود التعرف بها خلال أيام وجودها القليلة في دمشق.. بالرغم من ظل الحزن الذي خلفته حكاية الفتاة غريبة الأطوار، والمجهولة.

اعتذرت حواء ذوالنورين عن تأخرها كل هذا الوقت، وحينما جلست على الكرسي المجاور لكرسي إيفا سميث انحنت اليها وقالت لها بهمس:

- لقد قابلت صاحبتنا الخليجية..
- لقد كانت جالسة معي.. روت لي رحلة مليئة بالسحر..

- ماذا..؟ الممسوسة..؟هل كانت هنا..؟

سألت حواء ذوالنورين بفضول.

- لا عليك.. سأحكي لك كل شيء..

وأشارت بيدها للنادلة بأن تأتي.

* * *

أطبقت حواء الكرخي باب غرفة النوم بهدوء بعد أن أطعمت الرضيع هابيل حليبا وأرقدته في مهده. جلست على كرسي مقابل التلفزيون في الصالون الضيق. كانت قد قابلت مع المدعو آدم أبوالتنك صاحبة الشفة المفروشة، ووقّعت عقد الإيجار الذي كانت قد هيأته المؤجرة حسب المعلومات التي زودها بها الأخير، كما استغلت وجوده معها فنزلت إلى البقاليّة التي قرب المنزل فتزودت بما يلزمها من مواد بيتية أساسية،وكذلك مسلتزمات الطفل من علب الحليب المجفف والحفاظات وأشياء أخرى لفترة طويلة. وها هي الآن بعد أن غادر وأطعمت الطفل تجلس وحدها يغمرها شعور بأنها في أمان.

الهدوء الذي يهيمن على الشقة دفعها للتفكير بنفسها، وبما جرى لها خلال الفترة القليلة التي عاشتها في العراق، لاسيما الأيام الأخيرة التي تعرفت خلالها بحواء الزاهد أم هابيل، وكل ذلك الكابوس منذ اعتقال مدير المدرسة قابيل الفهد، وحتى اغتيال حواء الزاهد وابنها الأكبر آدم الملاك، ونجاتها العجيبة هي من ذلك الهجوم المنظم، ثم رحلتها إلى دمشق ولقائها بحواء ذوالنورين الغامضة.

استرجعت سنواتها السابقة التي عاشتها في دمشق أيضا حينما هربت مع زوجها من العراق أيام حكم النظام الدكتاتوري لتتشرد سنوات طويلة انتهت بسقوط ذلك النظام من قبل الأميركان، لكن ها هي تهرب من وطنها ثانية تحت ظل حكم ضحايا الأمس وطغاة اليوم..

ظلت حواء الكرخي تمخر في عباب بحر الذكريات، تتلاطمها أمواجه العنيفة، مخلفة في روحها ملوحة خانقة، لكنها سألت نفسها سؤالاً أحست بالخوف منه وبإنقباض في نفسها: ماذا ستفعل بهذا الطفل هابيل الرضيع..؟.

ظلت لفترة ليست بالقصيرة تبحث عن جواب يريح ضميرها المعذَب وروحها القلقة وغضبها النبيل.. لكنها لم تجد أي جواب يرضيها، فقد كانت ذكرياتها مع حواء

الزاهـد أم هابيـل تحاصرهـا، وتفاصيـل عمليـة اغتيالها مع ابنها الأكبر آدم الملاك تنبض حية وكأنها حدثت صباح هذا اليوم.. كل ذلك كان يفجر الحنان والشفقة نحو الصغير هابيل في قلبها، لذلك رفضت فكرة ترك الطفل في دار للإيتام أو تسليمه لعائلة، على الرغـم مـن أنهـا لـم يرد في ذهنها سـوى هذين الحلين لوضـع الطفل.. وبدون أي تردد ألغـت فكـرة التخلـي عنـه وقـررت أن يبقـى معها وأن تقوم هـي بتربيته، وأن تبحث عن وسيلة لإستحصال وثائق ثبوتية له.

5

أسـرار حـواء دمـشقيـة المفضـوحـة

انتبهت إيفا سميث إلى أن أم صديقتها حواء دمشقية كانت مرتبكة جداً عند مجيئها إلى الفندق؛ كي تذهب معها إلى المستشفى. أحسّت بعد لحظات من تعارفهما إلى أن هذه المرأة تخفي شيئا ما؛ فسألتها إن كان ثمة شيء خطير حدث لابنتها..؟ فأجابت الأم بإنكسار بأنها تحس بتأنيب ضمير كبير أمامها.. استغربت إيفا سميث قولها، وحينما طلبت أن توضح لها ما تقصده، أخبرتها الأم أن إبنتها حواء إنتحرت قبل أسبوع، ونقلت إلى العناية المركزة فعلاً، لكنها خرجت بعد ثلاثة أيام.. وهي الآن في الشقة وليست في المستشفى.. وأوضحت الأم بأنها أرادت أن تتصل بها في باريس؛ كي تخبرها بذلك لكن ابنتها أخبرتها بألاّ تفعل.. لأنها تحتاج أن تحدثك وجها لوجه.

صُدمت إيفا سميث من هذه المعلومات، وكتمت في نفسها غضباً، أحست أنها اُستغفلت وخُدعت، لكنها بطبيعتها مخلصة في تقديم المساعدة، وللباقتها ولطفها الطبيعي؛ لم تبد شيئاً من ذلك، فقد كتمت ذلك في نفسها، وقالت للأم بأن المهم أن صديقتها قد تعدت مرحلة الخطر. وذهبت معها إلى الشقة التي تقع في منطقة مساكن برزه.

تقع الشقة في الطابق الأخير من بناية تتألف من خمسة طوابق. بناية حديثة البناء قياساً بما يحيطها من مباني. حينما وصلتا إلى المصعد انتبهتا إلى رجل أشقر وسيم بملابس سوداء غريبة الطراز، بنطلون أسود وسترة طويلة حتى الركبتين تقريباً، موشاة بتطريز يذكر بملابس الهنود الحمر وتنتهي بياقة قائمة مقفلة عند الرقبة، ويحمل بيده كتابين أحدهما أخضر الغلاف كبير الحجم والآخر أزرق الغلاف من القطع الصغير لكنه سميك جداً. حين وصلتا ابتسم لهما، لكنهما لم تردا على ابتسامته بمودة. ما أن رأته إيفا سميث حتى أحست براحة نفسية، وزال عنها توترها وعصبيتها، بينما توجست

الأم منه وأخذت ترمقه بنظرات غريبة متفحصة.

لم يتبادلوا أية كلمات حينما كانوا في المصعد. إيفا سميث كانت تحس بإنجذاب خفي نحوه.. انتبهت إلى أن الكتابين هما القرآن الكريم والكتاب المقدس. أرادت أن تتحدث معه، لكنها ترددتْ لوجود أم صديقتها. في الطابق الثالث خرج الرجل الأشقر الوسيم. أحست إيفا سيمث بإحباط خفي لخروجه. وما أن استمر المصعد بالصعود حتى سألت:

- هل هذا هو الرجل الأشقر الوسيم جاركم..؟

فقالت الأم بريبة:

- لا.. لأول مرة أراه في بنايتنا.. والغريب أنه خرج في الطابق الثالث..؟
- وماذا في ذلك..؟
- لا أحد يسكن في الطابق الثالث..؟
- ماذا..؟ كيف لا يسكن أحد..؟
- هناك شقة سافر أصحابها إلى الخليج ولا يستأجرونها؛ لأنهم دائماً يأتون مع أبنائهم في عطلة المدارس صيفاً وشتاء.. وفي الأعياد.. أما الشقة الثانية فقد حدث فيها حريق قبل فترة.. ولولا رحمة الله؛ لكانت العائلة كلها قد احترقت.. والشقة الآن مهجورة بالكامل؛ لأن أصحابها يريدون بيعها فهم لا يملكون المال الكافي لترميمها..
- غريب.. ربما هو تائه..؟
- ربما.. فهو ليس من سكان البناية..
- لكنه شخص غريب.. يحمل القرآن والكتاب المقدس معاً..
- هو كله على بعضه غريب!

أمام باب الشقة وقبل أن تدخلا طلبت الأم من إيفا سميث أن تسامحها على ما حصل منها بعدم الإتصال بها لإخبارها بالحقيقة.. فابتسمت إيفا سميث بمرارة.. وقالت لها عليها أن لا تفكر بالموضوع أكثر من اللازم.. فهي الآن موجودة في دمشق لرؤية ومساعدتها صديقتها.

حين دخلت إيفا سميث إلى الغرفة التي ترقد فيها صديقتها وجدتها نائمة.. جلست على كرسي قريب من سريرها من ناحية الرأس وأخذت تتأملها للحظات.. كان وجه

حواء دمشقية شاحبا جداً، وآثار تشنجات بادية على ملامحها وأطراف شفتيها.. وكانت الأم واقفة قربها. فجأة، فتحت المريضة عينيها.. ورأت إيفا سميث جالسة قربها؛ فلم يكن منها سوى أن تلقي بنفسها نحوها محاولة احتضانها، إلا أن إيفا سميث أسرعت إليها متجهة نحوها، محتضنة إياها أيضا. ظلتا على هذه الحال للحظات، ثم انفكتا عن بعضهما.

انتبهت المريضة إلى وجود أمها؛ فطلبت منها برفق أن تتركهما، ولم يكن أمام الأم سوى مغادرة الغرفة، ليس فقط استجابة لرغبة ابنتها، وإنما أيضا احتراماً للزائرة التي جاءت من باريس تلبية لرغبة ابنتها التي أقدمت على الإنتحار؛ فهي صديقتها الحميمة منذ سنوات، ومكمن أسرارها منذ أن كانت ابنتها تدرس في باريس.

ما أن تأكدت المريضة حواء دمشقية من مغادرة أمها الغرفة وإغلاقها الباب حتى دب النشاط في روحها وجسدها؛ فحاولت أن تجلس متكئة على الوسادات، إلا أن إيفا سميث لم تدعها أن تفعل ذلك، وإنما اقتربت هي منها جداً، وجلست على السرير عند رأسها.

مرت لحظات صمت ثقيل ومشحون بينهما. ظلتا تنظران إلى بعضهما البعض وكأنهما تحاولان أن تتحدثا بلغة العيون وتقولا كل شيء عبر نظراتهما، لكن يبدو أنهما كانتا مضطرتين إلى أن تشرحا كل شيء بالكلام؛ فسألتها إيفا سميث قائلة:

– لماذا فعلتِ بنفسك هكذا..؟ لماذا فعلت بنفسك هكذا..؟ ما الذي دفعك إلى أن تقدمي على هذه الخطوة المجنونة..؟ ألم نتفق بأن أي رجل في الدنيا لايستحق أن تنتحر المرأة من أجله..؟ ألم نتحدث عن هذا الأمر مراراً..؟ لقد ظننت أنك بعودتك إلى سوريا قد طويت صفحة آدم المفتي الذي منحته أجمل سنوات عمرك، وامتص رحيقك مثل أيّة وردة.. ثم رفضك بحجة أنه مصاب بفوبيا الإرتباط.. وإنه يخشى الزواج والإرتباط بأية امرأة.. لأن حضرته يشعر بأنه سيختنق.. وكانت حجته بأنه لو تزوجك؛ فسيكرهك؛ لأنك دفعته إلى إتخاذ خطوة مرعبة ومدمرة كالزواج..؟.. لقد ظننت بأنك بعد مرور هذه الأشهر الثلاثة قد نسيته فعلا.. خاصة وأنك لم تتصلي بي خلال كل هذه الفترة.. وأنا قدرت ذلك.. صحيح أني سافرتُ لمدة شهر مع زوجي والأطفال إلى لاس فيغاس لزيارة أهله هناك.. لكني قلت لنفسي قانعة إياها بأن صديقتي الجميلة حواء

دمشقية قد أثبتت أنها قوية فعلا.. وأنها أنهت بشجاعة وحزم علاقة غرامية امتدت لثماني سنوات، تخللتها الأفراح والأتراح.. فما الذي جرى..؟ أخبريني.. ما الذي جرى ودفعك إلى هذه الخطوة السوداء..؟!

كانت الدموع تترقرق في عيني حواء دمشقية، ثم انساب من إحدى عينيها خط دمع، مسحته بكفها كأنها تخجل من دمعها.. ارتجفت شفتاها.. لكنها لم تستطع أن تكابر أكثر؛ فوضعت فجأة، دون توقع إيفا سميث، إحدى ذراعيها على وجهها وراحت تنتحب بمرارة.

استمرت حواء دمشقية تنتحب لدقائق. أحست إيفا سميث بإنقباض في صدرها؛ إذ حدست بأن الأمر أكبر من شوق عاشقة لعشيق.. ظلت صامتة.. مصدومة.. تنتظر من صديقتها إيضاحا لأسئلة أخذت تزدحم في ذهنها.. أسئلة عن سبب الإنتحار.. عن سر هذا النحيب المر.. عن لغز دعوتها للمجيء إليها من باريس، وهذه الكذبة بأنها لا تزال في قسم العناية المركزة بينما ترقد هي في البيت، لاسيما وأنها تعرف وضعها العائلي، فهي أم لطفلين صغيرين.

- أنا حامل..

- مـاذا..؟

صرخت إيفا سميث قافزة من مكانها.. نهضت وجلست على الكرسي الذي قرب السرير، ثم انتبهت إلى أن الأم تقف خارج الغرفة وربما تتنصت لحديثهما، فحاولت أن تكتم صوتها ما استطاعت. وسألت ثانية:

- ماذا تقولين..؟ ومنذ متى عرفت بذلك..؟ وهل هو يعـرف..؟

ما أن انتهت إيفا سميث من جملتها الأخيرة؛ حتى أخذت حواء دمشقية تنتحب أكثر وأخذت تحاول أن تكمم فمها بذراعها؛ كي لايعلو صوتها.. ظلت إيفا سميث مصدومة من الخبر.. بعد لحظات قالت حواء دمشقية شيئاً كان له وقع الصدمة على إيفا سميث:

- الجنين ليس منه.. وإنما من غيره..؟

لم تستطع إيفا سميث أن تصرخ؛ فقد ماتت الصرخة على فمها، بل كانت الصدمة صاعقة ضربتها؛ فلم تستطع أن تقول شيئا. ظلت تنظر برعب ممزوج بالذهول إلى صديقتها الراقدة أمامها، والتي أحست للحظات بأنها لا تعرفها، وأنها غريبة عنها..

لقد غادرت هذه الراقدة أمامها باريس قبل ثلاثة أشهر، بعد أن أخذت إجازة مرضية

طويلة من عملها في إحدى الإذاعات الفرنسية العربية، وعادت إلى سوريا؛ بحجة أنها أنهت علاقتها مع عشيقها التي عاشت معه لسنوات منذ أن جاءت طالبة إلى باريس لتدرس العلوم السياسية في إحدى جامعاتها.. وكانت خلال علاقتها الطويلة مع اللبناني آدم المفتي قد أجهضت مرتين، وكانت كل مرة تتقصد هي بأن تحمل منه مستغفلة إياه، وذلك من أجل أن تدفعه للإرتباط بها، إلا أنه كان واضحاً معها منذ البداية، بأنه لا يريد الإرتباط ولا الأطفال.. وخيرّها في حينها بين أن تبقى معه أو تبتعد.. فقررت مواصلة العلاقة معه.. لكنها بمرور السنين أحبته حباً جارفاً، إذ ضحّت بعدد من الخاطبين الذين جاءوا عن طريق الأهل، كما رفضت الكثير من عروض الصداقة والحب من قبل بعض المحيطين، بينهم من هم أغنى وأكثر وسامة ووجاهة وأفضل وضعاً اجتماعياً من عشيقها..إلا أنها لم تكن تفكّر سوى بالمدعو آدم المفتي.. وحسبما تعرف هي أنها غادرت باريس بعد شجار قوي بينهما حول الارتباط ومستقبل علاقتهما؛ فكيف تكون حاملاً من غيره..؟ من هو هذا الذي حملت منه..؟ متى..؟ وكيف..؟ هل هذا يعني بعد أن رجعت إلى سوريا ألقت نفسها بين أحضان رجل آخر؛ كي تنسى آدم المفتي.. وهكذا حملت..؟ لا. لا. لا بد أن تتكلم.. هي ليست آخر من يعلم؛ وإلّا فلماذا أرسلت تطلبها من باريس..؟ إنها لا تقبل أن تكون تلك الحمقاء التي لبت نداء الصداقة؛ فتركت عائلتها وطارت إليها من باريس.

أحست إيفا سميث بتصاعد أمواج الغضب في نفسها؛ إذْ سكنها إحساس بأنها قد خُدعت واستغفلت بطريقة ساذجة. نظرت إلى صديقتها وقالت لها بحزم واضح لا يحتمل المجاملات:

- أنت مطالبة أمامي بتفسير لما يجري.. لماذا طلبتِ مني المجيء..؟ كيف حملت..؟ ومتى جرى ذلك..؟ ومن هو فارسك الجديد..؟ وإذا هو في دمشق فما المشكلة..؟

نظرت حواء دمشقية إلى إيفا سميت وعلى وجهها ملامح الإنكسار والخذلان، وفي عينيها أمواج التوسل والرجاء والشعور بالذنب، وقالت بيأس مرير:

- إنه ليس من هنا..إنه في باريس..؟

جرّت إيفا سميث نفسها متراجعة وهي على كرسيها من هول الصدمة، وقالت:

- الذي حملت منه يعيش في باريس..؟ كيف هذا..؟ من هو إذا لم يكن آدم

المفتـي..؟ كيـف حـدث هـذا فـي باريس؟ جرى هـذا دون أن تخبريني..؟ دون أن أعلم..؟

هزت حواء دمشـقية رأسـها بإستسـلام؛ لتؤكد غموض ما جاء في أسـئلة صديقتها، إلّا أن إيفا سميث بادرتها بسيل آخر من الأسئلة:

- يعني أنك حينما كنت مع آدم المفتي، كنت على علاقة مع شخص آخر أيضا..؟

هزت صديقتها رأسها بالإيجاب، فسألتها إيفا سميث غاضبة:

- إسمعي جيداً يا حواء.. يجب أن تجيبيني بالكلام وليس بهز الرأس.. أنا ما جئت من باريس؛ لأراك تهزين لي برأسك..!! كما أنا شخصياً أعرف آدم المفتي.. لقد التقيتكما مرات عديدة.. وكنت أعتبر نفسي صديقتك الحميمة ومكمن أسرارك.. لكني اكتشفت الآن كم كنت بلهاء..!! أنا لا أكاد أعرفك..!! أيعقل أنك كنت على علاقة مع شخص آخر ولم تخبريني..؟ بينما كنتِ تتصلين بي في أي وقت تشائين من النهار أو الليل؛ لتحدثيني عن مشاكلك مع آدم المفتي..!! بل كنت تحدثينني حتى عن أسـراركما في السـرير.. لقد حدثتني عن كل شـيء.. وحتى قرارك بالرجوع إلى سوريا أعرف تفاصيله.. لكنك لم تحدثيني قط عن علاقتك بشخص آخر..!! لقد حدثتني عن بعض زملاء العمل من الذين يستلطفونك أو من الذين يلمحون لك بالحب.. بل والزواج.. وعن الذين تحرشوا بك صراحة.. بـل وكنـت تحدثيننـي عـن مغامراتـك البريئة أحيانا في الشـانزلزيه.. أو حتى في الشـارع.. وفـي المخـازن.. لكنـك لـم تحدثينـي عن علاقة متينـة وخاصة، وأية علاقـة..؟ علاقـة أثمـرت جنينـاً..!! أعتقد أنك مطالبة بأن توضحي لي كل هذه الألغاز؛ وإلّا سأقوم الآن لأتوجه مباشرة لفندقي ومنه إلى المطار..

كان الغضـب واضحـا فـي نبـرة صوتها وملامحها. انتبهت حواء دمشـقية لكل كلمة نطقت بها صديقتها. نظرت إليها بخوف.. مثل طفلة اقترفت ذنبا كبيراً.. صمتت لحظات. فجأة، استجمعت قوتها، وقالت لها وكأنها تدلي بإعترافها أمام كاهنة في كنيسة:

- قبل كل شـيء.. أرجو غفرانك.. أرجو عفوك..إنني مخطئة بحقك.. وبحق الصداقة التي بيننا.. أعرف كرمك ونبلك.. أعرف كيف كنت أزعجك ليل نهار بمشـاكلي وشـكواي، التي كانت أحيانا تافهة لا تسـتحق أن أشـغلك بها.. لكنك بالرغم من ذلك لم تذكري الآن أنك كنت تساعدينني مادياً.. سواء كنت أحتاج

أم لا أحتاج.. ويا ما أغرقتني بهداياك.. روحك الكريمة لم تدعك أن تتحدثي عن ذلك حتى في لحظة غضبك مني؛ لذا أطلب غفرانك.. وعفوك.. وأنا متأكدة من أن قلبك سيغفر لي ضعفي.. نعم يا صديقتي إيفا.. لقد استغفلتك.. لم أقل لك كل شيء. كنت أحتاج لعطفك وحنانك.. أحتاج لقسوتك عليّ عندما كنت أشكو لك تفاصيل علاقتي ومشاكلي مع آدم المفتي.. لكنني لم أكن أملك الجرأة على إخبارك عن علاقتي بعشيقي الآخر آدم سانتشو ماريا زاباتو..

فوجئت إيفا سميث بالإسم، فقد كان واضحاً أنه ليس عربياً، إلا أنها صمتت كي تواصل الأخرى حكايتها، وفعلاً استطردت حواء دمشقية قائلة:

- لا تستغربي يا صديقتي..إنه من أميركا اللاتينية.. لكنه... لكنه.. أصغر مني..
- ماذا..؟

صرخت إيفا سميث. صمتت حواء دمشقية، وكأنها كانت تنتظر من صديقتها هجوماً لاذعاً، إلّا أن الأخرى أخرستها الصدمة، فواصلت:

- نعم..آدم سانتشو ماريا زاباتو يصغرني بست سنوات.. تعرفت عليه ذات يوم.. حينما كنت مع آدم المفتي في أحد المقاهي الباريسية التي نرتادها معظم الأحيان..

لا إراديا قالت إيفا سميث بنبرة فيها إدانة:

- كنت مع آدم المفتي وتعرفتِ على غيره..؟!

كانت حواء دمشقية تتجنب النظر إلى إيفا سميث؛ فكانت تنظر إلى طرف السرير حيث قدميها، وقالت:

- نعم.. هذا ما جرى.. رأيته.. كان جميلاً جمالاً لا يمكن لامرأة أن لا تنتبه إليه.. وأنت تعرفين أن جسدي نهم، لا يشبع ولايرتوي من اللذة.. كنت أقنع نفسي بأن آدم المفتي هو حبيب عمري.. فهو يحمل كل المواصفات التي أحلم أن أجدها في رجل.. طويل القامة منتصب.. عضلي الجسد.. قوي كرجل.. يعرف كيف يثيرني.. ويعرف كيف يلجمني ويلجم شراستي.. وهو من عائلة محترمة.. ووضعه المالي جيد.. لكنني تعبت من فيض سعادتي معه؛ فالإرتواء الدائم يولّد الضجر.. لا أذكر من قال بأنه ليس هناك مشروع كالحب يبدأ بآمال وأحلام وتوقعات هائلة، ومع هذا سيفشل بشكل منتظم.. لا أعرف.. ربما المشكلة

عنـدي وفـيّ.. المـرأة تبحـث دائماً عن الحب الرومانسـي.. لكن طوال الوقت، ومنـذ أول لقـاء بالحبيـب تفكـر بالـزواج.. نعم ربما فـي حالتي أن فكرة الزواج هي التي سمّمت علاقتي الرومانسية مع آدم المفتي.. لكن هل كان هذا تبرير كي أدخل في علاقة جديدة، بينما أنا أساساً في علاقة مع شخص أحبه، وقضيت معه أجمل سنوات عمري..؟ وهل يمكن أن تحب المرأة رجلين في آن واحد..؟! ربما سأخالف كل النظريات والأعراف والتقاليد.. وكل الحديث الرومانسي عن الحب والوفاء.. وأقول نعم.. نعم.. يمكن للمرأة أن تحب رجلين في آن واحد.. رجل منهما كزوج.. وآخر كعشيق.. أنا أعرف أنك ستقولين أنني بالأساس غير متزوجة.. لكنني أعتبر علاقتي مع آدم المفتي هي أشـبه بالعلاقة الزوجية بينما علاقتي بآدم سانتشو ماريا زاباتو علاقة العشيق.. كنت أحبهما معاً؛ لكل واحد منهما ضرورته الوجودية في حياتي.. لاأدري كيف أفسر لك أكثر؟!

كانت إيفا سميث تستمع إليها بإنتباه شديد، وتحاول أن تفهم ما وراء الكلمات من إنفعالات وأفكار غامضة وغير مفهومة، وبدا لها أن صديقتها ليست تلك الفتاة الجميلة، الغنـدورة، التـي يسـرها أن تظهـر بالمظهـر الأنيق، وأن تسـعى للتظاهر بمتابعة الموضة، والتركيز على جسدها ومظهرها الخارجي فقط، حتى لو كلفها ذلك كل ما تحصل عليه من مرتب، فهذه المرأة الراقدة أمامها تتحدث عن الجانب الآخر من الفردوس.. الجانب الآخر الذي يطل على وادي الجحيم.. فجأة، انتبهت إلى أن صديقتها واصلت حديثها:

- يحدث أحيانا أن تكوني غارقة في لجة أفكارك الغامضة.. ترجّك أمواج الكآبة المتلاطمـة.. أو أن تشـعري بأنـك فارغـة.. فارغـة تمامـاً مـن كل شـيء.. مـن المشاعر والطموح والأفكار والرغبات. لا علاقة لك مع الماضي أو الحاضر أو المستقبل.. لكن فجأة يختفي كل ذلك؛ عند رؤيتك وجه ما، أو عند تواصلك مع إنسـان يبعث في نفسـك الإحسـاس بالحياة.. ويرسـل إليك أشـعة الأمل.. وينقذك من عزلتك الرمادية.. هكذا كان وجود آدم سانتشـو ماريا زاباتو عندما دخل حياتي.. صحيح أنني رأيته أول مرة في المقهى حينما كنت مع حبيبي آدم المفتي.. لكنني لا أدري كيف اسـتحضرته أو حضر هو في ذهني في ما بعد.. يحـدث أحيانـا أنـك علـى قناعة تامة بأنك تحبين إنسـاناً ما..إنسـاناً قريباً منك.. لكنـك تشـعرين فـي الوقـت نفسـه بأنـه بعيد عنـك.. أو أنت بعيـدة عنه.. هكذا

وجـدت نفسـي فـي علاقتـي مـع آدم المفتي.. لا أدري.. ربمـا لأن الجنس بيننا تحول إلى علاقة روتينية.. واللذة فقدت كثافتها وتعاليها.. وصارت الممارسـة مثـل دليـل الاتهـام أيضـاً.. أي حينمـا لا يقبـل الرجل على الجنـس؛ تبدأ المرأة بالتفكير بشـتى الترهات النابعة عن الغيرة، بأنه ربما قد وجد له عشـيقة أخرى مثلاً.. لكن لطالما لاتفكر المرأة بالأسباب التي تخص قوامها وجمالها.. وإنما تركز فقط على الرجل مطلقة أشـباح الظنون حوله.. وربما لأن الإنسـان برغم سعيه إلى السعادة لا يستطيع تحمل السعادة طويلة الأمد... لذلك كان الضجر والتكرار قد ملأ أعماقي بالرماد..... هل تصدقين أن معظم مشاجراتي معه هي من أجل أن أكسـب وأضمن إنسـياب هذه السـعادة..؟ لقد كنت أحياناً أختلق المشـاكل والتوتر في ما بيننا من أجل أن أنعم معه بلذة التراضي التي يصحبها الشعور بالذنب أمامه؛ فأغدق عليه بحناني ومحبتي بل وأصعد معه في فورات جنسية مجنونة.. لكن كل ذلك لم يسعفني.. فلا أولاد لديّ كي يملأوا حياتي بحنـان آخـر يشـعرني بالثبـات فـي علاقتي بآدم المفتي.... أنـت أم وتعرفين أن الأطفـال يرسـخون موقـع الرجـل كـزوج فـي حياة المرأة بعـد أن كان حبيباً في حياتهـا؛ لذلـك لا تبالـي المـرأة بحضور الـزوج أو غيابه كثيراً.. فهو موجود من خلال الأطفال.. لكنني كنت مثل موقدٍ مهجور.. فحتى المرتين التي حملت فيها منه أجبرني فيهما على إجهاض الجنين.... وحدث أن كان لدي موعد آخر مع حبيبي آدم المفتي في المقهى نفسه.. وأذكر الآن أنني كنت، وأنا في الطريق إليه، أتمنى أن أرى الشاب الجميل الذي خمنت أنه من أميركا اللاتينية.. هل تصدقين أنني حين دخلت المقهى لم أفتش عن عشيقي وحبيبي آدم المفتي، وإنما كنت أبحث عن وجه الفتى الجميل؟! وفعلا رأيته.. كان يجالس فتاة فرنسية.. وعلى مقربـة منـه، وحـول طاولـة منفردة، كان ثمة رجل أشـقر وسـيم.. جلسـت على الطاولة القريبة جداً من طاولته.. أحسسـت أن بينه وبين الرجل الأشـقر الوسـيم معرفـة مـا؛ إذ كان يرتبـك حينمـا يتبـادلان النظـرات مصادفة؛ حتـى ظننت أول الأمر بأنه شـاذ جنسـياً..إلّا أن الرجل الأشـقر الوسـيم قام من كرسـيه.. نظر إلى فتاي وإليَّ.. ثم غادر المقهى.. طلبتُ الكابيتشـينو.. وبقيت أنتظر حبيبي آدم.. لكنـي تمنيـت أن لا يأتـي أو في أحسـن الأحـوال أن يتأخر.. لكنها الأقدار التي

أحيانا تسـوقنا إلى منعطفات لانتوقعها.. فقدت غادرت الفتاة الفرنسـية فجأة.. بقـي كل منـا وحـده حـول طاولتـه.. كنت لا أملّ من النظر إليه.. لم يكن جميلا بالمعنى الظاهر.. بل كان يشـع جاذبية جنسـية.. وأحسسـت أن عينيه تتقدان.. انتبـه إلـيّ ولنظراتـي المتلصصـه إليـه.. ويبدو أنه اكتشـف أنني امـرأة عقلها بين فخذيهـا أحيانـاً.. علـى الأقـل فـي تلك اللحظات كنت هكـذا.. وبدا أنه لا يريد أن يتجاوب معي.. فجأة أخرج قطعة من الورق من حقيبته الجلدية التي كانت معلقة حول كرسيه.. وكتب شيئا.. ثم قطع ذلك الجزء الذي كتبه من الورق.. ووضع الورقة في جيب معطفه.. وأشـار إلى النادل الذي سـارع إليه.. فتحدث معه.. كانت فرنسـيته جيدة بلكنة أسـبانية.. دفع حسـابه، لكنه بقي جالسـاً على كرسيه.. متردداً.. مفكراً.. ساهماً.. وكنت أشعر باليأس؛ لأنه سيغادر المقهى.. فجأة، نهض من مكانه.. لبس معطفه.. وبحركة رشيقة وضع قطعة الورق على مائدتي وغادر المقهى مسـرعاً؛ كأنه كان يخشـى ردة فعلي.. كنت في ذهول.. لكنـي أدركـت بأنـه تـرك رقـم تليفونه على الورقـة الصغيرة، فأخذتها بسـرعة.. ووضعتها في حقيبتي.. لم أجده.. أحسست حينها بخفقان قلبي.. كدت أسمع دقـات قلبـي فـي صـدري.. وكنـت خائفة فـي الوقت نفسـه.. لا أخفيك.. كنتُ سعيدة بهذه المغامرة، وكئيبة في الوقت نفسه؛ لأني أحسست أني أخون حبيبي آدم المفتي.. لكن لا أحد يستطيع أن يتحكم بالرغبات الغامضة..إنها هي التي تقودنا.. دون أن نعي ذلك..

نظرت إيفا سـميث إليها بتأمل.. أحسـت أن بعض هذه الأحاسـيس والأفكار التي نطقـت بهـا صديقتهـا قـد أقلقتها؛ لأنـه يحدث لها هي أيضاً أن تلتقي في بعض الأماكن أحيانـاً، أو حتـى عندمـا تذهـب مع زوجها إلى بعض المطاعم، برجال يعجبونها، ومنهم من ينتبه إليها ويتابعها بعينيه المليئتين بالرغبة، لكنها تكتفي بالشعور الجميل بأنها مثيرة ومرغوبة من قبل رجال غير زوجها، لكن لم يطرأ في ذهنها أن تنزلق إلى مغامرة عاطفية قط. وبدون وعي وجدت نفسها راغبة أن تتابع القصة دون أية أحكام أخلاقية كما كانت عليه في البداية، فسألتها بهدوء مشوب بفضول:

– وماذا بعد..؟ هل اتصلت به..؟

انتبهت حواء دمشقية للتحول الطاريء على موقف إيفا سميث. صمتت للحظات،

ثم استرسلت:

- لا.. لم أتصل.. أقصد لم أتصل به مباشرة.. كنت أعيش مشاعر متضاربة. كنت غاضبة؛ لأنه تصرف معي كأية امرأة رخيصة، إذ كان متأكداً من أنه أعجبني، وأني لن أتردد لحظة في أن أمنحه نفسي.. لكن من جانب آخر أعجبتني جرأته وثقته بنفسه.. أنا أحب الرجل الجريء.. أحسه يحتلني.. يلجم كبريائي الجامحة؛ فالمرأة أحياناً تعجب بالرجل الجريء حتى لو لم يعجبها شكله أو شخصيته.. المهم.. كان ثمة شعور بالذنب يجتاحني لأني كنت أشعر بأني أخون حبيبي وعشيقي آدم المفتي.. لا أدري كيف أشرح لك؟! بقيت لثلاثة أيام في صراع نفسي رهيب.. أخرج الرقم من الحقيبة عشرات المرات يومياً... أهمّ بالإتصال به.. أضرب بعض الأرقام ولا أكملها.. ولكن ذات مرة أكملتها.. كان قلبي يرتعش.. أحسست وكأني مقبلة على إرتكاب جريمة وإثم كبير.. وأني عند حافة الهاوية..... ظل الهاتف يرن دون أن يجيب أحد.. وضعت سماعة الهاتف وأنا أحمد الله؛ لأنه لم يكن موجوداً ليرد.. ثم سرعان ما بدأت أسأل نفسي: ماذا لو كان قد أخذ سماعة الهاتف؟ ماذا كان عليّ أن أقول له؟ كيف سأبدأ الحوار معه؟ وراودتني الرغبة في تكرار الأمر..... وفعلا بعد ساعة من المحاولة الأولى كنت خلالها أصارع نفسي.. وكأني عطشى وأمامي كأس ماء لكني أقاوم رغبتي في الشرب منها.. وأخيرا لم أستطع المقاومة.. فأخذت الهاتف وطلبت الرقم الذي صرت أحفظه غيبا.. كان قلبي يخفق أكثر من المرة الأولى.. كان ثمة حدس في داخلي بأني ضائعة.. وفعلا جاء صوته من الجانب الآخر: ألو.. نهار سعيد.. أنا زاباتو.. من يتكلم..؟ ترددتُ.. كنت كطفلة صغيرة تخاف من الدخول إلى غرفة مظلمة.. ووجدت نفسي أتلعثم وأجيب: هل أنت ذاك الذي ترك لي رقمه قبل ثلاثة أيام في المقهى؟ فجاء صوته رقيقا وحنوناً مع بعض السخرية المبطنة:أوه، أهذه أنت؟ لقد يئست منك ومن إتصالك. ظننتك مزقت الرقم.. يا للمفاجأة..!!

ثقته بنفسه إلى هذه الدرجة أغضبتني، فقلت له بعصبية: تصرفك لم يكن لائقا.. كيف يمكن أن تضع رقمك على طاولتي وتغادر وكأنك لم تفعل شيئا..؟ من تتصورني..؟... فجاءت إجابته صاعقة ماحقة بالنسبة لي، إذ قال بصوت ثابت وجريء:

إسمعيني جيداً سيدتي.. اطلقي ما شئت من التوصيفات والنعوت على تصرفي.. لكن ببساطة كان بإمكانك أن تمزقي الورقة لا أن تحتفظي بها.. ولا تتصلي.. كما أني لم أتصور أي شيء سيء.. لقد وجدتك امرأة جميلة.. وبالتأكيد كنتِ حينها بإنتظار أحد.. وجدتك تنظرين إليّ بإعجاب؛ فقلت لنفسي بأنها فرصة جميلة للتعرف عليك.. لكن لم يكن لديّ من الوقت ما يكفي.. فكتبت رقمي لك.. وقلت لنفسي لو كانت لديها الرغبة؛ فأنها ستتصل وبعكس ذلك ستمزق الرقم.. وها أنت تتصلين.. وجدتُ نفسي أقول له محتجة: إنك واثق من نفسك كثيراً بحيث تتصور بأني سأركض وراءك.. فقال لي بجرأة شديدة: اسمعيني يا سيدتي.. أقولها لك بصراحة.. أنت ترغبين في أن أنيككِ.. لديك هذه الرغبة المشتعلة منذ أيام.. وربما قاومت نفسك أياماً، لكن رغبتك في النيك كانت أقوى؛ لذلك أعتقد أنك لم تتصلي كي تعطيني درساً في الأخلاق، فإذا أحببتِ أن أولجه فيك؛ فلن تندمي أبداً.. وإذا لم تكن هذه رغبتك فعلاً.. فمزقي الرقم فوراً.

لا أعرف ماذا أقول لك يا صديقتي إيفا.. لقد دمرتني وقاحته وابتذاله فوجدت نفسي أصرخ به: أنت وقح.. وسافل.. ومبتذل.. فسمعت ضحكته ثم قال: قد أكون وقحا.. وسافلاً.. ومبتذلاً.. لكني على الأقل واضح.. أعرف ما أريد.. ولا أضع أي قناع على وجهي.. وعلى أية حال.. أنا عادة أكون في البيت صباحا قبل منتصف النهار.. فإذا أحببت أن تأتي فهذا عنواني.. وردد في التليفون عنواناً.. وأغلق التلفون في وجهي.. كنت في منتهى الإذلال والشعور بالمهانة.. عاملني كعاهرة مبتذلة.. لا.. ليس كعاهرة.... فالعاهرة تقبض مقابل جسدها.. وإنما كامرأة فاجرة.. كنت أغلي من الغضب.. ما الذي دفعني إلى مثل هذا التصرف الأحمق..؟ كيف لي أن أنزلق إلى هذا المنزلق المحرج..؟ كيف لي أن أرمي بكل علاقتي مع آدم المفتي في الهباء..؟ أرمي بكل مشاعري الرومانسية وبكل التفاصيل المليئة بالمشاعر والعواطف الجياشة ولحظات الحب والإحترام.. أرمي كل ذلك خلفي.. لألقي بنفسي أمام شاب طائش.. مغرور.. فاسق.. وقح.. يصغرني ببضع سنوات.. يكيل لي الإهانات من أول إتصال تليفوني.. يعاملني بهذه الطريقة الوقحة..؟ لكن كيف أشرح لك يا إيفا..إنه لأمر معيب ومقرف.. بل وغامض.. أتدرين أنني كنت في ذروة غضبي أدون العنوان على ورقة أمامي حينما ردده لي.. أليس هذا لغزاً محيراً..؟ وهكذا وجدتني في حال لا أستطيع أن أمنع نفسي من عدم التفكير به.. بل تأججت رغبتي الجنسية بشكل مرعب؛ كأني لم أذق طعم اللذة

طول عمري..!! بل انقلبت الأمور..إذ صرت أسترجع كل كلمة قالها.. فوجدت طريقته في الكلام رائعة.. ومثيرة.. فهو كما قال عن نفسه واضح.. يريد أن ينيكني.. ويعرف أني أريده أن ينيكني.. وإلّا لماذا تصلت به؟! وهذا ما حصل بعد أسبوع من الاتصال.. كنت كالمجنونة خلال هذا الأسبوع..... تشاجرت مع حبيبي آدم المفتي مرات عدة، وأخذت أبحث عن كل السلبيات في علاقتنا.. كل هذا من أجل أن أجد التبرير لنفسي؛ كي أذهب إلى الآخر..... تصوري أنا التي كنت أختلق المشاكل مع حبيبي آدم المفتي؛ من أجل أن أستمتع في ما بعد بلحظات الصلح والتراضي بيننا؛ لأنها تعني ممارسة جنسية بشبق استثنائي.. صرت أنفر من فكرة الصلح والتراضي.. بل وحينما تراضينا هذه المرة؛ لم أجد المتعة في ذلك.. بل حاولت أن أتشدد في زعلي.. ولم أستجب للصلح إلّا إشفاقاً عليه.. كنت كالمجنونة بالآخر.. أحس بالشبق حينما أتذكره.. لم أتصل به مرة أخرى.. لكنني ذات صباح، وبعد أسبوع، استيقظت من نومي وفي رأسي فكرة واحدة مصممة على تنفيذها؛ مهما كان الثمن.. هو أن أذهب إليه.. وفعلا.. تحممت.. نظفت جسدي من الشعر.. حلقت شعر عانتي.. لا أدري لماذا فعلت ذلك..؟! أوقفت تاكسياً بدا لي وكأنه كان ينتظرني.. صعدته متجهة إلى العنوان الذي كتبته عندما ردده لي.. لكن الغريب أن سائق التاكسي كان هو الرجل الأشقر الوسيم نفسه.. لم انتبه إليه إلّا بعد أن أردت دفع أجور النقل.. بعد فترة قليلة كنت أمام البيت الذي يقع في منطقة شعبية تقريبا... وقفت أمام الباب دقائق عدة.. سألت نفسي إن كنت أفعل الصواب..؟ لم تجبني نفسي.. دخلت البناية التي يسكن فيها.. وحسب العنوان وقفت أمام الباب.. ووجدت نفسي أمد يدي إلى زر جرس الباب.. وضغطت.. بعد دقيقة.. فُتح الباب.. وجدته أمامي شبه عار.. كان يرتدي تي شيرت أسود وسروالاً قصيراً..... بقينا للحظات قصيرة جداً ننظر إلى بعضنا البعض.. وبدون أي كلام جذبني إليه.. مقبلا شفتي بحرارة.. بينما امتدت يدي تحت سرواله.. وقبضت عليه.. وفجأة نزلت إلى الأسفل؛ لألتقمه بفمي كالمجنونة.. أخذني من ذراعي وألقى بي على حافة السرير.. اخترقني بلا رحمة.. بعنف.. عنف لذيذ..... وهكذا صرت عشيقته.. صرت أزوره مرات في الأسبوع.. تعرفت على حياته أكثر.. أخذت أتدخل في بعض شؤونه.. رتبت له شقته.. اشتريت له أو بالأحرى لنا سريراً عريضا لشخصين.. جهزت مطبخه بطباخ كهربائي وثلاجة مع مجمدة.. وصرت أملأها له بكل المواد الضرورية.. وأخذت أعطيه مالا.. بل صرت

أحيانا آخذ من حبيبي آدم المفتي مالاً بحجة حاجتي لشراء بعض الأشياء.. ثم أضعها تحت وسادته بعد أن يرويني لذة ويروي رحمي بمائه....

أحسـت إيفا سـميت ببعض الحرج من ذكر التفاصيل الجنسـية، لكنها كانت تتخيل نفسـها أيضـا فـي تلـك اللحظـات.. انتبهت لنفسـها وهي متهيجـة؛ فحاولت أن تكتم ما يدور في أعماقها؛ فسألتها:

- و متى حدث ذلك..؟
- قبل سنة..
- قبل سنة..؟!
- نعم قبل سنة..
- ولم تخبريني بشيء عنه؟!
- لقد كنت مترددة وخائفة.. فآدم شانتشـو ماريا زاباتو يصغرني بسـت سـنوات.. وهو شـاب لعوب.. عاهر.. ماتشـو.. يعرف أنه جميل ومرغوب.. وأنا متأكدة بأن لديه علاقات مع أخريات؛ لأنه كان يحرّم علي المجيء إليه في أيام محددة مـن الأسـبوع.. ناهيـك أنـي كنـت أنظر إلى الأمر علـى أنه ليس أكثر من مغامرة مؤقتـة لا بـد لهـا أن تنتهـي.... ولا أخفيـك.. فأنـا لم أخبـرك؛ لأني كنت خائفة من أن تقطعي علاقتك بي.. فأنا أعرف كم أنت محافظة.. وتقدسين العلاقات الزوجية.. أو علاقات الحب؛ لذلك ترددت في أن أخبرك.. كما أني كنت متأكدة بأنـي سـأنهي هـذا المغامـرة بنفسـي.. لكنـي لم أكن أعرف بأنـي كنت مثل التي تقف في بقعة من الرمال المتحركة، حيث كانت الرمال تبتلعني دون أن أنتبه.. أو دون أن تكون لدي القدرة على التخلّص منها وإنقاذ نفسي.. أو بدقة أكبر.. دون رغبة في التخلص وإنقاذ النفس قبل الإبتلاع الكامل... لقد وجدت نفسي أعشقه؛ كأني مراهقة.. لكن هذا العشق أذلني.. أهانني.. كنت أعرف أنني أركض لأقبض على السراب.. لم تكن لديّ أية أوهام حول طبيعة علاقتي به.. ولا حول موقفه مني؛ لاسيما أنني كنت معه داعرة.. كنت معه أتجرأ على ممارسة أشياء لـم أكـن لأسـمح للمسـكين آدم المفتي الإقتراب منهـا، فحينما حاول ذات مرة أن يأتيني من دبري؛ صرخت عليه «لا يا شـاذ!“ بينما طلبت ذلك بنفسـي من الفتـى الأمريكولاتينـي، بـلْ كنت أتوسّـله أنْ يفعل ذلك! أجلْ.. هكذا إنحدرت

إلى أدنى دركات الجحيم.. وفقدت القدرة على النهوض والخروج.. ولم يكن هناك من يستطيع أن يوقفني كمثل ما كنت أنت دائما تنصحينني وتوقفينني عن المضي والتهور في بعض التصرفات.. لقد كنتِ لي دائما في ما مضى، ملاكي الحارس.. نعم.. أنت ملاكي الحارس.. أذكر حينما كنت آتيك لأشكو من آدم المفتي، وأفضفض عمّا في قلبي من هواجس؛كنت تعنفينني.. تتشاجرين معي؛ من أجل إنقاذي ومن أجل أن تمسكي بيدي؛ لكي لا أدمر حياتي.. لكنني كنت هذه المرة وحيدة.. ضعيفة.. هشة.. كنت أتعذب.. كنت مثل المدمنين على المخدرات.. أعرف جحيمها، لكني لا أستطيع العيش بدونها.. ومن جانب آخر كنت أتعذب؛ لأني كنت أخدع حبيبي آدم المفتي الذي منحني ثقته.. بل كان يتحملني.. يتحمل نزقي الذي بات لا يُحتمل منذ تحولي إلى جارية لهذا الفتى الوسيم.. نعم كنت جاريته.. كنت مستعدة لأي شيء من أجله.. لكني كنت أتعذب.. أحاول أن أنقذ علاقتي بحبيبي آدم المفتي.. ولكي أتخلص بشكل نهائي من هذا العذاب؛ طلبت من حبيبي آدم المفتي الزواج.. بالرغم من أني أعرف موقفه من ذلك.. مثلما أنت تعرفين أيضاً موقفه.. ألححت على موضوع الزواج.. وهددته بالإنفصال وقطع العلاقة.. وحينما رفض بشكل قاطع،وأعلن ذلك مرة أخرى بوضوح؛ وجدت في رفضه إنقاذي من عذاب الضمير المدمّر.. ووجدته حجة؛ من أجل أن أبتعد عنه.. وأن أكف عن خداعه وخيانته؛ ولكي أتخلص من وضعي؛ فقد طلبت إجازة مرضية طويلة الأمد نوعمّا، وقد ساعدني في ذلك بعض الأطباء السوريين في باريس، بتزويدي بتقارير طبية تدعم موقفي.. ثمّ عدت إلى دمشق..

توقفت حواء دمشقية عن الكلام فجأة ونظرت نحو الباب الذي كان مقبضه الداخلي يتحرك ببطء، فصاحت:

- من هناك..؟

أطلت الأم برأسها وهي محرجة.. وقالت:

- أردت أن أعرف إن كان كل شيء على ما يرام؛ فقد طال حديثكما!

فأجابت أمها بلهجة جافة:

- أتركينا لحالنا دون أن تتنصتي خلف الباب..إيفا جاءت من باريس خصيصا؛

فاتركينا رجاءً..

- حاضر.. حاضر.. لا ترهقي أعصابك.. حاضر يا ابنتي..

أغلقت الأم الباب. ساد صمت للحظات.. نظرت إيفا سميث إليها وفي داخلها مشاعر متضاربة ما بين الغضب منها؛ لأنها لم تكن صادقة معها..إذ أحست بأنها استغفلتها، ومن ناحية أخرى تعاطفت مع كمية الألم التي تثقل روحها.. وكانت تحاول أن تتناسى الإثارة والخيالات الجنسية المتعطشة التي راودتها أثناء انصاتها للحكاية.. لكنها كانت تريد أن تعرف الحكاية كاملة فقالت لها:

- وكيف جرى الحمل..؟ومتى..؟ وكيف عرفت أنه ليس من حبيبك آدم المفتي، وإنما من الفتى الآخر.. لاسيما وأنت كنت تعاشرينهما في الوقت نفسه..؟
- لا..إنه من الجديد.. لأني كنت قد انقطعت عن ممارسة الجنس مع آدم المفتي بشهرين قبل أن أترك باريس.. بينما كنت أمارس مع الآخر بشكل مستمر.. فحتى في الأيام التي منعني فيها من الحضور إلى شقته.. كنت ألتقيه في الأماسي؛ لأمارس معه في شتى الزوايا والمنعطفات الخالية التي تنتشر في باريس.. ولم أكتشف الأمر إلّا هنا في دمشق..
- وماذا فعلت..؟ كيف واجهت الأمر..؟

ارتسمت على وجهها الشاحب ابتسامة حزينة ممزوجة بالمرارة والسخرية وقالت:

- كما ترين..إنتحرت..
- تقصدين حاولت الإنتحار..

ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة وقالت:

- لم أجد أمامي من حل سوى الإنتحار.. دمرني الشعور بالذنب إزاء حبيبي آدم المفتي؛ فقد كان يتصل بي أسبوعيا.. يسأل عني وعن أحوالي.. وماذا أخطط لنفسي في الشام؟
- والآخر..؟
- الآخر هو دائي.. حاولت أن أنساه.. لقد تعذبت لفراقي له.. لكني أعرف أنه لا ولن يفتقدني. ربما يفتقد بحبوحة العيش التي وفرتها له.. لكنه كان يحتقرني.. كان يعاملني بإحتقار شديد.. حين يدخل فيّ كان يصرخ بعنف بأنني عاهرته.. بأني قحبته.. كلبته التي لا تستطيع العيش بدونه.. وكان يجبرني أن أقول له تلك

الكلمات أيضاً.. كان يهينني.. وكنت أتلذذ بالإهانة.. وأزداد شبقا! لكني الآن أتعجب من نفسي؛كيف قبلت كل هذا الهوان والذل؟! كيف مرّغت كرامتي بكل هذا الخراء أنا الرومانسية الحالمة؟!

- وماذا عن الجنين.. هل أجهضته..؟
- لا..
- لا..؟!
- لا.. لقد أجهضت مرتين.. وأخاف هذه المرة إن أجهضت أن لا ألد أي طفل فيما بعد..
- وما العمل..؟ كيف ستواجهين الموقف..؟
- ولماذا طلبت من أمي أن تتصل بك إلى باريس..؟ ألست ملاكي الحارس..؟ ألستِ كاهنة الإعترافات..؟ ألست قديستي التي أتوجه إليها في حالات اليأس الشديد..؟ وها أنا في قاع بئر اليأس المظلمة.. أناديك.. أطلب مساعدتك.. أرشديني.. جدي لي حلّاً من هذه الكارثة التي أنا فيها.. الحمد لله أنني وحيدة أمي... وأبي متوفى وليس لدينا أبناء عمومة أو حتى أقارب.. وإلّا لكانت فضيحة بجلاجل كما يقول المثل الشعبي..
- وأمك.. هل تعرف بحملك..؟
- لا.. كيف لي أن أكافئ صبرها في تربيتي وألوّثها بهذه الفضيحة..؟

فقالت إيفا سمث بنبرة غاضبة:

- وحينما كنت تلهثين خلف صبيّك.. وتنامين تحت ذاك الذي يصغرك بست سنوات ألم تفكري أن هذا قد يحدث..؟
- اشتميني.. انعتيني بما تشائين من الألفاظ.. كل ما تقولينه استحقه..
- دعينا من كل هذا الآن.. هل لديك أية فكرة عما سيكون عليه وضعك..؟
- لا..
- أنت.. مع نفسك.. وبصراحة شديدة.. ماذا تريدين..؟
- لا أعرف.. أنا تائهة.. وضائعة.. وأستحق كل ما جرى ويجري لي..

أحست إيفا سميت بمسؤولية إزاء حواء دمشقية، برغم مشاعر الإحباط والغضب لعدم معرفتها بكل التفصيل، التي روتها لها عن العشيق الجديد.. لكنها بطبيعتها تحب

مساعدة الآخرين.. وقد كانت هي بالنسبة لحواء دمشقية بمثابة مرشدتها الروحية، أو كما تسميها الأخرى بكاهنتها التي تتلقّى إعترافها وتمنحها المغفرة والبركة.. وها هي الآن في محنة... وضعها لا يحتمل العتاب أو ردود الأفعال المتشنجة.. وليس أمامها سوى أن تساعدها، فقالت لها بهدوء:

- عليك أن تعرفي ماذا تريدين كي يمكننا أن نتصرف..
- فكّري بدلاً عني وسأقبل كل ما تقترحينه عليّ كأمر واجب التنفيذ..
- لا أستطيع أن أفكر بدلا عنك.. أنا استطيع أن أشاركك الرأي.. لكني لا أعرف ما يدور في أعماقك.. أنت فاجأتني حقا.. أنا الآن أمام إنسانة أخرى.. أنت لست الفتاة الحالمة بالحب والحياة العائلية الدافئة.. الفتاة التي كانت ترى العالم رؤية شاعرية تعبق بالرومانسية.. لا أدري كيف أصفك.. أنا مترددة.. لا أدري إن كنت سأجد مخرجاً لورطتك؛ لأني أفكر بصديقتي التي عرفتها، وليست هذه المرأة التي تضاجع رجلين في يوم واحد.. وتعترف بأنها تحب كليهما؛ لذا رحت أفكّر وأنا أستمع إليك بأنك إمّا إنسانة مريضة.. شاذة بين النساء.. أو أنني فعلاً لا أعرف نفسي بعد.. وأنا الآن أمام كشف نفسي جديد.. بأن المرأة تستطيع أن تحب رجلين في آن واحد.. وتعشقهما.. ودون أن يعرف أحدهما بالآخر!
- أنا متأكدة.. وعلى ثقة تامة.. بأن المرأة تستطيع أن تحب رجلين في وقت واحد.. كل ما في الأمر أني وصلت إلى هذه النتيجة.. بينما بعض النساء يتخذنها فرصة للمتعة فقط..
- لا أعرف.. الإنسان لغز.. وأنت أثبتْتِ لي ذلك..
- أنا لست لغزا يا إيفا.. وإنما أنت لست من هذا العالم.. أنت ملاك يمشي على الأرض.. أو أنك لم تطئي هذه المناطق من الجحيم..

كانت تتحدث بنبرة مترددة.. ليس لأنها غير واثقة مما تقوله بتلك النبرة الواثقة، وإنما مترددة؛ لأنها لا تريد أن تفتح بوابات الجحيم أمام صديقتها، وأن لا تربك صديقتها التي ليس لديها من العالم سوى طفليها وزوجها وأمها..

- طيب.. لا أريد الآن أن أفكر بشيء سوى بإيجاد حل لوضعك هذا.. أعتقد من الأفضل أن تأتي إلى باريس..

ارتسمت علامات الرعب واليأس على وجه حواء دمشقية.. ورددت متسائلة:

- باريس..؟!
- نعم.. باريس.. لأنك لا تستطيعين البقاء طويلا هنا.. فإمّا أن تجري هنا عملية إجهاض.. وستكتشف أمك الأمر.. فهي وإن كانت امرأة بسيطة، لكنها امرأة وتعرف شؤون النساء.. أو أن تأتي إلى باريس.. وهناك يمكنك أن تقرري الإبقاء على الطفل.. وهذه ورطة بحد ذاتها.. أو أن تجهضيه
- هكذا الحل..؟
- هل لديك حل آخر..؟
- لا.. لكني أخاف من نفسي.. فبأي عين يمكنني أن أنظر إلى حبيبي آدم المفتي الذي أكد لي خلال هذه الأشهر التي غادرت باريس فيها بأنه يحبني.. ثم أنا أخاف من نفسي أن أنجذب ثانية للآخر..
- نعم.. أنا أخاف من هذا أيضا.. لأن إنسانة مثلك لا تكون لحظات الغفران والاعتراف بالخطايا والآثام لديها سوى لحظات عابرة، تزول سريعا؛ لتجد نفسها تنحدر ثانية إلى عالم الملذات والجنس والخيانات العابرة..
- أنا يا إيفا واضحة مع نفسي.. لست كتلك النساء اللاتي يضعن وشاحاً وخماراً حين يخرجن من بيوتهن مدعيات أنهن يذهبن لحضور القداس في الكنيسة، بينما هن يتجهن إلى بيوت عشاقهن.. أو حتى إذا حضرن القداس؛ فأنهن قبل ذلك أو بعده ينهلن رشفات من اللذة المحرمة.. ولست مثل تلك النساء اللاتي تكون مكاتبهن أو مكاتب مسؤوليهن مكاناً لممارسة الجنس المستور..
- ما هذا..؟ أتفتخرين بما قمت به..؟!
- لا.. لا أفتخر.. ربما افتخاري الوحيد هو أنني واضحة وصادقة وصريحة مع نفسي..
- دعينا الآن من فلسفتك هذه.. عليك السفر إلى باريس.. كخطوة أولى.. ارجعي لعملك.. وسنجد حلّاً ما لوضعك..
- لكني خائفة..
- لا تخافي.. سأكون معك.. لن أتركك وحدك..

فجأة.. وبشكل خاطف أخذت يد إيفا سميث وقبلتها.. سحبت إيفا يدها بسرعة

وهي تقول لها بحنان:

– ما هـذا..؟ مـاذا فعلـت.. أنـا هنا... ألم تقولي إنني ملاكك الحارس..؟ إذنْ سأحرسك..

وانهمرت الدموع الصامتة من عيني حواء دمشـقية. صمتت إيفا سـميث للحظات، دون أن تقول شـيئاً؛ لأنها تعرف أن البكاء سـيهدّئها نفسـيّاً. وقالت بعد هنيهات وهي تنهض:

– عليّ اقناع أمـك بهذا القرار..

تاهت حواء دمشقية في خضم دوامات الرؤى والإنفعالات التي تفجرت فجأة في نفسـها، لكنهـا أحسـت بالخـوف؛ حينمـا مرق طيف آدم سانتشـو ماريـا زاباتو في ذهنها بكل عنفوانه وجماله المثير.

6

في المطعم الإيطالي

في غرفتها بالطابق الخامس كانت حواء ذوالنورين تمسح وجهها بالفرشاة الناعمة؛ لتمنحه رونقاً. كانت قد اتفقت مع إيفا سميث على أن تذهبا إلى المطعم الإيطالي بناء على دعوة تلقتها إيفا سميث من قبل صديقتها، وبدورها دعتها إلى الذهاب معها.

منذ النهار، وبالتحديد منذ أن حدثتها إيفا سميث عن قصة الفتاة الخليجية، ورؤيتها الغامضة غير المعقولة وحديثها عن تلبّس أمها بالجن، وحضور الأشياء غير المرئية، وحديث الشمعة المتقدة التي تتفرقع فجأة..، وكل هذه الهذيانات عن التأثير عن بعد والتلبس والسحر والشعوذة، وقصة الجني الذي يعشقها، وهي تشعر بإنقباض في صدرها، رغم ارتياحها الكبير لإيفا سميث، التي أيقظت في أعماقها أملاً غامضاً في النجاة من الدوامة التي تدور في لجتها.

حاولت أن تنفذ ما قررته بشكل حازم مع نفسها، بأن تعطل ذاكرتها، وتجمد أحزانها، وتحاول أن تشكل سيرة ذاتية جديدة لنفسها، على الرغم من شكها الكبير جداً بإمكانية تحقيق ذلك؛ فهي على الأقل لا تستطيع أن تجمد خوفها من زوجها الثاني قابيل العباسي الذي هربت منه، فهو كما تعرفه جيداً ينتمي إلى حزب السلطة السابقة، وجماعته منتشرون في دمشق، بل إن سوريا يحكمها الحزب نفسه، الذي صار ملاذاً لكل من كانت له علاقة بالسلطة السابقة في بغداد. إذن، عليها أولاً أن تغيّر اسمها، لكن كيف وجواز سفرها يحمل اسمها الصحيح..؟!

انتبهت إلى أنها تفكر بإنقاذ نفسها من قابيل العباسي وجماعته أكثر من تفكيرها بموت ابنها..؟ فكرت مع نفسها ربما لأنها إنسانة سيئة، لكنها سرعان ما حاولت أن تبرر لنفسها بأنها بذلت المستحيل من أجل ابنها، فقد باعت قطعة الأرض التي تركها زوجها في منطقة الزعفرانية من أجل أن تفديه، بل إنها تركتهم يغتصبونها، عندما اشترطوا عليها

أن يمارس معها أحدهم، ويصورون ذلك من أجل ضمان صمتها..! لقد ألقت بنفسها في أعماق البئر المظلمة؛ من أجل أن تنقذه، لكن من أين لها أن تعرف بأنه سيرى الفيديو الذي صوروها أثناء الإغتصاب؟ وهل يعني تفكيرها بإنقاذ نفسها أنها إنسانة سيئة؟

هي تعرف الآن بأنها خسرت كل شيء، وعليها أن تنقذ ما تبقى، أن تنقذ ما تبقى منها، ما تبقى من إنسانيتها، وأن عليها الهرب من هذه البلاد، ومن هذه المنطقة، بعيداً جداً وبأسرع وقت ممكن، لكن إلى أين؟ وكيف؟ ومتى؟!

كان ذهنها مكتظاً بالأفكار والتخيلات بحيث أنها لم تستطع أن تستقر على فكرة ما لأكثر من لحظات. كانت ملامح حيرة عمياء واستسلام أخرس يرتسمان على وجهها.. لكن ما أن تنبثق صورة إيفا سميث في ذهنها حتى تنمو في أعماقها مشاعر الأمل، بيد أن ذلك لا يستمر سوى للحظات، إذ سرعان ما تهيمن العتمة على ذهنها، وينتصب سؤال أمامها: كيف ستفاتح إيفا سميث بقصتها..؟ هل ستحكي لها كل شيء، وبصراحة كاملة..؟ وكيف ستطلب منها المساعدة؟.. فجأة، أحست وكأن ذهنها قد شُل، فهي لم تعد تفكر بما جرى في بغداد، ولا في قابيل العباسي، ولا بجماعته في دمشق، بل ولا حتى بابنها الذي انتحر، وإنما تفكر بخلاصها هي، فقد اختفت كل الأفكار الأخرى، وتركز ذهنها على فكرة واحدة: ضرورة مفاتحة إيفا سميث بقصتها؟ فربما إذا ما عرفت تفاصيل قصتها ستجد لها مخرجاً..؟ لكن كيف ستفاتحها؟.

كان لحضور إيفا سميث المهيمن ولإشعاع شخصيتها وحيويتها، ولسلوكها العملي أثر على وضعها النفسي، ومنحها لا إراديا دعماً نفسياً، لم تحسه عندما كانت مع حواء الكرخي، برغم إنها رافقتها أياماً عدة.. لكن كيف ستحدثها بقصتها وهي لا تعرفها جيداً..؟ فإيفا سميث لم تتحدث عن نفسها حينما جالستها اليوم، وإنما أخذت تحدثها عن الفتاة الخليجية، ولم تعرف منها سوى أنها فرنسية الجنسية، لبنانية الأصل، وصلت دمشق اليوم صباحا، كما أوضحت لها، وأن عليها الذهاب مع أم صديقة لها إلى المستشفى، لأن صديقتها في حالة خطرة، وأنهما اتفقتا على اللقاء في المطعم الإيطالي في حدود الثامنة مساء، ولم يبق على الموعد سوى ربع ساعة.. هذا كل ما تعرفه عنها؛ فكيف ستفاتحها بسرها..؟

فزّت على رنين جرس تليفون الغرفة. أحست بقشعريرة تسري في جسدها. تركت الفرشاة على الطاولة، وتوجهت نحو التليفون، وخلال ذلك راودها تخمين بأن المتصل

ربما هي إيفا سيمث، إلّا أنها فوجئت حينما سمعت صوت حواء الكرخي.

لم يكن الإتصال سوى من باب اللطف والمجاملة؛ إذ أنها اتصلت لتسأل عنها، وعن حالها، وعن دعوتها لاستقبالها في أي وقت، كما ترجو منها أن تنتبه لنفسها، وأن لا تتردد في الإتصال بها في وقت، وأملت عليها رقم تليفون الشقة التي تسكنها.. ورقم الهاتف النقال.. وبدورها شكرتها على لطفها، واتفقتا على التواصل.

ظلت للحظات تفكر بهذه المكالمة. هل هناك مقاصد من ورائها أو هو إتصال بريء جاء من باب اللطف والمودة وتجسيدا لإرادة الخير عند حواء الكرخي..؟

انتبهت إلى أن ثمة تحولاً غريباً يجري في شخصيتها؛ فقد كانت هي نفسها شخصا عطوفاً، مستعداً لمساعدة الآخرين، سواء كانت تعرفهم أم لا، وكانت شخصاً خيراً، فهي لم تسئ لأحد، ولم تتمنَ الشر لأحد، ولكن منذ اختطاف ابنها جرت سلسلة من التغيرات في نفسيتها، حتى وصل بها الأمر الآن إلى صعوبة أن تتعرف على حواء ذوالنورين التي كانتها، بل إنها أخذت تنتقد نفسها على أنها لم تستقبل إتصال حواء الكرخي بروح طيبة، وإنما ظللتها بالشكوك، لكنها سرعان ما تذكرت بأن عليها أن تتحول، وأن تنسى شخصيتها السابقة؛ لأنها لو لم تكن طيبة حد السذاجة؛ لما جرى لها الذي جرى، لكنها لا تستطيع أن تكون قاسية؛ فقد تستطيع أن تكون جامدة المشاعر، شكاكة، لكنها لن تستطيع أن تكون قاسية.

فجأة انتبهت إلى صورتها في المرآة. أعجبها أنها برغم كل ما جرى لها فهي لا تزال جميلة، مثيرة. أخذت تنظر لنفسها، تتأمل وجهها. لقد صارت شاحبة، وفقدت بضعة كيلوغرامات من وزنها خلال الأيام العصيبة الماضية، إلّا أن شحوبها أضفى على أنوثتها شيئا من الإثارة.

تحركت يميناً ويساراً أمام المرآة؛ لترى قامتها من الجانبين، ثم استدارت لترى مظهرها من الخلف، فأعجبها جسدها وتفاصيل مؤخرتها المتناسقة. أحست بفرح غامر ومجهول يسري في مسارب نفسها، ويمنحها شيئا من الحياة، وكأنه ماء يسري في شقوق أرض عطشى. إلّا أن لحظات وعيها لإحساسها لم تستمر؛ إذ رن جرس التليفون ثانية، فأسرعت لتأخذ السماعة، فجاء صوت إيفا سميث من الطرف الآخر، ملقياً التحية، وسائلاً إن كانت جاهزة؛ فرحبت حواء ذوالنورين بها وأجابتها بأنها ستتوجه إلى المطعم حالاً. وضعت سماعة التليفون. اقتربت من الطاولة. فتحت حقيبتها الموضوعة

على جانب الطاولة. أخرجت قنينة العطر ورشت على صدرها وعنقها شيئا منه. وضعت القنينة في حقيبتها. تأملت الغرفة مستعرضة إياها بنظرة بانورامية، وخرجت مطفئة الضوء ومطبقة الباب خلفها.

كان الممر خاليا. انتبهت إلى ساعة جدارية فوق المصعد الموجود من جهة الممر الذي تقع غرفتها. كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلّا سبع دقائق. راودها إحساس غير مريح؛ إذ لم تشأ أن تكون أول من يصل إلى المطعم، فهي تكره أن تكون محط أنظار الآخرين، وموضوع تعليقاتهم الخفية وهمساتهم المريبة؛ لذا أخذت تتباطأ في المشي. وقفت أمام المصعد، وبعد أقل من دقيقة، فُتح باب المصعد، فرأت رجلاً أنيقا في الخمسين.. ضغط الرجل على زر فتح الباب؛ ليتنسى لها الدخول بهدوء، إلّا أنها ظلت واقفة أمام الباب لا تدخل. نظر الرجل إليها مبتسما وقال:

– ألا تودين النزول مدام..؟

ارتبكت قليلا وحاولت أن تبتسم، لكنّ ابتسامة متشنجة ارتسمت على وجهها وهي تقول:

– لا.. شكراً.. أنا أنتظر صديقتي.. شكراً..

رفع الرجل الوسيم إصبعه عن الزر فأغلق الباب بسرعة. أحست بشعور مزدوج فيه بعض الاسترخاء؛ لتخلصها من هذا الموقف المحرج والمفاجئ، وفي الوقت نفسه تأسّفت؛ لأنها لم ترافق هذا الرجل الوسيم الذي فيه بعض ملامح زوجها الأول. ابتسمت في أعماقها ابتسامة شيطانية وقالت لنفسها بصمت داخلي: برغم كل مصائب الدنيا ما زلت تبحثين عن الرجال يا حوّاء!

فجأة، فُتح باب المصعد أمامها ثانية. كانت دهشتها كبيرة حينما وجدت الرجل نفسه يبتسم لها ويقول:

– ظننت أن صديقتك قد جاءت فأحببت أن أقوم بخدمتكما..

صمتت لحظة. لم تكن تعرف بماذا تجيب، لكنها تداركت الموقف وقالت بارتباك وعلى عجل:

– شكراً جزيلاً.. لم تأت بعد.. أنا أنتظر..

فقال الرجل مبتسما وهو ينظر إليها بإعجاب وبرقة:

– يمكنني انتظاركما..

- لا.. شكراً..

ارتسمت ملامح الخيبة على وجه الرجل وقال بأدب:

- كما تشائين.. يسرّني أن أخدم امرأة ساحرة مثلك..

صمتت لحظة وفوجئت بكلامه. وبينما كان باب المصعد يُغلق في تلك اللحظة، انتبهت لوجه الرجل الوقور والمبتسم من بين ما تبقى من فتحة باب المصعد، الذي أغلق بسرعة.

كان الوقت يمر بطيئا. فما زال أمامها بضع دقائق أخرى على الموعد. مشت في الممر الموازي وأخذت تنظر إلى أرقام الغرفة. لم تكن تبحث عن شيء وإنما كانت تريد القضاء على الدقائق المتبقية. مشت إلى نهاية الممر، ثم رجعت بتمهل. هي تعرف بأن الممرات كلها مزودة بكاميرات خفية، وأن هناك من يراها في تلك اللحظات؛ لذلك أخذت تتصنع الجدية كأنها فعلا تبحث عن رقم غرفة ما.

حين وقفت أمام باب المصعد كان الوقت ملائما لها، فلم يبق سوى دقيقتين على الموعد. وقف المصعد حيث تقف، وقبل أن تُفتح بابه تمنت أن لا يكون الرجل الخمسيني فيه مرة أخرى. فُتح باب المصعد. كان خاليا من أي نزيل. دخلت. وأُغلق الباب.

* * *

كان المطعم مكتظاً، فلم تكن هناك طاولات فارغة. انتبهت إلى أن إيفا سميث تشير إليها من بعيد. اقتربت بارتباك، إذ انتبه بعض رواد المطعم عند دخولها فأخذوا يتابعونها بأنظارهم، لاسيما الرجال. كانت حواء ذوالنورين جميلة ومثيرة بشكل يلفت الإنتباه.

وصلت إلى الطاولة حيث إيفا سميث تجلس مع امرأة ورجل آخرين. فوجئت حينما التقت نظراتها بنظرات الرجل الجالس. كان الرجل هو نفسه الذي رأته في المصعد. فقام لها احتراماً وقال:

- يبدو أن صديقتك لم تنتظرك فجاءت قبلك..

ارتبكت هي للحظات وابتسمت دون أن تعلق؛ إذ أن إيفا سيمث سألت مباشرة:

- هل أنتما متعارفان..؟

أحست حواء ذوالنورين بالحرج، فبادر الرجل قائلا:

- أبداً.. التقينا عند المصعد.. كانت هي كما يبدو تنتظرك.. بينما كنتِ أنتِ هنا..

- هـل كنـت تنتظرينـي عنـد المصعـد..؟ لقد اتفقنا أن نلتقي فـي المطعم.. أليس كذلك..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين، لكنها سيطرت على ارتباكها فقالت:

- صحيح.. لكني ظننت أنك ستخرجين في الوقت الذي خرجت فيه أنا من الغرفة؛ فأحببت أن ننزل معاً.. وخلال ذلك توقف المصعد عند طابقنا، وكان السيد..

قدّم الرجل نفسه وعلى وجهه ابتسامة رقيقة وبنظرات مليئة بالاعجاب:

- آدم الشامي..
- تشرفنا أستاذ آدم الشامي..

ولأن التعارف تم بينهما بهذه الطريقة؛ فقد بادرت إيفا سـميث لتسـتكمل التعارف الذي جرى بشكل عفوي، فقالت:

- وهـذه صديقتـي حـواء سـفكوني.. تعارفـوا.. هـذه صديقتي حـواء ذوالنورين.. عراقية..
- أهلا وسهلا.. تشرفنا..

مدت السـيدة المدعوة حواء سـفكوني يدها مصافحة، وهي تقول بلهجتها الشـامية المحببة:

- لنا الشرف.. يا أهلين وسهلين بالعراق.. ريح العراق.. كيف تقولونها بالعراقي أهلاً وسهلاً.. شاكو ماكو...

وتعالـى ضحـك الجميـع. وفـي تلك اللحظـة جاء نادل المطعم ليهمس في إذن آدم الشامي، ووقف ينتظر إجابته، فرفع آدم الشامي رأسه ونظر إلى النساء الثلاث نظرة مليئة بالانتصار، وقال بطريقة احتفالية:

- سيداتي الجميلات الفاتنات.. مائدتنا جاهزة.. لقد تم إعداد كل شيء..

نظـرت حـواء ذوالنوريـن باستفسـار إلـى إيفا سـميث، وقبل أن تجيبهـا قالت حواء سفكوني لها موضحة:

- الأستاذ آدم الشامي هو المسؤول الأول في الفندق، وهو أيضا مدير المطاعم والملاهي ومتعهد الحفلات كلها في الفندق.. بل وفي سلسلة فنادق أخرى في دمشق.. يعني هو الملك هنا..

نظرتْ حواء ذوالنورين إلى آدم الشامي وفي أعماقها شعور غامض بأن ثمة وشائج

ربطتها بهذا الشخص، لكن لا تعرف ما هي.

* * *

المائدة التي أُعدّت لهم كانت عامرة بكل مقبلات موائد بلاد الشام الشهية، لكن ما أثار إيفا سميث قبل غيرها هو أن المائدة ليس فيها أي شيء إيطالي، وإنما مائدة سورية لبنانية، حيث صينية المشاوي، والمقبلات اللبنانية والشامية المعروفة، وقنينة نبيذ أحمر، لكنها سكتت لياقة، بالرغم من أنها كانت تحب أن تأكل طبقا من البيتزا الإيطالية فالمطعم اسمه (المطعم الإيطالي)

إهتم العاملون في المطعم بهم بشكل استثنائي، فبين فترة وأخرى يأتي أحدهم ليحمل الصحون الفارغة أو يستبدل بعضها بأخرى، أو يرفع صينية ليأتي بأخرى عامرة. كما كانت قناني النبيذ متوفرة.. لكن ما أثار انتباه حواء ذوالنورين أن الفرقة الموسيقية التي كانت قد بدأت الغناء أخذت تقدم أغاني بلغات مختلفة، بالأنكليزية والفرنسية، ولم تكن الإيطالية من بينها، وحينما سألت مستفسرة عن ذلك، أجابها آدم الشامي بأن المطرب الذي يقدم الأغاني الإيطالية مرض الليلة بشكل مفاجئ؛ إذ تعرض لحالة من التسمم، وأنه استعان بالفتيات الروسيات ليقدمن وصلة من الأغاني والعروض. فأبدت إيفا سميث أعجابها بالمغنية التي قدمت الأغنية الفرنسية، لتمكنها من اللغة الفرنسية ونطقها الصحيح برغم اللكنة الخفيفة الواضحة، إلى جانب إتقانها للحن.

فجأة رن الهاتف النقال لآدم الشامي. أخذ الجهاز ونظر إلى شاشته الصغيرة المضيئة، فارتسمت علامات الإنتباه على وجهه. نظر إلى النساء الثلاث معتذراً بأنه إتصال مهم، وقام مغادراً الصالة. فوجئت النساء الثلاث بالأمر، إلّا أن حواء سفكوني بادرت موضحة:

- الأستاذ آدم الشامي مسؤول كبير.. ليس فقط على المطاعم والملاهي والحفلات، في هذا الفندق وفي فنادق أخرى بدمشق، وإنما هو مسؤول كبير في الدولة أيضا، كما أن لديه علاقات مع رجال مهمين في البلد. وأكيد أن شخصاً مهما من الذين في الأعالي قد اتصل به..

كانت إيفا سميث تفضل الإصغاء بهدوء وتأمل، وكأنها تزن كلام صديقتها وتفسّره مع نفسها؛ مما أضفى عليها مهابة ورزانة خاصة، بينما كانت حواء ذوالنورين قلقة، وكان واضحاً أنها فقدت شيئا من حيويتها عندما انصرف آدم الشامي، وقد انتبهت إيفا سميث

لذلك، فالتفتت إليها وسألتها برقة دون أن تحرجها:

– ما بك..؟ هل أنت متضايقة من شيء ما..؟

– لا.. أبداً.. ما زلت غير معتادة على أجواء المطاعم والحفلات..

فقالت لها حواء سفكوني بتعاطف:

– الله يساعدكم أنت، العراق والعراقيين.. حرب وقتل وتفجيرات.. الله يخرب بيتك يا أميركا على هذا الذي فعلته بالعراق..

ارتبكت حواء ذوالنورين؛ لأنها لا تريد أن تتذكر أي شيء عن العراق، كما كانت تتوجس الحديث في أمور سياسية لا تعرف عقباها؛ فحارت في الإجابة، بينما واصلت حواء سفكوني الحديث وهي تسألها بفضول:

– هل أنت قادمة للإستقرار في سوريا..؟ لقد جاء الكثيرون.. عشرات الألوف، بل مئات الألوف من العراقيين إلى سوريا بعد الإحتلال.. جاءوا محملين بالأموال.. اشتروا البيوت والفلل والقصور؛ حتى تضاعفت أسعار العقارات منذ ذلك الوقت.. ليس سعر العقارات وإنما ارتفعت الأسعار بشكل عام؛ لأن الذين جاءوا هربا من العراق كانت جيوبهم مليئة بالمال..إذا حضرتك كنت ناوية شراء فيلا أو شقة أو أي شيء؛ سيمكنني أن أساعدك،لاسيما وأنت صديقة حبيبتي مدام إيفا..

ارتبكت حواء ذوالنورين أكثر؛ فانتبهت إيفا سميث كأنها كانت تخترق أعماقها وتعرف ما يجري فيها؛ فبادرت لتغيير الموضوع:

– صديقتي مدام حواء ذوالنورين جاءت؛ لتتخلص من كل هذه الذكريات الحزينة.. إنها قبل كل شيء تريد أن تروّح عن نفسها قليلاً.. ولا تريد أن تتذكر أي شيء عن الحرب والدمار والقتل والتفجيرات.. هيّا نشرب نخب هذا اللقاء..

صبت قليلا من النبيذ في الأقداح الموجودة بسرعة ورفعت إيفا سميث كأسها فرفعت المرأتان كأسيهما، وقالت إيفا سميث وهي ترمق حواء ذوالنورين بنظرة تعاطف وصداقة:

– بصحتكم..

– بصحتكم..

– بصحتنا..

فجأة إنسابت أنغام عزف على البيانو. انتبه الجميع.. وقفت فتاة طويلة القامة، شقراء الشعر، تلبس ثوباً أسودَ طويلاً، مفتوحاً من جهة الكتفين، لتغني إحدى أغاني داليدا بالفرنسية.. كانت الأغنية حزينة.. تعتمد على صوت المغنية التي كانت صوتها يرتجف معاناة وحزناً. حين انطلقت المغنية بالجمل الأولى من الأغنية قالت إيفا سميث بتأثر واضح لحواء ذوالنورين:

– هذه من أجمل أغاني داليدا.. سأترجم كلامها لك..

ما أن تعالى صوت المغنية الحزين وهي تكرر المقطع الأول حتى كانت إيفا سميث تترجم لهما كلمات الأغنية الحزينة:

لم أعد أحلم.. لم أعد أدخن

لم تعد لي ذكريات

أنا وحيدة بدونك..

أنا قبيحة بدونك..

أشبه يتيمة في دار أيتام..

لم تعد لي رغبة في أن أعيش حياتي

حياتي توقفت حين رحلت..

لم تعد لدي حياة..

وحتى فراشي تحول إلى رصيف محطة..

عندما هجرتني..

أنا مريضة.. مريضة كلياً..

وكأن أمي غادرت ليلاً

وتركتني وحيدة مع يأسي..

أنا مريضة.. مريضة كلياً..

تأتي.. لا أعرف متى..؟

ترحل.. لا أعرف إلى أين..؟

وها قد مر عامان تقريبا

دون أن تهتم..

مثلما أتمسك بصخرة

مثلما أتمسك بخطيئة ما..

أتشبث بك..

أنا متعبة..

أنا مرهقة لتظاهري بالسعادة أمام الناس..

أمسيت أسكر كل ليلة

لكن كل المشروبات

صارت بلا طعم..

وكل مكان يذكرني بك..

كل السفن تحمل رايتك..

لم أعد أعرف إلى أين أذهب..

فشبحك في كل مكان

أنا مريضة.. مريضة كلياً..

لقد سكبت دمي في جسدك

صرت مثل عصفور ميت

عندما تنام

أنا مريضة.. مريضة تماماً..

لقد حرمتني من كل أغنياتي

أفرغتني من كل كلماتي

وقد ضاعت موهبتي

عندما غادرني جلدك..

حبي لك يقتلني

إذا استمر هذا الحال

سأنفجر وحدي من الألـم..

قرب مذياعي كطفلة بريئة..

أنصت لصوتي منشدا

أنا مريضة.. مريضة كلياً..

وكأن أمي غادرت ليلاً

وتركتني وحيدة مع يأسي

يكفي..

أنا مريضة..

لقد حرمتني من أغنياتي

لقد أفرغتني من كلماتي

إن قلبي مريض كلياً..

ومحاط بسياج من الشوك

ألا تفهم..؟ إني مريضة

لـم تنتبـه إيفـا سـميث إلـى أن عينيها ترقرقتا بالدمع حتى صارت لا تسـتطيع الرؤية بشـكل واضـح وهـي تترجـم لهـم كلمات الأغنية، كما لم تنتبه حـواء ذوالنورين إلى أن خيطـا مـن الدمـع انحـدر علـى خدها أيضاً؛ تأثراً بشـجن الصـوت وتطابق الكلمات مع حالتها النفسية، بل حتى حواء سفكوني كانت متأثرة.

ران صمت دام لثوان، ثم دوى تصفيق حاد في كل جوانب المطعم. استمر التصفيق طويلا.. كانت إيفا سميث تصفق والدموع تترقرق في عينيها، وكذلك صديقتاها. أحست بقرب نفسـي من حواء ذوالنورين؛ إذ انتبهت بأنها إنسـانة حساسـة ورقيقة وفي أعماقها حزن عميق مكتوم، وأدركت بأنها تكتم أسراراً مؤلمة.

لم تستمر إيفا سميث طويلا في أفكارها الداخلية التي كانت تمرق في ذهنها بسرعة خارقة، إذ أن حواء سفكوني علقت على أداء المغنية قائلة:

- الملعونة غنت بشكل رائع.. وكأنها فرنسية فعلاً..
- ومن أين هي..؟

سألت إيفا سميث:

- أعتقد انها روسية.. هناك الكثير من الفتيات الروسيات يعملن هنا.. سواء في الإدارة أو في المطاعم، أو تنظيف الغرف، أو الرقص والغناء..

في تلك اللحظة عاد آدم الشامي، وقال مبتسما للجميع بطريقة مرحة:

- أرجو المعذرة.. كان إتصالا مهما..

فانبرت حواء سفكوني قائلة بمرح قبل الأخريين:

- أنا قلت إنه لا بد ويكون إتصالاً مهماً هو الذي أخذك عنا..إن شاء الله خير..
- لا شيء مهم..إتصال من الذين فوق.. يسألون أن أحجز لهم إحدى أهم القاعات لعرس ابن أحد الوزراء.

قال ذلك وجلس إلى جانب حواء سفكوني متأملا المرأتين قبالته بمودة ورقة مصطنعة؛ إذ كان واضحا أنه مشغول الذهن.

* * *

مر الوقت بطيئا. كان آدم الشامي هو المتحدث الرئيسي في الجلسة. كان يسرف في الثرثرة، ويروي أحاديث عن العاملين والعاملات من غير أن يسأله أحد عن ذلك؛ فقط ليبين أهميته الشخصية، كما كان يضحك لأيّة جملة تافهة تقولها أيّة واحدة من النساء الجالسات معه، وكان يتكلف في سلوكه وحركاته مصطنعا البساطة، وكان إذا قال شيئا ولن تضحك بقية النساء له أو يبدين الإهتمام يستاء كطفل، ويحاول كتمان استيائه، لكنه لا يستطيع أن يخفيه عن ملامح وجهه. وحينما تتاح له فرصة أن يكون مركز اهتمامهن كان ينزلق إلى الوعظ والتشدق بالحكم والحديث عن الفضيلة على الرغم من أن طبيعة عمله لا تشي بكل هذه الفضائل!

ابتسمت إيفا سميث مع نفسها، ابتسامة داخلية تجنبت أن تنعكس على وجهها؛ حينما أخذ آدم الشامي يتحدث عن الفضيلة والأخلاق، ويضرب المثل في كيفية تعامله مع الروسيات، وكيف أنه يساعدهن؛ إذ خمنت مع نفسها بأنه ليس ببعيد عنه أن يمارس دور القوّاد بأخذ هاتيك الفتيات الأجنبيات إلى الشخصيات المهمة التي يتحدث عنها.

في تلك اللحظات تقدم نادل المطعم من الطاولة وسأل إن كانوا يحتاجون أي شيء، فأمره آدم الشامي أن يأتوا بالأطباق الإيطالية من البيتزا والمعكرونة، إلى جانب صينية أخرى من المشويات المشكلة، وأن يضيف للمقبلات أشياء أخرى سمّاها له،

وحينما ذهب النادل ليلبي الطلب التفت إلى حواء ذوالنورين قائلاً وكأنه يخصها بالكلام:

- هؤلاء مثل الأفاعي.. كل تعابير الإحترام التي يقدمونها ليس إلّا من باب النفاق والتملق..

لكنّ إيفا سميث قاطعته قائلة بشكل مفاجئ بالرغم من أنه لم يوجه الكلام إليها:

- لماذا تظنهم يتملقونك..؟ لماذا لا تفكر بأنهم يحترمونك فعلاً..؟!

وقبل أن يجيب على سؤال إيفا سميث المفاجئ الذي أربكه، انبرت حواء سفكوني مدافعة عنه وهي تقول:

- الأستاذ آدم الشامي معروف بطيبته مع الجميع.. تصوروا أنه يكافئ العمال والعاملات بطريقة غير علنية.. يطلب منهم ألا يتحدثوا للآخرين عن مساعدته لهم فردا فرداً.. فهو لا يريد أن يشكروه على ذلك.. ويعمل ذلك لوجه الله ومن باب الضمير الحي..

انتبهت حواء ذوالنورين بأنه ليس فقط يخصها بإهتمامه، وإنما يتتبع كل التفاتة لها، وقد أسعدها ذلك، على الرغم من أنها استشعرت نفور إيفا سميث الخفي منه، فقالت لا إراديا:

- بارك الله فيه على هذه الشهامة..

تضرج وجه آدم الشامي وارتبك فرحا وتألقت عيناه؛ كأنه صار مرتبطا بها بعهد صامت. وكانت حواء ذوالنورين تدرك حاجتها إلى هبّة روحية، إلى رؤيا، إلى مشاعر وإهتمام ينتشلها من قاع كآبتها العميقة؛ فأحست بدبيب من الحياة بيسري في كيانها، وقد انتبهت إيفا سميث لذلك؛ ولهذا لم تشأ أن تعكر صفو الجلسة بالتأكيد على سؤالها الذي لم يجبها عنه، وإنما تناسته، إكراما لمزاج صديقتها التي أخذ بالإنفراج.

فجأة، ارتسمت علامات الدهشة على وجه إيفا سميث، وبرفق لكزت بكوعها حواء ذوالنورين، فانتبهت لها، ونظرت في الاتجاه الذي كانت تحملق فيه إيفا سميث باستغراب، إذ رأت الفتاة الخليجية في ثوب أسود جميل يصل إلى ما فوق الركبتين وبشعرها المصفوف بطريقة جميلة وذراعيها المكشوفتين تسير ومعها رجل أسمر طويل القامة، ضخم الجثة، في حدود الخمسين، وهم يتجهان، يسبقهما النادل، نحو طاولة فارغة في عمق الصالة.

انتبه آدم الشامي إليهما، فأخذ يتابع الفتاة الخليجية والرجل الذي معها بنظراته،

ثم سألهما:

- هل تعرفان الرجل الذي معها..؟
- لا.. لكننا نعرفها هي..

قالت إيفا سميث بلا مبالاة، فأعقبت حواء ذوالنورين لا إراديا:

- تدّعي أن جنياً يعشقها..
- ماذا..؟!
- أخبرتنا أن جنياً يعشقها ويتابعها..

قهقه آدم الشامي بصوت مسموع وعلق:

- ربما الجني هو الرجل الذي معها.. فهو طويل وأسمر كالجن أيضا..

ابتسمت النساء الثلاث. وأثناء ذلك جاء نادلان، فتى وفتاة، بصينية المشويات، وصينية فيها عدد من صحون المقبلات، وقنينة شمبانيا في دورق فضي وسط الثلج، فدبّ نشاط قطع عليهم مواصلة الحديث عن الفتاة الخليجية ومرافقها.

7

صليب حواء ذوالنورين الحجري

لم تتأخر حواء ذوالنورين في السهرة طويلاً، ففي حدود الحادية عشرة، وحينما أخذت الفرقة الموسيقية تؤدي ألحاناً راقصة، أخذت تتململ في جلستها، لاسيما بعد أن لاحظت أن آدم الشامي يرمقها بنظرات متفحصة محاولاً أن يقرأ إمكانية إستجابتها للرقص إذا ما دعاها، ولكي تجنّب نفسها مثل هذا الإحراج، قالت لإيفا سميث بصوت مسموع، بأنها تحس بتعب شديد، ثم التفتتْ إلى الجميع وشكرتهم على هذه السهرة الممتعة.

استغربت إيفا سميث إنسحابها من السهرة، لكنها خمنت بأنها تهرب من آدم الشامي، الذي لم يكن يستطيع أن يخفي إعجابه الشديد بها ورغبته فيها؛ لذلك لم تلح عليها بالبقاء إلّا من باب المجاملة، بيد أن حواء ذوالنورين وجدت نفسها في موقف محرج آخر؛ إذ نهض آدم الشامي ليوصلها، وحين طلبت منه أن يعفي نفسه من ذلك وتستطيع الذهاب، لم يتراجع عن موقفه، بل أصر بطريقة بهلوانية بأنه يود توصيلها؛ ليطمئن قلبه أكثر. نظرت هي إلى إيفا سميث التي ابتسمت لها؛ كأنها تقول لها إنها هي التي أوقعت نفسها في مثل هذا الموقف، إلّا أن حواء سفكوني علقت مباشرة قائلة بمرح:

– ما بك مدام حواء..؟ لماذا أنت مترددة من توصيل الأستاذ آدم الشامي لك..؟ توصيله لك هو رسالة لجميع من في الفندق من إدارة وموظفين؛ أن يحسبوا لك ألف حساب عندما يرون الأستاذ آدم معك..

لم تشأ حواء ذوالنورين ان تكون مشاكسة في جوابها، فقالت بهدوء ورقة:

– لكني لا أريد أن أن يحسب لي أيّ شخص أيّ حساب.. وأنا لا أريد أن يكلف الأستاذ آدم نفسه بتوصيلي..

- ولو.. هذا شرف لي مدام.. تفضلي

قال آدم الشامي ذلك وهو يشير إليها بذراعيه وكأنه يفتح لها الطريق كي تمر. فمشت أمامه وعلى وجهها إبتسامة محايدة، لكنها في الوقت نفسه كانت تفكر بما يمكن أن يحصل خلال هذا التوصيلة. فكرت بسرعة هائلة بأنهما سيكونان ولو لدقائق وحدهما بعيداً عن عيون إيفا سميث وحواء سفكوني وعيون رواد المطعم.. لكن ماذا يمكن أن يحدث..؟ هي لا تنكر بأنه رجل وسيم، وفيه سمات محببة تذكرها بزوجها، في أناقته، وشعره الذي ليس أبيض بالكامل.. وجسده المنتصب، وجرأته.. لكنها تخاف منه.. تخاف جرأته. وأنها تخاف الرجل الجريء، كما هو رجل سلطة في كل الأحوال.. وربما يمكنه أن يتحرى عنها ويعرف سرها.. لكنها ليست مجرمة، ولم تفعل شيئا منافياً للقانون.. فقد غادرت بغداد وجاءت دمشق بشكلٍ قانوني.. ثم.. ثم... يمكنه هو أن يساعدها.. لكن كل مساعدة لها مقابل.. والمقابل الذي يريده هذا الرجل واضح.. كانت الأفكار تدور كدوامة سريعة في ذهنها.

حينما كانا يمشيان خارجين من المطعم كانت هي أمامه، وكان هو يتأمل مؤخرتها المتناسقة، وينظر إلى ما ظهر من ساقيها، متخيلاً فخذيها وجسدها عارياً. وكان يفكر مع نفسه بأن عليه أن يستغل هذه الفرصة النادرة؛ فهي قلما تكون وحدها، لاسيما وقد شربت الليلة كأسين من النبيذ، واسترخت في السهرة، فقد كان هذا واضحاً من حالتها النفسية المختلفة عن الحالة التي أقبلت فيها. لكن كيف له أن يختصر المسافات ليصل إلى ما يريده..؟ هي امرأة جميلة ومثيرة بشكل أخاذ كنجمة سينمائية كلاسيكية.. وواضح من أناقتها أنها من طبقة ثرية.. كما أنه، وهذا هو المهم، يشتهيها.. هو لا يفكر الآن سوى بالحصول عليها.. يمكنها أن تكون عشيقته.. ولو لأيام.. لكن كيف يقنعها بذلك..؟ هي كما يبدو من هيئتها ليست امرأة سهلة أو رخيصة..؟ سأل نفسه، لكنه أجاب عليها في اللحظة ذاتها بأن النساء يبقين نساء..، وعليه أن لا يُفلت هذه الفرصة فربما لن تكرر بسهولة.

قبل أن تصل إلى باب المطعم مشى مسرعاً وصار أمامها كدليل، ثم قادها في الباحة القصيرة أمام المطعم وسار متجهاً نحو المصعد القريب من جهة المطعم. كان برغم جرأته مرتبكاً، وكانت الرغبة تنتشر كتيار جارف في كل مسامات جسده وذهنه، وأحس بتدفق الدماء يسري في عضوه، وبالإنتعاظ، وكان يحدث نفسه بشكل لا ينقطع

بأن عليه أن يحصل عليها بأي شكل، وأن يقنعها، بل عليه أن يجعلها تهابه وتحتاجه؛ كي يتمكن من الهيمنة على جسدها الذي اشتهاه بشكل ملح.. صحيح أن النساء، لاسيما العاملات في مراقص الفنادق التي يدير مطاعهما وملاهيها هن تحت تصرفه، وأنه يستطيع أن ينال أيضاً أيّة فتاة من الأجنبيات والعربيات، لكنه لم يجد نفسه متهيجاً وراغباً في امرأة مثلما هو أمام هذه المرأة العراقية.

حواء ذوالنورين كانت تقلب الأمر أيضا في ذهنها. هي تعرف أنه يشتهيها وهي تسلتطفه، لكنها تخافه، فهو كما قُدم لها مسؤول كبير، وله علاقات مع المسؤولين الكبار في البلاد، وهو محاط بكل هذا الحشد من الفتيات الأجنبيات، وهو محط اهتمام كل العاملين والعاملات في الفندق؛ لذلك فهي إذا تباسطت معه؛ فربما سينظر إليها كامرأة سهلة، وستفقد احترامه لها، بل ربما سيتركها إذا ما حصل منها على ما يريد؛ فهي تعرف أن الرجال لا يستطيعون التفكير إذا تملكتهم الشهوة، وهو الآن كما ترى يريد الحصول عليها بأي شكل.. نعم.. هذا واضح من نظراته، ومن نبرة صوته المشحونة بالرغبة، لكنها تحتاج إلى دعم شخص مسؤول مثله، فلو صدته؛ لربما ستخسره، بل ربما سيتحول إلى شخص عدواني، ويؤذيها..! كيف عليها أن تتصرف..؟ من سينقذها من هذه الورطة، بحيث يمكنها أن لا تفقده، وأيضا أن لا تمنحه أي شيء بسهولة..؟!

حين دخلا المصعد وقف قبالتها وأخذ ينظر إليها برغبة واضحة، مفتشاً في نظراتها عن أية بارقة من الإستجابة. وعلى الرغم من أنها لم تبد له أية إشارة بالإيجاب، إلّا أنه كان يعرف بأن البشر، وخاصة النساء، يبدون أحياناً عدم رغبتهم في الوقت الذي هم في أعماقهم يتحرقون إلى ذلك الشيء، بل ويتمنون بأن لا يولي الشخص المقابل الإنتباه لرفضهم وعدم رغبتهم، والعكس صحيح أحياناً، إذ يبدون رغبتهم واستجابتهم الظاهرية في شيء ما، بينما في أعماقهم يرفضونه ويشمئزون منه، ويتمنون أن لا يأخذ المقابل رضاهم وموافقتهم بنظر الإعتبار، ويعرض عنها.

ظل آدم الشامي مركزاً نظراته عليها؛ فارتبكت، ابتسمت على استحياء وشردت بنظراتها في جوانب كابينة المصعد، لكنه لم يخفض عينيه ونظراته عن وجهها ملاحقاً ارتباكها، إلى أن وصل المصعد إلى الطابق الخامس.

فُتح باب المصعد أشار إليها بحركة مسرحية بأن تتفضل؛ فابتسمت خارجة وتبعها، وهو ينظر إلى قامتها من الخلف برغبة. حين وصلت إلى باب غرفتها، التفتت إليه وعلى

وجهها ابتسامة مرتبكة؛ لتعبر له عن شكرها لتوصيلها إلى باب غرفتها، لكنّه أخذها من ذراعيهـا ودفعهـا إلـى الحائـط المجاور لباب الغرفة. فوجئت بحركته المباغتة، لكنها لم تستطع أن تقاومه. اقترب منها جداً بحيث كانت تتحسس أنفاسه، وقال لها:

- أنا مجنون بك منذ أن رأيتك.. لا أستطيع أن أبعد نفسي عنك..
- أرجوك.. أستاذ آدم..

قالت ذلك بخوف من أن يأتي أحد ما في الممر فيشاهدهما على هذا النحو الفاضح. حاولت أن تدفعه، إلّا أن مقاومتها له جعلته أكثر اندفاعا في تحقيق رغبته، فألصق نفسه بها، فأحس بطراوة جسدها، صدرها الناهد، وبطنها، بل أقحم نفسه بين فخذيها. أحس لثوان بأنها ستفقد اتزانها وتنهار. فجأة، فوجئ هو بها تدفعه عنها بقوة لم يتوقعها، إذ صار بعيداً عنها لمسافة نصف متر تقريباً.

امتدت بينهما لحظات صمت مباغت، نظر إليها بإنكسار دون أن يبدي تراجعاً عن رغبته فيها، وقال لها:

- أنا أعتذر.. أرجو أن لا تفهميني خطأً..! ما كان قصدي سوى أن أعبر لك عن أعجابي الكبير بك..

نظرت إليه للحظات قبل أن تجيب، وفكرت مع نفسها بأن عليها وقد أنقذت نفسها من لحظة الانهيار أن لا تقطع كل الخيوط، ولا تحوله إلى عدو، فكثيرا ما يتحول الرجال إلى أعداء إذا ما أبدت المرأة علامات الإنتصار عليهم؛ لذلك قررت أن ترضي غروره، بإبداء بعض اللباقة، فقالت:

- لم يحصل شيء ذو بال.. أشكرك على الدعوة.. والعشاء.. كانت سهرة لطيفة..
- يعني أنك غير زعلانة مني..؟

سأل آدم الشامي بإرتياح كأنه يتوسل، فقد أدرك بأنه سينالها، والمسألة برمتها هي مسألة وقت؛ لذلك لم يشأ بدوره أن يقطع علاقته بها، فأخذ يبدي لها ندماً مزيفاً، متوسلاً رضاها، مستطرداً..

- أرجو أن تغفري لي تهوّري.. ربما أسأت التعبير عن إعجابي الكبير بك..
- لم يحدث شيء..إنس الأمر.. تصبح على خير..

واستدارت لتفتح الباب، قبل أن تسمع جوابه. وفي اللحظة التي وضعت المفتاح في قفل الباب وأدارته، التصق بها من الخلف بكامل جسده فأطبقت هي الباب ولم

تفتحها، إذ أدركت خلال ثانية من أنها إذا ما فتحت الباب؛ فسيدفعها إلى الداخل؛ لذلك بقيت للحظة جامدة في مكانها، لكنها أحست به متوتراً وهو يتشمم رقبتها من الخلف ويهمس في أذنها بصوت يتقاطع مع انفاسه:

- أرجوك.. اعذريني.. أردتُ أن أعبر عن أعجابي بك.. هلا عذرتني..؟!

صمتت لثوان، أحستْ بشيء من الخدر، لكن شعور الخوف والرهبة كانا أقوى.. ولم تشأ أن يتطور الموقف؛ فقالت وهي لا تزال واقفة في مواجهة الباب، بينما كانت إحدى يديه تتلمس نهديها وتضغط عليهما ويده الأخرى امتدت لتمسح كل جسدها:

- أرجوك أستاذ آدم.. أنا تعبانة.. وأريد أن أنام.. الآخرون ينتظرونك في المطعم.. أرجوك.. لا أريد ان أفقد صداقتك.. أرجوك..

فجأة ابتعد عنها. أحس بالارتباك من لباقتها وهدوئها وعدم تجاوبها الواضح معه، وتوسّلها، رغم عدم صدها ليديه حينما جال في جسدها، فتمتم:

- أنا اعتذر..

وانسحب مسرعا في الممر، غير منتظر للمصعد، وكأنه يتجه إلى درج للنزول، بينما فتحت هي بابها بسرعة ودخلت بخوف. أغلقت الباب بالمفتاح من الداخل.

* * *

كانت إيفا سميث تتحدث مع حواء سفكوني، حينما لمحت آدم الشامي وهو يدخل المطعم وعلى وجهه علامات الكآبة والارتباك، لكنه حالما صار على بعد خطوات منهما؛ حتى ارتسمت الابتسامة على وجهه، وكأن شيئاً لم يكن. و قبل أن يتوجه إليهما أوقف نادلاً كان يمر قربه فتحدث معه.

صمتت إيفا سميث للحظة، ثم واصلت حديثها قائلة:

- من أين كان لي أن أعرف يا حواء بأنها كانت على علاقة بشخص آخر في الوقت الذي كنت أعرف علاقتها بصديقها وصاحبها الأول.... ثم أن أمها حين اتصلت بي لم تخبرني بأي شيء.. بل إن أمها لا تعرف أي شيء لحد الآن.. لأعرف... بل حقاً صرت لا أعرف الناس.. لا أحد يستطيع أن يتأكد من أنه يعرف الآخرين معرفة حقيقية...

كان واضحاً أنهما تتحدثان عن حواء دمشقية. قالت حواء سفكوني متعاطفة مع إيفا سميث:

- شيء طبيعي يا إيفا.. وهل الإنسان قادر على أن يعرف نفسه؛ حتى يكون متأكداً من معرفته للآخرين..؟ لا أحد يمتلك الحقيقة..
- الإنسان لغز.. كل إنسان هو لغز.. الناس ألغاز تمشي.. ألغاز تزداد غموضاً كل يوم يمر عليها..
- نعم.. معك حق.. لكن بالمناسبة.. ما قصة صاحبتك العراقية هذه..؟ إنها كما يبدو حزينة..
- يبدو لي أنها حزينة حقاً.. لا أعرف وضعها بالضبط.. لكنها امرأة لديها من الأحزان ما يجعلها قديسة..
- قديسة..؟ إنك تبالغين..

في هذه الأثناء وصل آدم الشامي إلى حيث تجلسان وعلى وجهه ابتسامة مرحة وقال بصوت احتفالي:

- ماذا أسمع..؟ الناس يرقصون بينما أنتما تتحدثان عن قديسة.. بالله عليكما عن أيّة قديسة تتحدثان..؟
- عن السيدة العراقية التي كانت معنا قبل قليل..

قالت حواء سفكوني بنبرة مريبة وهي تنظر إليه نظرة مليئة بالألغاز. ارتبك آدم الشامي للحظات، لكنه سيطر على نفسه وقال مؤيداً:

- نعم.. نعم.. إنها سيدة فاضلة جداً..

نظرت إليه إيفا سميث لثوان؛ كأنها تريد أن تسبر أعماقه، وتستكشف ما جرى بينهما خلال إيصالها إلى غرفتها، لكنها لم تستطع أن تفهم شيئا مما حدث.

طوال السهرة كانت تراقبه، تستمع إليه ولصديقتها حواء سفكوني التي لا تمل من كيل المديح له، بل أخذت تروي بعض مواقفه الطيبة، التي فسرتها إيفا سميث فوراً بعكس مقاصد صديقتها حواء سفكوني!

أدركت إيفا أن آدم الشامي شخص لديه درع سلحفاة ضد الإهانات؛ فهو بارد الأعصاب لحد إثارة الغيظ، يتقبل كل أنواع الإهانات التي يوجهها إليه المسؤولون الأعلى منه بصبر مسموم وبإبتسامة صفراء مزيفة، لكنه من جهة أخرى صفيق ووقح حينما تتاح له الفرصة لإبراز قوته وسلطته.. وهو منافق، وداهية، إذ كانت سياسته مع موظفيه في المطاعم والملاهي الموجودة في الفنادق التي يديرها غريبة، فهو يكافئ

الجميع بطريقة سرية، حيث يستدعي الموظفين على انفراد إلى مكتبه، ويكافئهم بعطايا بسيطة، لكنها تبقى بادرة طيبة منه كمدير، بيد أنه يطلب من كل منهم أن لا يتحدث للآخرين بأنه كافأه.. ويلح عليه بحفظ السر، لكنه يعرف طبيعة البشر، بأنه إذا ألححت عليهم بحفظ السر؛ فأنك بذلك تسرع في دفعهم لإفشائه.. وهذا ما كان يحصل، حيث كان الموظفون والموظفات يتحدثون في ما بينهم عن المدير الطيب الذي كافأ كل واحد منهم بسرية؛ لذا كان في نظرهم يبدو إنسانا يسمو إلى صفة الملائكة أو القديسين.. ولكل ذلك لم تشعر إيفا سميث بالإرتياح لشخصه، وراودها إحساس غامض بأن شيئا ما جرى بينه وبين صديقتها العراقية؛ فحاولت أن لا تخوض أي نقاش آخر، وبعد فترة قصيرة قامت مستأذنة بالإنصراف بعد أن شكرت صديقتها حواء سفكوني على الدعوة، كما توجهت بالشكر إلى آدم الشامي على كرم ضيافته لهما، واتفقت معهما على أن تلتقيهما غداً في الردهة.

❋ ❋ ❋

خرجت إيفا سميث من المصعد. حين صارت قرب باب حواء ذوالنورين توقفت. أرادت أن تطرق الباب، لكنها فضلت أن تستريح أولا وتتصل بها تليفونيا في ما بعد. وحينما واصلت طريقها في الممر متجهة إلى غرفتها رأت أربع نساء يقبلن من نهاية الممر متجهات نحو جهتها. إثنتان كانتا بلباس الراهبات، حيث كانت واحدة منهما راهبة شابة جميلة جداً، بينما الأخرى راهبة مسنة، أما المرأتان الأخريان فقد كانتا شابتين بملامح شرقية، وترتديان العباءة العراقية.

انتبهت إيفا سميث مرعوبة إلى أن هاتيك النساء الأربع كن يمشين في الممر إلّا أن أقدامهن لم تكن تمس السجاد المفروش على طوال الممر. أحست أن ثمة شيئاً غير عادي يجري في الممر، وقبل أن يصلن إليها كانت قد فتحت باب غرفتها، ودخلت.

دخلت إيفا سميث إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها، توجهت إلى حيث دولاب الملابس. أخذت ثوب النوم وذهبت إلى الحمام. نزعت عنها ثوب السهرة. رجعت وهي في سروالها الداخلي إلى الغرفة. وضعت الثوب على السرير، ثم رجعت إلى غرفة الحمام. عادت بعد لحظات وقد ارتدت ثوب النوم. أخذت ثوب السهرة وعلقته على مشجب الملابس. جلست على حافة السرير. رسمت علامة الصليب، ودخلت في الفراش. لكنها كانت منبهرة، وخائفة. ظلت على تلك الحالة فترة غير قصيرة.. لكنها لم

تستطع النوم.. ولكي تتخلص من وضعها الذي هي فيه أخذت سماعة التليفون وطلبت رقم غرفة حواء ذوالنورين، وبعد لحظة أخذت تتحدث:

- أهلا مدام حواء.. هل أنت نائمة..؟

فجاء صوت الأخرى بما يبدو أنه ساعدها على التواصل في الحديث، فقالت لها:

- أريد ان أخبرك شيئاً.. لقد رأيت شيئا عجباً قبل قليل..

ثم واصلت رداً على صوت حواء ذوالنورين:

- هنا في الفندق.. حينما خرجت من المصعد متجهة إلى غرفتي رأيت أربع نساء.. راهبتين واثنتين بعباءتين سوداوين كالعراقيات.. لكنهن كن لا يمشين على الأرض.. أقدامهن لم تكن تمس الأرض.. وجوه جميلة.. مضيئة؛ فخفت ودخلت غرفتي قبل أن يصلن إليّ.. أرجو أن تصدقيني... هل ترغبين بالنوم الآن..؟ تعالي لنتحدث قليلا.. طيب.. أنا بإنتظارك..

ووضعت سماعة الهاتف، منتظرة وصول حواء ذوالنورين.

* * *

- أتذكر أنني كنتُ أكره أبي جداً.. لا.. لا.. ربما هذا ليس صحيحاً..، فربما أقول ذلك من باب الإنفعال والغضب الداخلي، فأحياناً كنت أحس بأنني أحبه جداً جداً.. لا أدري حقيقة مشاعري بالضبط، لكني متيقنة من أن علاقتي به كانت معقدة جداً....... كان أبي يود أن يكون مولوده الأول ذكراً، لكن هذا لم يحصل، فقد ولدتُ أنا الأنثى.. كنتُ بالنسبة له خيبة حياته الكبرى؛ لذا كان يكرهني كرهاً عميقاً..... لا أذكر يوماً أنه أخذني بأحضانه كأب، أو قبلني حتى ولو بالمناسبات كالأعياد وما شابه، بل إنه لم يبتسم في وجهي بتاتاً..، لا أذكر ذلك.... كان يعاملني كذكر، بل كان يطلب من أمي أن تتعامل معي كولد وليس كبنت.. حتى أنه أخذني مرة إلى دكان الحلاق وطلب منه أن يجز ضفائري ويقصها قصة غلامية.. ولأني كنت نحيلة وطويلة وسمراء، لذا بدوت كغلام حقيقي..(تصمت للحظات)... المصيبة الأخرى التي عقّدت والدي أكثر ودفعته للضغط عليّ أكثر هي أن أمي ولدت بنتاً أخرى...... كنت حينما أراه أشعر بالخوف والرهبة، وأشعر بانقباض في صدري، وارتباك في تنفسي، وتشنج في عضلات أطرافي.. صرت أكره وجوده وارتاح لغيابه.... أحيانا كنت

أتمنى أن يسافر سفراً بعيداً ولا يعود منه.... كنت أعيش لحظات طفولتي حينما لا يكون موجوداً في البيت، لكن ما أن أسمع خطواته وهو يجتاز العتبة حتى ينقبض قلبي، وأشعر بالذعر، فألملم ألعابي من دمى وغيرها فأخفيها، وأنشغل بواجباتي المدرسية.. هكذا نشأت.. وهكذا كنت أتلبس دور الذكر طوال يومي حتى تلبّسني...(صمتت للحظات ثم رفعت رأسها وكأنها تستذكر شيئاً)..... حينما دخلتُ المدرسة الابتدائية، أخذتُ أتصرف مع صديقاتي في المدرسة كولد وليس كبنت.. وكنت على خلاف بقية الفتيات أختار الألعاب ذات الطابع الذكوري، التي اجتهدت فيها حتى صرت أمثل المدرسة في مسابقات الركض للمسافات القصيرة والطويلة.. وكنت أقود فريق المدرسة في لعبتي كرة السلة والطائرة.. وفي المرحلة الثانوية أخذت أمارس ألعابا رياضة أكثر خشونة كالفروسية والملاكمة والمصارعة، بل أذكر جيدا أنني كنت أكره أن لا أكون كبقية البنات، والغريب أنني كنت أقوم بكل ذلك؛ لكي أنال تعاطف أبي الذي أكرهه معي.... وبرغم كل اجتهادي هذا لم أسمع منه كلمة تعاطف واحدة... (صمتت للحظات ثم واصلت).. ربما يجدر هنا أن أذكر بأن كره أبي لي أخذ يزداد حينما أخذت تفاصيل جسدي تتغير، عندما برز نهداي وامتلأت أردافي، وحينما عرف من أمي بأني صرت بالغة وأن العادة الشهرية بدأت تأتيني بانتظام... الآن وأنا في بداية الأربعين، وبعد أن تزوجت وانجبت ولداً، وفقدت كليهما.. زوجي وابني.. أنظر إلى سنوات عمري تلك فأرى أنه لم يكن أبا.. وإنما كان وحشاً آدمياً.

عندما سمعت إيفا سميث جملتها (بعد أن تزوجت وأنجبت ولداً، وفقدت كليهما.. زوجي وابني) أحست برعشة تجتاح جسدها، وأدركت على الفور الجانب الأكبر من مأساة هذه المرأة الجميلة التي قررت أن تكشف أسرارها لها في هذه الليلة الغريبة، لكنها لم تعلق بأية كلمة، بل ظلت صامتة تنظر إليها برقة وتعاطف كبير وترقب، فاستطردت حواء ذوالنورين حديثها:

- أنا امرأة معقدة..(تصمت للحظات.. ثم تواصل).. كنت أحس أحيانا في داخلي برجل يقودني.. كان في تصرفاتي شيء رجولي.. كانت أمي تقول لي دائماً بأني أناطح الرجال في شؤونهم.. أرجو أن لا تفهميني بأني سحاقية وأميل برغباتي

نحو النساء، أبداً لستُ كذلك، بل أنا امرأة طبيعية، ويمكن أن أقول عن نفسي بأني شبقية جداً، لكنني ويا للغرابة لم أستمتع بعلاقتي الجنسية مع زوجي، كنت أحس بالنفور حينما يضاجعني زوجي، بالرغم من أني أحبه وأحترمه، بل كان يعجبني في كل شيء، في علمه وأخلاقه، وشكله، وتعامله، ومنصبه، ووجاهته الإجتماعية.... حينما أرجع في ذكرياتي لفترة شبابي محاولة أن أستذكر أول مرة شعرت فيها بأنني امرأة، أو متى قررت مع نفسي أن أكون امرأة وأرفض دور الذكورة أجدني في متاهة، ولا أستطيع أن أحدد تلك الفترة بالضبط...... (صمت لحظة وكأنما تحاول أن تستذكر التاريخ بالضبط).. ربما كان ذلك حينما انتبهت فيها إلى كرهي الحقيقي لأبي، وقراري بالكف عن نيل رضاه.. أذكر الآن بشكل ضبابي كان ذلك حينما كنت في الرابعة عشرة من عمري، حينما طرت في تلك الليلة محلقة فوق سماء مدينتي.. نعم.. أتذكر تلك الليلة التي مضى عليها حوالي أكثر من ربع قرن كأنها حدثت الآن.. كان الوقت صيفاً.. وكنا محشورين في الحوش، نفترش الباحة للعشاء.. كان أبي يتوسط جلستنا على الأفرشة المبسوطة على الأرض، وكانت أمي تدور كالخادمة المذعورة أمام والدي وأخي الصغير، بينما كانت تنهرنا أنا وأختي الأصغر مني. بالمناسبة، أنا لم أخبرك أن أمي في المرة الثالثة، وبعد خمس سنوات من ولادتي أنجبتْ لأبي طفلاً ذكراً.. وهو الأخ الوحيد.. والذي سقط شهيداً في الحرب العراقية الإيرانية.. وأعادوه لنا أشلاء ممزقة..

مرة أخرى ارتج جسد إيفا سميث بقشعريرة باردة تركت مشاعر خوف وأسى في أعماقها، لكنها لم تقل شيئا.. وإنما واصلت الاستماع إلى صديقتها التي استمرت في حديثها:

- كان أبي لا يستطيع أن يخفي مقته لنا،أنا وأختي، وفرحه المبالغ فيه لأخينا الصغير، رحمه الله... لم يكن أبي عادلاً معنا نحن البنتين، ومعي خاصة، بل كان يكرهنا، وربما بعد ولادة أخي انتبهت لكرهه لي... صحيح أنه لم يبتسم لي أو يحضنني مثل بقية الآباء، وأنه كان يعاملني بقسوة كما قلت سابقاً، لكني لم انتبه للكره الذي تقطّر في أعماقي عبر الأيام والسنين قطرة قطرة حتى امتلأت البئر، وفاضت تلك الليلة، حينما وجدت أمي تتذلل لأخي الصغير برهبة.. نعم..

كانت أمي تخاف أخي الصغير لما له من مكانة عند أبي، وكانت تلبي كل طلباته، وتميّـزه عنـا، بـل إن أخي الصغير نشـأ أيضاً مشـبعاً بـروح الاحتقار لنا، باعتباره هو أفضل منا، وهو مدلل العائلة، وحامل اسمها، وهو محرمنا، ورغباته يجب أن تطـاع وتنفـذ كأوامـر.. لـم أحـب لأمي هذا الدور أمام ابنها، الصبي الذي لم يتعد العاشرة، فهي لا تخشى عليه وإنما تخشاه.. كنت أكره قسوتها تجاه أختي التي تصغرني بسنتين.. تلك التي غادرت عالمنا نتيجة إصابتها بالسرطان الذي لم يمهلها سوى أشهر قليلة.. لذلك تركت العشاء، حينها، وذهبت إلى غرفتي التي أتقاسمها مع أختي.

بدأ الخوف يدب في نفس إيفا سميث وهي تستمع لحكايات الفقدان المهولة التي مرت على حياة هذه المرأة الجميلة، والتي ترويها كأنها حكاية من كتاب قرأته، بل مرق في ذهنا خاطر عابر أن حواء ذوالنورين ربما هي امرأة غير سـوية؛ فليس من المعقول أن يمر المرء بكل هذه المعاناة والفقدان والألم، بينما لا يبدو عليه ذلك، فالمرأة التي تجلس أمامها، والتي اسمها حواء ذوالنورين، امرأة في غاية الجمال والأناقة والرزانة التي تكشـف عن مسـتوى طبقي وإجتماعي راق، وأنها ذات شـخصية هادئة ووقورة، بالرغم من الحزن والقلق الذي لا تسـتطيع أن تخفيه.. ولـم تشـأ أن تواصل تحليلها لشـخصية صديقتهـا التـي جـاءت إليهـا لتتحـدث وكأنها تريد أن تلقـي حملاً ثقيلاً عن كاهلها، لذا واصلت الإستماع إليها:

- في تلك الليلة كان أبي منسجما كعادته مع أخي الصغير، وكان أبي قد حمل معه طعاماً من السوق، مشويات وكباباً، ووضع كل الطعام أمام أخي الصغير.. لم يستطع أي منا أن يعترض، لكن أختي الصغيرة، يرحمها الله، لم تستطع أن تسيطر على جوعها وعلى رغبتها بأن تطلب من أمي أن تناولها شيئا من الكباب، فما كان من أمي إلا أن نهرتها وهي تقول لها: (يامقصوفة الرقبة.. ليأكل أخوك أولاً).... لم أستطع تحمل ذلك فتركت المكان.. كنت متضايقة جداً من تصرف أمي.. لماذا وهي الأم والمرأة أيضا، لاتحس بنا نحن بناتها..؟ لماذا تخاف ابنها الصغير كل هذا الخوف..؟..(تصمت للحظـات)..... أذكر أنني حينها كنت أقرأ في ديوان شعر كلاسيكي وإلى جانبي كتاب لجبران.. بالمناسبة.. كنت دائماً أقرأ في كتابين في الوقت نفسه، هي عادة نشأتُ معها منذ أن بدأت بقراءة الكتب،

فكنت أستعير من مكتبة المدرسة كتابا للمنفلوطي مثلا مع كتاب لجبران، وعلي الانتهـاء منهمـا خـلال أسـبوع، ولـم أكـن أنتظـر أن أنتهي من أحدهمـا كي أبدا الآخـر وإنمـا ابـدأ بأحدهمـا، وحيـن أتعب منه أبدأ بالآخر.. ثم أعود إلى الأول وهكذا... وقد رافقتني هذه العادة حتى عندما كنت في الجامعة... المهم.. في تلك الليلة لم أسـتطع أن أواصل القراءة، فصعدت إلى سـطح الدار.... كانت السـماء تتلألأ بالنجوم.. نجوم كثيرة على غير العادة.. وكنت أشـعر بأن السـماء قريبة وأنه يمكنني أن أمد يدي لأمسـك بالنجوم.. كنت منبهرة.. جمال السـماء بهرني جداً.. فجأة، راودتني فكرة أن أفتش عن نجمتي بين النجوم... يقال بأن لكل إنسان نجمة في السماء، نجمته التي تجلب له السعادة، نجمته التي تراقبه من علياء السـماء، وما عليه إلّا أن يعرفها.. أخذت أحدق إلى السـماء مفتشـة بيـن النجـوم، وفجـأة، ومضـت نجمة كانت مختفية.. أحسسـتُ بأن هذه النجمة هـي نجمتـي... لكنهـا كانـت نجمة صغيرة وبعيدة جداً.. نجمة تومض مثل فنار بعيد.. بعيد... تقطعت أنفاسي من الإنبهار، وأحسست برعشة في أسفل بطني، وبخدر لذيذ يجتاحني، وغمرتني لذة عظيمة.. رافقتها ارتعاشـة رجت جسـدي وكأنمـا مسـني صاعـق كهربائـي... ربمـا كانت تلك أول رعشـة جسـدية أشـعر بها في حياتي.. فجأة، أحسسـت بروحي وجسـدي يرتفعان عن سـطح الدار.. خفت أن أقع من السـطح إلى الشـارع.. لكنني كنت ثابتة.. ولم أشـعر أنني في الهـواء.. وإنمـا أقـف على شـيء ثابت غير منظـور.. وبدأت أرتفع في الفضاء.. ثم استوى جسدي.. وشعرت بالرعب، لكنني شعرت وكأني مستلقية على سرير من زجاج.. ارتفعت إلى الأعلى شيئا فشيئا.. صرت مطلة فوق سطح بيتنا.. ثم أخذت أطير فوق بغداد.. أرى الشـوارع المضيئة تحت، وأرى السـيارات وهي مثل لعب صغيرة تتحرك في الأسفل.. كنت أخمن مع نفسي، هذه هي منطقتنا.. راغبة خاتون.. تلك هي الأعظمية.. والوزيرية.. وذاك باب المعظم.. والميدان.. وشـارع الرشـيد.. والباب الشـرقي.. وسـاحة التحرير.. والتفت ناحية الغرب.. تلك هي كرادة مريم.. والصالحية.. وهناك الشواكة.. ومنطقة العلاوي.. وتلك محطة السكك الكبرى.. وتلك حديقة الزوراء.. هذا هو معرض بغداد الدولي.. وهـذا حـي دراغ.. هـذا شـارع الأميـرات.. هـذه هي منطقة المنصـور بكاملها..

وهناك الوشاش.. والإسكان.. وتلك منطقة الطوبجي.. والكاظمية.. والشعلة.. وأخـذت أحلـق أعلـى.. أصعـد وأصعد.. حتى صارت مدينـة بغداد مثل أضواء قرية بعيدة جداً.. شـعرت بالخوف.. كنت في حالة وجد غريب، وجد ورهبة، لكنني لم أكن أسـتطيع أن أفعل شـيئا، إذ كانت هناك ثمة قوة خارقة هي التي حملتنـي هكـذا... لـم أكـن أعرف إن كان ذلـك حقيقة أم خيال..؟ هل صعدت بخيالـي أم بجسـدي فعـلاً..؟ لاأدري.. لكننـي كنـت أعـرف حتـى لو كان ذلك في الخيال، فأنه خيال ترافقه تجربة جسدية واقعية وإحساس صادق وواقعي.. (تصمـت للحظات،كأنهـا تسـتحضر تلـك التجربـة، ثم تواصـل).. لا أدري كم من الوقت استغرق طيراني فوق مدينة بغداد، لكن فجأة وخلال ثانية هبطت.. هبطت بسرعة خارقة، فوجدت نفسي فوق سطح بيتنا ثانية.. وبدأت أهبط شيئا فشـيئا، ثم اسـتقام جسـدي إلى وضع الوقوف.. وفي تلك اللحظة التي انتصبت فيهـا بقامتـي بالكامـل، فـي تلـك اللحظة بالذات.. وفي اللحظة التي مسـت بها قدماي سطح بيتنا ظهرت أختي على سطح الدار.

شـعرت إيفا سـميث بأن ثمة شـيئا غير طبيعي في حديث حواء ذوالنورين، لاسـيما فـي مـا يخـص تجربـة الطيران والتحليق فوق سـماء مدينة بغداد. فكرتْ مع نفسـها بأن هذا الأمر يشبه أساطير ألف ليلة وليلة، تلك الأساطير كانت تتحدث عن بساط الريح.. كما أنها ربما متأثرة بالأفلام الأميركية، لاسيما أفلام سوبرمان الذي يطير بسرعة مذهلة مخترقـاً الفضـاء، ومتخـذا أوضاعـاً جسـدية مختلفـة.. مرقت في ذهنهـا الفتاة الخليجية وحديثها عن التلبس والسـحر والجن والشـعوذة.. فكرت بغرابة هاتين المرأتين.. لكن ربمـا مـرّت صاحبتهـا بتجربـة روحيـة، لا أحد يسـتطيع أن يؤكد إن كانت فعلاً قد قامت بهذه الرحلة في الطيران والتحليق أو أنها مرت بتجربة روحية.. وبالرغم من أنها كانت قد قررت مع نفسها بأن لا تقاطعها، إلا أنها وجدت نفسها تسألها فجأة:

- وماذا بعد..؟ ما الذي حصل..؟
- ظنـت أختـي أنـي قفـزت من حافة السـور، وأني، هكذا فهمـت الصغيرة، أردت أن أقتل نفسي بقذف نفسي من سطح البناية إلى الشارع، لكنني خفت، أو أنها جاءت في الوقت المناسـب؛ لتناديني لتناولِ العشـاء مما تبقى من المشـويات التي تكرم أخونا الصغير بعد أن شبع أن يتركها لنا.... طبعا أختي فوجئت، بل

ارتعبت، حينما شاهدتني.. لذلك نزلتْ السلم مرعوبة لتنادي أمي بأني حاولت أن أقتل نفسي بالقفز من سطح الدار إلى الشارع.. سمعتُ أنا ما قالته أختي.. ركضتُ خلفها لأوقفها من أن تقول شيئاً عما رأته، لكني لم أستطع اللحاق بها.. حينها حلت الكارثة، فقد سمع أبي ما قالته.. وحينما صرت في الحوش وجدته غاضباً ومتحفزاً مثل الضبع، ثم قفز عليّ، ومسكني من شعري وسحلني على الأرض وأخذ يدوسني بقدمه ويشتمني، مضيفاً بأني أريد أن أفضحه في حياته، وأن أجلله بالعار، وأنه من الأولى بي أن أتجرع السم لأموت على أن ألقي بنفسي من السطح إلى الشارع؛ فيلتم الناس حول جثتي ليفسروا سبب انتحاري حسب أهوائهم..إلا أن الغريب في تلك اللحظات هو أنني لم أنطق بأية كلمة طوال فترة ضربه لي ولم أُبدِ أية إشارة أو علامة على الألم والتوجع، وكان هذا الأمر يغيظه جداً..إلى أن تعب من ضربي وأخذ يتنفس بصعوبة.. حينها.. في تلك اللحظة الغامضة، جاءتني رغبة هائلة لا أعرف مصدرها، في أن أواجهه بكل ما يجول في نفسي... في تلك اللحظة، نظرت إليه بإستفزاز، ومُلء عينيّ كراهية قاتلة، وقلت له:

- أنت ظالم.. أنت لست أبي.. الأب لا يفعل بإبنته هكذا..

صمتت حواء ذو النورين للحظات، وكانت تتنفس بصعوبة، وفهمت إيفا سميث بأنها تستحضر المشهد الحيّ في ذهنها، وتعاني منه لحد الآن.. لذلك لم تعلق شيئا، وانتظرتها إلى أن تواصل بوحها الموجع.. وفعلا.. بعد لحظات واصلت حواء ذوالنورين بوحها المؤلم:

- كانت لكلماتي وقع خطيئة مرعبة وقعت على مسامعه. لم يصدق بأني قلت له ما قلت، فأراد أن يهجم علي إلا أن نوبة سعال خانق حالت بينه وبين ذلك.. استغلت أمي حالته خلال تلك اللحظات، فأخذتني من يدي، وهي تؤنبني لوقاحتي وعدم تربيتي، ودفعت بي إلى غرفتي وأقفلت الباب.. بينما كانت تهديدات أبي بذبحي ترتج في أذني.. كان يشتم ويزبد ويصفني بأني الفتاة المارقة التي سأجلب العار له، وسأنكس رأسه في الحضيض.. وتمنى لو أن (أبوطبر).. وهو قاتل مجنون ظهر في تلك الفترة، وكانت بغداد ترتعد تحت ضربات (طبره)، و(الطبر) هو تعبير عراقي يقابل البلطة...(صمتت للحظات..

ثم واصلت).. بعد ثلاث سـنوات وفي أول سـنة لي في الجامعة توفيت أختي بالسـرطان.. هـل تصدقيـن أن أبـي لـم يتأثـر كثير، وكأني بـه قد ارتاح من عبء ثقيـل بوفاتهـا.. وهـذا مـا زاد مـن نفوري منه... أخي الـذي دخل فترة المراهقة كان مدلل العائلة.. وكان سـيئا في دراسـته، حيث كان يقطع كل مرحلة دراسـية بسنتين.. وبرغم ذلك كان أبي لايحاسبه... على الجانب الآخر كانت وفاة أختي بمرض السرطان قد حطم أمي كليا.. حطمها نفسيا وصحيا.. بل إنها خلال أشهر قليلة من مرض أختي هرمت سـنوات.. أهملتْ نفسـها، وأهملت أبي وأخي.. بـل صـارت لا تخـاف منهمـا.. ربمـا لشـعورها بالذنـب أزاء أختي التـي أذاقتها العـذاب، وكانـت تضربهـا أحيانـا وتعاقبهـا لتحديها الأبن الوحيـد في العائلة... كانت كالتائهة.... (صمتت لحظة.. ثم واصلت).. في تلك الفترة تعرفت على رجل يكبرني بعشـر سـنوات تقريبا.. كان حينها محاميا شـاباً، لكنه كان يملك مكتبا للمحاماة، فهو ابن وحيد لأرملة ثرية تسكن في منطقة المنصور التي هي من أحياء الأغنياء في بغداد.. معه تعرفت على نفسي.. بل يمكنني القول إنني غادرت نفسي.. غادرت الفتاة التي كنتها.. ومعه عرفت جسدي كامرأة، وزواياه الحقيقيـة.. معـه عرفـت القبلـة الأولى والإحتضـان الأول.. معه تفجرت أنوثتي بشـكل هائل أخافني شـخصياً.. وكأنني كنت أثأر من قسـاوة أبي وقمعه لأمي وأختي ولي.. فقد عاشـرت حبيبي معاشـرة المتزوجين قبل أن نعقد أو نتزوج رسميا.. وبقينا لسنوات على تلك الحال..إلى أن بدأت الحرب مع إيران.. ولأن أخي كان قد بلغ الثامنة عشرة ولـم ينه الثانوية، بل رسب لسنتين متتاليتين.. فقد تم سـوقه للخدمة الإلزامية في الجيش.. وأرسـل إلى جبهات القتال...إرسـال أخـي إلـى جبهـات الحـرب؛ كانت الصفعة التـي أيقظت أمي من تيهها وأعادتها إلـى الواقـع، لكـن أي واقـع..؟.. لقـد كانت العائلة مهددة بالفقدان أيضا في أية لحظـة...إذ أخـذتْ السـيارات التـي تحمـل التوابيت المغطاة بالأعـلام الوطنية تمر يوميا لأكثر من مرة في منطقتنا التي كانت تسـمى.. منطقة راغبة خاتون.. (صمتت للحظة وكأنها تسـتحضر وجوها من مقام الغياب.. ثم واصلت).. لا أدري كيـف قطعـت أمـي علاقتهـا مع الواقـع.. فقد صارت تصلي معظم النهار، وتبقى إلى ساعات متأخرة من الليل تجلس في صالة البيت، بيدها سبحة طويلة،

تتابع التلفزيون ونشرات الأخبار التي تنقل أخبار رئيس الدولة وأخبار جبهات القتال.. تقرأ الآيات وتسبح بإسم االخالق مع نفسها، وأحيانا يمكن سماع صوتها.. ربما الآن من المعيب القول بأني كنت أتمنى أن يحدث لأخي شيء ما في الجبهة؛ ليتم بذلك عقاب أبي المتعجرف والمتكبر الذي دمرنا نحن الأناث في العائلة....(صمتت لحظة.. ثم واصلت).. هل تصدقيني بأني كنت مع نفسي أشعر بالسعادة بأني ابنته الكبرى.. التي في السنة الأخيرة من جامعتها لم تعد باكراً..؟.. ومع الأسف.. تمنياتي تحققت بشكل بشع.. أكثر مما تمنيت.. فقد وقفت ذات يوم سيارة حكومية تحمل تابوتا مغطى بالعلم العراقي أمام بيتنا.. طرقوا الباب.. حين فتحت أمي الباب ورأت التابوت المغطى بالعلم العراقي لم تتحمل الصدمة.. أصيبت بصدمة شلتها.. سقطتْ مغشيا عليها.. أبي الذي خرج أيضا ولاحظ سقوط أمي ورأى من فوق السياج التابوت الملفوف بالعلم العراقي على سطح السيارة أصيب بشلل نصفي.. بينما أتضح بأن الذي جاءوا بالتابوت كانوا يسألون عن عنوان عائلة أخرى..

إنقبض صدر إيفا سميث لسماع حديث صديقتها، ولم تكن قد مرت بمثل هذا الألم وهذا الإنقباض في صدرها إلا عندما كانت مراهقة في بدايات الحرب الأهلية التي عصفت بلبنان.. حينما كانت تعبر مع عائلتها إلى الجهة الشرقية من بيروت، وشاهدت شباناً مشدودي الأيدي يقفون عند حائط مهدم، بينما كان يقف بعض الشبان الآخرين قبالتهم وبأيديهم الرشاشات الآلية، وفي اللحظة التي مروا هم فيها أطلق الواقفون وابل الرصاص على الشبان موثوقي الأيدي؛ فسقطوا بسهولة وخفة كما يسقط الثوب من حبل الغسيل.. وحين ابتعدت السيارة كان حاملو البنادق يرشون الجثث بوابل آخر من الرصاص.. حينها أحست بإنقباض وتقلصات في صدرها.. وها هي الآن تشعر بما يشابه تلك الإنقباضات والتشنجات في صدرها عند سماع هذه القصة الحزينة والغريبة لصديقتها.. وكم كانت متشوقة برغم ذلك أن تعرف مصيرها لحين وصولها إلى هذا الفندق..

انتبهت حواء ذوالنورين فجأة إلى إيفا سميث، ورأت تقلصات الألم على جانبي شفتيها والحزن الشفيف على ملامح وجهها، فأحستْ بدفقات من مشاعر المودة الدافئة نحوها، كما انتبهت لحالة الترقب من نظراتها، فواصلت حديثها:

- قد تبدو لك حكايتي غير مترابطة.. لأني وببساطة أقفز على الزمن والمراحل..

لأني نسيت تلك السنوات، كأني سجنتها في قارورة وألقيتها إلى قعر البحر.. ولا أدري كيف انبثقت تلك القارورة في لحظة كالبرق في ذهني... نعم.. التي أمامك الآن هي ليست تلك الفتاة التي أتحدث عنها.. لقد تحولت بالكامل.. أو هكذا ظننت.. لكن عودة كل هذا في لحظة يؤكد أن القارورة قد طفت مرة أخرى على سطح البحر.. يا إلهي..

- لكن ما الذي جرى بعد ذلك..؟ إنك لم تكملي حديثك..
- ما الذي جرى لي..؟ لم تكن أشياء مهمة.. لقد تحررت..
- تحررتِ..؟!
- نعم.. تحررت.. أقصد أن النحس والخراب كان نصيب عائلتنا، كمعظم العوائل العراقية خلال فترة الحرب.. لقد أصيب والدي بالفالج.. وأمي أُصيبت بجلطة دماغية.. وظلت على حالها لمدة شهر.. بعدها استراحت من هذه الدنيا الفانية.. ودعتْ عذابها.. وتخلصت من زوجها الذي لم تعش يوما سعيداً معه.. أما أبي.. فقد كان فالجه كريها.. حيث تشوه وجهه تقريبا.. لكنه ظل شرسا.. بل صار لا يُطاق.. لكنه لم يعد يستطيع أن يشتم ويصرخ كالسابق.. وكانت الضربة القاضية.. حينما وقفت السيارة التي تحمل التابوت المغطى بالعلم العراقي أمام دارنا مرة أخرى.. لكن هذه المرة كان العنوان صحيحاً.. لم أكن أنا موجودة حينها في البيت.. فقد كنت مع حبيبي آدم ذوالنورين الذي صار في ما بعد قاضياً معروفاً، في مكتبه.. وكان قد قرر أن يأتي ليطلبني من أبي وفقاً للأصول.. حينها لم أوافق على هذه الشكليات.. فأنا أعيش معه منذ سنوات.. لكنه أصرّ أن يطلبني من أبي بشكل رسمي.. وحينما وصلنا إلى منطقتنا.. ونزلنا من سيارته.. وجدنا تجمعاً عند بابنا.. ورأيت بعض النساء اللاتي ما أن شاهدنني حتى بدأن بالعويل والبكاء.. لحظتها ظننت أن والدي قد مات.. حينها تجمدتْ مشاعري ولم أذرف أية دمعة.. وحينما دخلت دارنا ووجدت بعض جيراننا، الذين أخذوا يعزونني بوفاة أخي الشهيد.. لحظتها شعرت بالانهيار.. صحيح أنني كنت لا أطيقه.. بل وكنت منذ الطفولة أغار منه.. لتميّزه عني وعن أختي.. لكني أحسست أنه ضحية أبي أيضا.. كما أنه قتل في حرب لا يعرف لماذا أشعلت..؟ إلى جانب أنه ما زال شاباً.. ولم يستمتع بشبابه قط.. وحين

سألت عن أبي قيل لي أنه ذهب مع بعض الجيران لدفن الجثة.. ووسط دهشة الجيران غادرت البيت مع حبيبي..

انتبهت إيفا سميث إلى غرابة بعض تصرفات المرأة التي تجلس أمامها، فهي تبدو رقيقة وحنونة ومن جهة أخرى قاسية القلب؛ إذ كيف لها أن تترك والدها في مثل هذا الموقف، على الأقل إكراما لأخيها.. لكنها في كل الأحوال لا تستطيع أن تحكم عليها، فربما هي لم تكشف كل شيء في ما وراء علاقتها بوالدها.. وانتبهتْ إلى أن صديقتها كانت مستمرة في حديثها، فتابعتها مستمعة لبقية الحكاية.

- لم أعد إلى البيت.. تزوجتُ حبيبي زواجاً مدنياً.. بعد إجراءات معقدة.. وعشت في منزل خاص بنا كان قد أشتراه لنا.. ولم أعد لوالدي.. لكنني تابعت أخباره.. أو في الحقيقة كان زوجي هو من يتابع كل أخباره.. فعرفت من زوجي أن أبي حصل على سيارة من الحكومة؛ إكراما لأخي الشهيد بعد أشهر قليلة من استشهاده.. ولم تمض سنة حتى سمعت أنه تزوج من أرملة شهيد آخر.. وبعد ستة أشهر سمعت أنه وزوجته الجديدة قد تعرضا إلى حادث سير على الطريق الدولي الخارجي.. حيث مات هو فوراً بينما بقيت زوجته ليومين آخرين بعده.. وهكذا.. طويت صفحة عائلتنا.. ولم يبق لي منها سوى الدار التي في راغبة خاتون، والتي انتقلت ملكيتها لي.. وبعد عام ونصف من زواجي رُزقت وزوجي بصبي أسماه والده على اسمه: آدم.. فصار اسمه آدم آدم ذو النورين.. ومرت الحياة.. مع موت والدي طويت حياتي السابقة بشكل كامل.. توغلت في تفاصيل الحياة الجديدة.. سافرت مع زوجي إلى بعض البلدان في ما بعد.. لكنني اكتشفت أنني امرأة ملعونة.. ثمة شياطين تسكن جسدي.. لم يكن زوجي يستطيع إروائي.. كان يسعى لإرضائي بكل السبل.. كان قوياً.. لكن المشكلة فيّ أنا.. أنا التي لم تكن ترتوي أو تشبع.. ولكي أهرب من حالتي ركزت اهتمامي على تربية ابني كي لا أمنح نفسي فرصة للتفكير بأي شيء شيطاني.. فأنا أحب زوجي ولا أريد أن أفكر بأي شيء آخر لإرواء رغبتي المتأججة والتي لا تنطفئ بسهولة.. المسكين زوجي انتبه لحالتي.. وأخذ يراجع الأطباء ويأخذ الأبر المقوية.. وأوصى على أدوية مقوية أخرى.. النتيجة بالنسبة له كانت جيدة.. لكن بالنسبة لي لم تكن كافية..

صمتت للحظات. انتبهت إيفا سميث ونظرت إليها بتساؤل.. تبادلتا النظرات لثوان،

وكان واضحاً بأن هناك الكثير مما يثقل ذهن حواء ذوالنورين وأعماقها، التي نظرت إلى إيفا سميث وقالت لها:

- نحن البشر غالبا ما نروي حكاية ما أو قصة ما بطرق مختلفة، ولأناس مختلفين، وحسب الظروف الزمان والمكان التي تروى فيه القصة أو الحكاية.. لكن عادة ما تكون ثمة رواية واحدة.. في زمان ما ومكان ما، هي الرواية أو الحكاية الدقيقة.. وكل ما روي غيرها لم تكن سوى تنويعات تدور حولها.. وأنا الآن.. في هذه الليلة أروى لك روايتي الحقيقية التي لم أروها سابقا بهذه الصورة.. وربما لن أستطيع أن أواجه نفسي مثلما أواجهها الآن لأرويها مرة أخرى.. لذلك لاتستغربي مني صراحتي.. وغرابة حكايتي.. ولا تستعجلي بالحكم عليّ..

فوجئت إيفا سميث من قولها، وقالت بتعاطف وبنبرة حزينة:

- من أنا كي أحكم عليك.. كلنا خطّاؤون.. وكل منا يحمل صليبه.. أنت تحملين صليبك الحجري الثقيل.. بينما ثمة آخرون يئنون من قشة.. كل منا له حكايته.. وكل حكاية تختلف عن أخرى..

ابتسمت حواء ذوالنورين لها ابتسامة حزينة، ثم واصلت:

- أتدرين يا صديقتي إيفا.. بعض البشر يولدون وفي أعماقهم تستقر أبالسة خبيثة تلوث أرواحهم بالحقد.. والبغضاء.. والحسد.. وكراهية الآخرين بدون أيما سبب.. علما أن هؤلاء لم يمروا في حياتهم بالظروف التي تجعل منهم أشراراً.. وبعضنا يولد وفي أعماقه نهم لا ينطفئ لكل الأشياء.. للمال.. والسلطة. وللشهوة.. وأنا من الصنف الأخير..إذ ولدت وفي أعماقي لهيب من الرغبات.. لا تطفئه مياه العالم.. وكنت أدرك حالتي.. لكنني لكي أبعد الأبالسة عني؛ توجهت فترة إلى الدين.. ليس بالمعنى أنني تحولت إلى امرأة متدينة.. وإنما حاولت ذلك حتى أسيطر على نفسي.. ونجحت قليلاً.. وربما كان نمو ابني أمام عيني، وكذلك حبي لزوجي هو الذي كان يلجمني كما يقال.. وهكذا استمرت الحياة.. ومضت الأيام والسنوات رتيبة.. بحلوها ومرها.. بالنسبة لنا لم تكن الأمور سيئة.. فبعد ثلاث سنوات من زواجنا توفيت والدة زوجي.. فازدادت ممتلكاتنا.. باع زوجي دار أمه.. لكنني كنت قد احتفظت بدارنا التي ورثتها في منطقة راغبة خاتون.. وبرغم المشاكل التي كانت تمر بها البلاد خلال

فتـرة الحـرب.. والحصـار الـذي جـاء بعد حرب الكويـت.. وحتى بعد إحتلال الأميركان للعراق.. فأن عمل زوجي كان يزدهر عاما بعد عام، بل وعين قاضياً في المحاكم الجنائية.. كما أن ابني أنهى دراسته الثانوية.. ودخل الجامعة..إلّا أنني المنحوسة لم أستطع أنْ أهنأ في حياتي؛ فقد كانت الحياة تخبئ لي المآسي المرعبة.. فقد حدث أن قام بعض المجرمين بذبح رجل في شقته؛ لأنهم كانوا يشكون بعلاقة له مع زوجة أخ أحدهم.. وحدث أن كانت قضيتهم الجنائية عند زوجي؛ فحكم على من ألقي القبض عليه منهم بأحكام متفاوتة.. وعلى الذبّاح بالسجن لسنوات طويلة..إلّا أن هؤلاء كانوا من الأحزاب الإسلامية التي حكمت البلاد بعد الاحتلال؛ فقتلوا زوجي أمام باب الدار.. واختطفوا ابني...

أحسـت إيفـا سـميث بغصـة فـي حلقها، وبالكاد كادت تبتلـع ريقها.. صمتت حواء ذوالنورين.. ثم فجأة أخذت تبكي بحرقة.. ذُهلت إيفا سميث من بكائها.. فقد كانت قبل لحظات تتحدث بشكل طبيعي.. وها هي تبكي بمرارة تدفع المقابل إلى البكاء معها.. وكانت تنتظر أن تتوقف عن البكاء؛ لتعرف منها ما تبقى من هذه الحكاية الغامضة..

***

خارج الغرفة.. وعند باب غرفة إيفا سميث كانت النساء الأربع واقفات يتنصتن إلى الحديـث الـذي كان يجـري بيـن المرأتين الصديقتين. كـن ينظرن الواحدة نحو الأخرى بألم.. واحدة منهن، وكانت ترتدي عباءة.. كانت امرأة جميلة جداً.. نظرت إلى الراهبتين والمرأة الثالثة التي كانت تعتمر العباءة السوداء أيضاً، ثم قالت:

- هذه هي زوجة القاضي آدم ذوالنورين الذي حكم بالسجن على الحاج هابيل.. وكمـا تعرفـن فـأن هـذا المدعو الحاج هابيل، قام هو وثلاثة آخرين بذبح حبيبي آدم المحـروم ذات فجـر فـي غرفـة نومـه وعلـى فراشـه.. لكن تـم إخراجه من السـجن بالرشـاوى التـي جمعهـا أصحابه فـي تجمعاتهم وأحزابهـم ودفعوها.. وألقوا القبض على رجل بريء كان يمشي في الشارع، ثم أودعوه السجن باسم الحـاج هابيـل.. أمـا هـذا المدعـو الحاج هابيل فقد قام مع مجموعة من الرجال بإغتيـال القاضـي.. زوج هـذه المرأة المسـكينة.. ثم اختطفوا ابنها.. كما أرسـل بعض أعوانه فقاموا بإغتيالي. مع ابني آدم الملاك..

نظـرت الراهبتـان إليهـا برقـة، أمـا المـرأة الأخرى التـي تلبس العباءة أيضا فسـألت

بتعاطف واضح:

- كيف لنا أن نساعد هذه المرأة، أيتها الطيبة حواء الزاهد..؟
- لا أعرف كيف يا صديقتي حواء المؤمن..؟

كانت الراهبتان تحاولان أن تقولا شيئا، لكنهما صمتتا، فتوجهت المرأة التي اسمها حواء المؤمن قائلة إلى الراهبة الشابة وسألتها بالألمانية:

- هل الأخت إيفا بيرغمان تود أن تقول شيئا..؟
- نعم.. يجب أن نساعد هذه المرأة في محنتها..
- كيـف..؟
- يجب ان نبحث ذلك..

تحركت النساء الأربع ماشيات في الممر نحو الجهة التي جئن منها.

* * *

كانـت المرأتـان فـي الغرفـة هادئتين. وبدا أن حـواء ذوالنورين قد كفت عن البكاء، بـل وأكملـت حكايتهـا، عـن اغتصابها وتصوير المضاجعة معها من قبل المختطفين، ثم قتل أحدهم مع عشـيقها الشـاب صاحب محل حواء وآدم.. ثم زوجها من صديق ابنها قابيـل العباسـي بالقـوة، وعـن انتحـار ابنها آدم بعد أن رأى فيلـم فيديو اغتصابها.. وعن هروبها إلى سوريا..إلى هذه اللحظة التي هم فيها.

صمتـت إيفـا سـميث، وكانـت ملامحهـا تشـي بأنهـا تفكر في ما تود قولـه، وأخيرا نظـرت إلـى حـواء ذوالنوريـن، وقالـت بلهجة عاطفية، وبنبرة فيها نـوع من التردد، لكن ليـس تـردد الخائـف وغيـر الواثق من نفسـه، وإنما تردد الروح المتسـامحة التي لا تريد أن تفرض نفسها، وحلولها وقراراتها، على المقابل كي لا تفاجئه أو تربكه أو تضايقه، بـل مـن أجـل أن تمنحـه الفرصة كي يسـاهم هو في اتخاذ القـرار أيضاً، أنه التردد الذي يخفي طبقات من الحنان والتعاطف نحو المقابل:

- إسـمعيني يـا صديقتـي حـواء.. سـمعت مـرة مـن قال بأننـا إذا أخطأنـا؛ فيجب أن تكون أخطاؤنا صحيحة ومتقنة جداً.. لكننا البشـر نحاول أن نفلسـف جميع أخطائنـا.. أنـا لا أريـد أن أحكـم على مسـيرة حياتك.. فمـا عانيتِهِ يطهرك.. ولا أدري لـو كنـت أنـا مكانـك كيف كنت سـأتصرف..؟ لـذا لا تنتظري مني حكما علـى حكايتـك.. لكـن يمكننـي أن أقـول لـك: ثمـة أناس رؤيتهـم وحضورهم

يشـعرنا بالكآبة بل والتعاسـة.. حتى نشـعر بالإختناق لمجرد حضورهم.. وحتى لـو كانـوا يلقـون بالنكات أمامك.. والعكـس صحيح.. ثمة أناس مجرد رؤيتهم تفتح القلب.. وحضورهم يملأك بالسعادة والفرح.. والتعاطف الإنساني.. حتى لـو كانـوا فـي منتهـى الحزن.. وأنت واحدة من الناس الذين رؤيتهم تبعث على الفرح.. والتعاطف.. لذا فقد قررت مع نفسـي أن أسـاعدك.. وأنا أتفق معك.. لا بد أن نجد حلا لوضعك.. أنا أتفق معك.. لا بد أن تغادري سوريا..

أغرورقت عينا حواء ذوالنورين بدموع العرفان والحب، وقالت بيأس أشبه بالتوسل:

- لكن كيف ستساعديني..؟ كيف لي أن أغادر سوريا..؟

صمتت إيفا سميث قليلاً وعلى وجهها علامات تفكير عميق وقالت:

- إسمعيني.. هل جرى بينك وبين هذا الرجل المدعو آدم الشامي شيء ما..؟
- ماذا تقصدين..؟!
- أنا لاحظت اهتمامه الواضح بك.. ونظراته المليئة بالرغبة إليك.. لكني انتبهت إلـى أنـه حينمـا عـاد، بعـد أن أوصلـك إلى غرفتك، إلى علامـات الخيبة وعدم الرضا على وجهه، بالرغم من أنه حينما جلس إلينا ارتدى قناعه مباشرة، وعاد مرحا، وجنتلمان..

نظرت حواء ذوالنورين إليها وكأنها مذنبة، وقالت:

- مـاذا أفعـل لـه..؟ لقـد حـاول معي.. وكاشـفني بإعجابـه الكبير بـي.. وأراد أن يحصـل علـيّ.. لكنـي ضبطـت أعصابي.. وصددته لكن برقة وبشـكل مهذب.. لقـد كنـت غاضبـة من تصرفه.. فأنا لسـت امرأة رخيصة.. يمكن الحصول علي بهـذه السـهولة.. حاولـت أن أصـرخ بـه.. أن أعبر عمـا يجول في داخلي.. لكن فجأة تملكني خوف غامض شـلّني... فأنا أخافه فهو كما تعرفين لديه علاقات واسعة مع المسؤولين في هذه البلاد..
- جيد أنك لم تصديه بعنف.. ولم تحوليه إلى عدو.. إنه نذل، وضيع في أعماقه، لكن وسامته، ولباقته، واهتمامه المبالغ فيه بالآخرين،وحفظه للكثير من الحكم والأمثـال والمفاهيـم الأخلاقيـة تغطـي علـى أعماقه المعتمـة؛ لذلك فأنه يخدع الآخريـن بسـهولة.. لكـن لا تقلقـي.. سـأتحدث مع صديقتي حواء سـفكوني.. وهي تحدثه بدورها.. وإذا اقتضى الأمر سأحدثه بنفسي.. أنا أعرف أنه يستطيع

مساعدتنا بلا شك..

- أهذا ممكن..؟ أليس في هذا خطر عليّ..؟
- سأقنع حواء سفكوني أولاً.. وإذا أقنعتها؛ فهي التي ستقوم بإقناعه.. لاسيما وأن بينهما كما بدا لي مصالح مشتركة.. مصالح غامضة..
- هل تعتقدين أننا يمكن أن ننجح..؟
- سنحاول بكل السبل.. وثقي بي.. سأحاول مساعدتك..

أحست حواء ذوالنورين بدفق غامر من الحب تجاه إيفا سميث، وأرادت أن تعانقها لكنها أحست بشيء من الخجل، ودارت خجلها بالسؤال المفاجئ:

- وأنت..؟ أقصد أنك عرفتِ قصتي.. عرفت كيف أنا مثل قارب ترجّه أمواج الحياة المتلاطمة.. فماذا عنك..؟
- ماذا عني أنا..؟!
- أقصد.. قصتك.. أحببت أن أتعرف عليك أيضا..

ابتسمت إيفا سميث ابتسامة حزينة، وقالت:

- أنا ربما أختلف عنك.. قصتي بكل ما فيها من أحداث مرة، لا تقاس بقصتك، ولا بالمآسي التي واجهتها أنت.. أنا لستُ قارباً ترجّه أمواج الحياة المتلاطمة، يرسو على الشاطئ بسهولة وخفة ويسر، وإنما أنا سفينة محملة بالهموم الصغيرة، لا يمكنها أن تقترب من الشاطئ لترسو، وإنما تلقي بمراسيها في عرض البحر بعيداً عنه.. لذا فأنني برغم حياتي الباريسية تقليدية في حياتي.. سأحكيها لك.. لا تستعجلي.. ربما ستعيشين معي في باريس..؟ لا أحد يعرف ما تخبئه لنا الأيام..
- إنك توقدين في أعماقي المعتمة شمعة أمل..
- أتمنى أن أكون كذلك حقا..

* * *

في الممر كانت أضواء المصابيح ترتعش، وكأنها شمعة تخبو.. فجأة فُتح باب المصعد فانتشرت بقعة ضوء كبيرة أمام الباب، لكن لا أحد خرج منه.. أغلق باب المصعد.. ومع إنطباق بوابتيه، وهبوطه، انطفأت المصابيح في الممر. في العتمة كانت هناك ظلال تتحرك في الممر. ظلال لأشباح تتقافز في الهواء وتتلاشى فيه.

8

يوم من أيام المدينة المستباحة

قبل أربعة أيام، أي في اليوم الذي غادرت فيه حواء ذوالنورين بغداد، وفي الطريق إلى البيت كان قابيل العباسي قلقاً. إنتحار صديقه وابن زوجته آدم ذوالنورين كان كارثة حلت عليه، فهو لا يعرف كيف سيخبرها بهذه الخبر المشئوم، لذلك قرر مع نفسه بأن يؤجل مسألة إخبارها بما حصل إلى أبعد ما يستطيع، وإذا ما سألته عن ابنها؛ فسيجيبها بأنه في دورته التدريبة، ولم ينته منها بعد.. أحس بأن هذا هو أفضل حل للإستمرار في وضعه الممتع معها، لكنه برغم ذلك كان يشعر بانقباض غامض.

حين لم يجدها في الصالون خرج إلى الشرفة المطلة على الحديقة الداخلية، فلم يجدها هناك أيضاً.. ناداها بأعلى صوته ظناً منه أنها في غرفة النوم بالطابق الأعلى، فلم يجبه أحد.. ناداها مرات عدة.. وأخيرا صرخ عاليا بإسمها، لكن لا أحد يجيب.. ركض صاعداً إلى غرفة النوم، فلم يجد أحداً.. دخل إلى الغرفة الجانبية التي تضم مكتب زوجها الأول.. نزل مسرعاً وقلقاً، والغضب يقبض على نفسه، شاتماً إياها في أعماق نفسه، متوعداً بتلقينها درساً لا تنساه، كي لا تكرر خروجها دون أن تسأله وتستأذنه..إتصل بهاتفها النقال فكان مغلقاً. أحس بمشاعر الغضب تتلاطم أمواجاً في نفسه المستنفرة. خرج إلى باب الدار وطلب مسؤول حمايته أن يسأل أفراد الحراسة عند رأس المنعطف إن كانوا قد رأوها خارجة. بعد قليل عاد ليؤكد له بأنهم رأوها تخرج بعد ذهابه، وأنها أوقفت تاكسيا، وصعدته متجهة إلى الأسواق التجارية.

ظل قابيل العباسي يدور في الصالون مثل ضبع في قفص.. لا يستقر لحظة، لكن وجهه صار محتقنا من الغضب. فجأة خرج إلى الشارع، وصعد إحدى السيارات وأمر السائق بالتوجه إلى جهة الأسواق التجارية في المنصور، وطلب من بعض أفراد الحماية

أن يذهبوا للتفتيش عنها في المحلات هناك.

* * *

الليل يغطي بغداد بعتمة ثقيلة مشحونة بالكوابيس.. شوارع المنصور مقفرة إلّا من سيارات تمرق بين فترة وأخرى مسرعة، وكأن أشباح الظلام تطاردها. أقفلت المحلات التي كانت قبل ساعتين مكتظة وكأن الناس هم غير الناس الذي يبدون الآن خائفين، لائذين ببيوتهم المعتمة منتظرين الصباح الذي يحمل لهم الأمل والموت معاً.

في ذلك الوقت نفسه، وفي إحدى صالات بيت أنيق أشبه بقصر، ذي بوابة عريضة، يقف عندها حارسان مسلحان، مفتولا العضلات، حيث ثمة لافتة صغيرة من النحاس الأصفر، مكتوب عليها: (شركة قابيل العباسي وأخوته للإعلان والإنتاج الفني)، اجتمع خمسة من الرجال بينهم قابيل العباسي جالسين حول طاولة كبيرة، وكان يجلس قبالته رجل يظهر كثيراً على شاشة التلفزيون المحلية بإعتباره من رجالات الحكم الجديد في البلاد، بينما يتصدر الجلسة رجل ضئيل الجسم، أشقر الشعر، وجهه أحمر، مليء بالنمش، عيناه غائرتان في محجرين عميقين وبجفنين كأن لا أهداب لهما، وجنتاه مطعوجتان تشكّلان تقعرين عميقين في جانبي وجهه، أسنانه صفر بارزة، ويبدو عليلاً، نحيل جداً، تكاد تبدو بطنه ملتصقة بظهره، لكنه كان ذا هيبة وسلطة واضحة.

كانوا يناقشون أموراً غاية في الأهمية بالنسبة لهم. فجأة، رفع الرجل الأشقر الضئيل يده، فصمت الجميع منتبهين لما سيقوله. ظلوا للحظات صامتين، إلى أن قال الرجل الأشقر الضئيل بهدوء لكن بحزم وثقة:

- بسم الله الرجمن الرحيم.. جاء في سورة الأنفال „ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم „.. صدق الله العظيم.. وكما ترون فأن أعداء الله من عملاء الأميركان وجواسيس الفرس المجوس يمسكون اليوم بمقاليد الحكم ويعيثيون فساداً في الأرض.. وهم ماضون في غيّهم منذ سنوات.. وليس خافياً عليكم أن بعضهم تعاون معنا حينما كان سجيناً.. أرسلناهم من هنا.. من بغداد العروبة إلى لندن وطهران.. بل أخرجنا بعضهم من السجون وأرسلناهم بعد مسرحيات عن هروبهم البطولي.. لكن بعضاً من هؤلاء انقلب ضدنا بعدما ذاق حلاوة السلطة.. البعض منهم يعرف أننا أقرب إليه من حبل الوريد.. لذا يوجد

بينهم من يطلب ودنا من جهة، لكنهم لا يتوانون في خدمة الأميركان والفرس المجوس.. أنتم تعرفون أن هناك الكثير من كوادرنا في تنظيماتهم المختلفة.. لقد نجحنا في أن نمسك بالسلطة من جديد، لكن بمسميات أخرى... وكما في القاعدة الشرعية: الضرورات تبيح المحظورات.. فلا ضير في ذلك.. للضرورة أحكام.. علينا تحمل تواجدنا بين هؤلاء الخنازير ذوي الذيول.. لكننا لانريد أن يستمر الحال.. بالرغم من أن علينا تجرع كأس الهوان خلال هذه الفترة.. أنتم تعرفون.. بل إن هذا واضح للقاصي والداني، بأننا من يسيطر على البلاد.. قوتنا لا يستهان بها.. علينا أن نتصل ببعض رفاقنا من ذوي النخوة والشرف في الجهات الأمنية والعسكرية.. لعمل الخطة التي اتفقنا عليها.. ستصلكم الإشارة غداً.. الرفيق أبو هابيل (وأشار للرجل الذي يقابل قابيل العباسي والذي يظهر في التلفزيون).. أوضَحَ بأننا قد اخترقنا جهاز الأمن والاستخبارات والجيش، بل نحن في مكاتبهم الخاصة.. لكننا ننتظر ساعة الصفر. إلى ذلك الوقت سنستمر بعملياتنا التي يسهلها لنا رفاقنا وأنصارنا في أجهزة الأمن والشرطة والإستخبارات.. عموما. الإشارة ستصلكم غداً..

قال ذلك ونهض، فنهض الجميع. لم يلتفت لأحد منهم. عند باب الصالة لف رأسه بيشماغ أحمر، وأداره بطريقة، لم يبرز بعدها من وجهه سوى العينين.. التفت إلى المجموعة.. لم يقل شيئا وإنما كان ينظر إلى وجوههم. ثم غادر الصالة..

كان في الباحة الأمامية للبيت أكثر من عشرة رجال مدججين بالسلاح، بينهم من يلبس ملابس عسكرية رسمية.. كانت سيارات عدة، رسمية وسيارات تكسي، تنتظر عند الباب.. تحركت السيارات العسكرية.. صعد هو إلى سيارة تكسي.. تبعته شاحنة وسيارات عادية.. تحركت السيارات في موكب أول الأمر، وحينما صارت في الشارع العام.. تباعدت قليلاً في ما بينها. واتجهت إلى الجهة المعاكسة لمركز المدينة. وغابت في عمق الظلام.

****

تسلل بقية المجتمعين واحد إثر الآخر، وفي أوقات محددة، حيث كل منهم كان يستلم إشارة في جهازه النقال، فيعرف بأن سيارته جاهزة. لم يبق سوى قابيل العباسي في الصالة. كان وجهه مرهقاً، وعلامات الشرود الممزوجة باليأس ترتسم عليه. اتصل

بهاتـف حـواء ذوالنوريـن فكان مقفلاً. راوده إحسـاس أشـبه باليقين بأنهـا أُختطفت؛رداً علـى قتلهـم لآدم المـلا، الـذي ألقـوا جثته قرب دار الحـاج هابيل. قام من مكانه وأخذ يـذرع الصالـة جيئـة وذهابـاً. عاد إلى كرسـيه في الصالـة وجلس. ضغط على زر جرس متنقل أمامه، فدخل المسؤول عن أفراد حمايته، أدى التحية العسكرية له، فقال له قابيل العباسي:

- الظاهر أنهم اختطفوها. هذا ردهم على اختطافنا لهذا الذي كان اسمه آدم الملا، الذي قتله آدم ذوالنورين..
- سـيدي..إلى الآن لا أخبـار مؤكـدة عنهـا.. نحـن غيـر متأكدين بالكامل من أنها أُختطفت.. كل معلوماتنا تشير إلى أنها صعدت التكسي واتجهت نحو الأسواق التجاريـة، لكـن أيـن اختفـت بعـد ذلك.. لا أحد يعرف..؟ ربما علينا أن نرسـل صورتها لبعض خيوطنا..؟ علينا أن لا نسـتبعد ردهم الإنتقامي.. لاسـيما وهم يعرفونهـا شـخصيا.. فقـد سـلمتهم الفديـة.. ولديهم معلومـات كافية عنها وعن حركتها..

نظـر قابيـل العباسـي إلـى رئيـس أفراد حمايته وعلى وجهه علامـات الإتفاق مع ما قال؛ فهو يؤكد ما يجول في ذهنه، لكنه لم يستحسن إرسال صورتها، فقال ونبرة تعب واضح في صوته:

- صورتها.. لا.. لا أعتقد أنها فكرة جيدة.. إسمع.. لقد تعبت من الكلام.. حتى أن صوتي صار يضجرني.. أحس بعقارب داخل جمجمتي.. أو كأن هناك داخل جمجمتي أفاعيَ تلتف في عقدة مسمومة...إسمع.. أجبني بصراحة.. ألم تراودك لحظة خاطرة بأنها عرفت بإنتحار ابنها..؟

بهت مسؤول الحماية. ارتبك. لم يطرأ هذا الأمر على ذهنه، فقال بتوتر:

- مستحيل.. من أين لها أن تعرف..؟
- إذن، لم يبق سوى إحتمال الإختطاف..
- وهو كذلك سيدي..
- علينـا أن لا نمنحهـم الفرصـة.. غـداً.. فجـراً.. أريـد خمس نسـاء.. يتم جلبهن من الكرادة.. وأريد معلومات كاملة عن أسماء الأشخاص الذين اعترف عليهم صاحبهم آدم الملا.. وهذا ليس له علاقة بالخطة الرئيسة..

- أمرك سيدي..
- بعد ذلك ادفنوا جميع الجثث.. أما جثة آدم ذوالنورين فانقلوها للدفن في مقابرنا.. مفهوم..؟
- مفهوم سيدي.. كن مرتاحاً بأننا سوف ننفذ كل شيء.. حينما تستيقظ صباحاً ستجد أن كل شيء قد أنجز..
- إذن.. لنذهب إلى البيت..
- أمرك سيدي.. لحظات ونكون جاهزين..

أدى التحية العسكرية. وانصرف. بقي قابيل العباسي وحيداً. أخذ رأسه بين يديه مفكراً بحيرة وتعب.

* * *

فز قابيل العباسي على أصوات تفجيرات هزت مدينة بغداد. فتح عينيه وهو في حالة ذهول. نظر إلى الساعة المنضدية فرأى أنها تجاوزت السابعة صباحا بدقائق.. نظر إلى الهاتف النقال المجاور لرأسه؛ فلم يجد أي إتصال فائت. نهض مسرعا وهو في بيجاما النوم. هبط الدرج إلى الصالة مسرعا، فرأى من خلال نافذة الصالة العريضة مسؤول الحماية يتوجه إلى داخل الدار. وقبل أن يطرق الباب خرج هو إليه، فاتحا الباب وبيده الهاتف النقال، وسأله:

- ما هذه التفجيرات..؟
- إنها إحدى عمليات الأبطال المجاهدين بالتأكيد سيدي..
- لا..
- كيف لا..؟

سأل مسؤول الحماية مستغرباً جواب سيده الذي أخذ الهاتف النقال وطلب رقماً، ثم بدأ حواره مع شخص في الطرف الآخر..:

- صباح الخير سيدي.. لم يتصل بي أحد كما كان الاتفاق مساء أمس.. فما معنى هذه التفجيرات..؟

ظل صامتا للحظات، إذ كان يسمع جواب الشخص على الطرف الآخر، بينما ظل مسؤول الحماية ينظر إليه بإعجاب مشبوب بتوتر وكأنه يشاركه الإستماع لجواب المسؤول الآخر الذي ناداه سيده بكلمة ياسيدي. بعد لحظات قليلة أنهى إتصاله وعلى

وجهه استرخاء مصحوب بعصبية ساخرة، وقال بتهكم:

- هذه التفجيرات من صنع الحكومة والإيرانيين.. لا دخل لأيّ طرف من تنظيماتنا بهـا.. كنـا نريـد إجـراء عملية.. لكن المعلومات وصلـت بتأجيلها.. فقد علمت القيادة بأن هناك أزمة وخلافات بين هؤلاء القشـامر المتكالبين على السـلطة.. وهم كلما تشتد الخلافات يقومون بالتفجيرات؛ ليوجه الإعلام نحوها. لا ضير. هم يزيدون من رصيدنا الإعلامي مجاناً. نحن لهم بالمرصاد.. وأنتم..
- سـيدي.. بالنسـبة لأوامـرك مسـاء أمـس.. عمليتنـا أُنجـزت بنجـاح.. لكننـا لـم نسـتطع سـوى إختطاف ثلاث نسـاء.. وحاولنا مع إثنتين أخريين لكنهما قاومتا وبدأتـا بالصـراخ فأطلقنـا عليهما الرصاص.. النسـاء المختطفات موجودات في الشركة..

نظر قابيل العباسي إليه نظرة ساهمة، ثم سأل:

- ألم ينتبه أحد لكم حينما قتلتموهما..؟

أجاب مسؤول الحماية وهو يقف منتصبا، بنبرة فيها شيء من الفخر:

- لا سيدي.. كان الوقت مبكرا..إثنتان كانتا تحملان الخبز وبعض الخضروات.. والثالثة يبدو أنها موظفة.. أما المرأتان اللتان قتلناهما فإحداهما موظفة والأخرى كما يبدو طالبة جامعية....

صمت قابيل العباسي للحظات، ثم سأل بطريقة مراوغة:

- هل هن شابات..؟

ابتسم مسؤول الحماية لإداركه ما وراء السؤال من قصد وقال:

- واحدة في منتصف العشرينات.. وإثنتان ما بين الثلاثين والأربعين..
- جميلات..؟
- الموظفة وهي الشابة جميلة جداً.. صفوية.. والإثنتان حلوتان لكنهما ليستا كالموظفة الشابة..
- طيب.. لا تمسوهن إلى أن أراهن..
- أمرك سيدي.. لا أحد يجرؤ على ذلك دون أمرك سيدي..
- الآن.. جهزوا لي الفطور..
- أمرك سيدي.. لكن هناك أمر أود أن أخبرك به..

كان قابيل العباسي يهم بالدخول فتوقف سائلاً:

- ما هو..؟

- عرفت اليوم من أن زوجتك الست حواء ربما عرفت بخبر انتحار ابنها..

ارتسمت علامات الرعب على وجه قابيل العباسي وصرخ بصوت عال:

- ماذا..؟ ماذا تقول..؟ كيف عرفت..؟

فوجئ مسؤول الحماية لرد فعل سيده، وقال مرتبكا:

- أحد أفراد الحماية في الشركة، اتصل صباح أمس بحضرتك بعد الحادث مباشرة.. قبل أن أخبرك أنا.. ويقول إنك لم تعلق على الحادث بكلمة..

فقال قابيل العباسي بعصبية:

- لم يتصل بي أحد.. أين هذا الشخص.. هاتوه..

- حاضر سيدي.. هو غير متأكد.. لكنه استغرب أنك لم تعلق على الحادث.. وربما هي من فتحت الخط واستمعت له.. لأنه متأكد بأن هناك من كان على خط حضرتك..

فقال قابيل العباسي ضاغطا على كلماته:

- قلت إنه لم يتصل بي أحد.. سنذهب الآن إلى الشركة.. انتظرني حتى أغيّر ملابسي..

ودخل مسرعا إلى داخل البيت.. بينما كانت أصوات التفجيرات تأتي متلاحقة بين فترة وأخرى من مناطق قريبة وبعيدة.

9

رجـل بـسنابك حـصان

لم تنم حواء ذوالنورين بعد أن رجعت إلى غرفتها مباشـرة. كانت مرتاحة نفسـياً، لكنـه ارتيـاح مشـوب بقلـق خفـي، فثمة شـيء ما يقلقها، والغريـب أن مصدر هذا القلق هو ثقتها بمسـاعدة إيفا سـميث لها في الخروج من سـوريا. وحين آوت إلى فراشـها لم يأتها النعاس أبداً، فأخذت تداري نفسـها بقراءة رواية (البريء) التي اشـترتها من مكتبة (ميسلون) حينما خرجت مع حواء الكرخي والرضيع هابيل للتنزه.

ألقت الكتاب جانباً. وجدت نفسها تواجه أسئلة جديدة حول شخصية إيفا سميث، من تراها..؟ فكرت مع نفسها، بأنها تبدو كشخصية غير واقعية، تشبه بطلات الروايات الرومانسـية.. امـرأة فاضلـة كمـا يبـدو، لكنهـا تمـارس فضيلتهـا بتواضع كبيـر من دون استعراض للتواضع والتلقائية، فهي هكذا دونما تصنع.. لكنها أيضاً امرأة غريبة الأطوار.. أليـس نـادراً أن تطيـر امـرأة من باريس، تاركـة زوجاً وطفلين،على إثر إتصال هاتفي بأن صديقتها حاولت الانتحار وأنها تريد أن تتحدث معها..؟ لا يفعل ذلك إلا ذوو النفوس العظيمة والقلوب الكبيرة الطيبة.. وها هي تعرض عليّ، بل تقرر مع نفسها، مساعدتي بأن تتحدث مع صديقتها حواء سفكوني وإذا لزم الأمر ستتحدث مع آدم الشامي نفسه..؟ لمـاذا..؟ مـا الـذي يدفعهـا إلـى ذلك..؟ لماذا تتعهد بمسـاعدتي ونحن لـم نتعارف إلّا منذ يومين..؟. أيوجد بشـر بهذا السـمو في عالمنا هذا..؟ أليس هناك غاية ما وراء كل هذا..؟.. كانت حواء ذوالنورين تسأل نفسها، وكان لأسئلتها صوت واضح ورخيم، لكنه صوت في الأعماق. لم تقرأ مقدمة المترجم للرواية الإيطالية وإنما بدأت بالنص الروائي مباشرة. وبرغم أنها وجدت نفسها تنسجم مع اعترافات بطل الرواية في الفصل الأول من الرواية، وهو زوج لعوب، يترك زوجته الجميلة في دوامة الشك، مستغلا حبها له، وحينما يثوب لرشـده ويقرر أن يكرس نفسـه لزوجته الفاتنة، لاسـيما بعد أن اشـتد بها

المرض، شاعراً بذنب كبير أمامها لإدراكه بأنه خانها مراراً، وأن أخطاءه بحقها تكاثرت وتكدست بعضها فوق بعض، وإهانته لها كانت في منتهى القسوة كما يعترف هو، وأنها كانت تعرف خيانته لها مع صديقاتها الحميمات، وأنها كانت تتألم، لكنّ كبرياءها كانت تدفعها للصمت، بل وكانت تغدق عليه بنعمة التسامح.. وكان هو سعيداً بهذه الصحوة المتأخرة، والمشاعر الجديدة التي تجتاحه، لكن تأتيه ضربة من حيث لا يدري، إذ تخبره أمه بأن زوجته حامل، علما أنه كان قد هجرها منذ شهور.

انهت حواء ذوالنورين هذا الفصل من رواية (البريء) للإيطالي غابريلي دانونزيو، لكن فارقتها الرغبة في مواصلة القراءة، إذ وجدت نفسها تفكر لاشعوريا بإيفا سميث مرة أخرى.

ظلت حواء ذوالنورين ساهرة حتى ساعات الصباح الأولى، وهي تقلب الأسئلة، ذاتها، ولا تجد جواباً شافياً، وبينما هي تغوص في لجة الأسئلة، ابتلعتها دوامة النعاس وسحبتها إلى القاع.

* * *

هل هو الحب من أول نظرة..؟ ماذا دهاني..؟ هل هذا ممكن بأني أقع في الحب من أول نظرة..؟ هل هذا ممكن بأني أفقد السيطرة على نفسي لألقي بنفسي كأي مراهق على امرأة في الأربعين..؟ ما الذي يجري معي..؟ لستُ محروماً من الجنس، فأنا أكاد أمارسه يوميا ومع فتيات ونساء مختلفات، فلماذا أتصرف هكذا مع هذه العراقية وكأني لم أضاجع امرأة في حياتي..؟ ثم.. من هي حتى تصدني بهذه الطريقة التي أخجلتني وأشعرتني بالذنب كأي مراهق متهور أمامها..؟ أنا معذور.. لقد وجدت نفسي مندفعاً نحوها، وأنا أعرف أن صاحبي حينما ينتعظ فأن التعقل يصير أمراً شبه مستحيل.. لذلك فالحديث عن التعقل، والعيب، والأخلاق يصبح مجرد ثرثرة ولغواً لا طائل منه.. نعم.. أنا أعرف نفسي جيداً.. عقلي في قضيبي حينما ينتعظ، وهو الذي يقرر وليس أنا؟ ثم ما الذي جرى لي هذه الليلة؟ أنا عادة أفضّل الإصغاء على الكلام، فهو الذي يضفي عليّ مهابة ورزانة تجبر المقابل على التعامل معي باحترام مهما كان منصب الشخص المقابل في الجلسة؛ فلماذا صرت مثل المهرج أضحك لكل كلمة، وأكاد أطير فرحاً لكل إبتسامة منها..؟ بل لقد وافقت على بعض الآراء التي عادة أنا لا أتفق معها! و صرت مثل خطيب يرسل المواعظ باحثا عن بعض المعجبين؛ أكل هذا من أجل امرأة؟

أيعقل أن أكون أنا آدم الشـامي الذي يتملقني كبار المسـؤولين؛ لكي يحظوا بكرمي في إرسال بعض الفتيات إلى جلساتهم الخاصة، أنا المحاط بكل هؤلاء النساء الجميلات مـن مختلـف الأعمـار والجنسـيات.. فكيـف أنا آدم الشـامي، أجدني ألهث ماداً لسـاني كالكلب وهازّا ذيلي راكضا أمام وخلف امرأة لا تعيرني اهتماماً كافيا..؟!

كان آدم الشـامي جالسـاً بكامل ملابس السـهرة في جناحه أمام شاشـة التلفزيون، وأمامـه طاولـة فضيـة متنقلـة، عليها قنينة من شـراب (الجن) قد شُـرب ما يقارب ثلثها، وصحـن مـن شـرائح الخيـار والطماطم والجبن، وكأس مليئـة بعصير الليمون، وصحن بلوري فيه بعض المكسرات المالحة. وعلى الرغم من أنه كان يواجه نفسه بهذه الأسئلة الصريحة، إلا أنه لم يكن مسـتاءً مما جرى، سـوى أنه كان مسـتغرباً مما طرأ عليه من تحولات نفسية منذ أن التقى حواء ذوالنورين وهو يشعر برهبة وبفرح خفي أمام جمالها وأنوثتها؛ فمجرد التفكير فيها، حتى ولو من خلال إنتقاد نفسـه؛ يشـعره بالفرح، ويبث في نفسه دفقاً من المشاعر اللذيذة.

فجـأة سـمع طرقـاً علـى الباب. وضع كأسـه علـى الطاولة الفضيـة المتنقلة، وصاح بالطارق:

- تفضل.. أدخل..

فُتح الباب، فارتسـمت علامات الدهشـة على وجهه. كان أحد مسـؤولي الأمن في المطاعم الموجودة في الفندق والذين علاقتهم المباشرة به. ابتسم الرجل له حينما رآه وأمامه قنينة من شراب(الجن)، وقال بنبرة فيها شيء من الإعتذار:

- عفواً أستاذ آدم.. لا أريد أن أعكّر عليك ليلتك.. فأنت في وقت راحتك.. لكن حدث شيء ما غريب وغامض.. وأردت أن أحيط به علماً..

انتبه إليه آدم الشامي بالكامل، وسأل مستغرباً:

- ماذا حدث..؟!

صمت مسؤول الأمن قليلاً، ثم قال:

- هل تتذكر فتاة خليجية كانت مع رجل أسمر طويل القامة.. في المطعم الإيطالي حيث كنت حضرتك مع ضيوفك الليلة..؟

صمت آدم الشامي لثوان مستذكراً، ثم قال:

- نعم.. أتذكرها.. ما لها..؟

- أقصد هل تتذكر الرجل الذي كان معها..؟
- نعم.. أذكره.. ما له..؟
- لقد تشاجر مع رجل آخر بعدما خرجت حضرتك مع ضيوفك..
- تشاجر..؟
- يعني لم يصل الأمر إلى الضرب والتشابك بالأيدي.. لكن كاد..
- لماذ تشاجر..؟ ومع من تشاجر..؟ ولماذا لم تخبروني بالأمر..؟
- لم يصل الأمر إلى التشابك والضرب.. أي تمّت تهدئة الأمر بعد دقائق.. وانتهى التوتر عندما غادر هذا الرجل مع الفتاة الخليجية المطعم.. ولقد فهمنا من خلال الشجار بينهما بأن الرجل الآخر، وهو إيطالي، كان قد شرب كثيراً، ثم أخذ ينظر إلى الفتاة الخليجية التي تبدو أنها أعجبته.. فما كان من مرافقها طويل القامة إلا أن سأل الرجل الإيطالي عن سبب النظر إلى الفتاة بهذه الطريقة الوقحة.. ويبدو أن الرد لم يعجبه.. وهكذا تطور الأمر.. لكن الشجار كله لم يستمر سوى دقائق.. وكما قلت لحضرتك، انتهى بسرعة عندما طلبت الفتاة منه أن يغادرا.. فطاوعها.. وغادرا المطعم..

كان آدم الشامي يريد زبدة الكلام.. لذلك كانت نظراته تشير للمقابل بأن ينتهي من كلامه، وحينما وجد أن مسؤول الأمن يطيل القصة ليضفي على نفسه شيئا من الإهتمام، قاطعه قائلاً:

- إذن.. انتهى كل شيء بسلام.. هذه الأشياء تحصل بين فترة وأخرى.. فما الغريب والغامض في هذا كله..؟
- صمت مسؤول الأمن لثوان، ثم قال وكأنه يذيع سراً:
- قدماه..
- قدماه..؟ ما بها قدماه..؟!
- لم يكن يلبس حذاءً عادياً.. كان الحذاء مربع الشكل أو دائريا قليلاً، أشبه بسنابك حصان..
- ماذا..؟!
- نعم.. أقسم لك.. لقد انتبهت أنا لذلك.. فهذه القامة الطويلة.. والجثة الضخمة كعملاق.. كانت ترتكز على قدمين مدورتين صغيرتين..

صمت آدم الشامي للحظات، وهو يحاول أن يتخيل الأمر، ويجد له تفسيراً في نفسه، ثم قال:

- ربما أنت واهم..؟ ربما لم تر الأمر جيداً..؟ هل شربت شيئا الليلة..؟
- أنت تعرف سيدي بأننا لا نشرب خلال الواجب.. فهذا غير مسموح.. وإنما بعده.. وأنا شخصيا لا أشرب قط.. كما أن البحث عن العلامات المميزة للأشخاص هي من مهمتاتنا العادية.. بل ومن أولى مهماتنا..
- والآن.. ما في الأمر..؟

أحس مسؤول الأمن بالإرتباك والإحباط قليلا، لكنه حاول أن لا يبدي ذلك، فقال مبتسماً:

- لا شيء.. وددت أن أخبرك بالأمر.. مجرد أن أعلمك به..
- أنا لا أجد في الأمر شيئا غريباً وغامضاً.. فقد يكون الرجل معاقاً منذ الطفولة.. ويلبس حذاءً طبياً حسب طبيعة قدمه.. على أي حال شكراً لك.. هل أصب لك كأساً..؟
- لا شكر على الواجب سيدي.. كما أني لا أشرب.. والآن، اسمح لي بالإنصراف..
- تفضل..
- تصبح على خير..
- مع السلامة.. وتصبح على خير.

خرج مسؤول الأمن ونظرات آدم الشامي تشيعه إلى أن أغلق الباب خلفه. حاول للحظات أن يستذكر مشهد رؤيته للفتاة الخليجية والرجل طويل القامة الذي دخل معها ومرا من أمام طاولتهم، لكنه لم يجد في مشيته أو هيئته ما يثير الاستغراب.. ابتسم مع نفسه.. فكر مع نفسه بأن مسؤول الأمن هذا جاء لغاية أخرى، لكنه ارتبك، وغير رأيه في اللحظة الأخيرة؛ فاختلق هذه القصة التافهة عن قدمي الرجل طويل القامة اللتين تشبهان حدوة الحصان.. فكر مع نفسه أن مسؤول الأمن يقول بأنه لا يشرب، وهو شخصياً لا يثق بمن لا يشرب.. صمت لثوان دون أن يفكر بشيء، وكأنما تعطل ذهنه عن التفكير لثوان.. مد يده ليأخذ كأسه ثانية.. ارتشف شيئا منه، ثم مد يده لكأس العصير فأخذ رشفة منه أيضا.. أخذ قطعة من الخيار ليقضمها بهدوء.. أحس بسريان

مجدد من الدفء يسري في كيانه.. بعد لحظات وجد نفسه يفكر في حواء ذوالنورين مرة أخرى.

إنهمرت الأسئلة والخواطر على ذهن آدم الشامي في ما يخص حواء ذوالنورين، إذ بدأ يسأل نفسه، بأنه على الرغم من أنه قضى معها ومع صديقتها السهرة كلها تقريباً، لكنه لم يعرف عنها أي شيء، سوى أنها جاءت إلى الشام لقضاء بعض الوقت، ولم يفهم منها هل هي هاربة من السلطة الجديدة في العراق كحال عشرات الألوف من العراقيين الذين كانوا مرتبطين بالنظام السابق أو الإقتتال الطائفي، أم هي جاءت للسياحة والراحة فقط كحال أبناء السلطة الجديدة الذين يأتون إلى الشام للراحة والإستجمام، وللقاء أحبتهم، والإستمتاع بأموالهم المكتنزة والتي لا يجدون أية وسيلة للإستمتاع فيها في بلادهم..؟ إنها كما يبدو من ذوي الجاه، لكنها أنيقة بشكل ملفت،ولا أعتقد أنها ممن لهم علاقة بالسلطة الجديدة، فهؤلاء معظم نسائهم من المحجبات، ولا يأتون للسكن في مثل هذه الأماكن الفاخرة، وإنما يذهبون إلى منطقة السيدة زينب، أو إلى جرمانا، والأغنياء منهم يستأجرون شققا سكنية في منازل برزة أو منطقة البرامكة أو ركن الدين.. بينما هي اختارت السكن في هذا الفندق الغالي الإيجار قياسا بغيره..؟ ثم لماذا هي وحدها..؟ أيكون أنها تنتظر أحداً ما..؟ زوجاً أو عشيقاً..؟ لكنها طوال السهرة لم تتحدث أي شيء عن نفسها، وحتى حواء سفكوني لم تعرف عنها الكثير.. ثم ما الذي ألقى بها على هذه اللبنانية المتفرنسة إيفا سميث؟ أترى تعرفان بعضهما منذ زمان أم تعارفتا هنا في الفندق..؟ لا.. يبدو أن علاقتهما قوية، وهذا يعني أنهما تعرفان بعضهما قبل مجيئهما إلى الفندق..؟ لكن كيف؟ عموماً عليّ أن أتقرب منها بلطف؛ كي لاتفزع وتنفر مني..؟ عليّ أن أكون أكثر رزانة كي أنال إعجابها. بالتأكيد سأراها غداً على مائدة الفطور. لكن متى يأتي الصباح..؟!

صب لنفسه شيئا من الكحول، وارتشفه في جرعة واحدة. ارتسمت علامات تشنج على وجهه من شدة الكحول. فمد يده مسرعا إلى كأس الليمون ليرتشف منه.

* * *

بعد أن غادرت حواء ذوالنورين بقيت إيفا سميث تفكر بما روته لها لفترة طويلة، ثم قررت النوم. أطفأت المصباح المركزي في الغرفة، معتمدة على إنارة المصباح الجانبي الخاص للقراءة. فجأة سمعت طرقاً خفيفاً وحذراً على الباب. أحست برجفة

تسري في كل كيانها. حدست بأن الطارق ليس حواء ذوالنورين في كل الأحوال، لكن ما من تراه..؟

نهضت بهدوء من سريرها. لم تلبس نعلاً، وإنما مشت على أطراف أصابعها نحو الباب. ومن العين السحرية التي تتوسط الباب نظرت بحذر إلى الطارق، فارتدت مرعوبا، وهي تشهق من المفاجأة. لقد كانت النساء الأربع عند الباب. كن ينظرن إلى جانبي الممر. طرقن طرقة خفيفة أخرى، إلا أن إيفا سميث لم تتحرك من مكانها، بل ولم تستطع أن تكرر محاولتها النظر من خلال العين الساحرة وسط الباب. ولكن ما أن سمعت وقع خطواتهن وهن يبتعدن في الممر؛ حتى تجرأت للنظر من العين الساحرة، فلم تجد أحداً، وصارت تنظر بشكل جانبي، فلمحت ظلالهن وهن يمشين مبتعدات في الممر. أحست بانقباض وتشنج في صدرها، وبصعوبة تنفسها، فوضعت يدها على صدرها. وحركت يدها حركة من يصلي على الطريقة المسيحية. رجعت إلى سريرها. دخلت تحت الفراش وأطفأت مصباح النور الجانبي وهي تردد كل ما تعرفه من صلوات إنجيلية.

* * *

الردهة العامة الكبيرة خالية تماماً، والكراسي مقلوبة على الطاولات. ثمة موظفة خفيرة تجلس في مكتب الإستعلامات، وفي جهة الشارع من بوابة الفندق كان حارسان تابعان لإدارة الفندق يقفان بملابسهما المدنية.

التفتت موظفة الإستعلامات إلى أحد الممرات الجانبية حينما سمعت وقع خطى غير طبيعية، ليست بصوت خطى أقدام بشرية، أو حتى ليس وقع خطى حذاء نسوي من ذوي الكعوب العالية. لم يكن أحد في الممر الذي جاء منه الصوت الغريب. فجأة، خفت الضوء في ذلك المرر، وفُتح باب المصعد. التفتت نحو جهة المصعد فلمحت رجلاً طويل القامة خرج من المصعد واتجه إلى ممر جانبي يتقاطع داخليا مع الممر الذي فيه المصعد. وحين عادت الإضاءة إلى قوتها الطبيعية أدركت أن الصوت يأتي من خطوات الرجل، وحينما نظرت إلى قدميه من بعيد راعها أنه لا يلبس حذاء، وأنه يكاد يكون بلا قدمين.. راودها شعور غامض بأنها ربما تحلم.. نهضت عن كرسيها لتمضي خلفة وتتأكد مما رأت وما سمعت من وقع خطى غير بشرية. تركت المكتب وتتبعته، لكنه التف مختفيا في الممر المتقاطع. حين وصلت التقاطع، لم تجد له أثراً

على الرغم من أن الممر طويل جداً، كما أنها لم تسمع فتح أو إغلاق أي باب في الممر. أحست بشعور غريب هو مزيج من الخوف والرهبة والسخرية من النفس. حينما وصلت مكتب الاستعلامات لم تأتها الرغبة في الجلوس وحيدة، لكنها أيضا لا تستطع أن تذهب إلى غرفتها فهذا وقت خفارتها.. نظرت إلى الباب الرئيس للفندق فرأت الحارسين.. لم تشأ أن تناديهما فهما يقومان بواجبهما هناك.. ولم يكن مصادفةً أي من رجال أمن الفندق الذين يتوزعون عادة بشكل مكثف داخل الردهة.. فالوقت الآن متأخر، إذ تجاوز منتصف الليل بأكثر من ساعة ونصف.

رجعت إلى كرسيها مضطرة، لكنّ ثمة شعوراً غير مريح قبض على نفسها، وبينما هي تحاول أن تبث الشجاعة بنفسها في نفسها بالسخرية من كل هذه الخرافات والخزعبلات، سمعت الصوت يأتي ثانية، ورأت الرجل طويل القامة يقبل من جهة الممر الذي اختفى فيه متجها نحو المصعد. نظرت إليه، كانت عيناه، برغم أنه بعيد عنها بضعة أمتار، تشعان بلون أحمر. أحست برعب حقيقي. إلا أن الرجل طويل القامة دخل المصعد. سمعت باب المصعد وهو يُغلق، ثم يبدأ بالصعود إلى الأعلى. أحست بقلبها يخفق بسرعة، فقامت من مكانها متجهة نحو بوابة الفندق لتنادي الحارسين وتخبرهما بما رأت، إذ شعرت بخوف حقيقي.. لكنها وهي في طريقها إليهما سألت نفسها بأنهما سوف يضحكان منها ولا يصدقانها. لم يكن يهمها أن يصدقاها أو لا في تلك اللحظات، وإنما ما كان يهمها هو أن لاتكون وحدها.

10

الشيطان البريء

وصلت حواء ذوالنورين إلى المطعم المفتوح في الردهة لتناول الفطور الصباحي فلمحت إيفا سميث جالسة وحدها على كرسي حول طاولة معدة لأربعة أشخاص. نظرت إليها محاولة أن تقرأ في ملامحها ما يمكن أن يكون له علاقة بحديثهما الذي جرى في وقت متأخر من ليلة البارحة.

بدت حواء ذوالنورين مرهقة الملامح قليلاً من قلة النوم، لكنها كانت تستمد نشاطها من الهواجس الغامضة التي تسكنها. كانت كأنها تنتظر شيئاً غامضاً لا بد وأن يحصل هذا اليوم.. وأحست أن مصيرها كله مرتبط بهذه المرأة النادرة، إيفا سميث، التي وكأن ثمة قدراً غامضاً أرسلها إليها.

جالت بنظرها سريعاً في المطعم مستعرضة الطاولات الأخرى ومن يجلس حولها، والزاوية التي اصطفت عليها مائدة الفطور الطويلة، وزحمة الناس حولها وهم ينتقون الطعام في صحونه، ثم استقرت نظرتها ثانية على إيفا سميث التي بدت لها من بعيد مرتبكة قليلاً. ركزت نظراتها عليها للحظات.. لم يكن أمامها أي صحن من الطعام، وإنما كوب خمنت أنه قهوة. بدت لها ساهمة النظرات، شاردة الذهن، مع شيء من الإرتباك كانت تحاول أن تكبته بحيث لا يبدو على ملامحها أو حركاتها وهدوئها.

توجهت نحوها. ألقت عليها تحية الصباح، فرفعت إيفا سميث رأسها إليها وعلى وجهها إبتسامة رقيقة، وكأنها ليست تلك المرأة التي بدت قبل لحظات ساهمة النظرات وشاردة الذهن. وسألتها إن كانت قد فطرت فأكدت لها بأنها تكتفي بالقهوة أول الفطور، لكنها ستفطر معها.

وضعت حواء ذوالنورين حقيبتها على كرسي مقابل لها ومضتا إلى المائدة. بينما هي تقف في صف الناس الذي كانوا أمامها رأت الفتاة الخليجية التي بدت لها شاردة

النظرات، خجولة، وهي تحمل صحناً مليئا بالفواكه المقطّعة، وصحنا آخر فيه قطعة من الكرسون ومعلبات صغيرة من الشكولاتة والعسل، وهي تتجه بعيداً عن المائدة. حيّتهما بصمت وبهزة من رأسـها، فهزتا هما بدورهما رأسـيهما، وكأنهن كن يتجنبن الحديث مـع بعضهـن. بعـد قليـل حالمـا اقتربتا من طاولتهما حتى لمحتـا الفتاة الخليجية تجلس وحدها في زاوية الردهة وتتناول فطورها بهدوء وكأنها غائبة عن العالم المحيط بها.

لم تمض سوى دقائق قليلة على انتهاء الفطور واستمتاعهما بشرب القهوة حتى ظهر أمامهما آدم الشـامي كأنه انبثق من العدم. بدا لهما أنيقا أناقة لا تغفلها العين، متعطراً، برائحة عطر رجالي زكي لم تستطع كلتا المرأتين أن تعرفا اسمه. شعرت حواء ذوالنورين بفرح خفي يجتاحها وبإرتباك لم تستطع أن تخفيه بالكامل، لاسيما وأنها حدثت صديقتها عن كل ما جرى بينهما ليلة البارحة في الممر عند باب غرفتها. كان يبتسم لهما مبدياً مشاعر صداقة وفرح حقيقيين، ثم قال:

- صبـاح الخيـر علـى أجمـل أميرتيـن فـي الشـام.. أرجـو أن يكـون الفطـور قـد أعجبكما.. كيف نمتما ليلة أمس..؟

أدركـت إيفـا سـيمث حراجـة موقـف صديقتهـا فبـادرت بالإجابة وهي تبتسـم برقة مجاملة:

- شـكراً جزيلا.. الفطور جيد.. وكذلك نمنا مرتاحتين.. ومرة أخرى شـكراً على السهرة اللطيفة ليلة البارحة..
- أوه.. هذا شيء بسيط.. لقد كان لي الشرف بدعوتكما..

انتبه آدم الشامي إلى أن المرأتين تودان البقاء وحدهما، فانسحب بلباقة قائلا:

- هل من خدمة يمكنني أن أسديها لكما.. أنا والفندق تحت أمرتكما..

صمتتا للحظات. نظرتا إلى بعضهما بنظرات سـريعة خاطفة، وابتسـمتا في الوقت نفسه، وقالت له إيفا سميث:

- شـكراً جزيـلا.. هـذا لطـف منك أسـتاذ آدم.. كلك ذوق.. أكيـد إذا احتجنا إلى شيء ما فسنتوجه إليك قبل أي شخص آخر..
- يشرفني أن أكون في خدمتكما..

لم يذهب مباشـرة. ظل للحظات واقفاً. كان لا يريد أن يغادرهما رغم انتباهه إلى أنهما لا تودان بقاءه واقفا عند طاولتهما. كان يبحث عن أي شيء يبرر وجوده معهما.

فجأة التفت نحو زاوية الفتاة الخليجية، وارتسمت علامات غامضة على وجهه، وانحنى قليلاً على مائدتهما قائلاً بصوت خفيض وكأنه يسر إليهما بأشياء مهمة وخاصة:

- بالمناسبة.. هل عرفتما ما حدث ليلة أمس في الفندق..؟

رفعتا رأسيهما إليه بدهشة في الوقت نفسه، وقد برق في ذهن كل منهما شيء يخص النساء الأربع.. وقبل أن تنطقا بالإجابة واصل هو حديثه، وهو يهيىء نفسه للجلوس معهما:

- هل تسمحان لي بالجلوس معكما قليلاً..؟

- تفضل..

قالت إيفا سميث وقد أحست برغبة في أن تعرف شيئاً عن النساء الأربع اللاتي رأتهن ليلة أمس في الممر. جلس هو والفرح يشع من كيانه. نظر إليهما وانحنى قليلاً وأخذ يتحدث:

- ليلة أمس حدثت مشاجرة في المطعم بعد خروجنا..

- ماذا..؟ مشاجرة في المطعم..؟

انتبه آدم الشامي إلى أنه يبدأ بداية سيئة قد تنال من سمعة الفندق، فاستدرك قوله:

- ليست مشاجرة بالضبط، وإنما بعض التوتر.. بين الرجل الذي كان مع تلك الفتاة الخليجية وشخص آخر..

رانت لحظات صمت عليهم، إذ لم تعلق أية منهما على حديثه، وشعر بأنه لم يثر اهتمامهما، لكنه واصل حديثه:

- بالمناسبة.. هل رأيتما شيئا غير عادي في الرجل الذي كان مع الفتاة الخليجية..؟

نظرت المرأتان لبعضهما البعض، وحركتا رأسيهما بالنفي، وقالت حواء ذوالنورين مستفسرة:

- ماذا تقصد بشيء غير عادي..؟

اهتز آدم الشامي فرحا ونشاطاً حينما سألته حواء ذوالنورين، فلأول مرة يسمعها تتحدث منذ وقوفه عندهما، فقال:

- شيء غير عادي يعني علامة مميزة في هيئته.. أو سلوكه.. أو مشيته..؟

نظرت المرأتان لبعضهما وهزتا رأسيهما بالنفي، إلا أن حواء ذوالنورين عقبت قائلة:

- بإستثناء طول قامته وضخامتها التي كانت واضحة،لم يكن هناك ما يلفت

الانتباه..

- هـذا مـا انتبهـت أنـا لـه أيضا.. لكن مسـؤول الأمن فـي الصالة أخبرني بأنه انتبه لمشيته..

فسألت إيفا سميث بسرعة:

- مشيته..؟ ما الذي كان يميز مشيته..؟

كانت إيفا سـميث تفكر في النسـاء الأربع اللاتي شـعرت وكأن أقدامهن لا تمس الأرض. آدم الشامي أحس بأنه أثار اهتمامهما، فقال بحرارة وحميمية وبصوت خفيض:

- انتبه مسؤول الأمن في الصالة إلى أنه كان بلا أقدام.. وإنما كانت له سنابك.. سنابك حصان..

- ماذا..؟

صرخـت حـواء ذوالنوريـن دون إرادة، وارتبكـت إيفا سـميث، وقد ارتسـمت على وجهها علامات تسـاؤل، لكن وجهها كان يشـي بأنها كانت تفكر بأشـياء بعيدة، إلا أن آدم الشامي استمر في حكايته المثيرة، قائلاً:

- نعم.. لقد أكد لي مسؤول الأمن في الصالة بأنه كان بلا أقدام.. لكن ليس هذا هو المهم في القصة.. وإنما ما رأته الفتاة التي كانت في مكتب الإستقبال خلال فترة خفارتها..

لم تسأل أي منهما عن شيء، ظلتا صامتتين، بينما واصل هو الحديث:

- بعد منتصف الليل سـمعت موظفة الإسـتقبال أصوات غريبة تشـبه وقع سـنابك الحصان تتعالى في أرجاء الممرات.. ثم رأت ظل رجل طويل القامة يخرج من المصعد.. ويتجول في الممرات.. لم تنتبه له أول الأمر.. وإنما انتبهت لصوت وقع حوافر أشـبه سـنابك حصان.. ثم رأته.. كان يتجول بين الممرات.. حينما تتبعتـه.. اختفـى عنـد أحد منعطفات الممـرات الجانبية.. وحين عادت للمكتب ثانية سـمعت وقع السـنابك.. ثم رأته مرة أخرى.. ومن بعيد رأت ضوءً أحمر يشـع مـن عينيـه.. ارتعبـت.. اتصلـت بأحد حـراس الفندق.. فتـش معها.. كانا يسمعان صوت وقع سنابك الحصان الرتيبة.. وحينما يتتبعان الصوت إلى الطابق المعني.. كانا لا يجدان أحداً لكنهما يسمعان صدى الصوت..

صمـت آدم الشـامي، بعـد أن لمـح علامـات الرعـب الخفي علـى وجهيهما.. فجأة

سألته إيفا سميث:

- أليس من الممكن أن يكون كل ذلك من أوهام الفتاة..؟
- لا أدري..

أجاب آدم الشامي مرتبكا، ثم قال وكأنه يؤيد فكرة الوهم:

- لقد فتشت اليوم في سجلات النزلاء.. وتأكدت من شخصياتهم وغرفهم.. فلم أجد له اسماً.. ولا حجزاً فندقياً.. كما أن الفتاة الخليجية تسكن في غرفتها وحدها.. لا أحد معها.. ولا أعرف كيف جاء إلى الفندق.. ربما كان ضيفا عليها.. لكن لو كان بالمواصفات التي ذُكرت لي، لكان حارسا بوابة الفندق قد انتبها إليه أيضا.. فمهمتهما مراقبة الأشخاص ودراسة ملامحهم..
- غريب..!
- لا غريب إلّا الشيطان..

هيمن صمت مفاجئ على الجميع. وكأن فكرة الشيطان الغريب قد انبثقت من العدم في أذهانهم.. لكن لم يصّرح أي منهم بها. فجأة، التفت آدم الشامي نحو الفتاة الخليجية؛ فوجدها كأنها تتحدث مع شخص وهمي يجلس أمامها. كانت تنظر إلى الأمام وكأنها تستمع لأحدهم كأيّة تلميذة مطيعة. ظل ينظر إليها للحظات ثم سأل وهو ما زال ينظر إليها:

- هل هي وحدها.. أم تجالس أحداً..؟
- من..؟
- الفتاة الخليجية..

التفتتا إليها. كانت تبدو لهما كأنها تنظر إلى شخص مقابل غير منظور. فقالت إيفا سميث:

- يبدو وكأنها تحدث شخصاً ما.. يبدو لي أنها فتاة ممسوسة.. تعتقد أن جنياً ما يعشقها..
- ماذا..؟!

سأل آدم الشامي مستغرباً.

- نعم.. هكذا حدثتني.. لكن هل سألتها عنه..؟
- عن من؟

- عن الرجل الغامض.. الذي أقدامه سنابك حصان..
- لا.. هذه فكرة جيدة..

فجأة نهض عن كرسيه.. وقال لهما:

- لحظة.. وسأعود..

اتجه آدم الشامي نحو الفتاة الخليجية، بينما ظلت حواء ذوالنورين وإيفا سميث صامتتين، إذ كل منهما كانت تحاول تفسير ما سمعت في أعماقها، فجأة سألت حواء ذوالنورين صديقتها:

- أتصدقين هذه الحكاية..؟!
- لا أعرف يا حواء.. العالم مليء بالغرائب والأشياء الغامضة.. ليس كل ما نصدقه حقيقي.. مثلما ليس كل ما لا يتطابق مع العقل والمنطق يعني أنه غير حقيقي.. أتدرين أن المواصفات عن الرجل سنابك الحصان هي مواصفات إبليس.. أو الشيطان.. كما قرأت في بعض الكتب..؟
- إبليس..؟الشيطان..؟ هل له سنابك كالحصان..؟
- هكذا يصورونه في كتب القرون الوسطى.. لديه وجه عنز أحيانا.. قرنان.. لحية تيس.. وجسد بشري ينتهي بسنابك..
- آها.. نعم.. نعم.. شاهدت مثل هذه الصور..

التفتتا إلى آدم الشامي فوجدتاه يتحدث مع الفتاة الخليجية.. فجأة التفتت إيفا سميث إلى صديقتها وسألتها:

- وأنت..؟ هل تصدقين ما سمعت..؟ ماذا تعتقدين..؟
- أنا..؟
- نعم أنت..

أكدت إيفا سميث سؤالها مبتسمة.

- والله لا أعرف بماذا أجيبك يا إيفا.. أنا رأيت بشراً أسوأ من إبليس نفسه.. إبليس يُعد ملاكاً قياساً ببعض البشر.. بل هو ملاك فعلاً.. ألم يأت في الكتب المقدسة بأن الله قال للملائكة بأن اسجدوا لآدم إلّا إبليس.. هذا يعني أن إبليس ملاك..
- نعم.. لكنه ملاك ملعون..؟

- وهل تحق اللعنة على الملائكة..؟ أيبقى ملاكاً حينما يُلعن.. أم يفقد سمته الملائكية..؟ وإذا ما فقدها فماذا يصير..؟ ثم هناك من يقول بأنه من الجن.. لكنه كان في الجنة.. والجن لم يكونوا في الجنة وإنما في أقطار السماوات.. مثل البشر على الأرض..؟

كانت إيفا سميث تنظر إلى حواء ذوالنورين بإنتباه شديد وكأنها تحاول أن تستشف من وراء هذه الأفكار شخصية صديقتها. في تلك اللحظة وصل آدم الشامي إلى مائدتهما، ودون أن يستأذن سحب الكرسي وجلس عليه، وهو يقول:

- لا أكاد أصدق ما سمعت.. هذا شيء غير معقول.. جنون مطبق..!
- ما الذي حدث..؟ ماذا قالت..؟ لماذا أنت متوتر بهذا الشكل..؟

سألت إيفا سميث بفضول. كانت القلق والشرود بادياً بوضوح على وجه آدم الشامي الذي أخذ يتحدث بهدوء.. وكأنه يفكر بأشياء أخرى أثناء كلامه، قائلاً:

- هذه مجنونة.. مجنونة بشكل رسمي.. تقول إن إبليس في المدينة.. في الشام.. بل وفي الفندق..
- ماذا..؟!

سألت المرأتان بصوت مسموع في وقت واحد تقريباً. مرت لحظات صمت مشحون بتوتر وخوف وترقب. واصل آدم الشامي:

- إنها تهذي.. قالت كلاماً لا يقبله العقل.. والغريب قالته بمنتهى الجدية والثقة والقناعة.. قالت إنها تعرّفت على الرجل الأسمر الطويل الذي جاء إلى المطعم معها هنا في الفندق.. وإنه ليس رجلا عادياً..إنه إبليس..إنها تعرفت عليه هنا في الفندق..
- تعرفتْ على من..؟!

سألت إيفا سميث..

- تعرفت على إبليس.. أو الشيطان.. تقول إنه مقيم هنا في الفندق.. بل وإن لديه شققاً وأجنحة في كل الفنادق الموجودة في دمشق.. بل ولديه بيوت، وأحيانا غرف في دور محددة في المناطق الفقيرة، ولديه قصور في الأحياء الغنية أيضاً.. و ليس هذا الأمر في سوريا فقط وإنما في كل بلدان الكرة الأرضية..
- إنها تهذي.. هي ليست طبيعية.. نحن نعرف ذلك..

قالـت إيفـا سـميث، وكأنهـا تحـاول أن تهدّئ من قلقها الغامـض الذي أخذ يجتاح ذهنها، إلا أن آدم الشامي واصل حديثه:

- هي تقول إن الشيطان جالس معها.. لكن لا يراه الآن غيرها.. وحينما نظرت إلـى الجهـة التـي تنظـر إليها لم أجد أحداً.. الكرسـي الذي قبالتها فارغ.. لكنها تنظر وكأن ثمة شـخصاً هناك.. بل قالت لي بأن الشـيطان يعرفني جيداً.. وأنه جلـس معـي مـراراً.. كانـت تحدثنـي وكأنها تنقل إليّ كلامَ الشـخص المجهول الغامض غير المرئي الذي يجالسها.. هذا شيء غير معقول.. وحين سألتها عن الغرفة أو الجناح الذي يسكنه في الفندق إذا ما كان كلامها صحيحاً.. ابتسمت لي وقالت بأنه لا يحتاج أن يسـجل اسـمه في سـجل النزلاء من البشـر.. فهو الشيطان.. الملاك الملعون إبليس.. هو ليس بشراً..

برغـم التوتـر والقلـق الـذي هيمـن علـى أذهان الجميع، إلّا أن ظل ابتسـامة غامضة ارتسـمت علـى وجـه حـواء ذوالنوريـن. انتبـه هـو لذلـك. لكن وضعه النفسـي لم يكن ملائمـا لمواصلـة الحديـث؛ فنهـض فجأة من مكانـه، وقف لحظة وعلى وجهه علامات الشرود، وسأل:

- هل تحتاجان لأي شيء.. أنا بخدمتكما.. عليّ أن أتحقق من بعض الأمور.. أتمنـى لكمـا نهـاراً طيبـاً.. أي شـيء تحتاجانه سـتجدان مكتبـي مفتوحاً لكما.. تحياتي..
- شكرا للطفك ولذوقك..

قالت إيفا سميث، بينما ودعته حواء ذوالنورين بإبتسامة رقيقة متعاطفة، تألق وجهه على إثرها. وحين غادرهما سألت إيفا سميث صديقتها:

- لماذا إبتسمت حينما كان يتكلم..؟
- ابتسمت حينما قال بأن الشيطان قال بأنه يعرفه جيداً.. وجلس معه مراراً..

دون إرادة منها قهقهت إيفا سميث، وقالت بمرح وكأنها نسيت توترها:

- الشيطان لم يقل له ذلك.. وإنما الفتاة الخليجية نقلت له عن الشيطان..
- سواء هي قالت ذلك عن لسان الشيطان.. أم أن الشيطان قال ذلك.. لا فرق.. فهو في كلتا الحالتين رفيق الشيطان!

تعالى ضحك إيفا سميث ثانية، ثم سألت:

- وهل صدقت بأنه يعيش في الفندق..؟
- مَن..؟
- الشيطان..

وضحكتا كأنهما ترويان نكتة مرحة. استمرتا في الضحك.. بل تصاعدت ضحكاتهما بشكل هستيري، وكأنما أرادتا أن تسربا كل قلقهما وتوترهما النفسي عبر نوبة الضحك الهستيري التي أصابتهما. كانتا لا تتكلمان؛ فحالما تنتهيان من موجة ضحك وتنظران إلى بعضهما البعض حتى تدخلان في نوبة جديدة من الضحك الذي أثار انتباه بعض الجالسين.. وشيئا فشيئا هدأتا.. كانت عيونهما قد ذرفت شيئا من الدمع من كثرة الضحك. فجأة، فزت إيفا سميث وهي في جلستها حينما رأت النساء الأربع يغادرن بوابة الفندق.. نهضت من مكانها.. ودون أن تقول شيئا لصديقتها توجهت نحو بوابة الفندق مسرعة.. بينما كانت نظرات حواء ذوالنورين تلاحقها بإستغراب.

خرجت إيفا سميث إلى الشارع.. اختفت عن أنظار حواء ذوالنورين.. ظلت حواء ذوالنورين مستغربة تصرف صديقتها.. خطر في ذهنها خاطر بأن إيفا سميث ربما ليست طبيعية أيضا.. ثم ابتسمت مع نفسها وقالت لنفسها بصوت هادئ داخلي: ومن منا طبيعي أصلاً..؟!

بعد مرور دقائق قليلة دخلت إيفا سميث إلى ردهة الفندق متجهة نحو حواء ذوالنورين، وحالما وصلت سألتها حواء ذوالنورين:

- ماذا حصل..؟ لماذا فزت وخرجت إلى الشارع..؟
- ألم تري النساء الأربع..؟
- أية نساء..؟!
- النساء اللاتي خرجن من الفندق قبل قليل.. النساء اللواتي حدثتك عنهن ليلة البارحة.. اللواتي يمشين دون أن تمس أرجلهن الأرض..
- لم أرَ أية نساء.. أنا أجلس وظهري إلى بوابة الفندق.. لكن هل أنت متأكدة من أنك رأيتهن..؟
- كيف أكون غير متأكدة..؟ ولماذا قمت لأتبعهن لو لم أرهن..؟
- أنا أقول ذلك إنني لم أر شيئاً يمر.. أنا أجلس قبالتك.. يعني أن عليّ أن أراهن قبلك وهن يقبلن من جهة الاستعلامات ليتجهن إلى خارج الفندق.. وأنا في

الحقيقة لم أر شيئاً..؟

نظرت إيفا سميث إليها للحظات مستفهمة،ثم سألتها:

- هل أنك متأكدة من أنك لم تري شيئا..؟
- تقريباً..
- تقريباً..؟

أحست حواء ذوالنورين بأن إجابتها غير شافية، فقالت موضحة:

- أقصد أنني لم أكن منتبهة.. لكن أربع نساء يمشين دون أن تمس أقدامهن الأرض بالتأكيد كن سيثرن انتباهي.. ثم أنهن أربع.. وكما أخبرتني ليلة البارحة بأن إثنتين منهن بملابس الراهبات وإثنتين بعباءات شرقية مثل النساء العراقيات.. يعني كن يثرن انتباهي لو كنت رأيتهن مقبلات من جهة الممرات والمصاعد والإستعلامات.. أليس كذلك..؟

صمتت إيفا سميث للحظات ثم قالت:

- لا أعرف.. لم أعد أعرف شيئا في هذا الفندق الغريب!
- وكيف لنا أن نعرف..؟

التفتت إيفا سميث في ما حولها، وفجأة حانت منها التفاتة نحو الفتاة الخليجية وقالت وكأنها وجدت الجواب:

- هي تعرف.. وستعطينا الجواب ربما.. فهي الوحيدة التي ترى ما لا نراه..
- من..؟
- ومن يكون غيرها.. تلك.. صديقتنا في المصعد..؟

نظرتا إلى بعضهما البعض وكأن إيفا سميث كانت تنتظر التأييد والموافقة من صديقتها، التي قالت:

- ربما.. ربما أنت محقة فعلاً.. فهي إنسانة غامضة..

تبادلتا النظرات كأنهما اتفقتا بصمت على الخطوة التالية. التفتتا إليها وحيتاها بإيماءة من رأسيهما، فردت التحية بإيماءة أيضاً.

* * *

حينما غادر آدم الشامي طاولة إيفا سميث وحواء ذوالنورين كانت تلح عليه رغبة قوية في أن ينفرد مع نفسه، وأن يتوجه لجناحه الشخصي وليس لمكتبه.. توجه إلى

المصعـد.. ضغـط علـى زر يشـير إلـى الطابق الثاني.. حيث يقـع جناحه في أقصى أحد الممرات.

حيـن دخـل آدم الشـامي جناحـه وأطبـق الباب وجد أن الصالة مضـاءة بأنوار قوية. وستائر النافذة المطلة على ردهة الفندق مسدلة، وعلى امتداد الجانب نفسه حيث الشرفة المطلة على الردهة، وفي الفسحة بين الشرفة والنافذة كان الرجل الأسمر، طويل القامة، الذي رافق الفتاة الخليجية للمطعم الإيطالي يجلس على الصوفا الجلدية الأنيقة.

شعر آدم الشامي بقشعريرة تسري في كل جسده انتهت برجفة هزته بشكل واضح، وبـدون إرادة منـه ألقـى نظـرة علـى قدمي الشـخص الغريب الذي دخـل جناحه بصورة غامضـة، والـذي حدثتـه عنـه الفتاة الخليجية قبل قليل في المطعم المفتوح في الردهة.. كانت قدما الزائر الغامض مثل سنابك الحصان.. امتلأت عينا آدم الشامي برعب ممزوج بدهشة حاول جاهدا أن يسيطر على نفسه بحيث لا تفضحه نظراته، لكن في تلك اللحظة بالذات أحس بشـيء يغيم ويتداخل ويتلاشـى خلال ثوان، حيث اتضح المشـهد أمامه مرة أخرى لكن القدمين تحولتا إلى قدمين عاديتين بحذاء جلدي أسود جديد، ولم ير الرجل الأسمر طويل القامة، وإنما رأى شاباً أشقر، وسيماً جداً، متوسط الجحم، رشيق الجسـد، ذكره على الفور بممثل نمسـاوي يمثل في الأفلام الإيطالية.. شـاهد له أفلاماً عديدة.. لكنه نسي اسمه في هذه اللحظة.

أحس آدم الشـامي أنه في حالة غيبوبة سـحرية.. وأن ما يراه ليس سـوى رؤيا غير طبيعية فلا أحد هناك.. وإلّا ما معنى هذه التحولات الغامضة، غير أن صوت الشخص الغريب أخرجه من غيبوبته، حينما سأل:

- أنت تستغرب وجودي.. أليس كذلك..؟

حينما نظر إليه آدم الشامي ارتد إلى الوراء مرتعباً، فالذي يجلس الآن على الصوفا كائن يشـبه البشـر لكنه يختلف في طبيعة وجهه، هائل الحجم بجناحين كبيرين.. أسـود الريش.. ربما شـاهد شـبيها له في بعض أفلام الفنتازيا الأميركية. أحس بالرعب. إرتد للوراء.. أراد أن يفر من المكان.. استدار، لكنّ صوت الكائن الغامض أوقفه، أدهشه.. فصوته هذه المرة مختلف جداً.. فهو يشبه صوته هو آدم الشامي.. سمعه يقول له:

- إلى أين يا أستاذ آدم الشامي..؟ أتهرب مني..؟!

حين التفت آدم الشامي، ارتد إلى الوراء بجسده، إذ رأى نفسه جالساً على الصوفا..

هناك نسخة طبق الأصل منه.. نفس الوجه.. نفس تصفيفة الشعر.. نفس البدلة.. نفس الحذاء.. بل نفس نبرة الصوت.. كان نسخة منه. ابتسم الكائن الغامض له وسأل:

- أتستغرب أن تراني في هيئتك.. أن أكون أنا أنت.. وتكون أنت أنا؟!

أحس آدم الشامي أنه كالمشلول لا يستطيع أن يتحرك من مكانه.. فأشار إليه الكائن الغامض بأن يجلس على كرسي مقابل له. ودون أي مقاومة أو رد فعل جلس آدم الشامي كالمسحور على الكرسي المقابل..

ظل الكائن الغامض الذي بقي في هيئة آدم الشامي دون أن يغيّرها جالساً ينظر إلى آدم الشامي بمزاج رائق وعلى وجهه ابتسامة ود وتعاطف.. وحين رأى ارتباك آدم الشامي، وشروده الذهني، بدأ حديثه قائلاً:

- أنا أعرف أنك مذهول.. لا تستطيع أن تفهم شيئاً مما يجري، ولا تجد تفسيراً لما رأيت. لا ضير.. هذا شيء طبيعي.. أنا أفهم ذلك.. فأنتم البشر لا تصدقون سوى ما تراه عيونكم.. بل تعتقدون أن كل الأشياء المحيطة.. بل وإن هذا العالم.. والكون اللامتناهي هو موجود وفق ما تراه عيونكم فقط.. أو في أحسن الأحوال ما يتطابق مع عقولكم وتجارب حواسكم.. لاسيما عيونكم، حتى لو كانت عيونكم عمياء، ولا ترون من العالم سوى مجموعة من الظلال أو الأشياء المعتمة.. لا ضير.. لا ضير.. فأنتم في النهاية بشر... مخلوقات جاهلة.. وشريرة!

كانت كلمات الكائن الغامض مسموعة، ومفهومة جداً بالنسبة لآدم الشامي، كما أنها كانت سلسة، وفيها الكثير من الحقائق التي تخص البشر.. انتبه إلى أن الكائن الغامض تحدث وكأنه ليس بشراً..إذاً أتراه فعلاً أمام إبليس..! أحس ببرودة تسري بين أضلع قفصه الصدري وتمتد إلى ظهره، لكنه أراد أن يتأكد من أن ما يجري هو واقعي وحقيقي وليس مجرد رؤى وأوهام نشأت بحكم هذيانات الفتاة الخليجية، فاستجمع شجاعته وسأل مرتبكاً:

- من أنت..؟

نظر الكائن الغامض إليه مبتسماً، وأجاب:

- ألم تعرفني بعد..؟!
- لا..

أجاب آدم الشامي مرتبكا، لكنه أخذ شيئا فشيئا يسترد شجاعته حينما وجد أن الكائن الغامض الذي ظهر في غرفته بطريقة غامضة أيضاً لا تبدو عليه ملامح الشر والعنف. ابتسم الكائن الغامض له وقال بهدوء وكأنه يريد أن يطمئنه بأنه لا يريد أن يؤذيه:

- أنا.. أنا في كتب البشر المقدسة رمز الشر.. في القرآن والإنجيل والتوراة بل وحتى في الديانات الأخرى يرد لي اسمان هما: إبليس والشيطان.. وفي كل اللغات لدي أسماء مختلفة.. بل في كل عصر وزمان لديّ اسم.. تختلف الحضارات وتختلف الأزمنة، والعصور.. والشعوب.. لكني باق لديكم أنتم البشر كرمز للشر.. علماً أنا لست بشرير أبداً.. أنا بريء مما يتهمني به البشر.. الله خلقكم.. وزرع فيكم الشهوات: شهوة النساء.. وشهوة المال.. وشهوة السلطة.. تسعون إليها.. تتقاتلون من أجلها.. كل منكم يسعى إلى أن يمتلكها.. لكن الفاشلين والعاجزين منكم يعيبون على من استطاع بلوغ تلك الرغبات وإطفاء لهيب رغباته، بل ويفسرون ذلك بأن وصول البعض منكم إلى أهدافه تلك لم يتم إلّا بمساعدتي أنا الشيطان.. وأن هؤلاء سلكوا الطريق إليّ..، هؤلاء الفاشلون يلقون اللوم عليّ بأنني الذي أفجر في البشر كل هذه الشهوات والرغبات القاتلة..! ما لي وكل هذا..؟ هل أنا الذي خلقت الإنسان وزرعت فيه كل هذه الشهوات والغرائز الجامحة..؟ ثم.. لماذا خلقها الله أصلاً؛ إذا كانت تقود البشر إلى فعل الشر بحق بعضهم البعض.. وبحق الله نفسه..؟

كان آدم الشامي يستمع إلى حجج الشيطان بإستسلام كامل، برغم أن ذهنه كان متوتراً، حيث كانت كلمات إبليس تصله واضحة ومقنعة.. لكنه خفض رأسه كأنه يحاول أن يتفكر في ما سمع، بينما واصل الشيطان حديثه:

- سأسألك سؤالاً بسيطا.. من يوميات حياتك الشخصية..

رفع آدم الشامي رأسه بإنتباه دون أن يقول شيئاً، لكن ملامحه كانت تؤكد إنتظاره للسؤال، نظر الشيطان إليه ثم سال:

- أنت مثلاً.. كل همّك هو أن تحصل على هذه المرأة التي اسمها حواء ذوالنورين.. أليس كذلك..؟

بهت آدم الشامي ونظر إلى الشيطان مستغرباً، فبادره الآخر مبتسماً:

- لا تستغرب.. أنا إبليس.. المهم.. أليس هدفك الأكبر الآن أن تضاجعها؟

أحس آدم الشامي بالإرتباك، فلم يجبه.. فقال الشيطان بمرح:

- طيب.. ما لي أنا وهذه الرغبة..؟ الله هو الذي زرع فيك شهوة مضاجعة النساء، لكنه.. أو الأنبياء.. وضعوا الشروط الصارمة لإرواء هذه الرغبة.. وحددوا شكل العلاقة بين الرجل والمرأة.. وعلى البشر الإلتزام بذلك.. وإذا ما أراد الإنسان عدم الإلتزام بذلك فهذا شأنه.. فالإنسان هو الذي يقرر.. هو الذي يختار.. الله أعطى الإنسان العقل؛ ليحدد طريقه في الحياة.. أعطاه الإرادة والقدرة على ممارسة حرية الإختيار.. فما لي أنا إذا كان عقل الإنسان.. وإرادته هما اللذان يشيران عليه بأن يسلك هذا الطريق الذي لا يتفق مع أوامر الله..؟! قل لي.. ما علاقتي أنا بكل هذا إذا كان عقلك أنت قد اختار الطريق الآخر المعاكس لإرادة الخالق..؟

نظر إليه آدم الشامي وعلى وجهه ارتسمت ملامح الحيرة والتساؤل، فقال بصوت مرتجف:

- يقولون إنك تغوينا..! كل رجال الدين حينما يعظوننا يؤكدون ذلك.. بل وكل الكتب المقدسة تؤكد بأنك أخذت وعداً من الرب بأن تغوينا؛ لذا نحن نعرف بأنك الذي يجرنا إلى الخطيئة.. أنت الذي يزين لنا الشهوات والرذائل..

ابتسم إبليس وقال بلهجة مستنكرة ممزوجة بسخرية خفية:

- أنا..؟ ما لي أنا..؟ هل أنا عقلكم..؟هل أنا إرادتكم..؟ هل أنا شهواتكم..؟ هل أنا أملك مصانع الأسلحة في العالم..؟ هل أنا أشعل الحروب أم أنتم البشر الذين تشعلونها من أجل إرواء شهواتكم للمال والسلطة والهيمنة..؟ إنكم في صراع مع الله وليس معي.. أنتم تريدون أن تهيمنوا على الأشياء.. على الأرض ومقدراتها.. وعلى الفضاء.. وتعيدوا عملية الخلق.. أنتم تريدون أن تشاركوا الله في عملية الخلق.. تنتجون الأعضاء الأصطناعية، تنقلون القلوب والكلى والأطراف.. بل تسعون إلى إنتاج دم جديد ولحم جديد.. تريدون خلق جنس بشري من إنتاجكم أنتم.. أنتم تتحدون الخالق.. هل أنا أدفعكم إلى ذلك أو أنتم استناداً لعقولكم وعلومكم..؟ أترى كل هذه العلوم والتطور البايولوجي، وكشف شفرات الجينات، والوصول إلى الكواكب الأخرى، كل هذا من وحيي أنا..؟! ههههه.. صراعكم ليس معي.. لكنكم أنتم.. أنتم البشر.. لستم سوى

مخلوقـات نتنـة، مراوغـة، قـذرة.. قاسـية.. وتافهـة أيضـاً.. أنتم أشـدّ الوحوش همجية وعنفاً على سطح هذا الكوكب..إنكم حينما تشعلون الحروب.. وتسببون المجاعات للفقراء.. وتنتشر الأمراض والأوبئة.. بل وتنتجون الأمراض والأوبئة فـي مختبراتكـم العلميـة.. أو التي تولد نتيجـة تجاربكم الكيمياوية.. تلعنونني.. تتوجهـون للمسـاجد والكنائـس وأماكـن عباداتكم..إلى الأضرحـة والمقامات، وتقيمون الصلوات.. وتلعنونني خلال ذلك ليل نهار..! أتعرف يا آدم الشـامي إنني صرت جزءاً من لعبتكم الكريهة والتافهة.. والساذجة..!! ما لي أنا وقضية الخير والشـر..؟ الشـر فيكم والخير فيكم.. أنتم تشـركونني في لعبتكم القذرة بقصد أو بغير قصد.. حتى الله أشركني فيها.. من أجل أن يمنح حياتكم الأرضية معنى؛ فلولاي لصارت حياتكم وسعيكم بلا معنى!

لا يعرف آدم الشامي كيف ندت منه صرخة على شكل سؤال:

– أنت..؟ أنت من يمنح حياتنا معناها..؟!

– أجـل.. أنـا.. لقـد تسـاءلتم ملاييـن المـرات عـن معنـى وجودكـم والهدف من حياتكـم.. ولـم تجـدوا الجـواب الشـافي.. لكنكـم انتبهتم إلى أنهـا بلا معنى.. أرعبتكـم هـذه الحقيقـة العارية؛ لأنها سـتجعلكم تعيشـون في خـواء.. ومن هنا جـاءت الأديـان لتمنـح حياتكـم هدفـاً وغايـة.. ولم يكن الأمر يسـتقيم لولاي؛ لذلك أدخلتموني في لعبتكم التافهة.. صرت مثل فـزّاعة الحقول لكل خطاياكم وأخطائكم.. بينما كان الرب يبتسم من ظلمكم لأنفسكم.. وظلمكم لي.. وهو يعرف أنني مظلوم..

– لكنك أغويت أبانا آدم وأمنا حواء.. ودفعتهم لمعصية الرب..!

– أنا..؟مـرة أخـرى أنـا السـبب..؟ ههههـ..إنـك تضحكنـي حقـاً يـا آدم.. أود أن أسالك.. ألم ينبه الله مخلوقه الطيني آدم ورفيقته حواء بألاّ يقتربا من الشجرة.. فلماذا اقتربا منها..؟

– جاء في الكتب المقدسة بأنك الذي أغواهما بالإقتراب من الشجرة..

كان الشيطان يبتسم من طريقة محاججة آدم الشامي التي بدت له وكأنها مكررة أو كأنه سمع ما قاله ملايين المرات، لكنه كان صبورا؛ لذلك كان يناقشه بهدوء ويحاججه كصديق، فسأله:

- ألم يأت في كتابكم المقدس.. بأن الله عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبت حملها، إلّا آدم الذي قبل بها.. فكان ظلوما جهولا..؟
- نعم..
- ألم يطلب الرب من آدم، في الإجتماع الفردوسي ليسمي الأشياء بأسمائها؛ من أجل أن يبين الرب للملائكة خطأ ظنونهم حينما اعترضوا على خلق آدم.. وقالوا له أتخلق فيها من سيقتل وسيسفك الدماء؟! وقد قام آدم بكل جدارة بتسمية الأشياء.. أليس كذلك..؟
- بلى.. هكذا جاء في القرآن وفي بقية الكتب المقدسة..
- ألم يطلب الرب من جميع الحضور في ذلك الإجتماع الفردوسي أن يسجدوا لآدم..؟
- نعم.. ماعداك.. أنت الوحيد الذي رفض السجود لآدم..
- أحسنت.. لقد رفضت ذلك؛ لأني من نار وهو من طين.. وقدمت حججي للرب وأمام الرب والملائكة وآدم نفسه.. بأني لاأسجد إلّا إلى لله وحده.. أليس كذلك..؟
- بلى.. هكذا قرأنا..
- طيب.. ألم يلعنّي الرب حينها أمامهم جميعاً وأعتبر ذلك عصياناً مني لأوامره..؟ وعرف الجميع أنني أحتقر آدم بل حتى آدم عرف ذلك، حين رفضت السجود له..؟ وأني كما قال الرب له عدو مبين..؟
- نعم..
- فكيف إذن استطعت أن أقنع آدم وهو يعرف أني عدوه أن يقترب من الشجرة التي نهاه الله من الإقتراب منها..؟كيف اقتنع آدم بكلامي..؟ وكيف استطعت غوايته وهو يعرف أنني لا أتملقه..؟ بل رفضت السجود له..؟ وأني عدوه..؟ بينما هو مدلل الرب.. والعارف بكل الأسماء.. كيف ولماذا اقتنع بكلامي..؟!
- لا أدري..
- يجب أن تدري..

في تلك اللحظة رن الهاتف النقال لآدم الشامي؛ فتبادل النظرات، إرتبك آدم بينما

ابتسم إبليس وأشار إليه بغمزة من عينيه بأن يرد، فانحنى برأسه ليعرف المتصل. ضغط على الزر؛ ليجيب، وحين رفع رأسه، أحس بالذهول..إذ لم يجد أحداً أمامه قط.. لقد اختفى إبليس..

أخذ آدم الشامي يتلفت في كل زوايا الجناح.. خرج إلى الشرفة فلم يجد أحداً.. فتح باب غرفة الحمام فلم يجد أحداً.. ذهب إلى غرفة النوم المقفلة.. فتحها.. لم ير أحداً.. أحس بقلق مما يجري، وفي الوقت نفسه بشيء من الراحة الغامضة.. برقت في ذهنه خاطرة بأنه ربما كل ما جرى لم يكن سوى تهيؤات ورؤى نتيجة كل هذا الكلام عن الرجل ذي سنابك الحصان من مسؤول الأمن ليلة أمس.. ومن هذيان الفتاة الخليجية.. وأنه لم يكن هناك أي إبليس أصلاً، لكنه عاد فسأل نفسه بأن ثمة حديثا جدياً جرى بينهما.. أكان يحدث نفسه..؟ مستحيل.. هو ليست له علاقة وشيجة بالدين.. ولم تطرأ في ذهنه يوما ما مثل هذه الأفكار التي صدرت عن هذا الكائن الغامض الذي قال إنه إبليس..!!

لم يكن أمامه سوى أن يجيب على الهاتف، الذي عرف بأن المتصل هي موظفة الإستعلامات، فأجاب:

- نعم..
- أستاذ آدم.. الفتاة الخليجية التي سألت عنها اليوم.. قررت مغادرة الفندق.. وأنها ستغادر مساء..
- أين هي الآن؟
- ما زالت جالسة في الردهة..

في هذه الأثناء أخذ يتمشى إلى الشرفة المطلة على الردهة وسأل موظفة الإستعلامات:

- طيب.. لماذا تتصلين بي إذن..؟
- لأنك طلبت بأن نخبرك عن كل تفاصيلها..(توقفت قليلاً ثم أضافت بلهجة اعتذار) أوه.. عفواً. لم أعرف أنك معها الآن.. عفوا لم أرك..
- ماذا..؟ أين أنا..؟!
- أراك واقفاً تتحدث معها!

توقف آدم الشامي عن الكلام. أطل من الشرفة فرأى نفسه يقف عند طاولة الفتاة

الخليجية! أدرك فوراً بأن ذاك الذي يقف مع الفتاة الخليجية ليس هو وإنما إبليس الذي تجسد في هيئته بالضبط.. أحس بالرهبة.. أقفل الخط وتوجه ليغادر الجناح مضطرباً، لكنه حالما صار أمام الباب الخارجي حتى توقف، إذ برقت في ذهنه فكرة في أن يذهب إلى الشرفة ليراقب المشهد من الأعلى.

حين صار آدم الشامي في الشرفة المطلة على الردهة فوجئ بأن إبليس يجلس مع حواء ذوالنورين وإيفا سميث، على كرسي مواجه للجانب الذي يقع فيه جناحه. أحس بغضب عارم يقبض على أعصابه ويضغط على ذهنه.

في تلك اللحظة بالذات لمح إبليس يؤشر له محييا من الأسفل، ومع إشارة يده رفعت المرأتان رأسيهما نحو شرفته. تراجع هو إلى الوراء قليلا. سأل نفسه ومشاعر الغضب تهزه: ما الذي يجري بالضبط..؟ كيف جلس معهن..؟ وبأيّة صفة قدم نفسه لهن..؟ من المؤكد إنه انتحل شخصيتي، لكن لماذا أشار إليّ محييا ومثيرا انتباههن إذن؟.. لا.. لا.. عليّ أن أنزل سريعا وأفضحه أمام المرأتين، وإلّا ستتطور الأمور بشكل لا تُحمد عقباه..

كان آدم الشامي يحدث نفسه بصوت عال داخلي وصامت.

فجأة، توقف وكأنه إكتشف شيئاً: لقد كان يتحدث مع الفتاة الخليجية.. لكن الفتاة الخليجية تعرفه.. وهي التي أخبرتني عنه.. لكنه كان مختفيا.. لامرئيا.. وإذا ما تجسد فأنه كان بهيئة رجل أسمر طويل القامة.. أتراها تعرف هيئته الجديدة أيضا..؟.. عليّ أن أنزل إليه.. عليّ أن أوقف هذه المهزلة.

هكذا قرر مع نفسه.

* * *

خرج آدم الشامي من المصعد. كان وجهه متوترا ونظرته عصبية. مشى في الممر الموصل إلى مكتب استعلامات الفندق ويطل على الردهة الواسعة التي تكون مطعما مفتوحاً عند فطور الصباح، ومقهى لبقية أوقات النهار والليل. ما أن وصل إلى مكتب الاستعلامات حتى انتبهت إليه الموظفة التي قد اتصلت به وسألته بإهتمام:

- هل نسيت شيئا أستاذ آدم..؟

فوجئ بالسؤال المباغت، لكنه انتبه بسرعة لمضمون السؤال، فقال لها:

- لا.. ماذا يمكن أن أنسى..؟

- لا أعرف..؟ لأنك مررت بسرعة قبل قليل.. ثم رجعت الآن فظننتك قد نسيت شيئاً..

نظر آدم الشامي إليها لثوان دون أن يقول شيئا، لكنه خمن على الفور بأن إبليس قد غادر الردهة. أدرك أنه عرف بقدومه فاختفى. استدار مطلّاً على الردهة فرأى الفتاة الخليجية قد التحقت بحواء ذوالنورين وإيفا سميث.. تردد قليلاً بالذهاب إليهن.. ماذا سيقول لهن..؟ إنه لا يعرف بماذا حدثهن إبليس..؟ كيف سيتواصل معهن..؟ كيف يمكنه توضيح كل هذه الملابسات التي تجري..؟!

لا شعوريا وجد نفسه منجذباً بالتوجه إليهن. التفتن إليه مبتسمات حينما رأينه يقبل عليهن. وأحس بأن حواء ذوالنورين تركز نظراتها عليه، تنظر إليه برقة ودلال خفي. برقت في ذهنه خاطرة غريبة: أيكون إبليس قد أغواها وجذبها إليه..؟! لم تكن المسافة تسمح له بالتفكير الطويل. حين وصل إليهن سألته إيفا سميث مستفسرة برقة:

- هل عثرتم على جواز السفر..؟

صُدم آدم الشامي من سؤالها. إحتار كيف يجيبها. لا يعرف عن أي شيء تسأل..؟ أي جواز سفر..؟ من المؤكد أن إبليس روى لهن شيئا، لكن ماذا قال لهن..؟ فكر أن عليه تدارك الموضوع، لكنه أراد أن يكسب بعض المعلومات منهن دون أن يثير انتباههن، فأجاب بسؤال أيضاً:

- أي جواز..؟!

نظرت المرأتان إليه بإستغراب، بإستثناء الفتاة الخليجية التي ظلت خافضة بصرها تنظر إلى الطاولة. أجابت إيفا سميث موضحة بإستغراب أيضاً:

- ألم تقل أن أخاك.. توأمك.. الذي وصل فجر هذا اليوم قد أضاع جواز سفره..؟!

أدرك آدم الشامي فوراً بأن إبليس أدعى أنه أخوه التوأم؛ لذلك حينما أطل هو من الشرفة رفع كفه محييا إياه.. فعلاً إنه شيطان، قال آدم الشامي لنفسه. ابتسم لهن وكأنه تذكر شيئاً وقال مبتسماً:

- أنا آسف.. لم انتبه أنك تقصدين أخي.. نعم.. عثرنا على الجواز.. كان قد وضعه مع أوراق أخرى في جيب حقيبته الكبيرة ولم ينتبه إليه..

في تلك اللحظة ظهر إبليس في شرفة الطابق الثاني المطل على الردهة. التفتت حواء ذوالنورين رافعة رأسها إلى الشرفة فجأة، وكأنها منجذبة إليها بشكل غامض،

فرأت إبليس، توأم آدم الشـامي، على الشـرفة. وأحسـتْ وكأن وجهه اقترب منها جداً، وكأنه لا توجد بينهما كل هذه المسافة، ابتسمت له ورفعت يدها محيية. التفت الجميع إليها؛ ليتأكدوا من الشخص الذي تحييه فرأوا إبليس في الشرفة رافعاً كفه محييا الجميع. رفعت النساء أكفهن تحية، بينما أحس آدم الشامي بالذهول. لم يخرجه من ذهوله سوى صوت حواء ذوالنورين التي قالت له:

- لماذا لا ينزل أخوك ليجلس معنا.. يشرفنا بالتعرف عليه؟!

ارتبك آدم الشامي وقال بنبرة فيها غيرة خفية:

- إنه متعب من السفر.. لقد كانت رحلته طويلة جداً؛ فمنذ أشهر يتنقل بين عواصم العالم.. هو متعب.. تركته يستريح من عناء السفر.

فقالت إيفا سميث مؤيدة:

- يشرفنا التعرف عليه.. لكن دعه يستريح الآن.

الفتـاة الخليجيـة لـم تشـارك المرأتيـن بالتعليق. كانت خافضة رأسـها وعلى وجهها إبتسامة غامضة. بينما التفتت كلتا المرأتين رافعتين رأسيهما بإتجاه الشرفة كأن شيئا ما يجذبهما إليها. رفع آدم الشـامي رأسـه منجذبا أيضا. بل انتبه إلى أن جميع الحاضرين فـي الردهـة كانـوا رافعين رؤوسـهم نحو الشـرفة بينما إبليس هنـاك يحييهم بيده، ماعدا الفتاة الخليجية كانت خافضة رأسها وعلى وجهها ابتسامة غامضة.

11

آدم أبو التنك.. إبليس المدينة

استيقظت حواء الكرخي صباحاً على بكاء الرضيع هابيل. لم تنم كفاية، ورغم ذلك أجبرت نفسها على النهوض، فغيرت للرضيع حفاظاته الداخلية، وأعدت له قنينة الحليب، وطبخت له شوربة خاصة بالأطفال. أطعمته.. وداعبته قليلاً.. ووضعته في سريره، فنام بهدوء بريء. كانت حواء الكرخي تقوم بذلك دونما أي شعور أمومي خاص، ودونما متعة أو فرح داخلي كالذي ينتاب الأمهات وهن يقمن بإطعام أطفالهن ورعايتهم، لكنه في كل الأحوال شعور يمتزج فيه الواجب بالشفقة والتعاطف الإنساني.

استلقت على السرير. حاولت أن تواصل نومها ثانية لكنها لم تستطع ذلك، إذ أحست كأن النوم قد طار من عينيها. هي تشعر بالنعاس، وبرغبة شديدة في النوم، لكنها لا تستطيع أن تنام. ظلت تتقلب في سريرها، لكن دون جدوى. وبدون إرادة منها وجدت نفسها في لجة أفكار خانقة، كأنها براثن نسر تقبض على روحها بقوة.. أدركت أنها لن تستطيع أن تتخلص من كوابيس بغداد بسهولة، وأنها مرت بمغامرة مرعبة كادت تُقتل فيها، بل هي الآن أمام وضع غريب، مفتوح على أفق مجهول، فقد حملت معها طفل صديقتها القتيلة حواء الزاهد، وهو طفل رضيع.. لم يبلغ سوى بضعة شهور.. صحيح أنها سبق وأن فكرت بهذا الأمر.. بل وتفكر فيه يومياً، لكنّها لا تجد أيَّ أفقٍ أو جواب شاف أو بصيص أمل يساعدها في أن تستقر نفسياً، فكلما تحسم أمرها في شأنهِ؛ تجد نفسها بعد بساعات تعيد النظر في قرارها.

هي تعرف أن ما يدفعها إلى إعادة النظر المستمر بقراراتها بصدد الرضيع هابيل هو أنه سيضايقها، وسيحد من حركتها ومن حريتها الشخصية. فكرت بأن عليها أن تبحث هذا الأمر مع آدم أبوالتنك الذي بالتأكيد سيجد لها مخرجاً. أحست بشيء من الإرتياح حينما توصلت إلى قرارها بأن تفاتح صديقها آدم أبوالتنك.. وأحست باسترخاء

في جسدها، وانبساط رقيق داخل جمجمتها.. ولا تعرف كيف غطت في نوم عميق.

* * *

استيقظت حواء الكرخي ثانية.. تثاءبت.. تمطّت.. فتحت عينيها محدقة في السقف.. لكنها ظلت مستلقية على سريرها.. لم تكن مدركة تماماً هل هي قد استيقظت من نومها حقاً أو أنها لا تزال نائمة لكنها تحلم بأنها قد استيقظت

لـم تكـن تسـتطيع أن تميـز المـكان الـذي هـي فيـه.. لكن بعد مـرور لحظات قليلة اسـتوعبت الأمـر، فرفعـت نصفهـا الأعلى لتتأكد من وضـع الطفل الرضيع.. نظرت إلى الجدران..إلى أشـياء الغرفة الأخرى.. نعم هي في شـقتها.. وفي غرفة نومها.. هنا في دمشق.

ألقت بنفسها مسترخية مرة أخرى، ولم تمكث غير لحظات قليلة حتى نهضت عن السرير. ألقت نظرة أخرى على سرير الرضيع هابيل فوجدته نائماً. ذهبت إلى المطبخ. أعدت لنفسـها كوبا من القهوة.. اتجهت إلى الصالون.. جلسـت على الصوفا.. ظلت هادئـة لا تفكـر بشـيء للحظـات، ثـم رأت الحقيبة التي فيهـا مخطوطات الكاتب القتيل آدم البغدادي. مدت يدها فأخرجت منها مخطوطتين.

في الساعات الأولى من الفجر كانت قد انتهت من رواية بعنوان (متاهة الأشباح).. روايـة غريبـة.. متداخلة..إحتاجـت لبعـض الوقت؛ لكي تسـتوعب منطق الأحداث، بل أحيانـا كانـت تعيـد قـراءة بعـض الفصـول من أجل أن تمسـك بخيط السـرد لتعرف من يكتب عن من؟ أهو آدم البغدادي يكتب عن بطله آدم التائه؟ أم أن بطله آدم التائه يكتب عـن مؤلفـه آدم البغـدادي؟ أم أن آدم البغـدادي أراد أن يكتـب عن نفسـه من خلال لعبة روائيـة أن يـدع آدم التائـه يقـرر الكتابـة عن آدم البغدادي..؟ واسـتغربت أن هذا الكاتب آدم البغدادي في كل رواياته يودع أبطاله بالقتل.. لكنها أجابت بنفسها على تساؤلها بأن الموت والقتل المجاني والمنظم والغدر المخطط له هو مصير كل الناس في بلادها.

أخـذت ترتشـف قهوتهـا بتلـذذ. وأثناء ذلـك مدت يدها إلـى المخطوطتين.. كانت المخطوطتـان محفوظتيـن فـي ملـف يغلفهمـا. إحـدى المخطوطتين سـميكة جدا كتب عليهـا (متاهـة الله).. أمـا المخطوطـة الأقـل سـمكا فقـد قـرأت على ظهـر غلاف ملفها عنوانـاً يتصـدره: (متاهـة إبليـس).. وتحـت هـذا العنوان ثمة عنوان فرعـي آخر(المواد الأولية لمشروع رواية أوغـاد بغداد).، وأسفل العنوان الفرعي ثمة عنوان طويل يعتمد

السجع لكنه عنوان صارخ (تخطيط أولي عن سير اللصوص والجواسيس والقوادين والعاهرات، وما مر ببغداد من شبهات وعاهات).

ابتسمت مع نفسها من هذا العنوان الطويل، المباشر، الذي يذكر بكتب وعاظ السلاطين، أو بعناوين بعض الكتب العربية التراثية.. لكنها حينما قلبت بعض الأوراق الأولى، ثم تصفحت ملازم المخطوطة، اتضح لها بأن هذه المخطوطة رواية غير مكتملة.. بعض فصولها مكتوب وبعض فصولها ابتدأ به ولم يكمله، وكما وجدت تخطيطات للشخصيات، وللأحداث، لكنه لسبب ما لم يكمل النص.

توقفت عند الفصل الأول الذي يحمل عنواناً غريباً: (متاهة إبليس)، فأحست بفضول أن تقرأه. جلست بشكل أكثر راحة واسترخاء، لكنها حالما قلّبت المخطوطة رن جرس الباب الخارجي. وضعت المخطوطة جانباً. ذهبت إلى الزر قرب الباب فضغطت عليه. فكرت بالقادم في مثل هذا الوقت.. من تراه..؟. فتحت الباب وأطلت من سياج السلّم فرأت آدم أبوالتنك يصعد بسرعة. شعرت بالراحة؛ لأنها تعرفه جيدا، كما أنها أرادت أن تراه اليوم لتناقشه حول بعض الأمور. وقبل أن يصل ذهبت إلى المطبخ لتغلي الماء من أجل إعداد القهوة له.

سمعت طرقا على الباب. خرجت من المطبخ.. فرأته قد صار في الصالون. سلمت عليه ودعته إلى الجلوس.. وسألته إن كان قد تناول فطور الصباح فقال إنه قد تناوله قبل قليل، لكنها أدركت بحدسها الأنثوي بأنه لم يفطر بعد، فقالت له بأنها لم تفطر بعد وستعد الفطور لهما، فتألقت عيناه، وقال لها بأنه سيحاول أن يشاركها الطعام إكراماً لها. ابتسمت له. جلس هو على الصوفا بينما ذهبت هي إلى المطبخ لتعد الفطور.

أخذت تعد له الشاي لأنها تعرف أنه يحبه أكثر من القهوة. وأخرجت من الثلاجة زيتوناً و جبناً، وقلت بيضاً بالزيت، وسخنت الخبز، وحملت ذلك كله إلى الصالون، فرأته يقلّب صفحات المخطوطة.

حينما رآها أبو التنك تدفقت الحيوية في جسده النحيل. وقرب الطاولة إلى أمام الصوفا. وسألها:

– ما معنى (متاهة إبليس)..؟ متى صرت تقرئين كتب الدين والشعوذة..؟

ابتسمت حواء الكرخي وقالت له:

– هذا ليس كتاباً دينياً.. بل رواية للكاتب آدم البغدادي الذي أُغتيل قبل فترة..

- أذكره.. ذاك الذي ضاع دمه بين القبائل.. فلا أحد يعرف قاتله.. علماً أن الجميع يخمن من هو قاتله.. أليس كذلك..؟
- بلى هو.. ذاك الذي ضاع دمه بين القبائل.. أحسنت التعبير والله يا أبو التنك..
- وما معنى (متاهة إبليس)..؟

كانت حواء الكرخي تعرف أن آدم أبوالتنك ليس شغوفاً بالقراءة، بالرغم من أنه ينتمي لحزب غالبيته من المثقفين، كما أن معظم ثقافته حصل عليها من خلال مجالسته للأدباء والمثقفين العراقيين الذين أقاموا في دمشق، ورحلوا إلى المنافي أو ممن يقيمون إلى الآن؛ لذلك لم تشأ أن تدخل معه في نقاش، وإنما قالت له بدبلوماسية دون أن تجرح مشاعره:

- لقد كتب آدم البغدادي سلسلة روايات.. كلها عن المتاهات، وهذه كما تبدو روايته التي لم يكملها: متاهة إبليس....

ابتسم آدم أبوالتنك وعلق ساخراً:

- لم يبق سوى أن يكتب: متاهة الله!

فغرت حواء الكرخي فاها ونظرت إليه بتعجب، وقالت باستغراب:

- ما هذا يا أبو التنك..؟ أنت عبقري..

ارتبك آدم أبوالتنك، فهو إنسان بسيط ومتواضع، وهو يعرف أن حواء الكرخي شاعرة وصحافية وناشطة سياسية؛ فظن أنها تسخر منه، لكنّها انتبهت لإرتباكه فسألت:

- أتدري أنه فعلاً كتب رواية بعنوان: متاهة الله..؟

حدق آدم أبوالتنك إليها غير مصدق، وسألها، بتردد:

- وماذا فيها..؟ أنا قلت ذلك على سجيتي؛ لأنه كتب روايات عن إبليس فلم يبق إلّا أن يكتب عن الله ولكن ماذا في هذه الكتب..؟
- أوه.. يا أبو التنك هذه رواية طويلة..إنها عن محنتنا..

لم ينتظر آدم أبوالتنك أن تشرح له، فقد أحس بنشوة تجتاحه حينما أخبرته بأن آدم البغدادي كتب رواية اسمها (متاهة الله) أيضا إلى جانب (متاهة إبليس)؛ لذلك تراءت له أمواج وأضواء خاطفة فأخذ يتحدث:

- لم أجد بلاداً صُبت عليها اللعنة كهذه البلاد التي اسمها العراق. لا ليلها ليل ولا نهارها نهار. هل نسيها الله فلم يشملها بنظرته الرحيمة..؟ لا أدري..

فالناس فيها، وكأنهم ليسوا كبقية البشر، فهم ذئاب في شراستهم.. وطيبون.. لا أنهم ليسوا طيبين.. وإنما هم طيبون كالذئاب أيضاً حينما تكون في قطيع كبير،.. عموما أنهم في كل الأحوال يتحلون بأخلاق الذئاب.. الغدر.. هم غدارّون كالذئاب، حينما يكونون أفراداً ينقض بعضهم على بعض مستغفلاً إياه.. يعتقدون أنهم طيبون، بل وأطيب أهل الأرض، لكنهم يعرفون أنفسهم جيداً، فهم لا يحبون بعضهم بعضا، يغدرون ببعضهم في أول خطوة غافلة.. منافقون.. دجالون.. كذابون.. يكرهون بعضهم بعضاً؛ لكنهم يكيلون المديح لبعضهم البعض بلاحساب.. متطرفون في كل شيء.. في الحب وفي الكره.. يكرهون حتى أقاصي حدود الكراهية.. ويحبون حتى أقاصي حدود المحبة.. لكن لا حبهم باق ولا كراهيتهم.. ولا فرق في هذا الشأن بين الرجال والنساء.. حسودون.. غيورون.. ديدان لئيمة.. وغربان حقودة.. ورغم هذا يعتقدون أنهم من نسل كائنات هبطت من السماء!

كانت حواء الكرخي مأخوذة بكلامه الذي لم تتوقع أن يصدر عنه، وحينما انتبه هو إلى أنه أثار اهتمامها واصل:

- مشكلتهم أنهم واهمون لحد اليقين بهذا الوهم أن بلادهم خير بلاد الله.. عموماً هذه ليست مشكلتهم وحدهم.. فالبشر في كل بلاد الأرض هكذا.. كل مجموعة تعتقد أنها هي الأصل حتى لو كانوا أنفاراً يمكن إسكانهم في فندق.. وكل شعب يعتقد أن أرضه مباركة.. ولغته مقدسة لأن كتابه المقدس كتب بها.. بل ولايزال علماؤه أبناء تلك الشعوب يتناقشون مؤكدين بأن لغة أهل الفردوس هي لغتهم.. يعتقدون أن بلادهم هي البدء والمنتهى.. هي أصل الحكاية ولغزها الإلهي.. نعم البشر في كل مكان هكذا.. الغرور التافه مثل سلسلة مجهولة تخرمهم من خياشيمهم وهم منتشون من الفخر والكبرياء.. كلهم يعتقدون أن الله خصهم هم دون غيرهم برعايته وكرمه وفضلهم على غيرهم.. وليست بلادنا استثناءً.. لكنهم استثناء في تعنّت أهلها وكبريائهم الفارغة فهم مثل الديكة.. أقدامها في الخراء وتصيح بكبرياء!

ارتسمت على شفتيها ابتسامة اعجاب حينما سمعت جملته الأخيرة.. فقالت له مازحة:

- هذا مَثَل قوي جدا يا أبوالتنك.. مثل الديكة أقدامها في الخراء وتصيح بكبرياء.. ههه

ابتسم هو أيضاً وقال لها:

- أنا أعرفهم يا مدام.. هنا في دمشق تعرفت على معظمهم.. أعرف تاريخ كل من هؤلاء القادة الجدد الذين يحكمون الآن.. معظمهم عملاء وجواسيس بشكل رسمي للبلدان المجاورة.. بل وللمخابرات السورية أيضا.. أنا لا أتهمهم اعتباطا.. لأن لدي أدلة دامغة على الكثير منهم.. سأسمي لك بعضهم: آدم التاجر- تعرفينه.. كان هنا.. جاء إلى دمشق من إيران.. صار عضوا في الجمعية الوطنية التي شكلها الأميركان وقد صار وزيراً، آدم آل خزاع، جاء من إيران، والكل هنا يعرف أنه عميل، كان عضوا في الجمعية الوطنية استوزر أيضاً..آدم الملا كان ضابطاً في أجهزة المخابرات السابقة وهو الآن عضو البرلمان الجديد، حواء الداخل عضو في البرلمان الجديد رئيسة لجنة برلمانية وعشيقة آدم الملا السرية.. الحاجة حواء آل حجر... عضو البرلمان الجديد.. عشيقة لمسؤول حماياتها.. تقود منظمة إسلامية للنساء.. وغيرهم وغيرهم.. حتى حضرة أخيك آدم الكرخي..

لم تود حواء الكرخي أن يستمر في الحديث، لذلك أخذت تصب الشاي في الأكواب، وقالت له:

- دعنا من سيرة أخي.. فمصيره فاجع.. لم أتوقع أن يسقط بهذه السهولة.. السلطة تكشف الناس ومعادنهم.. لكن دعنا الآن نفطر يا أبوالتنك.. ثم خبرني ماذا وراءك؟
- ما ورائي إلّا الخير..
- إذن هاته..

نظر آدم أبوالتنك إليها، محاولاً أن يمنح نفسه أهمية ما لما يحمله من أخبار؛ فصمت لحظات وأخذ كوب الشاي. ارتشف منه، ثم بدآ يأكلان ويواصلان أثناء ذلك حديثهما، فقال هو بطريقة مسرحية وكأنه يفشي أسراراً:

- أحد رفاقنا الذي وصل اليوم من بغداد..
- ثم ماذا..؟

لم يتوقع أن تستقبل حواء الكرخي حديثه بهذا البرود والتلقائية، لكنه لم يستسلم، إذ استمر في دوره، وقال:

- سألته عن سفرته.. وعن بغداد.. وبالصدفة.. وبشكل عرضي، حدثني عن شيء أعتقد أنه يهمك.. قال إنه حينما كان في موقف السيارات التي تسافر إلى دمشق جاءت مجموعة من الرجال، بدت له من ملامحهم بأنهم شخصيات تابعة لمسؤول ما.. يثيرون الريبة.. سألوا إدارة مكتب النقليات.. وسائقي السيارات عن امرأة اسمها حواء ذوالنورين، إن كانت قد سافرت إلى دمشق أو عمان.. وأعتقد أن مكتب النقليات عرفها من خلال الصورة التي كانوا يحملونها.. وأعتقد أنها نفس المرأة صديقتك التي جاءت معك من بغداد والتي أخبرتني أن اسمها حواء ذوالنورين..

انتبه إلى أن حواء الكرخي صُدمت لهذه الأخبار، فتوقفت عن الأكل وسألته:

- وماذا كانوا يريدون منها..؟ ألم يقل لك ذاك الرفيق..؟
- لا أعرف..؟ لكنه قال بأنهم كانوا عصبيين.. ومتوترين.. وكأنها فرّت منهم..
- فرّت منهم..؟
- يبدو ذلك..
- ومن أين تعرف أنهم كانوا يقصدون هذه المرأة بالذات.. أليس مجرد تشابه أسماء..؟
- أنا لا أعرف ذلك.. لأنهم سألوا إن كان مكتب النقليات والسواق قد رأوها خلال الأيام الخمسة الماضية.. وهذا يعني أنها هي المقصودة.. أليس هذا هو اسمها.. وفي نفس اليوم الذي سافرتم فيه معا من العراق..؟
- نعم.. هذا هو اسمها كما قالت هي لي.. لكن هذا لا يعني أنها المقصودة.. على أي حال سأستفسر منها.. بالمناسبة.. أريد أن تجد لي مساعدة في المنزل.. مربية.. تستطيع أن تجلس مع الرضيع هابيل، فكما ترى أني مقيدة ولا أستطيع الحركة..
- لا تقلقي.. ما دام أبوالتنك موجوداً فكل شيء سيكون كما تشتهين.. غداً ستكون عندك.. أو اليوم مساءً سآتيك بواحدة.. هل تريدينها عراقية أو سيرلانكية أو فليبينية..؟

– يفضل أن تكون عراقية.. عربية.. لأنه سيكون التفاهم معها سهلاً..

* * *

غـادر آدم أبوالتنـك. إرتاحـت حـوّاء الكرخـي لوعده بجلبه لبمسـاعدة منزل ومربية للطفل.. لكنها كانت منغلقة على نفسـها، تفكر بوجوم بما نقله لها أبوالتنك عن حواء ذوالنورين. أخذت تربط الأشياء في ذهنها، وتستعيد كل مشاهد السفرة منذ لحظة صعود حواء ذوالنورين إلى السيارة المتجهة إلى سوريا..

تذكـرتْ أن صديقتهـا كانـت مرتبكـة جـداً حينمـا كانوا ما يزالون فـي العراق، وأنها أخذت تسترخي حينما عبروا الحدود.. كما أنها كانت طوال الطريق الطويل لا تتحدث عن نفسـها إلّا بشـكل مقتضب.. حتى بعد أن وصلوا إلى دمشـق.. كما أنها لـم تشـأ أن تغيـر الفنـدق.. أهـي هاربـة حقـاً..؟ لمـاذا كانت خائفة ومرتبكة..؟ ربمـا هي هاربة من شيء ما فعلاً..؟

فجأة، وكأنما أُزيحت ستارة عن مشهد ما.. تذكرت أن رجلاً وسيماً، أشقر، صعد السـيارة بعدها مباشـرة، وجلس على المقعد في عمق الباص الذاهب إلى دمشـق، لكنه اختفى حينما وصلوا إلى دمشق، إلا أنها لمحته في ردهة الفندق، ولم تعر الأمر انتباهاً.. والآن تحاول أن تربط بين الأشياء.. أيكون هو عشيقها الذي اتفقت معه في الهرب إلى سـوريا..؟ وإلّا ما سـبب نزوله في الفندق نفسـه..؟ أهذا من باب الصدفة..؟ على أي حال عليها أن تتصل بها وتخبرها بما سمعت وتستفهم منها.

قطع عليها تفكيرها صوت بكاء هابيل القادم من الغرفة الثانية فنهضت إليه.

12

أأنت متضايق مني..؟

ترك آدم الشامي طاولة النساء الثلاث منسحباً. أراد أن يذهب إلى جناحه؛ ليلتقي إبليس الذي تلبس شخصيته؛ ليعرف منه ماذا تحدث مع هاتيك النساء، لاسيما وأنه انتبه إلى أن المرأتين إيفا سيمث و حواء ذوالنورين تكنان اعجاباً غامضاً بالشخص الذي يريانه على الشرفة ملوحا بيديه. أحس بالغيرة..، فقد هاله هذا السحر الذي جذب رواد الفندق الجالسين نحو ذاك المخلوق الذي أطل من شرفة جناحه ولوّح محيياً الجميع.

في المصعد كان وحيداً. وحين مشى في الممر، كانت مشاعر الغيرة تتحول شيئا فشيئاً إلى حقد يوتر أعصابه. قرر مع نفسه أنْ يحسم الموقف معه، وينهي هذه المهزلة. وصل باب الجناح، وقبل أن يمد يده؛ ليخرج مفاتيحه فُتح الباب وواجهه إبليس المتلبس شخصيته باسماً.

حينما صارا في الصالون جلس إبليس مباشرة على الصوفا مسترخياً، ثم أشار إلى آدم الشامي مبتسماً بأن يجلس. انتبه آدم الشامي إلى أن كل توتره قد انقشع بطريقة غامضة.. أحس أنه لا يضمر لإبليس أيّ حقد، ولا يغار منه، أو ينفر منه، بل إن مشاعره إزاءه حيادية جداً.. كيف حصل هذا..؟ سأل آدم الشامي نفسه.

نظر إبليس إليه مبتسما، وقال له بنبرة مواسية:

- أنت متضايق مني.. أعرف ذلك.. لا تقلق.. فكل ما فعلته هو من صالحك أنت.. لقد ظنوا أنني أنت.. حضوري فعل فعله.. ألم تلاحظ ثمة جاذبية في التواصل معك..؟ لاسيما من قبل حواء ذوالنورين..

أحس آدم الشامي أن ما قاله إبليس صحيح.. فقد انتبه لتعامل حواء ذوالنورين معه، بل حتى إيفا سميث كانت أقل توتراً وحدّية كعادتها، لكنه يحس نفسه تائها.. سأل نفسه: ماذا يريد إبليس منه أصلاً..؟ ولماذا هو في الفندق..؟!

كان يفكّر ويتساءل، وإذا بإبليس يفاجئه:

- أنت تسأل نفسك عن سبب وجودي هنا..؟ ولماذا أنا موجود في الفندق..؟ وماذا أريد..؟ أليس كذلك..؟

بهت آدم الشامي من كلام إبليس..إذاً فهو يقرأ أفكاره أيضاً..؟ لم يجد الجواب المناسب في تلك اللحظة، ظل ينظر إليه مبهوتاً، وخلال تلك الثواني كان يبحث عن جواب مناسب، لكنه لم يجد ما يقول، فقال إبليس:

- أنا إبليس أو الشيطان.. سمنّي ما تشاء، أنا غير موجود..؟ أنتم البشر تدعونني للحضور.. فأتجسد كما تشاؤون وترغبون.. تفكرون بي بشكل سيىء وقبيح فأحضر بشكل قبيح ومرعب.. تفكرون بي بشبق ورغبة بأني آتي إليكم بشكل غاوٍ.. وفاتن.. أنتم منحتمونني قوة هائلة.. تجعلونني قريناً للخالق.. أحياناً استغرب منكم.. أنتم الآن في حدود ستة مليارات إنسان على هذا الكوكب.. أليس كذلك..؟
- تقريباً.. ليس لدي معلومات دقيقة..
- وأديانكم كلها.. بل حتى الأديان البدائية.. هي التي اخترعتني.. خلقت أسطورتي.. وبرغم ذلك تؤكد بأني أغوي الإنسان.. أدفعه لفعل ما يضر الإنسان نفسه والإنسانية جمعاء.. بلْ يضر الطبيعة أيضاً.. وأنني أغويكم فرداً فرداً في كل ثانية وكل دقيقة أثناء صحوكم.. بلْ حتى في منامكم أكون موجوداً؛ فأفجر فيكم رغبات محرمة.. أليس كذلك..؟ أليس هذا ما تؤكده كتبكم المقدسة.. ويعظ به علماؤكم.. شيوخكم.. وقساوستكم.. وحاخاماتكم..؟

نظر آدم الشامي منجذبا إلى الحوار معه، وكأنه يحاور نفسه. إبليس كان أكثر مرحاً واسترخاءً وثقة بنفسه منه، فقال باستسلام:

- تقريباً.. هناك اتفاق على ذلك..
- ألم تفكر لحظة أن هذا غير ممكن عقلياً ومنطقياً وعلمياً..؟ كيف لي أن أكون في أعماق ستة مليارات إنسان في الوقت نفسه..؟ ستة مليار إنسان ينتمون إلى مئات الدول، وآلآف اللغات، ومئات الألوف من اللهجات، وآلاف القوميات، وهؤلاء ينتشرون في مشارق الأرض ومغاربها.. وأقوم بكل ما لدي من موهبة في إغوائهم..؟ أ أنا إله..؟! أليس هو الواحد الأحد الذي يوجد في مشارق

الأرض ومغاربهـا.. أنـى اتجهتـم ترونـه..؟ فكيف تمنحونني هذه القدرة الإلهية أن أكون في مشارق الأرض ومغاربها في الوقت نفسه..؟!

اسـتغرب آدم الشـامي من أنه أخذ يقتنع بوجهة نظر إبليس، لكنه كان يتصارع مع نفسه، فلم يقبل بهذا التواطؤ النفسي والفكري معه، فانتفض في أعماقه، وقال بصوت فيه نبرة تحد:

- أنت تحاول غوايتي الآن بمثل هذه الأفكار الغريبة والمشاكسة!

نظر إبليس إليه متأملاً، ثم ابتسم بطيبة قائلاً:

- أتخاف مني أم تخاف من نفسك وأفكارك..؟ ألم تجر أحيانا مع نفسك.. في أعماقك.. حوارات عن الله.. وعني..؟ وعما هو مسموح وغير مسموح..؟ عن السـلطة ورجالهـا..؟ ألا تحتقـر أنـت، في أعماقك، المسـؤولين الذين يتوددون إليـك؛ كـي ترسـل إليهـم الفتيات الأجنبيات من ملاهيـك ومطاعمك في فنادق المدينة..؟ وتطلب منهن أن يسجلّن لك أحيانا ما يجري من أحاديث أو يصوّرن لك بأجهزة هواتفهن بعض اللقطات؛ لكي تستخدمها لإبتزاز الآخرين إذا فكروا أن يؤذوك..؟!

شـحب وجه آدم الشـامي.إرتبك. أخذ يتلفت يميناً ويسـاراً وكأن هناك من يتنصت عليه، وأحس برطوبة عرق بارد على جبينه، وقال بصوت منخفض وبنبرة فيها توسل:

- أرجوك.. أخفض صوتك..؟ لا تفضحني أرجوك.. فربما ثمّة لاقطات تسجل كل ما يدور هنا..؟ سـتعرضني لمسـائلة قانونية..! فأنت تعرف أن القانون يلوم ولا يعذر أحداً مع الأسف، كني استغرب كيف تعرف كل هذه التفاصيل..؟ ألم تقل قبل قليل أنك غير موجود..؟وإن الأديان أوجدت أسطورتك..؟ وإن العقل والمنطق لا يتحمل وجودك كما ورد في الكتب المقدسة..؟

صمت إبليس قليلاً وكأنه يحاول أن يقرأ ما يدور في ذهن آدم الشامي من أفكار، وقال:

- العقل.. والأسطورة يتداخلان أحياناً.. وكأنهما وجهان لعملة واحدة.. العقل يفكك الأسـطورة ويمنحها منطقاً.. العقل يحتاج إلى الأسـطورة؛ كي يكتشـف نفسـه كعقل.. والأسـطورة أيضاً تحتاج إلى العقل والمنطق؛ لتعيش.. بل هناك اليوم عشـرات من الأسـاطير العلمية والمنطقية.. ثم لماذا أنت خائف إلى هذا

الحد..؟ وجودي يعطل كل الأجهزة الألكترونية.. فحتى لو وجدت كاميرا في هـذا الجنـاح فهـي لا ترانـي.. أنـت وحدك تراني.. ثم.. ألسـت حزبياً مخلصاً؟ فلماذا أنت خائف..؟

- أنا لست خائفاً.. طبعاً أنا مخلص للحزب.. وللثورة.. وللقيادة الحكيمة.. لكنك تعرف النفوس الخبيثة.. يعني كيف أشـرح لك.. هناك أناس يريدون أن يرتقوا علـى أكتـاف الآخريـن.. ولكنهم لا يسـتطيعون ذلك إلّا بكتابة التقارير.. ونشـر الشـائعات.. والأقاويل.. وأنت سـيد العارفين بأنه إذا أردت أن تحارب إنسـانا مـا.. أن تحطمـه.. أن تغتالـه إجتماعيـا.. فمـا عليك إلا أن تطلق عنه الشـائعات وتروجّهـا؛ فهـي سـتدمره.. حتـى لـو عرف الناس الحقيقة فـي ما بعد.. فهذا لا يعنـي شـيئاً.... لكـن مهـلاً.. أنت قلت بأن الكاميـرات لا تصورك.. وأنني فقط الذي أراك.. كيف ذلك..؟
- مثلما أقول لك..
- مـاذا تقـول..؟ كيـف هـذا وقد كنتَ جالسـاً مع النسـاء هناك فـي الردهة..؟ كما رأتك موظفة في الاسـتعلامات وأنت تصعد إلى هنا، لأنها سـألتني حينما كنت نازلاً إن كنت قد نسيت شيئاً.. وأنا حقيقة لا أعرف ما قلته للنساء حول الطاولة.. لأنهن سألنني وقد ارتبكت..
- لا ترتبـك.. فنحـن لـن نلتقـي عندهـن معـاً.. أنـت أنا وأنا أنت.. يجب أن تعرف ذلك
- ماذا تقول..؟ كيف سأعرف بماذا ستحدثهم..؟
- إذا كنت أنا معهم.. فهذا يعني أنك أنت معهم.. لأن الأخ التوأم ليس موجوداً.. التوأم منا سيكون دائما غير موجود.. الموجود الدائم هو أنت.. حتى لو كنت أنا أبليس.. فأنا أنت!

نظر إليه آدم الشامي بحيرة، وسأله مستفهما وبنبرة فيها انزعاج واضح:

- ولمـاذا كل هـذا..؟ مـاذا تريـد منـي..؟ ولمـاذا أنت هنـا أصلاً..؟ لماذا أنت في الفندق..؟ وفي دمشق..؟

ابتسم إبليس بلامبالاة وكأنه يستمع لاحتجاجات صبي مشاكس، وقال:

- أنا لا أريد منك شيئاً.. أنت نفسك تستطيع أن تعتبرني الشيطان الرجيم، ويمكنك

أيضـاً أن تعتبرنـي مـلاكك الحارس.. أعماقك هي الأسـاس.. رغباتك الغامضة والمظلمـة.. رغباتـك التـي تعرفهـا أنت نفسـك، بل وأفكارك التـي تعرفها أيضاً وتؤمـن بهـا.. هـي وحدهـا التـي يمكنها أن تجعل مني شـيطانا أو ملاكاً.. وهي التـي تدفعـك إلـى تخيل الجحيـم،أو تحيل الفردوس.. أنا هنا لأنك تحتاجني.. ولسـت أنت وحدك من يحتاجني.. كل نزلاء الفندق يحتاجونني.. بل إن هذه المدينة سـتحتاجني أكثر.. لكن كما قلت لك.. الجميع يحتاجني كرمز للشـر؛ ليبرروا لأنفسهم كل الأشياء المحرمة دينياً!

- أنا.. أنا لا أحتاجك..
- بـلْ.. أنـت تحتاجنـي.. ألـم أقـل لـك إنـك أنا.. وأنا أنـت..؟! أنت تحتاجني للتخلـص مـن الشـعور بالذنـب الذي يهيمن علـى كل حياتك.. تحتاجني لتلقي باللوم عليّ.. ولكي لا تعذّب نفسـك.. لسـت أنت الوحيد الذي يفعل ذلك.. أنتم البشر منذ بدء الخليقة تفعلون ذلك..
- ليس لديّ شـعور بالذنب.. ولماذا أشـعر بالذنب..؟ ما الذي فعلته كي أشـعر بالذنب..؟

نظر إبليس إليه نظرة مستفحصة، وقال له بعتاب:

- لا تكذب على نفسك.. لأنك بذلك تهينها.. سأقول لك شيئاً.. أنت تشعر بالخجـل مـن نفسـك حينمـا ترجـع إلى هـذا الجناح في منتصف الليل.. تشـعر بالقذارة حينما ترسـل الفتيات الأجنبيات والعربيات، بل وحتى السـوريات إلى المسؤولين الحزبيين ورجال الدولة.. تشعر في قرارة نفسك بأنك قوّاد رخيص؛ رغم أنك تسمي تلك الأفعال بالخدمات الإجتماعية!

فوجئ آدم الشامي من صراحة إبليس، لكنه لم يستطع من أن يكتم اعتراضه، فقال:

- أرجوك..

فجأة دوّت في المكان ضحكة تهكمية قوية اهتز لها المكان، وأحس آدم الشـامي بأن تلك الضحكة ترن في طوابق الفندق وممراته، بل وحتى في شوارع المدينة كلها.. واسـتمرت تلك القهقهات للحظات، ثم سـكت إبليس، نظر إليه هازئاً وقال بنبرة مليئة بالسخرية:

- اسـمعني يا آدم لأخبرك شـيئا عن نفسـك.. أنت إنسـان حقود.. بل إنك تجد

متعة في الحقد.. وفي التعبير عن ذلك الحقد.. أنت تنتشي بالحقد.. تشعر بنشوة البغض والحقد.. لديك رغبة غامضة في أن تتحدى.. وأنت تعرف بأنك ستتأذى.. لكنك كثيراً ما تلتذ بالألم.. تلتذ بالإهانة.. وبرغم ذلك لديك ثقة عمياء بنفسك.. ثقة يرافقها حذر مريض.. حذر أقرب إلى الوسواس.. قوتك ليست في حضورك الجسدي فقط.. وإنما في حضور شخصيتك وقوتها النفسية المؤثرة على المقابل.. وأنك تعي ذلك.. وتستفيد منه لأقصى ما يمكنك ذلك.. لكنك كثيراً ما تأتي إلى هذا الجناح.. بعد أن تكون قد أرسلت فتياتك إلى المسؤولين.. وتكون قد ضاجعت إحداهن في غرفتها أو في مكتبك.. تأتي إلى هنا لتشرب بضعة كؤوس من شراب (الجن) مع الليمون.. ثم تبدأ بالبكاء..

- ارتسمت الدهشة الممزوجة بالتعجب والخوف على وجه آدم الشامي، وحار بماذا يجيب. ولم يجد سوى أن يقول:
- ولكن..
- لا تقاطعني.. دعني أكمل..

قال إبليس ذلك بلهجة اشبه بالأمر.. صمت للحظات، ثم واصل حديثه:

- حينما تسكر قليلاً تطلق العنان لنفسك.. تشتم نفسك.. تهينها.. تحتقر نفسك.. لكنك لستَ مخلصاً في ذلك.. لأنك تفعل ذلك بنفسك؛ كي تمنح نفسك الحق بشتم الآخرين واحتقارهم مهما كانت مكانتهم.. أنت جبان.. وعادة ما تخشى أن لا تبدو ذكياً حينما تكون في وسط جمهرة من الناس.. جمهرة من الناس الذين يتظاهرون بالذكاء أيضاً.. حينها أراك تتحدث بعقل محموم.. لكن بقلب بارد... أنا أعرف أنك من أجل وصولك إلى مكانتك ومنصبك هذا.. ومن أجل حصولك على كل هذه الإمتيازات؛ قدمت تضحيات كبيرة وغالية عليك.. بل إنك حينما تتذكر ما قدمته يخنقك البكاء.. حتى صرت لا تشعر بطعم السعادة التي يمنحها لك هذا المنصب المهم الذي يحلم به الملايين.. أنا أعرف أنه ليست ثمّة خيبة وتعاسة أشد من سعادة وفرح ومكانة تأتي متأخرة.. أو تكون مقابل تضحيات باهظة وانتظارات طويلة.. بحيث تفقد هذه السعادة وهذا الفرح طعمهما..

تقلصت أجفان آدم الشامي وارتجفت عضلات على أطراف شفتيه دون إرادة منه، وقال بغضب مكتوم:

- وماذا لديك أيضاً..؟ ماذا رأيت..؟ وماذا تعرف عني..؟ كيف تراني كل ليلة ولا أراك..؟ ماذا تعرف عن آلامي.. وتضحياتي التي قدمتها كي أصلَ إلى ما وصلتُ إليه..؟ ثم..إذا ما كنت تعرف كل شيء عني، فهذا يعني أنك تعرف الثمن الذي كلفني كل هذا..

ابتسم إبليس. صمت للحظات، ثم قال وكأنه يواسيه:

- أنا لا أعرف كل شيء عنك.. أنت مخطئ.. أنا أعرف جانباً واحداً منك.. ومن حياتك.. الجانب الذي يدفعك للبكاء ليلياً.. أعرف.. أعرف أنك فقدت عائلتك من جرّاء ذلك.. أعرف أن زوجتك كانت تحلم بحياة مرفهة.. وكذلك أولادك.. أعرف أن زوجتك هي التي أشعلت في نفسك هذا الطموح.. وظلت تنفخ فيه يوميا.. حتى وصل بها الأمر بأن لا تمنحك نفسها إلّا بعد استسلامك لأفكارها.. لأنك تعرف خطورة هذه الخطوة.. وماذا تعنيه.. أليس كذلك..؟.. صحيح أنت كنتَ منتمياً إلى الحزب.. وكنت عضوا بسيطاً فيه.. لكنك كنت تعرف بأنك من أجل أن تقفز إلى هذا المكان الذي أنت فيه الآن؛ عليك أن تقدم نفسك وعائلتك قرباناً.. وهذا ما حدث.. أتذكر حينما أخذتَ تدعو بعض المسؤولين إلى ولائم كبيرة في المطاعم..؟ كنتَ حينها تستدين من أجل أن تنفق على كل هذه الدعوات والولائم الباذخة.. وكنت ترى بعينيك بأنك تفقد زوجتك التي أخذتها نشوة التعرف على المسؤولين الكبار الذين أخذوا يغازلونها أمام عينيك.. بل أدركتَ أنت ضياعك حينما دُعيتْ هي إلى حفل خاص في بيت أحدهم ولم تُدعَ أنت.. أنت رب العائلة الكريمة!! أتذكر ذلك..؟ ثم جاء الدور على ابنتك.. وهوت هي أيضاً.. وكان سقوطها مدوياً وسريعاً.. أنت كنتَ قد اكتشفت بأنك في صحبة الأفاعي.. في صحبة أناس تعفنت نفوسهم.. ماتت أرواحهم.. بالرغم من أن أجسامهم حية.. ونظيفة ومرفهة.. لقد اكتشفتَ الخديعة الكبرى.. فهذا الحزب الذي يقود البلاد ليس سوى عقدة من الأفاعي السامة ملتفة على بعضها بشكل مرعب.. وقد لدغتك.. لا.. لا.. لم تمتك؛ لأنك تعودت على سمها؛ لأنهم أعطوك مضادا يجعلك تستمر على البقاء.. وكان هذا السم المضاد هو المنصب الذي أنت فيه.. نعم.. أنت تدرك ذلك جيداً.. وتدرك أيضا أن أحد ابنائك صار مدمنا على المخدرات والآخر هاجر

إلى خارجَ البلاد إلى غير رجعة بعد أن شاهد سقوط العائلة..

فجأة صرخ آدم الشامي بصوت مخنوق:

- كفى.. كفى أرجوك.. ارحمني..

صمت إبليس أمام كثافة الألم الذي ارتسمت على ملامح آدم الشامي.. بحيث تشوهت ملامحه.. نظر إبليس إليه بلا مبالاة، وقال له:

- سأنزل إلى الردهة.. استرح أنت هنا.. لا تقلق،كل شيء سيكون على ما يرام.. فأنا أعرف واجباتك ويوميات عملك الإداري هنا..

نظر آدم الشامي إليه نظرات شاردة، فقد كان تائها في أعماق نفسه. وبدا وكأنه صار لا يبالي بما سيحدث، لكن إبليس التفت إليه قبل أن يغادر الجناح، وقال له:

- لا تعذب نفسك كثيراً.. كل شيء في هذه الحياة قائم على المقايضة.. على البيع والشراء.. لا شيء بدون مقابل.. كل شيء له ثمن.. حتى دخول الفردوس يجب أن تدفع ثمنه.. أما الجحيم فبواباته مفتوحة على مصراعيها للجميع.. الدخول مجاني..

وغادر المكان. بقي آدم الشامي وحيداً في الجناح.

* * *

- مدام حواء ذوالنورين..؟

رفعت حواء ذوالنورين رأسها إلى النادل الذي كان واقفا عند الطاولة. انتبهت إيفا سميث إلى النادل أيضا.

- نعم..
- هناك إتصال هاتفي لك.. يمكنك أن تجيبي عليه عند مكتب الإستقبال..
- لي أنا..؟ ممن..؟
- لا أعرف مدام..

نظرت إلى إيفا سميث بتساؤل، بينما ارتسمت ابتسامة غامضة على وجه الفتاة الخليجية التي نهضت قبل أن تقوم حواء ذوالنورين لتجيب على الإتصال. نظرت لهما بمودة وقالت:

- آن لي أن أذهب.. عليّ الذهاب إلى المطار.. تشرفت بمعرفتكما.. وآسفة إن كنت قد سببت لكما بعض القلق..

التفتتا إليها. تصافحن مودعات. وقبل أن تذهب قالت إيفا سميث لها:

- إذا جئت إلى باريس فيجب أن تتصلي بي.. لديك تليفوني..
- أكيد.

غادرت الفتاة الخليجية الطاولة. كانت حواء ذوالنورين مرتبكة. نظرت إلى إيفا سميث وسألت بحيرة:

- مَن ترى هذا المتصل..؟
- إذهبي.. وستعرفين..
- أيمكن أن يكون قد عرف بمكاني..؟
- من تقصدين..؟ زوجك..؟ من أين له أن يعرف أنك هنا..؟ لا تهولي الأمور.. إذهبي وستعرفين..

نهضت حواء ذوالنورين بارتباك متجهة نحو مكتب الإستقبال. بقيت إيفا سميث وحدها. أحست أنها ألزمت نفسها بوعود عليها أن تنجزها. هي لا تعرف أن تكون بدون واجب أو التزام أو شيء ما تشغل نفسها به، بل هي تبحث عن أي شيء يشغلها ويملي عليها فراغ وقتها.

أخذت حقيبتها وأخرجت جهاز الهاتف النقال وطلبت رقم أم صديقتها حواء دمشقية. أخذت تتحدث بهدوء:

- صباح الخير يا عمتي.. أنا إيفا.. إيفا سميث.. كيف حال حواء..؟ جيد.. عمتي.. أريد أن أخبرك بأن على حواء أن تأتي معي إلى باريس.. أنا سأعرضها على بعض الأطباء.. سترتاح هناك.. سترجع لعملها فهو أفضل لها ولنفسيتها.. نعم.. نعم.. لقد أخبرتها بذلك.. ضروري يا عمتي.. وضعها النفسي صعب جداً.. تحتاج إلى الراحة التامة.. جو باريس مفيد لها.. ماذا؟ أنا سأسافر غداً.. يمكنني أن آخذها معي.. طيب.. سأمر لنتفق.. هل هي قريبة منك..؟ دعيني أتكلم معها إذا سمحتِ... (بعد لحظات صمت).. أهلا حواء.. اسمعي.. لقد تحدثت مع والدتك.. أخبرتها بضرورة أن تسافري إلى باريس.. هي موافقة.. رتبي أمورك.. أنا سأسافر غداً.. هل يمكنك أن تحجزي على نفس الموعد..؟ أية خطوط جوية؟ جئت على الخطوط الجوية الفرنسية.. رحلة المساء.. أوكي.. سأنتظر مكالمتك.. سأزورك بعد أن أحل مشكلة ما لصديقة تعرفت عليها هنا

في الفندق.. لا عليك.. سأنتظر مكالمتك.. كوني قوية.. سنحل كل المشاكل.. انتبهي لنفسك.. باي.

* * *

وضعت حواء ذوالنورين السماعة على موضعها. ظلت للحظات تستجمع أنفاسها. لقد أربكها ما قالته لها حواء الكرخي. إذن لقد عرفوا أنها غادرت بغداد إلى دمشق. هل سيأتي قابيل العباسي خلفها إلى دمشق..؟ هل سيتصل بالتنظيم الذي يتخذ من دمشق مقراً ليتابعوها وينتقموا منها..؟ هل سيستغرق ذلك وقتا..؟. كانت تحس بضيق في نفسها. فجأة سمعت صوتاً دافئا مجاوراً لها يقول:

– هل أنت بخير مدام حواء..؟ هل حدث شيء ما..؟

حين التفتت رأت آدم الشامي واقفاً ينظر إليها بتساؤل وعلى وجهه علامات اهتمام واضحة. ارتبكت. حاولت أن تبتسم لكن الابتسامة تلاشت من على شفتيها، وقالت:

– أخبار سيئة

– من العراق..؟ هل حدث مكروه..؟

– نعم.. لدي مشكلة كبيرة..

كانت تحس بالإنطفاء واليأس يجتاح روحها، لكن فجأة وكأنها تقامر بكل ما لديها في لحظة يأس، قالت له:

– أستاذ آدم.. أحتاج لمساعدتك.

كانت خجلة.. وغير دبلوماسية أو لبقة في طلبها المساعدة منه، وأحست بالندم بعد لحظة من نطقها بتلك الجملة.. لكنها لا تريد أن تتراجع عن المضي في طريقها.. لا تريد أن تتنازل عن هدفها الذي على آدم الشامي أن يساعدها فيه. هي خائفة جداً.. ويائسة..

نظر إبليس، الذي كان بالنسبة إليها هو آدم الشامي، نظرة قلقة لكنها تشع طيبة، وبدون تردد قال لها:

– تعالي معي إلى المكتب.. سنتحدث هناك بهدوء..

ترددت قليلا.. وبدون وعي قالت له:

– صديقتي مدام إيفا سميث تنتظرني.. هناك.. يجب أن أخبرها بالأمر وآتي معك..

ابتسم هو وأدرك للفور بأنها تتوجس أن تكون معه في المكتب وحدها، وبما أنه ليس آدم الشامي الحقيقي، فقد قال لها بمودة وطيبة بث الثقة في نفسها:

- ولِمَ لا.. يجب أن تخبريها.. بل لتأت هي معك أيضا.. أو لآتي أنا كي أدعوها.. سيكون هذا أكثر لياقة.. ما رأيك..؟

استغربت موقفه. أحست بمشاعر رقيقة غيرعادية نحوه. وخطرت في ذهنها فكرة بأنها قد كونت فكرة سيئة عنه، بينما هو غير ذلك. كان هو ينتظر رأيها، فانتبهت لذلك وقالت:

- نعم.. سيكون هذا لطفا منك..
- تفضلي..

مشت أمامه. كان هو يتأملها وهو يفكر بأن آدم الشامي محقّ في هيامه بها. كانت قدرته تمكنه من رؤيتها عارية وهي تمشي أمامه.. أعجبته تقاسيم جسدها.. وقبل أن تصل إلى الطاولة عادت في نظره إلى حالتها الطبيعية.

استغربت إيفا سميث حينما رأت الارتباك والقلق على وجه صديقتها، وأحست بأن شيئاً ما حدث وإلّا ما معنى أن يرافقها آدم الشامي، وقبل أن تنطق حواء ذوالنورين بشيء قال إبليس بإحترام ورزانة موجها كلامه لإيفا سميث:

- مدام إيفا سميث.. أتمنى أن تشرفيني مع مدام حواء إلى مكتبي.. يبدو أن مدام حواء تحتاج إلى مساعدة عاجلة وضرورية.. وقد طلبتها مني.. ولكنها لم تحدثني عنها.. وتتمنى أن تشاركينا الحديث.. فأرجو أن تتفضلا معي إلى المكتب.. وأتمنى أن أكون نافعاً وقادراً على تقديم المساعدة.

نظرت إيفا سميث إلى صديقتها مستفهمة، فارتبكت حواء ذوالنورين وقالت مبررة الموقف:

- لقد تلقيت إتصالاً من صديقتي حواء الكرخي التي رافقتني.. ثمة أخبار ليست طيبة من بغداد..

لم تحاول إيفا سميث أن تناقشها بالتفاصيل وإنما أخذت حقيبتها وقامت معهما.

* * *

صمتت المرأتان بعد أن قصت حواء ذوالنورين حكايتها بالتفصيل، وما وصلها من أخبار، تلك التي أنبأتها بها حواء الكرخي.. استمع إبليس بهدوء لكلامها.. ثم قال:

- أنا كنت في العراق.. هربت من هناك.. لم يعد هناك مكان حتى لإبليس!

لم تفهم المرأتان مغزى كلامه.. لكنه واصل:

- إنهم يُقتلون بشكل بشع وبلا رحمة.. يقتلون بعضهم بعضاً.. حتى ليستغرب الناظر المتأمل لحالهم سائلاً: أين كان كل هذا الحقد مخزوناً..؟ أستغرب أحياناً من البشر.. عموماً.. أنا أتفهم الوضع الذي تجد مدام حواء نفسها فيه.. وأرجو أن تثقا بأني سأبذل جهدي من أجل المساعدة.. سأفكر بطريقة ما.. لا بد أن نجد مخرجاً من هذه الورطة.. لا أريد أن أبث الرعب في قلبيكما.. لكني أعرف الوضع جيداً.. سيصلون إلى هنا قريبا.. ربما خلال يومين أو ثلاثة.. وسيعرفون أنها هنا في هذا الفندق..

أحستا برهبة وشعرتا وكأنهما ذبابة في بيت عنكبوت، مقبوض عليهما بخيوط واهية، لكنها متشعبة.. كان إبليس يشعر بأن كلماته الأخيرة عن إمكانية وصول الزوج قابيل العباسي أو رجاله إليها قد أرعب حواء ذوالنورين، وبث الخوف والغضب في نفس صديقتها.. لكنه لم يستطع التحدث أكثر كي لا يكشف عن شخصيته.. فجأة قال لهما:

- هل يمكنكما أن تنتظراني قليلاً هنا في المكتب.. سأحاول أن أتصل من جناحي بأحد الأشخاص.. لا بد أن نجد مخرجاً..
- تفضل..

قالت له إيفا سميث باستسلام، بينما ظلت حواء ذوالنورين صامتة.

* * *

استمع آدم الشامي إلى حديث إبليس وما دار بينه وبين المرأتين. ذهل من قصة حواء ذوالنورين. أيقظ حديثه حسه المخابراتي.. فكر في أن يبلغ عنها بنفسه.. أو يستغل هذا الأمر؛ ليضاجعها.. لكن إبليس ذكره بأنه اقترف الكثير من الذنوب في حياته بحيث أنه إبليس يائس من غفرانه.. ولا يجد جدوى من توبته.. وأن هذه فرصة سانحة له؛ لكي يقوم بعمل يكفر فيه عن ذنوبه وآثامه الكثيرة.. لأنه صار يتنفس الأثم والخداع في كل لحظة من لحظات حياته.

استطاع إبليس أن يقنع آدم الشامي بفعل عمل طيب بمساعدة هذه المرأة المسكينة.. وحينما اقتنع آدم الشامي بذلك شرح لإبليس الطريقة التي سيساعدها بها، ثم قام ليذهب بنفسه إلى المكتب، بينما ظل إبليس جالساً وهو يتأمل آدم الشامي والابتسامة ترتسم على وجهه.

* * *

دخل آدم الشامي إلى مكتبه متوتراً. جلس على كرسية صامتا. توجست المرأتان وظنتا أن الأخبار التي لديه سيئة. كانتا تترقبان أن يقول شيئا. نظر إلى حواء ذوالنورين نظرة لم يستطع خلالها أن يخفي رغبته، لكنه كان أيضا منشغلا بما اتفق فيه مع شبيهه إبليس، فقال بصوت حاول أن يكون طبيعياً لكن بعض الإرتعاش كان واضحا في برته:

- لقد وجدت مخرجا لهذه المشكلة. لكن قبل كل شيء يا مدام حواء.. هل لديك مبلغ جيد من المال..؟
- ارتبكت حواء ذو النورين، لكنها أجابت متسائلة بهدوء:
- جيد..؟ما المقصود بمبلغ جيد..؟ يعني كم يجب أن يكون..؟ لدي بعض المال.. لكن كم هو المبلغ الذي تسأل عنه..؟
- لا يقل عن خمسة آلاف دولار ولا يتجاوز العشرة آلاف منه..

فتدخلت إيفا سميث سائلة:

- أستاذ آدم.. ستتدبر هذا المبلغ..إذا لم يكن لديها فسأساعدها أنا.. المهم أن نحل المشكلة بأسرع وقت.. لكن لماذا تحتاج إلى هذا المبلغ..؟

نظر آدم الشامي إلى إيفا سميث بإحترام وقال:

- مدام إيفا.. يعجبني موقفك هذا.. أنا لا أريد هذا المبلغ لي.. وإنما فكرت بشراء جواز سفر إحدى موظفاتي العاملات عندي من الروسيات.. نعطيها مبلغاً ما.. وهي تحل مشكلتها مع سفارتها بإدعائها ضياعه.. ثم نسلمه إلى أناس مختصين أعرفهم جيداً.. مأموني الجانب.. ليضعوا صورة مدام حواء بدل الروسية وتسافر به.. وهو جواز يمكن أن تدخل به، حسب معلوماتي، إلى بودابست عاصمة هنغاريا وبعض عواصم الدول الأخرى بدون فيزة.. ومن هناك يمكنها ركوب القطار إلى أي بلد أوربي..
- والروسية..؟!

سألت إيفا سميث، بينما كانت حواء ذوالنورين صامتة ومستسلمة؛ لكي يقرر آدم الشامي وإيفا مصيرها. نظر آدم الشامي إليها، ولما رآها بهذا الإستسلام والقلق المثير للشفقة، التفت إلى إيفا سميث وقال بلا مبالاة:

- ستذهب لسفارتها وتدعي بأنها فقدته وتحصل على بدل ضائع.. ربما خلال شهر أو أكثر..

- وكم سيستغرق هذا الأمر..؟
- يمكن أن نبدأ به من الآن.. فجوازات سفر الموظفات في المطاعم والمراقص الليلية عندي هنا في المكتب.. سأختار جواز سفر واحدة على مشارف الأربعين.. كي لا نضطر لتغيير تاريخ الميلاد وإنما نكتفي بتغيير الصورة فقط.
- اتفقنا.. لكن متى يتم ذلك..؟

التفت آدم الشامي إلى حواء ذوالنورين وسألها:

- الآن.. هل لديك صورة شخصية..

ارتبكت حواء ذوالنورين. كانت غير مصدقة ما يجري، وكذا إيفا سميث. فتشت حواء ذوالنورين في جواز سفرها العراقي.. وأخرجت من حافظته صورتين صغيرتين لها. فقال لها آدم الشامي:

- صورة واحدة تكفي.

نظر آدم الشامي لهما نظرة تأمل خاصة. صمت للحظات ثم قال:

- أنتما تعرفان خطورة ما أنا مقدم عليه..! لذلك فأن السرية يجب أن تكون مطلقة.. لحين خروج مدام حواء من البلاد..
- أيمكنها أن تخرج من المطار..؟
- يمكنها ذلك.. لكن زيادة في الإطمئنان سأرافقها إلى المطار.. لدي بعض المعارف هناك في المطار.. لكن دعوني الآن انجز جواز السفر.. وبعد ذلك لكل حادث حديث.

مدت حواء ذوالنورين يدها إلى حقيبتها وقالت:

- هل تحتاج إلى المبلغ الآن..؟
- لا.. لا أعرف كم سيكلف بالضبط.. سأتحدث مع الموظفة المعنية أولاً.. والآن أعتذر منكما.. يمكنما أن ترتاحا في الردهة أو في غرفتيكما.. سنلتقي عصراً في الردهة.. أو مساء على العشاء..
- اليوم نحن مدعوتان عند صديقتي..
- إذا عصراً سألتقيكما في الردهة لأخبركما إلى أين وصلت..
- ممتاز..

خرجت المرأتان، وعند الباب التفتت حواء ذوالنورين وقالت بتوسل:

- أستاذ آدم.. هل الأمر مضمون..؟ هل يمكنني أن أعتمد عليك..؟ حياتي في خطر.

نظر آدم الشامي إليها وكأنه يناجيها، وقال:

- لا تقلقي.. سأساعدك.. وستغادرين خلال يومين في أقصى الأحوال وإذا مضى كل شيء كما أفكر فستسافرين غداً..

وبدون إرادةٍ اختلجت الدموع في عينيها، وارتعشت عضلات وجهها قرب شفتيها.. ولكي لا يرى ضعفها خرجت لتتبع إيفا سميث..

13

جـدران كـفـافـيـس

اسـتأذنت إيفـا سـميث صديقتهـا حـواء ذوالنورين بالذهاب إلـى بيت صديقتها التي تلقـت منهـا مهاتفـة مفاجئـة. لـم يكـن أمام حواء ذوالنورين سـوى الذهاب إلى غرفتها، التي بقيت فيها لسـاعات عدة، حتى أنها اتصلت بخدمة الغرف وحجزت وجبة الغذاء التي حُملت إليها في الغرفة.

كانـت تشـعر بضجـر ممـزوج بنفـاد الصبـر. اسـترجعت كل مـا مر بها فـي حياتها، واستغربت كيف أن العمر يمرق أحياناً أمام عيني الإنسان الداخلية بسرعة مذهلة.

أدركت أنها قد اقترفت الكثير من الآثام والخطايا في حياتها.. هي لا تريد أن تبرئ نفسـها، وليسـت لديها الرغبة في الدفاع عنها، سـوى وعيها لضعفها البشـري، ولشـبقها الجنسـي، وقوة رغبتها العارمة بالحياة.. شـعرت بالشـفقة على نفسـها، لكنها لم تستسلم لهـا، فهـي لـم تشـأ أن تهـرب مـن وعيها لماضيهـا، لقد أدركت بأنـه لا قيمة لأخطائها، وآثامهـا، وذنوبهـا، أمـام وعيهـا النفسـي والروحـي بهذه الأخطاء.. ولـم يكن هذا الأمر بالسـهل عليهـا، ولـم تكـن لتجـرؤ على مواجهته، لو لم تسـتلم هـذا الإتصال من حواء الكرخي، إذ شعرت بالخطر الحقيقي والغامض مقبل عليها، لذلك استجمعتْ كل قوتها النفسية من أجل أن تواجه نفسها بهذا الشكل الصريح.

موقـف آدم الشـامي حيّرهـا. أمـن الممكـن أن يكـون مخلصاً في مسـاعدتها..؟ ألا يمكن أن تكون كل هذه الأمور لعبة منه وتسويفاً للوقت من أجل القبض عليها..؟ أليس هو مسـؤولاً أمنياً أيضاً..؟ لكن لماذا يقبضون عليها..؟ هل هي مجرمة..؟ لقد دخلت سـوريا بشـكل رسـمي وبوثائق سـفر رسـمية أيضا.. كما أنها لم تخالف أي قانون سواء في بلدها أم هنا في سـوريا..؟. كانت الأسـئلة تزدحم في ذهنها. فكرت مع نفسـها بأن آدم الشامي حينما كان في المكتب أول مرة، كان أكثر حرية وطيبة واسترخاء، منه حينما

عاد ثانية، إذ عاد مرتبكاً ومتوتراً قليلاً وكأنه ليس هو الشخص نفسه.. أيمكن للإنسان أن يتغير مزاجه بهذه السرعة..؟ ما الذي حدث حينما ذهب ليتصل ببعض معارفه..؟ هل هو يخفي شيئاً ما..؟.. هل سمع شيئاً محدداً.. لا.. وحتى لو كان الأمر كذلك فليس أمامها أي خيار آخر أفضل مما قدمه.. عليها الانتظار.. قالت لنفسها. وأحست أن تغيّراً يجري في أعماقها، صار لديها أمل، فسألت نفسها: أمن المعقول أن يتغير الإنسان بهذه السرعة..؟!

ولكي لا تجهد نفسها بالتفكير في اللقاء المفترض مع آدم الشامي بصدد عمل جواز السفر، أخذت الكتاب الذي كان على الطاولة المجاورة للسرير. قرأت تلك الفصول الفاجعة التي يتحدث فيها بطل الرواية عن ندمه وعودته إلى زوجته المريضة، الجميلة جداً، التي هجرها لأشهر عديدة، بالرغم من أنه كان يخجل من تصرفاته معها، وما سببه لها من آلام، ليكتشف أنها حامل.. كيف وهو لم يمسسها لأشهر طوال..؟ أيمكن أن تكون الفضيلة والعفة والتظاهر بالصبر واتخاذ دور الضحية والزوجة المخدوعة ليس سوى أقنعة لتنتقم منه وتعيش حياة سرية ربما أسوأ منه..؟ على الأقل كان هو واضحا في علاقاته ولم يخف شيئاً عنها.. ولم يتظاهر بالشرف والعفة والطهارة..؟ واصلت القراءة.. وصلت إلى الفصل الذي ولدت فيه الزوجة طفلها وكادت تفقد حياتها أثناء المخاض..

وضعت الرواية جانبا. أخذت تفكر بالبشر وقدرتهم على الخداع، وعلى تلبس دور الضحية.. فمن هو الضحية في هذه الرواية: الزوجة التي كان زوجها يهملها ويخونها مع أخريات، أم الزوج الذي ثاب لرشده وعاد بكل الندم إلى زوجته ليعوضها عن إساءاته لها، فوجدها لا تقل عنه خيانة، وهي ليست تلك البريئة والفاضلة كما كان يعتقد..؟.. ظلت تفكر بشخصيات الرواية لدقائق، ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة مرة، فكرت مع نفسها بأنها أيضا تتقمص أحياناً، بلاوعي منها، دور الضحية.. فالبشر، كما فكرتْ مع نفسها، يتقمصون دور الضحية لتبرير أخطائهم وسقطاتهم وذنوبهم.. ولكي يبرروا لأنفسهم اقتراف آثام جديدة.. فتقمص مشاعر الضحية يلبي حاجاتهم النفسية و يريحهم. لم ترغب في مواصلة القراءة في الرواية.. تناولت كتاب الشعر المترجم الذي اشترته مع الرواية في حينه. أخذت تقلبه. قرأت بعض القصائد التي لم تفهم منها الكثير لطبيعتها التاريخية ولارتباطها بأسماء شخصيات رومانية وإغريقية، لكنها توقفت عند قصيدة، ظلت تعيد قراءتها لأكثر من مرة، حتى أنها قرأتها مع نفسها بصوت عال:

جـــدران

دون أي اعتبار

دون شفقة

ودون أن يبالوا

ابتنوا حولي هذه الجـدران العالية.

اليوم، لا أستطيع سوى أن أجلس هنا، يائساً

ولا أستطيع أن أفكر الا في قـدَري

ومصائبه.

وما دامت لدي أشياء كثيرة أقوم بها في الخارج،

فلِمَ لمْ أحاذر حين أخذوا يبنون حولي الجدران؟

لكني لم انتبه إلى أية ضجة من البنائين..

كانوا غير مرئيين

وأغلقوا عليّ هنا، بعيداً عن العالم.

أحست بغصة في حنجرتها. أرادت أن تبتلع ريقها فلم تستطع. نهضت بسرعة إلى الثلاجـة وفتحتهـا وأخرجـت قنينـة ماء أخذت تعب منهـا وكأنها تختنق. أخذت تتنفس بسـرعة، ثم انتظم تنفسـها. „ يا له من شـعر يبهر ويقطع الأنفاس، وكأنه يتحدث عني، ياه.. كم من الجدران بُنيت حولي ولم أنتبه..؟ „ قالت لنفسـها. رجعت لتجلس على حافـة السـرير وتواصـل قراءتهـا لهـذا الشـاعر الغريـب. فتشـت في فهـرس الكتاب عن القصيدة التي يحمل الكتاب عنوانها **(وداعاً للاسـكندرية التي تفقدها)** فلم تجد قصيدة بهذا العنوان.. كانت في شـوق لقراءتها، فهي تتناغم مع ما يجول في خاطرها.. وداعاً لبغـداد التـي تفقدينهـا.. وبينمـا هي مسـتمرة في القراءة وصلت إلـى تلك القصيدة التي تحمـل عنوانـا مغايـرا (**الالـه يخذل أنطونيو)**.. وهناك قرأت القصيدة التي تنتهي بالبيت الشهير حيث يقول الشاعر فيه مخاطبا (انطونيو)..

قل وداعاً..

وداعاً للاسكندرية التي تفقدها.

أحستْ أن هذا شاعر يعيش في مكتبة بين الوثائق ووسط المخطوطات والأرشيف الروماني الوثني، فمعظم نصوصه تحتاج لشروحات أو استحضارات تاريخية، لكن أعجبتها معظم قصائده، فهي تعبّر عن حالتها النفسية وعن وحشتها، وكآبة روحها، وعزلتها، وفقدانها للسعادة، وللمعنى في هذه الحياة، وبرغم ذلك هي تسعى من أجل إنقاذ هذه الحياة المليئة بالمصائب والتي لا ترى منها سوى أفقٍ مدلهم غامضٍ ومجهول.

أخرجها من حالتها تلك رنين هاتف الغرفة. كانت صديقتها إيفاً سميثً قد عادت. اتفقتا على اللقاء. نهضت من مكانها لتغادر الغرفة، لكنها وجدت نفسها مترددة ولا تجد القوة على تخطي عتبة الغرفة. استجمعت طاقتها النفسية المتبقية وغادرت الغرفة.

* * *

كانت الردهة مكتظة بنزلاء الفندق وأصدقائهم حين وصلتها حواء ذوالنورين. رأت إيفا سميث جالسة وأمامها فنجان قهوة وكأس ماء لم يُمس. أشارت إليها الأخرى من بعيد. حين جلست حواء ذوالنورين قبالتها، بادرتها إيفا سميث بالسؤال:

- هل هناك أي شيء جديد..؟
- لا..
- هو قال إذا حصل على أية نتيجة فسيخبرنا عصراً.. وها نحن في وقت العصر.. وأنا آسفة لأني اعتذرت عن دعوته للعشاء دون أن آخذ رأيك.. فلقد انتبهت إلى أنك تخافين منه.. ولا نريد أن ندخل في تفاصيل أخرى غير ضرورية..
- حسنا فعلت برفض الدعوة.. فأنا صرت لا أخشاه فقط، وإنما أخشى الآخرين أيضا.. أتمنى أن يصل إلى نتيجة مرضية وإلّا فأنا أضيع هنا..

نظرت إيفا سميث إليها نظرة فيها تعاطف وعتاب وتأنيب:

- لن تضيعي.. كيف تقولين هذا..؟! ألم أقل لك أنا معك..؟ ولو صدق آدم الشامي في وعده بأنه سينجز جواز السفر خلال يومين فهذا يعني بأننا ربما سنلتقي قريباً.. أنا سأرجع إلى باريس غداً.. سأعطيك كل أرقامي وتفاصيل عنواني بحيث تتصلين بي وتخبريني عن كل التطورات.. وإذا لم يصل إلى نتيجة؛ سأفكر لك بحلّ ما؛ سأرجع من أجلك وآخذك إلى بيروت ومن هناك سنجد ألف طريقة وطريقة.

ترقرقت الدموع في عينيّ حواء ذوالنورين. وبلا إرادة منها مدت يدها فمسكت

كف إيفا سميث بقوة تعبيرا عن شكرها لها. ظلتا للحظات تنظران لبعضهما بصمت، نظرات تكثفت فيها مشاعر الصداقة والإمتنان والوعد والأمل.

في تلك اللحظة لمحتا آدم الشامي مقبلاً.. وعلى وجهه إبتسامة مضيئة. تقدم منهما وجلس دون استئذان على الكرسي المقابل لهما. فوجئتا بحضوره، وشعرتا بفرح غامر حينما لمحتا الابتسامة تضيء وجهه الوسيم. ولم يطل صمته إذ بادر بالحديث وكأنه فقد تردده وحذره السابق، فقال:

- لقد أنجزنا الأمر.. اخترت جواز سفر إحدى العاملات عندنا من الروسيات اللاتي يعزفن على البيانو.. وهي امرأة تقارب مدام حواء في السن إسمها إيفا بتروفنا تومانوفا..(التفت إلى حواء ذوالنورين موجهاً كلامه) احفظي الاسم جيدا..إيفا بتروفنا تومانوفا.. وهي على مشارف الأربعين.. تقاربك في الطول أيضاً.. لذا لن يتم سوى تبديل الصورة في جواز السفر.. لقد تحدثت معها بصراحة ووضوح.. وشرحت لها الأمر.. واتفقت معها على منحها ستة آلاف دولار.. لأن جواز سفرها فيه تأشيرة إلى إيطاليا.. لقد أرادت أن تقضي إجازتها السنوية هناك.. وقد حصلت على تأشيرة السفر الإيطالية من خلال مكتب السياحة هنا، كما لديها حجز فندقي في فلورنسا.. لكن الحجز بعد عشرة أيام.. وهذا ليس بمشكلة..إذ يمكننا تقديم أو تأخير السفر حسب رغبتنا.. لذلك هي طلبت هذا المبلغ.. لأنه عادة مثل هذه الأمور تكلف خمسة آلاف دولار.. لكنها أرادت أن تستفيد بسبب وجود التأشيرة والحجز.. وهي بدورها ستذهب إلى السفارة الروسية.. وستدعي بفقدان جواز سفرها.. وسيتم التحقيق والإجراءات الروتينية.. وستحصل على جواز سفر جديد.. وقد أرسلتُ الجواز مع الصورة الجديدة إلى شخص مختص بمثل هذه الأمور.. وسنمنحه ألفي دولار.. يعني أن جواز السفر الجاهز سيكلف ثمانية ألاف دولار.. هل لديك هذا المبلغ..؟

ارتسمت إنفعالات متباينة على وجه حواء ذوالنورين، فقد اختلط الفرح واختلاجات البكاء، بالشكر والعرفان، بل والحب وهي تنظر إلى آدم الشامي، مع نظرات خوف وكأنها غير مصدقة ما تسمعه. كانت إيفا سميث فرحة جداً لكنها أكثر سيطرة على مشاعرها. أجابت حواء ذوالنورين بارتباك من شدة الفرح:

- نعم عندي.. هل تريد المبلغ الآن.. أستطيع أن أدفعه حالا..

أخذت حقيبتها التي كانت على كرسي مجاور، وهي تهم بفتحها لكي تخرج المبلغ منها، إلا أنه قاطعها بهدوء وكأنه يهمس لها:

- ليس هنا.. المكان يعج بالناس.. هذا الأمر سيثير الريبة لو دفعتِ المبلغ هنا.. سنذهب إلى المكتب..

إلا أنه التفت إلى إيفا سميث حينما سمعها تسأله:

- وأنت.. حضرتك..؟ كيف نكافئك..؟ كم تود أن تأخذ على عملك العظيم هذا..؟

نظر آدم الشامي إليها بذهول واستغراب وقال:

- ماذا تقولين مدام إيفا..؟ أنا عملت هذا الأمر من أجل مساعدة مدام حواء لا أكثر.. كيف يمكنني أن آخذ مقابل هذا الأمر.. لقد طلبت مدام حواء المساعدة.. وهي في موقف صعب جدا.. أرجوك.. مدام إيفا.. أرجو أن لا تذكري هذا الأمر مرة أخرى..

تدخلت حواء ذوالنورين التي لم تكن تصدق كل ما يجري أمامها، وقالت بمودة:

- كيف..؟هذا تعبك أيضا.. ولولاك لكان الله وحده يعلم كيف سيكون مصيري..

التفت هو إليها قائلا، ونظراته تضج بالمودة والرغبات الصامتة:

- أنا وعدتك بالمساعدة. وها أني أفي بوعدي.. بل.. حينما أستلم الجواز الليلة.. وحينما أوصلك للمطار بنفسي.. وأراك تذهبين إلى بوابة السفر.. كي أطمئن لخروجك بسلام.. عند ذاك أشعر أني قد انجزت ما وعدت..

التفتت إليه إيفا سميث قائلة:

- أنت تعيد ثقتنا بالناس وبالرجال في هذا الزمان يا أستاذ آدم..

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة مضيئة، ولم يقل شيئا، فقد كان في تلك اللحظة يفكر بإبليس الذي حرّضه على القيام بفعل الخير وتقديم هذه المساعدة المجانية؛ ليكفر عن ذنوبه وآثامه القاتلة. فجأة، مدَّ رأسه للأمام وقال بهدوء:

- هل يمكننا الذهاب إلى المكتب.. علي تسليم المبلغ الليلة.. فخير البر عاجله.. وصاحبي الاختصاصي بتبديل الصورة وعدني بأن الجواز سيكون جاهزاً الليلة في تمام العاشرة.. وطبيعي علي أن أعطيه المبلغ.. وإذا لم تكن لديك سيولة نقدية فيمكنني أن أدفع أنا..

قاطعته حواء ذوالنورين وهي تنهض قائلة:

- لا.. شكرا جزيلا لك.. أفضالك تفيض.. المبلغ كله موجود.. سأعطيك إياه في المكتب.

نهضوا جميعهم. اتجهوا إلى المكتب. في تلك اللحظة رفع آدم الشامي رأسه إلى شرفة جناحه، فرأى خلال ثوان إبليس في هيئة الأخ التوأم، لكن في لحظة خاطفة تحول إلى رجل أشقر الشعر وسيم، يكاد يكون نسخة من الممثل النمساوي الذي عاش في إيطاليا هيلموت بيركر. وقف لثوان. انتبهتا لوقوفه. رفعتا نظرهما باتجاه الشرفة التي وجدتاه ينظر إليها فلم تجدا احداً. تحرك هو يتقدمهما.

14

الـراهـب
والـرجـل الأشـقـر الـوسـيـم

حين عادتا من مكتب آدم الشامي إلى الردهة، انتبهتا إلى أن معظم الطاولات كانت مشـغولة من قبل نزلاء الفندق، لكنهما اسـتغربتا حينما وجدتا طاولتهما خالية. جلسـتا حيث كانتا. أحستا أن ثمة حوارا يجري بصوت عال يأتي من الطاولة القريبة المجاورة. كان ظهر إيفا سـميث يواجه الطاولة المجاورة، بينما تواجهها حواء ذوالنورين. انتبهت حـواء ذوالنوريـن إلـى المتحـدث، الذي كان رجلاً أشـقر وسـيماً، وهو يخاطب الرجل المقابل له، والذي كان يرتدي جلبابا أسود، يشي طرازه بكونه راهباً، لاسيما وهو يضع صليباً فضياً كبيراً يتدلى على صدره من سلسلة كبيرة، وأمامه الكتاب المقدس.

قال الرجل الأشقر الوسيم للراهب:

– تسـألني عن الإنسـان..؟ ههه.. الإنسـان..إنه كذّاب أشـرّ.. مخلوق وضيع.. حتى الرجل العاشـق الذي يقدم لعشـيقته الهدايا النفيسـة من الذهب والجواهر لا يتـردد فـي أن يضاجعهـا واقفـاً، أو علـى الأرض الجـرداء، ويتمرغ معها على التـراب حتـى لـو كانـا يرتديـان الحريـر! المهـم لديه هو أن يولجـه فيها.. وكذا المرأة.. تسـتجيب للغاية نفسـها.. المهم أن يسـتمتعا بالرعشـة الجنسيّة ولذّتها.. وكل النفائس والهدايا ليسـت سـوى الطريق للوصول إلى ذلك.. بل ليس هذا الأمر في الجنس فقط، وإنما في كل الرغبات والشـهوات المحمومة.. كشـهوة المال.. وشهوة السلطة والهيمنة.. فمثلا نرى كل هؤلاء الذين ينادون ليل نهار بسلطة العدالة والحق والشعارات الإنسانية لا يتوانون عن إراقة الدماء، ويقومون بالإغتيـالات لـكل مـن يعتـرض طريقهـم.. بـل يغتالون حتى رفـاق دربهم، ولا يتوانون عن تملق أعدائهم، ونفاق من كانوا يكنون لهم الإحتقار، بل ويغدرون

بالجميع؛ من أجل الوصول للسلطة أو من أجل الحفاظ عليها.. السلطة والتلذذ بمشاعر الهيمنة التي يمنحها الكرسي تدفعهم إلى إراقة الدماء، وسحق المبادئ بعقبهم الحديدية؛ من أجل الإحتفاظ بهذا الكرسي.. لذلك أعتقد أن الشهوات جحيم.. لا شيء مضمون ومحقق من أفعال الإنسان سوى الألم..

الراهب الذي يبدو أنه قد تجاوز الستين، أبيض الشعر واللحية، مهموم الملامح، و يشي وجهه بوسامة سابقة، كان منتبهاً إلى كل كلمة قالها الرجل الأشقر الوسيم. كانت علامات التفكير العميق مرتسمة على وجه الراهب، فقال وكأنه يجهد نفسه في التفكير ويجد صعوبة في إيجاد الكلمات:

- يبدو أن تجربتك مريرة مع الناس.. تتحدث عنهم بحقد بارد!
- أتريدني أن أتظاهر بالحنان البريء على الإنسان، وأتظاهر بأني لا أعرف شيئا عن دواخله الدنيئة.. وعن ألاعيبه وخداعه؟ البشر مخلوقات مخادعة.. الخداع يسري في دمهم.. كما أعتقد أنك نفسك تعرف البشر أيضا.. ألا يأتونك للإعتراف..؟ ألا تستمع لآثامهم.. لخطاياهم.. لأكاذيبهم.. لتفاهاتهم.. للأذى الذي يسببونه للآخرين.. لخياناتهم؟ فلماذا تحاول أن تنظر إلى نصف الكأس الملآن فقط..؟!
- ولماذا تنظر إلى نصف الكأس الفارغ فقط..؟!
- أنا لا أنظر إلى نصف الكأس.. لا النصف المملوء، ولا النصف الفارغ، وإنّما أنظر إلى الكأس.. فهو يبقى كأساً سواء كان فيه ماء أم فيه نبيذ.. الكأس هو هكذا.. يجب أن ننظر إلى الكأس..

نظرا كل منهما إلى الآخر.. أخذا يحدقان إلى بعضهما البعض للحظات.. كلاهما كان يحاول أن يعرف ما يجول في خاطر الآخر.. ثم واصل الرجل الأشقر الوسيم كلامه:

- اللذة والألم.. هما وجهان للشيء نفسه.. هما سر الوجود الإنساني.. لكن كل لذة يجب أن تدفع مقابلها ألماً.. فكلما عظمت اللذة؛ عظم الألم.. لكن الغريب ليس دائماً أن عظمة الألم تعني بالضرورة عظمة اللذة لاحقاً.. وبرغم ذلك، أعتقد أن اللذة التي تجنى بسهولة؛ تفقد قيمتها سريعاً..

قال الراهب وكأنه ينظر إلى مكان بعيد:

- الرغبة هي أصل الخطايا يا بني..

ارتسمت على وجه الرجل الأشقر الوسيم ابتسامة ساخرة وقال:

- الرغبة ليست أصل الخطايا أيها الأب.. وإنما هي بحث محموم لمحو الألم والتوتر الداخلي والخوف من الوحدة والعزلة.. حتى وهي في أشكالها المبتذلة..

- أنت تخلط الأشياء يا بني.. أنت تتحدث عن الحب، بينما أنت تقصد به الرغبة.. الرغبة أصل الألم.. بينما الحب سعادة الروح..

حين قال الراهب جملته الأخيرة عن السعادة، نظر الرجل الأشقر الوسيم أمامه فانتبه إلى حواء ذوالنورين. نظر كل منهما إلى الآخر نظرة خاطفة، نظرة خارقة، كأنما يعرفان بعضهما البعض من قبل، نظرة قالا فيها كل شيء. لكنها نظرة لم تستمر سوى ثوان قليلة جداً. ابتسم لها بعينيه. بينما أحست برجفة داخلية هزت أعماقها. كانت هي وصديقتها إيفا سميث تتنصتان إلى هذا الحديث الذي شدهما معاً، بحيث لم تتحدثا منذ جلستهما قط. شعر الرجل الأشقر الوسيم بحيوية، وقال للراهب:

- ومن قال أن الرغبة حينما تتحقق لا تمنح السعادة للروح والنفس والجسد.. لكن البشر، أيها الراهب، مخلوقات تعيسة.. فالإنسان يسعى إلى السعادة.. بل هي هدفه في الحياة.. فهو يتحمل المصاعب ويجتاز المخاطر آملاً بالحصول على اللذة.. ربما تكون لذة جنسية.. أو لذة الحصول على المال، أو السلطة، أو نشوة الهيمنة ولذة السيطرة على الأشياء.. ومن ثمّ فالسعادة هي إرواء الرغبة الملحة، قصيرة الأمد.. لكن الإنسان كائن ملول أيها الراهب الجليل.. أليس كذلك..؟ أنت تعرف من خلال الكتاب المقدس أن الإنسان كائن شقي.. يمل من اللذات طويلة الأمد.. وأعتقد شخصياً أن الجنة ستكون مضجرة له حقاً.. سيملّ الإنسان من الجنة؛ لأن كل شيء فيها متوفر.. حينذاك، حتى اللذات تفقد طعمها.. البشر كائنات لا تستطيع تحمل السعادة.. لكن من جهة أخرى.. عدم إرواء الرغبات الملحة؛ يجعل الإنسان شقياً.. يجعله مخلوقا تعيساً..

نظر الراهب إلى الرجل الأشقر الوسيم، وكأنه يتفحصه جيداً، وقال:

- غريب أمرك.. أليست هناك من سعادة سوى التي تأتي من إرواء الرغبات الدنيئة.. ألا يشعر الإنسان بالسعادة حينما؛ يفعل الخير للآخرين..؟! ألا يشعر بالسعادة؛ حينما يبحث عن الجمال..؟! ألا ترى في بحث الإنسان عن الجمال في البشر والطبيعة والكون؛ هو أحد الأهداف الحقيقية للبشر في هذه الحياة..؟!

قهقه الرجل الأشـقر الوسـيم عاليا، لكن قهقهته لم تكن سـاخرة، وإنما قهقهة فيها نبرة رفض، ثم قال:

– أنت تدافع عن البشـر.. وتفترض أن الحب والخير والجمال هدف الإنسـان.. إنـك تحـاول أن تقـرب الإنسـان مـن الله.. لكنه ليس كذلك يـا أبانا.. (ثم وجَهَ نظره إلى الطاولة المجاورة.. ونظر إلى حواء ذوالنورين مباشـرة.. وخاطبها).. وأنت سيدتي ماذا تقولين..؟ أعتقد أنك سمعت حوارنا!

فوجئت حواء ذوالنورين من جرأته في توجيه الخطاب إليها. في تلك اللحظة التفتت إيفـا سـميث إليـه؛ فانبهـرت بوسـامته الفريدة والمثيرة. نظرتْ حـواء ذوالنورين إلى إيفا سميث نظرة سريعة، ثم توجهت إليه لتجيب عن سؤاله:

– عذراً إذا ما كنّا قد تنصتنا على حواركما رغماً عنا.. فقد كنتما تتحدثان بصوت عال ومسموع.. ثمّ انه حوار عميق وممتع، لكن لو سمحتما بودي أن أقول، و راجية أن تعذراني على قولي أنكما تعقدان الأمور كثيرا؛ فالإنسان ليس بالشرير المطلـق، وليـس بالخيّـر المطلـق.. ثم أن الحياة أبسـط مـن كل هذه التعقيدات؛ فنحن نأتي إلى الوجود غير مخيّرين أبداً.. ونذهب غير مخيّرين أبداً.. وما بين الولادة والموت ثمة رحلة مليئة بالأفراح والأتراح.. مليئة باللذة وبالألـم.. كما عبّرتَ حضرتك، لكن ليست آلامنا بسبب رغباتنا فقط، وإنما بسبب ظروفنا..

ابتسم الراهب لكلامها، بينما كان الرجل الأشقر الوسيم ينظر إليها ويحاول أن يفكر بما وراء كلماتها؛ محاولاً استكشـاف شـخصيتها.. فواصل تلقائيته وجرأته في الحديث إليها، وقال لها:

– يشرفنا أن تتفضلا إلى طاولتنا؛ لنواصل الإستماع إلى وجهة نظر جديدة..

تبادلت المرأتان النظرات.. ابتسمتا.. وقالت إيفا سميث:

– لا داعي للإنتقال، إنّما لنوسّع جلستنا

وعندها اسـتدارت بكرسـيها جانباً؛ فصار المجال مفتوحاً بين الطاولتين، والحوار ممكناً بينهم و كل منهم في مكانه. نظر الرجل الأشقر الوسيم إليها، متسائلاً بنبرة فيها بعض الاستفزاز والتحدي:

– وما هي الظروف التي تتحكم بالإنسان سوى رغباته الغامضة والواضحة..؟!

– الغنى والفقر.. الصحة والمرض.. مثلاً..

- لم أفهم..! ما معنى ذلك..؟!
- يعني رغبات الغني ليست نفسها رغبات الفقير.. فالذي رغبته الحصول على بعـض المـال؛ ليعيـش.. ليأكل ويلبس.. ويطعـم أطفاله.. وينفق على تعليمهم.. ليسـت رغباته كرغبات الرجل الذي لديه مال.. وهو شـبعان.. وميسـور الحال ولا يعرف كيف ينفق ماله.. رغباتهما مختلفة.. وكذلك رغبات الإنسان الصحيح الجسـم تختلف عن رغبات الإنسـان العليل.. فصحيحُ الجسـم يريد أحيانا أن يخطـف مـن الحيـاة أكثـر ممـا تعطي.. بينما العليل يعيش علـى الأمل بالحياة.. وربما لو تحسنت صحة هذا العليل؛ لعاش حياة أكثر أخلاقية وأكثر زهداً؛ فقد منحه المرض قدرة تذوق معنى الصحة وإدراك قيمة الحياة..

ابتسم الرجل الأشقر الوسيم، وقال بسخرية:

- ههه.. أحيانا.. هؤلاء الذين يكثرون الحديث عن الأخلاق وعن حكمة العيش بتوازن وزهد.. يتحدثون هكذا؛ لأنهم عاجزون.. وعندما تتاح لهم أول فرصة؛ تراهم يرتكبون الآثام ويقترفون الموبقات التي لا يمكن تخيلها..

كانت حواء ذوالنورين مبهورة بجماله، مأخوذة بجرأته. تنظر إليه بإنجذاب واضح، مؤيـدة وجهـةَ نظـره الأسـاس، التـي كانت فـي بداية الحوار بأن الرغبـات الغامضة التي في أعماقنا هي التي تسيّر حياتنا، وها هي تؤيده في قرارة نفسـها بأن الذين يتشـدقون بالأخلاق ولايملون من الوعظ ليل نهار، يفعلون ما هو أكثر فسقاً من الآخرين عند أول منعطف وفرصة، لكنها لا تسـتطيع أن تبدي رأيها؛ كي لا تحرج صديقتها، التي تحاور الرجلين..إلّا أن الرجل الأشقر الوسيم انتبه إليها، وابتسم لها ابتسامة جذابة، ناظراً إلى أعماق عينيها نظرة جريئة، فارتبكت، فسألها:

- وأنت سيدتي.. ما رأيك..؟

ازداد ارتباكها أكثر؛ حينما توجهت جميع نحوها. فقالت:

- لا أعرف ماذا أقول.. حينما كنت أستمع إليكم، كان يراودني إحساس بأن لدي كلاماً كثيراً يمكنني أن أقوله حول هذه المواضيع التي تحدثتم عنها، لكني الآن لا أجد الكلمات المناسبة.. بل ولا أجد الجرأة على قول ما تبقى في ذهني من أفكار..

نظر إليها الراهب وعلى وجهه ابتسامة أبوية، وقال مشجعاً:

- تحدثي يا ابنتي.. لا ترددي..

تشجعت قليلاً، لاسيما حينما نظرت إلى إيفا سميث التي شجعتها بنظراتها، فقالت بصوت متقطع، موجهة كلامها إلى الرجل الأشقر الوسيم:

- حينما تحدثتَ حضرتك عن الرغبات الغامضة والواضحة في أعماق الإنسان.. تحدثت عن رغبة الجنس.. شهوة المال.. السلطة.. الهيمنة.. لكن لم تتحدث عن رغبة الموت..

- رغبة الموت..؟!

سأل الراهب مستفسراً. فقالت حواء ذوالنورين مواصلة حديثها:

- نعم أيها الأب.. رغبة الموت.. أقصد، نحن البشر نعترف بالموت.. ونعترف بحقيقة أننا سنموت يوما ما، لكننا لا نستطيع تصور ذلك فعلاً مع أنفسنا.. نحن نقف وجها لوجه أمام الموت عند فقدان أحبابنا فقط.. انظروا إلى البشر خلال الحروب.. الشعوب تندب من سقط منها في الحروب وتسميّهم شهداء، لكنها لا تفكر بموت الآخرين في الجبهة الأخرى؛ مهما كانت أعدادهم، ومهما كانت طريقة موتهم بشعة.. بل تشمت بموت الآخرين الذين تسميهم الأعداء، بينما هم أحباب أهلهم وشعبهم.. الذي بالمقابل يعتبرهم شهداء.. لكن أشد أشكال الموت هو عندما يموت الأبناء..إن مجرد التفكير في موت الأبناء؛ يبعث الرعب في قلبيّ الوالدين، لاسيما الأم.. فكيف حينما يموت الابن فعلاً.. خاصة حينما يكون هذا الابن هو الوحيد.. ويموت بطريقة بشعة؟! عندها تتمنى الأم من كل قلبها أن تموت.. تستيقظ في أعماقها رغبة يمكنني أن اسميها رغبة الموت..

فقاطعتها إيفا سميث بحنان، وقالت:

- ياه يا حواء.. لقد ارتعش قلبي.. بل أحسسته ينقلع من مكانه ويسقط حينما مرق بخاطري شيء له علاقة بأطفالي.. أنا لاأستطيع العيش إذا مس أطفالي شيء ما.. لا أدري.. ربما الأمهات حالة خاصة..

ران صمت حزين ومتوتر للحظات. نظرت حواء ذوالنورين إلى الآخرين، ثم استقرت نظراتها على وجه الرجل الأشقر الوسيم، الذي نظر إليها، ثم قال:

- لكنك تحدثت عن حالة الأم التي تفقد ابنها؛ فترغب بالموت.. وهذه حالات فردية.. وليست عامة وشاملة للإنسانية مثل بقية الرغبات.. وحتى هذا لا يمنعها

من مواصلة الحياة.. وإرواء رغباتها..

صمتت حواء ذوالنورين لحظة ثم قالت:

- وجود رغبة اسمها رغبة الموت لا تتجسد في حالة الأم التي تفقد أبناءها فقط.. وإنما حينما يكون لدينا شخص عزيز جداً.. سواء كان أبا أم أما.. أم أي إنسان قريب.. ويصلون إلى عمر ما، أو يتعرضون لحادث ما يشوههم ويعيقهم جسديا، بحيث لا يستطيعون القيام بأيّة وظيفة من وظائفهم.. لا يستطيعون الأكل، ولا تنظيف أنفسهم من فضلاتهم؛ تجدنا ربما نحس ببعض الراحة عند موتهم.. ليس لأننا نريدهم أن يموتوا، بل لإننا نريدهم أن يرتاحوا؛ لأننا نعي بأن استمرار هؤلاء في الحياة هو عبء عليهم وعلينا..

فقاطعتها إيفا سميث قائلة:

- لكن هذا قاس جداً؛ لأن هذا الوعي بالموت يجعل من الحياة سجناً مفتوحاً على العدم.. لا.. لا.. يجب أن يتجنب الإنسان مثل هذا التفكير القاتل.. ولا أعرف كيف يمكنه أن يتخلص منه..؟

فقال الراهب بشكل مفاجئ:

- بالحب.. لا نجاة للإنسان سوى بالمحبة..

فردت حواء ذوالنورين:

- يظن الناس أن الحب سهل.. وأنه نزهة ممتعة.. مرح ولذة فقط.. لكنه ليس كذلك أبداً، لسبب بسيط هو أننا لا نستطيع أن نضمن أننا نحب الإنسان الصحيح.. وأعتقد أن كل مآسي الحب الحقيقية هي أننا نحب الإنسان الخطأ..

في تلك اللحظة وصل آدم الشامي إلى حيث الطاولتين. فوجئت المرأتان بوصوله.. ارتبكتا من رؤيته لهما مع هذين الرجلين الغريبين.. وقف صامتا.. نظر إلى الرجل الأشقر الوسيم.. تبادلا النظرات.. أدرك آدم الشامي بأن الجالس هو نفسه إبليس، فقد رآه في غرفته بهيئته هذه، ورآه أيضاً قبل أن يذهب مع المرأتين إلى المكتب؛ لإستلام المبلغ في الشرفة. ابتسم الرجل الأشقر الوسيم له، وخاطبه قائلاً:

- جئت في الوقت المناسب أستاذ آدم.. ما رأيك أنت..؟ أبونا الراهب يقول بأن الحب هو الوحيد الذي يمكن أن ينقذ البشر.. والسيدة هنا تقول بأنه لا أحد يضمن بأننا لا نحب الإنسان الخطأ.. ماذا تقول أنت..؟

نظرت المرأتان باستغراب إليهما؛ إذْ تعرفا أن آدم الشامي والرجل الأشقر الوسيم يعرفان بعضهما البعض. ارتبك آدم الشامي؛ فقد أحس بغيرة خفية تسري في أوصاله؛ لأنه يعرف بأن إبليس بهيئته هذه يجذب النساء بسحره الخفي. إلى جانب أنه شخصيا يشعر عادة بالملل بين الرجال، فإذا ما اضطر إلى الجلوس معهم؛ فأنه يقوم بدوره كمدير للمطاعم والملاهي في الفندق، ويحرر نفسه من إلتزامات الجلوس والتصرف بتهذيب مبالغ فيه وبرسميات، إلّا إذا كانت الجلسة تضم نساء جميلات؛ فهو عند ذاك يتألق. وبرغم أن الجلسة هنا تضم امرأتين جميلتين، إلّا أنه بحضور هذا الرجل الأشقر الوسيم يحس بالعجز. فجأة برقت في ذهنه خاطرة بأن يعبّر عما يجول في نفسه من مشاعر حب لحواء ذوالنورين التي يساعدها على الرحيل، ويحكم بذلك على نفسه بفقدانها، مع إدراكه العميق بأنه لا يتحمل العلاقات طويلة الأمد؛ إذ تتحول بعد فترة إلى عبء نفسي وأخلاقي؛ فوجد نفسه يقول، وهو لايزال واقفاً:

- شخصيا أعتقد أن الحب ليس علاقة عابرة، بل هو موقف من خلاله تعبر عن موقفك من شخص ما، ومن العالم والحياة بشكل عام.. الحب عطاء..

أطلق الرجل الأشقر الوسيم صفيراً، وقال بطريقة احتفالية:

- واو.. ما هذا يا أستاذ آدم.. وكأنني أقرأ في كتاب للحكمة..

ابتسم آدم الشامي وقال بخجل:

- الحقيقة لا أذكر أين قرأت هذا.. لكنني مقتنع به..

فتدخل الراهب الذي أعجبه ما قاله آدم الشامي، فقال بدوره:

- نعم يا ابني.. الحب عطاء.. وهو عطاء لا يعني أن تتخلى عن شيء ما وتضحي به..إنه كفعل الخير.. عطاء بدون تلقي.. ربما أنك تتلقى الفرح الذي يأتي من هذا العطاء.. وعلاقة الرجل بالمرأة هي عطاء وتلقي.. والمرأة حينما تتلقى محبة الرجل ورغبته في الالتحام بها فأنها في لحظة التلقي تلك تعطيه اللذة والسكينة.. وهو كذلك.. يعطيها الفرح والبهجة والسكينة الروحية.. ويزرع في رحمها الأطفال..

فجأة قهقه الرجل الأشقر الوسيم، وقال:

- كم تحبون أن تتلاعبوا بالكلمات أيها الأب..إن البشر عموما يحبون أن يسموا الأشياء بغير مسمياتها..إنكم ترددون ما قلته أنا بكلمات أخرى، تعيدون كلامي

نفسه، لكنه مغلف بتعابير من قبيل العطاء والتلقي وما شابه.. أنا أعتقد أن الرغبة هي التي تدفع الرجل نحو المرأة.. وهو يهرب من عزلته إليها، مثلما تهرب هي من عزلتها إليه.. أنتم تتحدثون عن الحب وكأنكم في كنيسة تعظون الناس كيف عليهم أن يحبوا.. أحيانا يأتينا الحب من حيث لا ندري.. كيف يحدث أن نحب إنساناً من النظرة الأولى دون أن نعرف عنه شيئا..؟ ثم نكتشف في ما بعد أنه إنسان قذر ونتن وخنزير لا أكثر..!! بينما نكره، أو لأقل لا نحب، شخصاً ما من النظرة الأولى وأيضاً دون أن نعرف عنه شيئاً.. فربما هو إنسان مسالم ومحب للخير.. لكننا حرمنا أنفسنا من معرفة ذلك.. (ثم التفت إلى إيفا سميث وقال لها برقة وكأنه يشجعها للحديث).. وأنت يا مدام.. ماذا تقولين..؟

فوجئت إيفا سميث. نظر الجميع إليها منتظرين أن تقول شيئا، على الرغم من أن آدم الشامي كان يتململ؛ فقد أراد أن يخبر المرأتين بشيء، لكنه فوجئ بهذا الموقف، لكنّه انتظر أيضا؛ إذ أحب أن يسمع رأي إيفا سميث التي نظرت إلى وجوههم تستقرئ جديتها، وحاجتها لرأيها فعلا، وبعد لحظات قالت:

- لا أعرف ماذا أقول.. أنا قرأت الكثير من روايات الحب الرومانسي، حب التضحيات والدموع، والآهات والشهقات، وسهر الليالي.. الحب الأعمى الذي كنا نتحدث عنه في فترة الشباب.. كما عشته أيضا.. ولكوني من عائلة فيها مساحة كافية من الحرية للأبناء بأن يختاروا.. فقد اخترت من أحببته بجنون.. وبعد مرور فترة اكتشفت أننا كنا نفتقد لشخصيتنا الحقيقيتين.. وقد وجدناها في شخص المحبوب الآخر.. لكن في ما بعد.. عندما أنضجتنا الحياة، واكتشفنا ذواتنا.. بدأنا في الإبتعاد عن الشخص المحبوب شيئاً فشيئاً بشكل غير مرئي.. وتأتي لحظات تريد أن تقرر فيها بالإبتعاد، لكن الوقت يكون قد فات؛ فقد انتهت هذه المغامرة بالزواج في أحسن الأحوال؛ لذلك تجد المرأة نفسها عاجزة عن الاعتراف بهذه الخيبة أو على الأقل بهذا الخطأ.. لا سيما حينما يرتبط هذا بالإشباع أو بالخيبة الجنسية على السواء.. ويكون الخلاص من خلال الأطفال؛ فالأطفال يمنحنون حياة المرأة معناها الحقيقي.. وهي تكتمل بهم.. وتنقذ هذا الحب.. أو تداري هذه الخيبة.. وربما على حساب تعاستها الداخلية..

فقاطعها الراهب قائلاً:

- لكن يا ابنتي.. الحب هو إيمان بالإنسان.. ومحبة الإنسانية، والآخر، ليست رغبة ذاتية وضياع للشخصية..

في تلك اللحظة اقترب نادل من آدم الشامي وهمس في أذنه. التفت هو إلى الجالسين.. وقال معتذرا:

- اسمحوا لي.. لديّ إتصال ضروري..

قال ذلك ونظر إلى المرأتين؛ فأدركتا أن الإتصال يخص مسألة جواز السفر، لكنه ما أن أراد الإنسحاب حتى قام الرجل الأشقر الوسيم أيضا وهو يقول:

- أستاذ آدم.. هل لديك بعض الوقت..؟ لدي مسألة ضرورية.. هل بالإمكان أن تساعدني فيها..؟

- تفضل..

تحرك الرجل الأشقر الوسيم نحوه هو يقول:

- لا.. لا. يجب أن أحدثك على انفراد..

تحركا معا. في تلك الحظة قامت المرأتان أيضا، فقالت إيفا سميث للراهب:

- فرصة سعيدة أبونا.. استمتعنا بالاستماع إليك..

فقال الراهب بلهجة أبوية:

- ليبارككما الرب يا ابنتيّ..

تحركت المرأتان، بينما فتح الراهب الكتاب المقدس ليقرأ فيه.

في الطريق قالت إيفا سميث لحواء ذو النورين:

- لقد رفضنا دعوة الأستاذ آدم الشامي على العشاء.. والآن إما علينا الخروج إلى المدينة؛ لنتعشى في المطاعم المنتشرة فيها، أو أن نطلب الطعام ونحن في الغرفة.. ما رأيك..؟

فقالت حواء ذوالنورين بانفعال:

- روحي متضايقة جداً.. لنخرج.. فأنا منذ وصولي إلى دمشق لم أخرج إلى أي مكان سوى مرة واحدة تمشيت قرب الفندق وذهبت إلى مكتبة قريبة.. تعبت.. أريد أن أخرج من هذه الجدران العالية..

- طيب.. سآخذك إلى مطعم جميل.. وما أكثرها هنا في دمشق.. لكن من هو هذا الرجل الأشقر الوسيم..إنه شخصية ساحرة.. وجريئة.. وآراؤه غريبة.. ألم

تلاحظي شيئا في عينيه..؟

- من ناحية كونه شـخصية غريبة.. فهو فعلاً شـخصية غريبة.. وقد رأيت اهتمامه بك..
- ماذا تقولين..؟
- ألم تلاحظي ذلك..؟
- بلى.. لكني امرأة متزوجة.. وأحب زوجي..
- ثم ماذا..؟ وهل هذا يتعارض مع حبك لزوجك..؟
- نعم.. ولا.. عموما.. اغلقي هذا الموضوع رجاء؛ فأنا أخاف حتى مجرد التفكير فيه..
- أنا لم أقل شيئا، لكنك حينما تحدثت عن الحب وخيباته كنت تكشفين عن حاجتك إلى الحب!
- لا.. لا.. لنغير هذا الموضوع..

لـم تحـاول حـواء ذوالنوريـن أن تلـح في هذا الموضـوع احتراماً لها، لكنها أدركت أن صديقتها تعيش عالماً آخر في أعماقها. وحينما صارتا أمام مكتب الاستقبال التفتت إليها إيفا سميث وقالت:

- لماذا جئنا نحو هذا الإتجاه..؟ البوابة من تلك الجهة..

ضحكتا. واتجهتا نحو بوابة الفندق ليذهبا إلى أحد مطاعم المدينة.

15

موعظة إبليس

تسارعت نبضات قلب آدم الشامي حينما دخل عليه إثنان من رجال جهاز الأمن وسألا بشكل مؤدب بعد أن أديا التحية عن امرأة عراقية تدعى حواء ذوالنورين، تنزل في الفندق. أحس برطوبة عرق بارد بدأ يتخلل رأسه. قال لهما بأنها كانت موجودة، لكنها غادرت الفندق قبل ظهر اليوم. لم يكن بمقدوره أن ينكر وجودها في الفندق نهائياً؛ لأن اسمها موجود في قائمة النزلاء التي تذهب لأجهزة الأمن كل ليلة بعد منتصف الليل. ومن حسن الحظ انهما لم يطلبا التدقيق في سجل المغادرين لثقتهما به؛ فهو شخص معروف بالنسبة لهما، وهو أعلى رتبة منهما.

بعد أن غادرا، انتبه إلى أن العرق البارد قد بلل ظهره وأخذ ينساب في خيط مائي إلى الأسفل. في تلك اللحظة بالذات انتبه لوجود الرجل الأشقر الوسيم عند باب المكتب وهو واقف وينظر إليه مبتسما، وكأنه يقرأ وضعه النفسي.

فوجئ آدم الشامي بوجود إبليس الذي تجسد بهذه الهيئة. نظر إليه نظرة منتبهة، مستفهمة، لكنه في أعماقه كان كالمشلول عن التفكير، فهناك همّ يضغط على نفسه. أحس أنه الآن في وضع نفسي حتى إبليس نفسه لا يستطيع فهمه. شعر بأنه وحيد.. أعزل، لكن ما أثار استغرابه أنه لم يكن نادماً على كذبته، ولا على مساعدته لحواء ذوالنورين.

فكر مع نفسه أن أهم ما يمكن فعله الآن هو أن يتناسى مجيء رجال الأمن، وأن عليه أن يتحرك لتدارك الوضع؛ فرفع سماعة الهاتف.. وهو ينظر إلى إبليس الذي لم تبد عليه أية علامة على الضيق والضجر، بل استمر في ابتسامته الرقيقة الودودة، وكأنه يخمن ما سيقوم به آدم الشامي، وما ينويه من إتصاله.. وفعلاً طلب آدم الشامي موظفة الإستعلامات وأمر بإنجاز اجراءات مغادرة السيدة حواء ذوالنورين للفندق رسمياَ،

واعتبار ذلك من قبل ظهر اليوم. أدعى بأنها كانت عنده في المكتب وشرحت له بأن موعد سفرها هو اليوم، لكن الحجز غير مؤكد.. ولذا يمكنها مغادرة الفندق اليوم في أيّة لحظة، وقد اتصلت الآن وأكدت سفرها.. وستدفع ما عليها من مستحقات للفندق حين تأتي.. وهي تعتذر إذ لم تبلغ الإستعلامات صباحاً بهذا الأمر.

حين وضع سماعة الهاتف كان أحس براحة واسترخاء نفسي. نظر إلى إبليس مندهشاً، وكأنه نسي من هو لثوان.. لكنه فجأة تذكره كل شيء.

إبليس الذي ما زال واقفاً، مبتسماً، توجه ليجلس على الكرسي المقابل. آدم الشامي الذي كان يرتبك حينما يكون إبليس متجسداً في هيئته هو، أحس وكأنه يتعامل مع شخص آخر، مع إنسان، وغاب عن ذهنه بأنه ليس بشراً، فقال له:

- هل لي أن أخدمك..؟

نظر إليه إبليس متفاجئا من السؤال:

- تخدمني..؟ وبأي شيء يمكنك أن تخدمني..؟!
- أي شيء تحتاجه..؟ فأنا في الحقيقية لا أعرف سبب وجودك في الفندق..؟ ولا أدري ما الذي تريده مني بالضبط..؟ بل ولا أدري من أنت أصلاً..؟ لقد اختلطت الأمور عليّ..؟ فمن أنت..؟!

نظر إليه إبليس للحظات مستغرباً من تحولاته ومن نزعته للمشاكسة، ثم قال مستهزئاً:

- آدم..آه يا آدم.. أنت لا تتوقف عن ألاعيبك الساذجة.. هذه لعبة قديمة.. أنا لست الله حتى تلعب معي لعبة النسيان.. والجهل.. وكأنك لا تعرف من أنا..؟
- لا.. لا أعرف من أنت..؟
- أنا أنت..!

نظر إليه آدم الشامي متحدياً وقال:

- أنت تحاول أن تدفعني إلى لجنون..؟.. كيف يمكن أن تكون أنت أنا..؟!
- أنا إبليس.. أنا الشيطان.. جئت لأهديك إلى فعل الخير.. صحيح أنا لم آت هنا بسببك شخصياً.. بيد أني رأيتك.. رأيت كيف تتعذب باسمي.. لكني بريء مما تفعله أنت من آثام وخطايا.. أنت تتعذب.. يلدغك ثعبان صغير ونحيل وقصير ومسموم، نائم في داخلك، اسمه الضمير.. هو عندك في سبات دائم..

لكنه برغم نومه يلدغ أحيانا.. يلدغك أثناء التفافه على نفسه..

- أنت.. أنت سبب البلاء كله.. أنت سبب الخراب كله..
- أنا..؟ ألم نتحدث في هذا الموضوع في جناحك..؟ ما لي أنا..؟ ألم يتوجه الإنسـان إلـى اللـه داعيـاً: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ وكذلك يتوسله قائلاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ﴾... فمن يا تُرى قادر على أن يزيغ القلوب.. ويدفع بالإنسـان إلى الضلالة بعد أن إهتدى..؟ أنا أم الله..؟ ومن يزرع الحقد والغل في القلوب أأنا أيضا..؟ فلماذا أتُهم أنا..؟!
- أسمعني جيدا.. أنا أعتقد أنك وهم من أوهامي..
- وهم من أوهامك..؟ هههههه..

تعالت قهقهات الرجل الأشقر الوسيم في المكتب. شعر آدم الشامي بالإستياء الخفي من ضحكته الساخرة، فقال بنبرة فيها بعض الحدة:

- نعم.. وهم من أوهامي.. ربما أنا بمصاب بفصام الشخصية..؟مصاب بالوسواس.. لأني أساسـاً لا أرضى على ما أقوم به من أفعال.. وبالتالي أراك لا إراديا؛ لذا ربما أنت محق حينما تقول: أنت أنا.. لأني أنا الذي توهمتك..
- هههههه... ربما.. ولكن كيف أكون أنت.. وأنا في هيئة أخرى..؟ ألست أنا في هيئة الممثل هلموت بيركر..؟
- أنا لا أعرف هذا الممثل.. نعم.. نعم.. تذكرته.. أليس هو هذا اللعين الذي في أحد الأفلام يكون ضابطا نازيا ويغتصب أمه..؟
- هههههه إذن أنت تعرفه.. وربما فكرت في ما فعله كثيراً..!
- أنا لم أفكر فيه.. ولا أريد أن أفكر في أي شيء يخصك..
- أنت لا تستطيع أن لا تفكر فيّ.. ستسعى جاهداً إلى أن لا تفكر فيّ.. بل ستفكر كثيراً في أن لا تفكر فيّ.. وحينما تعجز عن التفكير في كيفية أن لا تفكر فيّ، ستجد نفسك تفكر فيّ..
- ما هذه السفسـطة..؟ إسـمع أنا لم أعد أخشـاك.. أو ارتبك في حضورك.. أنت فتحت بوابات الجحيم عليّ.. فتحت خزانات الماضي المقفلة..(صمت قليلا

وكأنه يفكر مع نفسه ثم رفع رأسه إليه وواصل الحديث) لم أعد اخشى شيئاً.. على العكس.. أنا أشكرك لأنك واجهتني بنفسي.. ساعدتني على أن أكون ولو لمرة إنساناً.. بل سأسعى إلى أن أكون كذلك دائماً.. أنا مدين لك بهذا التحول الذي جرى في نفسي..

نظر الرجل الأشقر الوسيم إليه مصطنعا الدهشة، لكنها دهشة تشي بالسخرية، وسأل:

- أتحولتَ حقاً..؟!
- أنت لا تتوقف عن سخريتك..؟ ليكن.. لكنني تغيرت فعلاً..

انتبه الرجل الأشقر الوسيم لنبرة الغضب المضمر في كلامه، فقال له:

- أنا لا أسخر منك.. لكن يحدث أحيانا أننا نستمع إلى شخص ما؛ فنتعاطف معه لصدق حديثه ونبرة صوته المخلصة وحرارة كلماته، وفصاحته، لكن هذا المتحدث هو يعرف جيداً في أعماق نفسه بأنه يكذب، وكل هذه الجدية والصدق هي تمثيل.. وربما يحدث أحيانا أن هذا المتحدث يكون صادقاً في حديثه، لكنه لا يعرف بأنه يكذب.. بل أنت قد تقابل شخصاً مهيباً، كل ملامحه وهيئته تدل على الرزانة والإحترام، لكن ما أن يفتح فمه حتى يبدأ بالحماقات والتفاهات وإغتياب الناس والإفتراء عليهم، والمبالغة والإدعاءات الفارغة، والكذب.. والكذب.. حتى ينتهي من كثرة تكرار أكاذيبه إلى تصديقها!

فقال آدم الشامي منفعلا وبنبرة ممزوجة بالإستياء:

- أتقصد أنني أكذب..؟
- أنا لا أقصدك.. وإنما أقصد البشر بشكل عام.. وأنت واحد من البشر؛ فلا تأخذ الأمر بشكل شخصي.. أنا أعرفكم جيداً..
- ونحن نعرفك أيضاً.. مهما حاولت أن تبدو مقنعاً..
- أتعتقد أنك تعرفني..؟ إعرف نفسك أولاً يا آدم.. ونصيحتي لك.. خذها مني أنا إبليس.. أنا الشيطان.. نصيحتي لك:لا تثق بأحد.. لكن قبل أن تكون مؤهلا في أن لا تثق بأحد؛ عليك أن تعرف نفسك.. فكلما عرفتها جيداً كلما تأكدت بأنه لا أحد جدير بالثقة.. حتى نفسك..

قال ذلك ونهض خارجاً. استغرب آدم الشامي من تصرف هذا الرجل الأشقر الوسيم. بقي جالساً على كرسيه. ظل يتابعه بنظراته إلى أن اختفى عن مدى زاوية

النظر. فجأة، فكر آدم الشامي مع نفسه، ووجد أسئلة غريبة تنبثق في ذهنه. تُرى هل ما يجري معه.. أ حقيقة أو وهم..؟ أيمكن لمخلوق أن يتجسد في هيئات مختلفة وحسبما يشاء..؟ من يمكنه ذلك غير الله الذي لا يتجسد ماديا..؟ أيمكن أن يكون هذا هو إبليس فعلاً..؟ لكنه ليس قبيحاً كما تصوره الكتب وأفلام الرعب الأميركية؟ أهو فعلا كما قال لي بأنه غير موجود..؟ لكن إذا كان غير موجود فمن هو إذن؟ أنا أكاد أجن..؟ أيعقل أن يكون جاسوساً مرسلاً من قبل المخابرات؛ لكي يتجسس على حياتي الشخصية..؟ نعم.. ربما هو كذلك.. و إلّا من أين له كل تلك المعلومات التفصيلية عن حياتي العائلية..؟ ثم حتى لو أنه وهم من أوهامي ونتاج نفسي المزدوجة؛ فلماذا تجسد في هيئة هذا الرجل الوسيم الذي لم أشاهده إلّا في فلمين.. فقط.. صحيح أنه أعجبني حينها في الفلمين واعتبرته فترة مثالاً للجمال الرجولي.. لكني نسيته بالكامل.. لا. لا.. هناك أشياء غامضة تجري حولي.. علي أن أدع بعض رجال أمن الفندق يتابعونه.. ثم لماذا تأثرت به بسذاجة..؟ وطاوعته في فعل الخير..؟ كما أنا ساذج.. فهذه المرأة العراقية يبدو لي أنها معبأة بالأموال.. ويبدو أنها هربت بالملايين من الدولارات.. بينما أنا الغبي وتحت تأثير إبليس هذا صرت ملاكاً خيراً؛ فتنازلت عن أي مبلغ كمكافأة لجهودي.. لو كنت قد طلبت منها ضعف هذا المبلغ بمرتين لما ترددت في أن تدفع، فهي قد هربت بالملايين.. هذا واضح من أنها كانت مستعدة لأن تدفع أي مبلغ.. لا.. لا.. يجب أن أحصل عليها.. يجب أن أنام معها.. لن أسلمها جواز السفر إلّا إذا منحتني نفسها.. عموما.. يجب أن أخلّص نفسي أولا من مشكلة الأمن وسؤالهم عنها.. والأفضل أن أتخلص منها فعلا بأن أدعها تسافر، وإلّا سأدخل في سؤال وجواب مع أجهزة الإستخبارات الخاصة..آخ من صحوة الخير والإيمان التي انتابتني.. فلو لم أقل لرجال الأمن بأنها غادرت الفندق، لكنت الآن سلمتها إليهم..!! الآن لا أستطيع ذلك. و إلّا كيف سأبرر لهم إنكاري لوجودها، ثم اعترافي بأنها موجودة..؟ وكيف أبرر طلبي من الإستعلامات تزوير المعلومات بأنها غادرت..؟ لا.. يجب أن ترحل.. هذا أفضل.. لكن ماذا سأفعل بهذا الشيطان الوسيم..؟

ظلت الأسئلة تزدحم في ذهن آدم الشامي، لكن، فجأة، طرأت في ذهنة فكرة لم ينتبه اليها سابقاً. أخذ سماعة التليفون وطلب رقماً. ظل للحظات ينتظر، ثم ابتسم وأحنى رأسه، وكأن الشخص الموجود على الطرف الآخر يجلس أمامه، وقال بمودة

مصطنعة، واحترام مبالغ فيه:

- سيدي احتراماتي.. نعم أنا آدم الشامي..(يصمت لحظة.. ثم يواصل).. سيدي أفضالك عليّ كثيرة.. وأنا مدين لك طول العمر.. نعم سيدي..(يصمت).. حاضر سيدي سأرسل لك أجمل الفتيات.. سأختارهن بنفسي من كل فندق واحدة..(يبتسم مع نفسه).. من كل بستان زهرة.. نعم سيدي..(يصمت).. لا سيدي.. الحقيقة اتصلت لأسباب أمنية..(يصمت).. نعم سيدي.. يوجد في فندقنا.. فندق الشام.. شخص مشبوه.. رجل في منتصف الثلاثين تقريبا.. أشقر وسيم..(يصمت).. لا ليس نزيلا في الفندق.. لكنه يجلس في مقهى الفندق.. وأنت كما تعرف هي ليست للنزلاء فقط.. يمكن لبعض الزوار أن يأتوا ويجلسوا فيها ليقابلوا أقرباءهم أو أصدقاءهم..(يصمت).. نعم سيدي.. يجلس ويتحدث بأشياء تسيء للدين.. فيها تشكيك.. وتجديف.. ونوايا تسيء للأمة وتاريخها ودينها وعروبتها..(يصمت).. نعم هو أجنبي سيدي.. شكله أوربي.. لكنه يتكلم العربية بطلاقة كأي عربي.. نعم سيدي.. سنراقبه.. وربما سنلقي القبض عليه لنحقق معه..(يصمت).. نعم سيدي.. نعم من أجل هذا الأمر.. نعم سيدي.. سأكون على اتصال معك..(يصمت). نعم سيدي.. خادمك سيدي.. أنا في خدمة الحزب والثورة.. مع السلامة سيدي.

وضع السماعة وعلى وجهه ابتسامة عريضة ونظراته كانت تتوجه إلى أعماقه. كان فرحاً بما أقدم عليه؛ إذن، سيتخلص من هذا المخلوق الذي مجرد حضوره يبعث الارتباك في نفسه، ويثير فيها مشاعر مضطربة هي مزيج من الشعور بالذنب واحتقار الذات، والضعف أمام العواطف البشرية.. سيقبضون عليه.. سيجتمع بمسؤولي الأمن في الردهة وفي طوابق الفندق المتعددة؛ ليتحدث معهم.. يجب أن لا أضيع الفرصة، قال آدم الشامي لنفسه، ورفع سماعة الهاتف مرة أخرى، وطلب رقماً داخلياً، حيث ضغط على زر واحد فقط. فجأة، ارتسمت علامات الانتباه والجدية على وجهه، وأخذ يتحدث مع شخص ما:

- نعم.. هذا أنا.. أطلب الجميع.. وأحضروا جميعكم إلى مكتبي.. لدينا أمر طارئ.

وضع السماعة على الجهاز.. وأخذ يتحدث مع نفسه بصوت عال:

- ههه.. سأعلمه أن الإنسان أسوأ من الشيطان لو أراد أن يؤذي.. سأجعله يتوسل بي!

* * *

- الحب ليس ضعفا يا حواء وإنما قوة.. قوة للروح.. حينما تحبين شخصا ما؛ فأنك تحبين الناس جميعاً.. على الأقل في بداياته وجذوته.. وإذا لم ينبثق في أعماقك الشعور بأنك تحبين الناس جميعاً؛ فهذا يعني أنك لا تحبين ذلك الشخص لذاته، وإنما تحبين أن تملكي ذلك الشخص.. كما يعني أنك تحبين ذاتك وليس الشخص الآخر، حتى لو اهتممت به ودللتيه.. يحصل أننا نعتقد أحيانا بأنّا وجدنا شريك الأحلام.. لكننا نكتشف في ما بعد بأن الأمر لم يكن سوى جاذبية ما، غامضة الدوافع، قد تكون جنسية، أو نفسية.. لا أعرف.. لكننا كثيرا ما نكتشف بأننا أخطأنا.. أحببنا الإنسان الخطأ.. لكن اكتشافنا جاء بعد فوات الأوان..

نظرت حواء ذوالنورين إليها بمودة وتعاطف. سحبت نفسا من الأرجيلة التي تمسك بخرطومها ثم نفثت دخانها، وقالت بنبرة فيها استفسار:

- يبدو أنك مررت بتجارب عديدة.. أو لأقل.. مررت بتجارب مرة..

بعد أن أنهيتا عشاءهما، وجلستا في المقهى التابع للمطعم تشربان الشاي بالنعناع، ولتدخنا النرجيل.. نظرت إيفا سميث إلى الجالسين ثم قالت بهدوء وكأنها تستعيد ماضياً:

- لستُ ملاكا.. ولم أكن يوماً.. نحن بشر.. وأنا إنسانة عادية.. مررت في فترة مراهقتي بتجارب عادية.. كأية فتاة مراهقة.. وبرغم الحرية التي كانت لديّ؛ فأنا لم أكن كبقية الفتيات في مثل عمري.. كنت قريبة لأشقائي منذ الطفولة.. وحتى في فترة المراهقة كنت أتجول معهم، وألعب الكرة معهم، بل وكنت أتصارع معهم وأغلبهم.. كنت قوية!!. كثيراً ما كانت أمي تنهرني.. لكني لم أكن استمتع بقضاء الوقت إلّا معهم؛ لذا تطبعت بطباعهم.. كانت أمي تخاف عليّ من هذا الأمر، وكانت تؤكد لي بأني أنثى، وأن عليّ أن أتحلى بشيء من غنج الفتيات.. أن أتطبع بطباع النساء وليس الرجال.. ربما كانت محقة..؟ لا أدري.. في حياتي العملية استفدت من ذلك كثيرا.. لم أكن أرتبك من الرجال..

ولم أتهيّب منهم سواء في الجامعة أو العمل.. أو حتى في ما بعد الزواج.. لكني كنت أحيانا أحس أن ذلك قد عقد علاقتي بالرجال والنساء على حد سواء.. مع النساء صرت أمارس دوراً قياديا.. وكأني رجل.. ومع الرجال أرفض أن يعاملوني كأنثى.. وأبدأ بالتحدي في كل شيء..

كانتا تدخنان.. وتنفثان الدخان بمتعة الهواة.. كانت حواء ذوالنورين مسترخية وهي تستمع إلى إيفا سميث المتحدّثة عن نفسها.. فجأة وجدت نفسها تسألها بعفوية:

- وهل أحببت..؟

فوجئت إيفا سميث من السؤال المباغت، نظرت إلى صديقتها لثوان، وأجابت:

- طبعا أحببت.. صحيح أنني كما وصفت لك نفسي، لكني في أعماقي كنت أنثى.. كنت أحب، وأحب أن أُحب.. الحب ليس ضعفاً وإنما قوة.. قوة روحية ونفسية.. أن يحب المرء ليس أمراً سهلاً.. أنا لست شخصية سهلة.. يحتاج الآخرون إلى قدرة عصبية ونفسية لتحملي.. على الآخر أن يكون أقوى مني..إذا شعرت ولو للحظة بأني أقوى منه سأمله.. بل سأقضي عليه.. أعرف نفسي، وطبعي الشرس المتأتي من المسحة الرجولية في شخصيتي.. أتعرفين يا حواء.. أنا برغم هذه الشراسة في طبعي أحب من يقودني.. أنا شخصية مستقلة جداً.. لكن إذا ما تركني الآخر على سجيتي فأني أتركه.. سأذهب عنه.. عليه أن يلجمني.. لكن قبل ذلك على الآخر أن يكون صبوراً معي.. يروضني.. ويتعلم كيف يمتلكني ويخضعني.. حينما أكون أمام رجل ما أحب أن أشعر بأنني أنثى.. بأنني امرأة.. أحب شعور الحماية التي يمنحها لي وجود الرجل معي.. لا أعلم إن كانت هذه الكلمات تفسر لك شيئا من شخصيتي..؟

احتارت حواء ذوالنورين كيف تجيبها، إذ بدت لها إيفا سميث شخصية قوية، بل قوتها في هذه المواجهة في رصدها لطباعها، فقالت لها:

- أعتقد أنك شخصية قوية..

نظرت إليها إيفا سميث بتأمل للحظات ثم قالت بهدوء:

- لا أعتقد ذلك.. لست قوية بما يكفي.. لكني أحدق في الأشياء بعيون مفتوحة.. ولا أخاف من أوهامي.. أنا أقول إنها أوهام حينما أكتشفُ أنها أوهام.. الناس تخاف الحقيقة لأنها تكشف عن أوهامهم..

صمتت حواء ذوالنورين للحظات وكأنها تفكر في ما قالته صديقتها، فقالت بنبرة فيها حيرة:

- ولكن إذا انهمك الإنسان بالتفكير في تحليل نفسه، والكشف عن أوهامه، فأنه سيعاني ويشقى..

نظرت إيفا سميث إليها وقالت بنبرة واثقة:

- أنا لا أخاف الحقيقة.. ولا أعاني من كشفي عن أوهامي.. أنا أحتفي بالحياة.. وأنشد للحياة..

ابتسمت لها حواء ذوالنورين وقالت بنبرة مليئة بالود:

- أنا أحب الحياة أيضاً.. لكنها ليست دائما كما نشتهي..

نظرت إيفا سميث إليها متأملة للحظات وقالت بنبرة سريعة وكأنها تنافسها في حب الحياة:

- أنا أحب الحياة لدرجة أني أضحك من الألم..

صمتت حواء ذوالنورين، وتجهمت لثوان وقالت بنبرة حزينة:

- أنا أحسدك.. كم من القوة على الإنسان أن يمتلكها؛ كي يضحك من الألم..؟ بل أنا أسخر من اللغة التي لم تجد لكل هذا الوجع الإنساني، سوى كلمة رقيقة هي الألم.. ثلاثة حروف فقط..؟ كيف يمكن لكل هذا الوجع أن تستوعبه حروف ثلاثة..؟!

صمتت إيفا سميث. أخذت تنتقل بنظرها في القاعة.. ركزّت على طاولة يتجمع حولها عدد من الرجال والنساء الذين عرفتهم مباشرة بأنهم بعض الممثلين المعروفين في المسلسلات السورية واللبنانية.. لكنها قالت وهي لاتزال تنظر إليهم:

- بعض الناس يحبون الألم.. يبحثون عنه حتى في السعادة.. وأنا محاطة بالكثير منهم.. وأرجو أن لا تكوني واحدة منهم..

نفثت حواء ذوالنورين دخاناً كثيفاً، وقالت بحزن:

- أحيانا ندمن على الألم والحزن؛ فيتلبسّانا، لكني لست منهم.. بالرغم من أن حياتي فيها أفراح كثيرة وأحزان كثيرة..إلّا أن الحزن يطاردني.. لكني أهرب منه..

فجأة أحست بالاختناق وأخذت تسعل. وضعت خرطوم النرجيلة على الصحن الذي تنتصب المجمرة في وسطه، وأخذت رشفة من قدح الماء. كانت تتنفس محاولة

ابتلاع ريقها.. ابتسمت إيفا سميث وقالت:

- يبدو أنك غير متعودة على النرجيلة.
- لا.. غير متعودة.. أنا لا أدخن.. بعد اغتيال زوجي مررت بحالة نفسية صعبة.. دخنت لفترة قليلة، لكني لم أستسغ طعم السجائر فتركتها..

وعلى غير توقع قطعت إيفا سميث الحوار وقالت لها:

- هل ترين هؤلاء الذي على تلك الطاولة..؟

نظرت حواء ذوالنورين نحو الطاولة التي عنتها إيفا سميث، فانتبهت لوجود بعض الوجوه التي عرفتها مباشرة، امرأة أربعينية، ممثلة معروفة، كثيراً ما رأتها في المسلسلات السورية، ووجوه أخرى رأتها أيضا، لكنها لا تعرف أسماءها.. نظرت إلى إيفا سميث مستفسرة:

- وماذا بهم.. أليست تلك الممثلة المعروفة..؟

وقبل أن تكمل حواء ذوالنورين جملتها بنطق اسمها قالت إيفا سميث، وكأنها أدركت بأن صديقتها قد عرفت الممثلة:

- نعم إنها هي.. انظري إليها.. هي تمثل دائما دور الأم المحترمة والوفية التي تتحمل خيانات الزوج.. أتدرين.. رأيتها في باريس مع شاب في العشرينات.. ظننته ابنها، لكني عرفت في ما بعد أنه عشيقها!

ارتبكت حواء ذوالنورين كأنها هي المقصودة؛ إذ تذكرت بسرعة البرق الشاب صاحب محل حواء وآدم في شارع الأميرات ببغداد، وكذلك زوجها قابيل العباسي.. إلّا أن إيفا سميث ابتسمت لها وقالت مازحة:

- لكن الحق يقال.. هي محقة.. لقد كان الشاب وسيماً جداً.. يحرق القلب.. تتمنى أية امرأة أن تكون معه..

نظرت إليها حواء بدهشة، ثم سألت:

- هل هي متزوجة..؟
- نعم..
- وهل زوجها يعلم؟

ابتسمت إيفا سميث وقالت:

- الزوج عادة آخر من يعلم.. هذا إذا علم أصلاً..

صمتت حواء ذوالنورين. كانت أعماقها تصطخب بأمواج مشاعر مختلفة.. هي تفهم هذه الممثلة الأربعينية التي رافقت شاباً بعمر ابنها، لكنها لا تستطيع أن تعبر عن ذلك صراحة؛ فسألت صديقتها بنبرة فيها استحياء:

- وأنت.. هل كنت ستفعلين ذلك لو اتيحت لك الفرصة..؟

صُدمت إيفا سميث من سؤال صديقتها، إذ لم تكن تتوقعه. نظرت إليها للحظات محاولة أن تسبر غور صاحبتها، ودوافعها من هذا السؤال، فأدركت أنها سألتها ببراءة أنثوية دونما مقاصد بعيدة، لذا أجابتها مبتسمة:

- لا أدري.. ربما نعم.. وربما لا.. فأنا أحب زوجي.. وأطفالي.. زوجي رجل طيب جداً.. وسيم.. طويل.. مهيب.. يحب عائلته.. يحبني.. ربما تعودت عليه.. ولا أتصور الحياة بدونه.. لا أدري.. ربما في أعماقي رغبات غامضة لا أدركها.. رغبات تكشف عن نفسها في لحظتها، وفي المواقف المفاجئة..!! ربما روتين الحياة المشتركة يجعل كل شيء باهتاً وبلا طعم.. حتى الجنس يصير مثل وجبة نتناولها دائماً فنملّ منها بمرور الوقت! لذا تفقد المشاعر، بمرور الوقت، شيئاً من حرارتها.. تفقد جذوة الشبق المجنون فيها.. لكن الجنس برغم ذلك، وفي كل الأحوال، يعمّق العلاقة والتواصل بين الزوجين.. أتدرين.. الإنسان كائن غريب.. والمرأة أكثر غرابة وغموضاً من الرجل كما أعتقد؟! أحيانا يحدث وأنت تضمين إنساناً تحبينه إلى صدرك، تكتشفين في تلك اللحظة..، في تلك اللحظة بالذات حينما يكون وجهك فوق كتفه..، تكتشفين أنك بعيدة عنه.. وأنك غريبة عنه.. وأنك فارغة.. فارغة.. بلا مشاعر.. فتظلين تمسكين به محتضنة إياه؛ لتستعيدي نفسك ومشاعرك؛ ولكي لا يقرأ ذلك الفراغ في وجهك.. بينما هو يعتقد أنك متعلقة به وعاشقة متيمة به.. وبرغم كل ذلك لا تستطيعين تصور العيش بدون هذا الإنسان..!! ربما لأننا لا نمتلك الشجاعة أن نقامر بحياتنا بسبب لحظة اغتراب نفسي..؟ لحظة فراغ ربما هو نتيجة للتعب اليومي..!! لا أعرف.. كيف أجيبك؟!

- هل حصل إذ تمنيت أن تكوني مع رجل آخر غير زوجك..؟
- نعم.. كم تمنيت ذلك.. كنت أريد أن أعيش مغامرة.. لكن مغامرة مأمونة بلا خسارات.. مغامرة لا يعرف بها أحد.. ولاتسبب لي تأنيب ضمير..!
- وهل تم لك ذلك..؟

- نعم..

نظرت حواء ذوالنورين إليها للحظات بتردد، ثم سألتها:

- أنت..؟ كانت لديك علاقة بغير زوجك..؟

صمتت إيفا للحظات. أخذت الملقط وحركت الفحم المتقد في المجمرة. أخذت نفسا طويلاً ثم نفثت الدخان، وقالت بصوت واطئ وكأنها لا تريد لأحد أن يسمعها:

- حدث ذلك مرة.. مرة واحدة.. كان زوجي حينها مضطراً للبقاء لفترة طويلة في أحد البلدان الأفريقية بسبب عمله.. كان يزورنا كل أربعة أشهر أو ستة حسب الظروف.. لم أتأثر لأني أعرف أنه يقوم بذلك من أجلنا.. من أجل مستقبل أطفالنا.. كنت أقوم بواجباتي البيتية الإعتيادية.. أوصل أبنائي إلى مدرستهم صباحاً.. ثم أرجع لآخذهم بعد الظهر.. وكان يسكن في الشقة المقابلة لشقتنا رجل بعمر أبي تقريبا.. أكبر مني بما لا يقل عن ثلاثين عاماً.. لكنه رجل محترم.. وسيم بشعره الأبيض.. متناسق الجسم.. أنيق الملبس.. كان موظفاً كبيراً في أحد البنوك.. ثم أحيل على التقاعد، على الرغم من أنه دون سن التقاعد الرسمي.. يعيش وحده في شقته.. كنا نلتقي أحيانا في المصعد.. نلقي التحية على بعضنا البعض.. رزانته وهيبته، وتهذيبه؛ جذبتني إليه.. حدث أن كنا نتبادل بعض الجمل، لاسيما حينما كنت آخذ ابنتي إلى دروسها في الباليه.. أو حينما أخرج معها لنذهب لشراء أشياء للبيت.. تكرر حديثي معه مع تكرار لقاءتنا في المصعد.. أو عند مدخل البناية.. وصار يسألني عن نفسي.. وحدث أنه سألني عن عدم رؤيته لزوجي فقلت له أنه مسافر لفترة طويلة، وأنه يزورنا بين فترة وأخرى.. فسألني عن سبب عدم ذهابي معه.. فأخبرته بأن ظروف ذلك البلد الأفريقي الصحية والخدمية لا تسمح لنا بالانتقال.. وحدث أن كنت عائدة ذات مرة مع أولادي.. فدعاني إلى تناول كأس نبيذ أو قهوة عنده.. شكرته على دعوته.. ولم أعتذر عنها صراحة.. بقيت في البيت.. حممت أطفالي.. أطعمتهم.. وأخذتهم إلى غرفة نومهم.. فسمعتُ طرقا على الباب.. المفاجأة كانت حينما وجدت جارنا يحمل صحنا فيه كاتو وتورتا وحلويات أخرى.. قال إنها لي وللإطفال.. ولأني لم ألب دعوته، فقد حملها بنفسه.. حينها ارتبكت جداً.. خفت أن يراه أطفالي عند الباب.. تصوري.. خفت من أطفالي.. لم

أستطع أن أدعوه إلى الدخول.. ولم أستطع أن آخذ الصحن منه.. فقلت له.. سألبي دعوتك بعد قليل حينما ينام الأطفال.. وهكذا..

- هل ذهبت..؟

سألت حواء ذوالنورين متلهفة لسماع هذه المغامرة الغريبة. نظرت إليها إيفا سميث، ثم نظرت في البعيد خارج المكان وكأنها تستعيد مشهداً ما أمام عينيها وقالت:

- نعم.. ذهبت.. كان قد أعد جواً رومانسيا جداً.. أتدرين يا حواء كم نحن النساء غريبات الأطوار..؟ فحينما قررت الذهاب إليه.. بعد أن نام أطفالي.. وقبل أن أذهب، وضعت بعض المكياج على وجهي وتعطرت.. وكأني ذاهبة إلى عشيق لي..!! على الرغم من أن هذا الأمر لم يكن في ذهني أبداً.. لكني كنت أحب أن يراني جميلة..!!
- وماذا حصل..؟
- لاشيء مهم.. كان في غاية الأدب والإحترام معي.. بل هذا الأمر جذبني إليه أكثر.. تحدثنا عن أشياء مختلفة.. كان إنسانا مهذباً جداً.. لديه ابن وحيد يعيش مع صديقته في اسبانيا.. وابنته مع عشيقها في مدينة ليون.. وزوجته ماتت قبل سنوات بالسرطان.. وهو وحيد.. يذهب أحيانا لممارسة التنس.. ويذهب مرة إلى المسبح.. ويحب الموسيقى الكلاسيكية.. وليست لديه أية حساسية من الأجانب.. على الرغم من أنه لا ينتخب أياً من الأحزاب اليسارية.. وجدت فيه إنساناً دافئاً.. ووجدت نفسي أفكر فيه كثيراً.. وذات مرة بعد أن أوصلت أبنائي إلى مدرستهم وبينما كنت أريد أن أفتح باب شقتي فتح هو بابه.. ودعاني للفطور معه.. فقبلت.. وهكذا صرت أفطر معه بشكل شبه يومي.. بإستثناء أيام العطل حينما يكون أطفالي في البيت.. وانتبهت للتغير في داخلي.. لم أعد أفكر بزوجي.. أو بالأحرى لم أعد أستعجل مجيئه.. بل إن أمي التي كنتُ أستنجد بها أحيانا لتذهب مع الأطفال صباحاً أو تأتي إليّ لتنام عندي لم أعد أسألها المجيء، حتى أنها عاتبتني بأني لم أعد أحبها كالسابق.. ولأنها تعرفني بأني زوجة مخلصة؛ فلم تشك لحظة بما يجري في داخلي من تحولات.. هل تصدقين بأنني في حينها لم أشعر بتأنيب ضمير مما فعلت..؟ لم أخن زوجي.. لم أنم مع جارنا؛ لذلك لم أشعر بأنني مذنبة.. ربما كان هذا في البداية..إلى أن حدث ما حدث ذات مساء..

نظرت إليها حواء ذوالنورين بعينين تضيئان باللهفة وسألتها:

- وماذا حدث..؟

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه إيفا سميث وقالت وهي تنظر إلى نقطة ما على الأرض:

- ماذا يمكن أن يحدث بين رجل وامرأة غير الذي يحدث..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين وسألت بقلق:

- لكنك قلت أنه أكبر منك نحو ثلاثين سنة..

رفعت إيفا سميث رأسها إليها وقالت بنفس النبرة الحزينة:

- نعم.. أنا كنت في الثلاثين وهو في الستين..

ترددت حواء ذوالنورين للحظات ثم سألت:

- كيف..؟ عفوا لسؤالي الساذج.. هل كان من القوة بحيث..؟!

فقاطعتها إيفا سميث قائلة:

- أفهم ما تقصدين.. لم يكن للأمر علاقة بالجنس أول الأمر.. كان مجرد استلطاف.. كنا ذات مساء نشرب النبيذ.. وتحدث عن زوجته التي ماتت.. والوحدة التي يشعر بها بعد موتها.. وكنا نجلس معا.. كنت أتعاطف معه.. فأخذت كفه متعاطفة.. لكن لا أعرف ما الذي حدث.. اقتربنا من بعضنا.. فقبلني برفق.. وبرومانسية.. أحببت قبلته الرقيقة.. وأحببت رقته.. تشجع هو من عدم رفضي.. فأخذ يقبلني.. ومد يده إلى صدري.. ويبدو أنه استخدم كل تجاربه مع المرأة واستحضرها معي في تلك اللحظة.. تركته يفعل ذلك برقة.. كنت كالمسحورة.. كالمخدرة.. ارقدني على الصوفا.. وأخذ ينزع عني أشيائي بهدوء.. كنت أغمض عيني بين فترة وأخرى.. كنت أريد أن أسعده.. أن أمنحه لحظات سعادة أكثر مما كنت راغبة في الجنس، لكنه كان بارعاً.. أخذ يقبلني من مناطقي الحساسة.. أيقظ شهوتي؛ فأردته.. أخذت أنزع عنه ملابسه.. وأخذته إليّ.. وأدخلته فيّ.. هل تصدقين أنني شعرت معه بلذة لم أشعر بها مع زوجي القوي الضخم؟!

سادت لحظات صمت بينهما.. وحينما طال الصمت سألت حواء ذوالنورين بحذر:

- وماذا بعد..؟

نظرت إليها إيفا سميث وانتبهت إلى أن الحديث قد أثارها، فابتسمت وقالت:

- ماذا..؟ هل أعجبتك التفاصيل..؟ أم ماذا..؟

ارتبكت حواء ذوالنورين، وقالت بخجل:

- القصة كلها غريبة.. وأنت ترويها بطريقة وكأني أراها.. لكن إلى متى استمرت علاقتك به..؟

- إلى أن مات..

- مات..؟!

- نعم.. مات.. لا أدري إن كان قد مات.. أعتقد ذلك..

نظرت حواء ذوالنورين إليها بإستغراب وقالت:

- تعتقدين ذلك..؟ هل أنت غير متأكدة من ذلك..؟

واصلت إيفا سميث دزنما تأثر وكأنها تتحدث عن شيء بعيد، فقالت:

- لا أعرف.. صرت أذهب إليه صباحا.. وأبدأ أنا بمداعبته إلى أن ينتعظ؛ فيستطيع أن يمارس معي.. وانتبهت إلى أنه أخذ يتعاطى المنشطات الجنسية من أجل أن يجاري رغبتي وشهوتي التي كانت تتفجر معه.. هل تعرفين يا حواء.. كنت أحيانا أمارس معه.. لا لرغبتي بالجنس.. وإنما من أجل أن يشعر هو بأن الحياة جميلة ومستمرة.. وأنه لايزال رجلاً وسيماً ومرغوباً من قبل النساء.. حتى أني كنت أحيانا أبالغ في تأوهاتي معه من أجل أن أشعره برجولته؟!

- وزوجك..؟

- هذه قصة أخرى.. كان زوجي قد انتبه لبرودي معه حينما كان يأتي لزيارتنا.. سألني ذات مرة إن كان هناك شخص ما في غيابه.. فأنكرت.. بل تشاجرت معه.. واعتبرت أن مجرد سؤاله هو حقارة منه وإهانة بالغة لي.. وأن تفكيره الوسخ هو الذي يدفعه ليسألني مثل هذا السؤال.. بل أخذت أتهمه بأن سؤاله يؤكد بأن لديه هناك عشيقات.. كل ذلك من أجل أن أبرر لنفسي ما أفعل..

- لكن كيف عرفت بأن جارك قد مات..؟

- لست متأكدة تماماً.. لكني أعتقد ذلك..(صمت للحظات.. ثم واصلت) ذات يوم جاءت ابنته إليه.. لم أكن أعرف أنها موجودة.. طرقتُ الباب.. كنت في برنس النوم.. حين فتحت هي لي الباب ارتبكتُ.. فسألتها عن السيد آدم ميتران.. فأجابتني بأنها ابنته.. ارتبكتُ أكثر.. لكني قلت لها، وبشكل فوري، بأني أردت

أن أسأله إن كان سيذهب إلى اجتماع إدارة السكن.. وبينما كنت أتحدث مع ابنته جاء هو إلى الباب أيضا.. وكان مرتبكا أيضاً.. ابنته نظرت إليّ وإلى هيئتي في برنس النوم.. وإلى إرتباكي و إرتباك أبيها.. فخمنت شيئا ما بيننا. نظرت إليّ ببرود وفي عينيها ازدراء واضح.. لن أنساه حتى آخر لحظة في حياتي.. وقبل أن يجيب هو قالت ابنته بأن والدها في حالة صحية لا تسمح له بحضور الاجتماعات.. أما هو فقد كان مستسلما لها.. لا أدري كيف دخلت إلى شقتي.. جلست في غرفة الحمام وأخذت أبكي.. أبكي لمذلتي أمام نظرة الإحتقار تلك التي كانت في عيني ابنته.. وفجأة.. وفي لحظة خاطفة.. لحظة كالبرق.. انتبهت لنفسي.. ما الذي فعلت بنفسي..؟ وكأني صحوت من سبات عظيم.. بدأت أستذكر كل ما كان لي معه.. أستذكر جسده الشمعي كالجثث.. وتجعدات رقبته وتهدل عضلاته.. وعضوه الذي كان مثل ذبالة منطفئة.. كيف كنت أضعه في فمي وأمصه كي أبعث الحياة فيه.. تذكرت ارتجافه.. ولحظات خوفي من موته وهو يلهث جاهداً في داخلي.. ما الذي قد فعلت بنفسي..؟ إلى أي منحدر انزلقت..؟ أليس في هذه الدنيا غير هذا الرجل العجوز؛ كي أمنحه جسدي..؟ هل جننت..؟ ما الذي فعله زوجي لي لكي أخونه..؟ صحيح أن جسدي هو ملكي.. لكني حين اخترت زوجي؛ كنت قد قررت مع نفسي بأن جسدي سيكون له هو وحده.. فما الذي جرى..؟ ما هي الأسباب التي جعلتني أقوم بمثل هذه العلاقة..؟ هل لأنه يسكن في شقة مقابلة بحيث لا يثير تواصلي معه أية شكوك..؟ هل لأنه كبير في السن كوالدي فأختلطت الرغبات المحرمة في أعماقي..؟ أنا أعرف نفسي.. أنا امرأة أود أن يقودني الرجل ويهيمن علي.. سواء في الحياة أم في الجنس.. بل في الجنس أكثر.. فما الذي جرى..؟ ما السر..؟ لاسيما وأنا التي كنت أقوده كالطفل في معظم الأحيان..؟ لا أعرف ولم أعرف السر والإجابة لحد الآن!

هيمن صمت عليهما للحظات، قطعه سؤال حواء ذوالنورين:

- وكيف عرفت أنه مات..؟
- لا أعرف إن كان قد مات أو أنتقل للسكن مع ابنته.. لأني لم أسأل، فبعد أشهر جاءت ابنته.. سمعت ضجيجا عند الباب.. نظرت من العين السحرية التي في الباب.. رأيت ابنته.. ورجلين آخرين.. فتحوا باب الشقة ودخلوا.. بعد ساعة

جاء بعض العمال وأخذوا ينقلون الأثاث الضروري.. لكني من الملابس السود لابنته والرجلين خمنت أنه قد توفي.. أتدرين حينها شعرت بالراحة.. لأنه الشاهد الوحيد على خيانتي الوحيدة لزوجي..

- وكيف استمرت علاقتك بزوجك..؟

ابتسمت بحزن وسخرية مرة وقالت:

- على أحسن ما يكون.. هو يعتقد أنني امرأة فاضلة ومضحية.. بينما أنا كنت أسعده وأضحي بوقتي وجهدي تخفيفاً لتعذيب الضمير وتكفيرا عن مغامرة لا يعرف بها أحد غيري.. زوجي كان ينظر إليّ كقديسة، وكان يشعر بالذنب لأنه بعيد عنا.. بينما أنا كنت أتحمل ذلك وأضحي لأن ضميري مثقل بالخطايا، لأن لدي أسراراً لا يعرفها..
- إنك قديسة.. امرأة طاهرة.. برغم ما قمت به..

نظرت إليها إيفا سميث نظرة مليئة بالعرفان والإمتنان، وابتسمت بحزن وقالت:

- شكراً لك.. تقولين هذا لأنك إنسانة طيبة القلب.. مررتِ بالجحيم.. وتعرفين معنى لحظات السمو الأخلاقي التي تنبجس عن لحظات الألم والمعاناة الإنسانية والخيبة التي تواجه الإنسان الضعيف.. لقد كنت أعتبر نفسي إنسانة متميزة وفريدة..
- لا تقسي على نفسك.. أنت لاتزالين متميزة وفريدة.. كانت لحظة شيطانية لعب إبليس فيها دورا..

ابتسمت إيفا سميث وقالت بمرارة:

- ما علاقة إبليس بالموضوع..؟ أنا التي قمت بما قمت بنفسي.. ما دخل إبليس في الأمر؟! وإذا ما كان هناك إبليس فهو في داخلنا.. نحن أبالسة.. بل إن المرأة أسوأ من ألف إبليس إذا أرادت أن تفعل شيئا ما..
- ليست المرأة وحدها.. الرجل لا يقل عنها شيطنة..
- نعم..إبليس يُعد ملاكاً قياساً لشرور الإنسان!

تاهت حواء ذوالنورين بنظراتها إلى أعماقها، إذ انتبهت إيفا سميث لشرودها المفاجئ.. وضعت إيفا سميث خرطوم النرجيلة على الطاولة.. وأشارت للنادل بما يعني إعداد قائمة الحساب.

16

الخنزير

حين دخلت حواء ذوالنورين وإيفا سميث الفندق كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً. أحستا وقد صارتا في الردهة الواسعة كأنهما انفصلتا عن العالم الذي يضج خارج الفندق. كانت الردهة فارغة على غير العادة. مكتب الإستعلامات هادئ، ليس هناك سوى موظفة واحدة تنظر إلى شاشة الحاسوب الذي أمامها، بينما يتوزع أربعة رجال، إثنان منهم في الزوايا من جهة بوابة الفندق وإثنان يقفان في الزوايا البعيدة، حيث يقف أحدهما على مقربة من مكتب الإستعلامات، والآخر في الزاوية الأخرى التي تقود لممرات موازية لمكتب الإستعلامات. الهدوء غير عادي. هدوء الردهة وخلوها من النزلاء دفعهما لا إراديا إلى المشي بهدوء. حينما وصلتا إلى قرب مكتب الإستعلامات، رفعت الموظفة رأسها وابتسمت لهما، ثم توجهت إلى حواء ذوالنورين قائلة:

- عفوا مدام..

التفتت حواء ذوالنورين إليها بارتباك، فقالت الموظفة بنبرة فيها ود:

- حضرتك مدام حواء ذوالنورين..؟
- نعم..
- عفوا عن الإزعاج.. أعرف أن الوقت متأخر، لكن بودي أن أخبرك بأن الأستاذ آدم الشامي انتظرك في المكتب قبل ساعة من الوقت، وأخبرني بأن تتصلي به حين وصولك..
- هل هو في المكتب الآن..؟
- لا أعرف بالضبط. كان في المكتب قبل ساعة.. أما الآن فلا أعرف.... لحظة لأتصل..

أخذت سماعة الهاتف وضغطت على رقم ما.. مرت لحظات مليئة بالتوتر والترقب

كانت النساء الثلاث يتبادلن النظرات خلالها.. وضعت الموظفة السماعة قائلة:

- يبدو أنه ليس في المكتب.. ربما في جناحه أو في أحد المطاعم..
- طيب سأحاول أن أتصل به من غرفتي على رقم المكتب.. هل هو موجود في دليل الفندق..؟
- بالتأكيد مدام..

مضيتا في الممر بإتجاه المصاعد. وما أن ابتعدتا قليلاً حتى قالت إيفا سميث متسائلة:

- ربما بخصوص جواز السفر..؟ ربما استلمه..؟ فقد قال بأنه في حدود العاشرة سيقابل الرجل الآخر.. الآن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بعشر دقائق..

قالت حواء ذوالنورين بقلق واضح:

- ربما.. أكيد.. وإلّا لماذا طلب الإتصال بي..؟
- على أية حال ستتضح الأمور الليلة..
- سأحاول الإتصال به من الغرفة.. على أية حال، اشكرك جداً على هذه السهرة اللطيفة..
- لا تشكريني فقد استمتعت معك.. بالمناسبة.. يمكنك الاتصال بي في أي وقت إذا علمتِ شيئاً جديداً..
- سنرى.. لكني خائفة..
- مم تخافين.. الرجل كان جاداً وواضحاً في كل أقواله..إتصلي به على المكتب وخبريني.. وإذا شئت تعالي عندي واتصلي به من غرفتي..
- لا.. سأتصل به من غرفتي.. وسأمر عليك.. لكن ربما تريدين النوم..
- لا.. أي نوم.. عليّ أن أتصل بزوجي وأمي.. مستفيدة من فرق الوقت بين فرنسا وسوريا.

كانتا قد وصلتا إلى المصعد الذي انفتح لحظة وصولهما من تلقاء نفسه. دخلتا. اُغلق الباب وبدأ المصعد بالتحرك. من الممر المقابل ظهر الرجل الأسمر الطويل، ضخم الجثة، ومع ظهوره كان ثمة صوت لخبب حصان يتعالى في الممر. مع ظهوره بدأت إضاءة الممر بالتقطع.. إلّا من بعض المصابيح التي كان ضوؤها يرتعش.. كان

ضوء أحمر ينطلق من عيني الرجل الأسمر الطويل، ضخم الجثة.

* * *

كان آدم الشامي في جناحه ومعه ثلاثة من مسؤولي الأمن في الفندق. الجميع كان في حال توتر. آدم الشامي كان متوتراً جداً، ومحتقن الوجه من الغضب. قال لهم بعصبية:

- ماذا يعني كل هذا..؟ هل اختفى؟ أنتم تقولون إنه لم يخرج من الفندق قط. وأنت تقول (توجه بالكلام لأحدهم) بأنه مشى في الممر (باء) ثم توقف عند المصعد. دخله حين انفتح الباب وصعد. تتبعتم حركة صعود المصعد والطابق الذي توقف عنده، وهو الطابق الخامس.. هناك كما تشير كاميرات التسجيل الموجودة في الممرات، وكما أخبركم خفير الطابق الخامس بأنه دخل الغرفة 555. لكن هذه الغرفة كما نعلم هي غرفة أجهزة التنصت وتسجيل المكالمات، ففيها كل أجهزتنا الخاصة بالطابق. وهي مقفلة، وليست غرفة مؤثثة للسكن. ليس فيها سوى كرسي واحد وطاولة للموظف الذي يدوّن التقارير.. تسجيل الكاميرات يشير إلى أنه خرج بعد دقائق لم تتجاوز العشر من هذه الغرفة، وتوجه ثانية نحو المصعد.. الكاميرات سجلت دخوله للمصعد.. العجيب أنه لم يخرج من المصعد أبداً، كما أن كاميرات الطوابق التي تواجه أبواب المصاعد في كل طابق لم تسجل خروجه في أي منها.. فما الذي جرى..؟ أين اختفى..؟!

نظر الرجال إلى بعضهم البعض نظرات حائرة وغاضبة ومليئة بإستسلام عصبي؛ فما قاله لهم صحيح، وهو ما ورد في تقريرهم أيضاً.. قال أحدهم:

- هناك لغز في هذا الموضوع أستاذ آدم.. هو فعلاً، كما جاء في تقريرنا، قد دخل المصعد لكنه لم يخرج منه.. لقد شاهدنا تسجيلات الفيديو للطوابق مرات عديدة، حتى الطوابق التي لم يصعد إليها شاهدناها، فلم نجد له أثراً سوى ما قلناه لحضرتك.. تابعناه أول الأمر حينما جلس وحده فترة طويلة في حدود الساعة تقريبا في الردهة.. لم يكن هناك سوى بضعة أشخاص تفرقوا في ما بعد.. ثم نهض هو أيضاً.. اتجه نحو المصعد الذي يقود إلى جناح حضرتك.. صعد إلى الطابق الثاني حيث جناحك.. الكاميرات سجلت أنه توقف للحظات أمام باب جناح حضرتك وكأنه أراد أن يدخل إليك، ثم عدل عن رغبته..إذ واصل طريقة إلى الممر الجانبي.. ثم هبط ثانية إلى الطابق الأرضي.. ومن هناك توجه

إلى الممر المقابل ودخل المصعد.. تابعنا المصعد والطوابق التي توقف فيها فلم يتوقف سوى في الطابق الخامس.. وقد أخبرناك بكل التفاصيل.. لقد اختفى..

صاح آدم الشامي بعصبية تكشف عن خوف داخلي لم ينتبه إليه سواه:

- اختفى.. اختفى.. أعرف أنه اختفى.. لكن أين اختفى.. وكيف..؟!

هيمن صمت ثقيل على الجميع، ثم قال الأعلى مسؤولية بينهم:

- لا نعرف أين اختفى..؟ بالنسبة لنا هذا لغز!

نظر إليه آدم الشامي نظرات قلقة، وكان واضحا أنه يفكر بشيء آخر، ثم قال:

- هناك أمر آخر.. ألم تنتبهوا لوجود أشخاص آخرين..؟ أشخاص يثيرون الشك والريبة.. سواء من نزلاء الفندق أم ممن يتواجدون هنا بشكل عام..؟

صمت الجميع، وارتسمت على وجوههم علامات التفكير، فجأة قال أحدهم:

- لا أدري أن كان الأمر مريبا أو لا.. لكني رأيت شخصا كان كلما يسير أسمع وقع سنابك حصان.. وهذا ما أثار استغرابي..

- ماذا..؟ متى كان هذا..؟

صاح آدم الشامي دون إرادة منه.

- قبل ساعة تقريبا..

- وأين ذهب..؟

- لا أعرف.. انعطف في أحد الممرات.. حاولت أن أتبعه؛ لأعرف في أية غرفة ينزل.. لكني لم ألحق به.. فحين وصلت إلى الممر كان قد اختفى.. ربما دخل إحدى الغرف..!

لم يعلق آدم الشامي، لكن علامات خوف ما ارتسمت على وجهه، فقد خمن بأن إبليس إتخذ تجليات أخرى لهيئته وليست هيئة الرجل الأشقر الوسيم. فجأة سأل:

- حين شاهدتم تسجيلات كاميرات الفيديو... وتابعتم دخول الرجل الأشقر الوسيم إلى المصعد.. وانتبهتم أنه لم يخرج.. هل رأيتم هناك من خرج من المصعد غيره..؟

- نعم..

قال المسؤول الأكبر بينهم، ثم واصل بارتياب:

- خرج رجل أسمر طويل القامة، ضخم الجثة.. يرتدي بدلة زرقاء.. لكن الرجل

المطلوب لم يخرج..

- ماذا..؟ وهل انتبهتم لهذا الرجل ضخم الجثة..؟ من أي طابق دخل..؟
- لا.. الحقيقة لم تصور الكاميرات من أي طابق دخل.. لكنها صورت خروجه..

صرخ الرجل الذي تحدث عن رؤية الرجل طويل القامة في الممر، أضاف:

- إنه الرجل نفسه الذي سمعت صوت سنابك الحصان حينما كان يمشي..إنه كان يرتدي بدلة زرقاء أيضاً.. الأوصاف تنطبق عليه..
- إذن إنه هو نفسه!

قال آدم الشامي بثقة. تبادل الرجال الآخرون النظرات في ما بينهم. سأل أحدهم:

- هو نفسه..؟! من تقصد بذلك؟

نظر آدم الشامي بارتباك اليهم كأنه كشف عن شيء غير معقول لا يعرفه غيره، وقال:

- من غيره..؟ هو الرجل الأشقر الوسيم نفسه..

فانطلقت منهم همهمة مشتركة في الوقت نفسه وقال أحدهم:

- ماذا تقول يا أستاذ آدم..؟ كيف يمكن أن يدخل رجل أشقر ويتحول داخل المصعد ليخرج رجل آخر؟!

أحس أنه قد تسرع بالكشف عما يعرفه؛ لأنهم لن يفهموا ما سيقوله لهم، ارتبك. هيمن عليهم صمت مشحون بالإرتباك، قطعه صوت أحدهم حين قال:

- لكني رأيت شيئاً آخرَ محيراً أيضاً..

نظر البقية إليه بتساؤل، فواصل الرجل بتردد:

- رأيت أربع نساء..إثنتان بثياب الراهبات.. وإثنتان بعباءتين سوداوين.. رأيتهن يدخلن المصعد نفسه الذي دخله الرجل الأشقر الوسيم.. وتوقف المصعد في الطابق الخامس أيضاً.. خرجن واتجهن في أحد الممرات.. توقفن عند باب الغرفة التي دخلها الرجل الأشقر الوسيم قبل ذلك.. أي أنه كان في داخل الغرفة حين وقفت النساء عند بابها.. لكنهن لم يفعلن شيئاً، وإنما واصلن سيرهن في الممر، ثم انعطفن جانباً في الممر الموازي..
- طيب.. وما الغريب والمريب في الأمر؟

سأل آدم الشامي محاولاً أن يجد شيئا له علاقة بما يفكر فيه، فواصل الرجل:

- الغريب أنهن لم يكن يمشين على الأرض.. كن وكأنما يطرن أو أن أقدامهن

تمشي لكن لا تمس الأرض!

- آها!

قال آدم الشامي ذلك وغاص في لجة التفكير، بينما ارتسمت علامات الارتباك والخوف على ملامح الرجلين الآخرين. فجأة، عاد آدم الشامي من رحلة تفكيره، وقال لهم بصوت فيه تعب ويأس واضحين:

- على كل حال.. اتركوني الآن.. أنا تعبان جداً.. أحتاج أن أرتاح قليلاً.. سأتابع أنا مع الإدارة قصة النساء الأربع.. وأعرف من هن.. أما أنتم فتابعوا البحث وأخبروني بأي شيء طارئ..

نظر الرجال الثلاثة في ما بينهم. قال أحدهم وهم يهمون بالخروج:

- لا تقلق أستاذ آدم.. حتى لو كان الشيطان نفسه سوف نعتقله.. لن يفلت منا مهما حاول أن يلعب معنا لعبة التخفي..إنه لايعرفنا جيدا.. سوف نجعله يتوب.. ويلعن اللحظة التي وسوس لنفسه بالدخول فيها إلى الفندق!

نظر آدم الشامي إليه وارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة.

خرج الرجال وأغلقوا الباب خلفهم. نهض آدم الشامي. فتح الثلاجة. أخرج ليمونة. وقنينة الجن. أعد لنفسه كأساً. عاد إلى مقعده. مد يده إلى جيب سترته الداخلي. أخرج جواز سفر أحمر الغلاف بين طياته بطاقة سفر. وضع الجواز والبطاقة أمامه. أخذ يفكر باختفاء إبليس المفاجئ وتحوله من هيئة إلى أخرى. فكر مع نفسه بأن إبليس ربما عرف بما أعدّه له من مكيدة لاعتقاله. أخذ يسأل نفسه كيف يمكن إعتقال كائن غير بشري..؟! كائن يتحول في اللحظة ويتنقل مخترقاً الزمان والمكان..؟ من المؤكد أنه يعرف بما نواه ضده فهو يقرأ الأفكار.. فهل سيتعرض لنقمته..؟

ومع استمراره في التفكير كان غضبه يتصاعد.. بل أحس بغضب من تردده وخوفه، وقرر مع نفسه بأنه سيعتقله إذا ظفر به، بل سيلقنه درساً في الشر لم يسمع به حتى ولو كان في أعماق الجحيم. ابتسم لنفسه من فكرته بأنه سيلقنه درساً في الشر لم يسمع به حتى في أعماق الجحيم.. يا لسذاجته.. يعتقل ملك الجحيم.. ويبعث به إلى الجحيم..!!

أخذ الكأس وبدأ يرتشف منها بتلذذ.. ثم فجأة أخذ يرتشف من الكأس بسرعة ونهم. قام وأعد لنفسه كأساً أخرى. أخذ سماعة التليفون الأرضي وطلب رقماً. بعد لحظات جاء صوت ما، فقال آدم الشامي بتهذيب شديد:

- مساء الخير مدام تومانوفا..(صمت).. أعرف.. أعرف.. عليك التعود على هذا الاسم.. ألف مبروك..إذا أحببت ستكونين في فلورنسا غداً مساء.. نعم.. عندي مع البطاقة.. صباحاً سنغيّر تاريخ حجز الفندق.. لكن يعز عليّ ذهابك هكذا بسرعة..إبقي معنا لأيام أخرى.. طيب جواز السفر مع البطاقة عندي.. يمكنك أن تأتي لإستلامه.. أو إذا أحببت أنا سأجلبه إليك..(صمت).. طيب.. الأفضل أن تمري أنت أذن.. أنا لستُ في المكتب وإنما في جناحي.. في الطابق الثاني.. يمكنك أن تمري.. لنحتفل بهذه المناسبة..(صمت).. طيب.. طيب.. سأمر بنفسي.. في الردهة.. لا.. لا.. لا أريد لأحد أن يراني وأنا أسلّمك إياه.. قرري.. (صمت).. سأنتظر ردك.. بعد لحظات.. رقمي 123.. سأكون بانتظار إتصالك.. ماذا..؟ تفكرين في الأمر..؟ فكري كما يحلو لك وأجيبيني.. سأكون بانتظارك..

وضع سماعة الهاتف في موضعها. ارتشف جرعة كبيرة من كأسه. ابتسم مع نفسه، فكر بأنها ربما أدركت بأنه سينيكها؛ إذا جاءت إلى جناحه؛ لذلك أرادت أن تتملص من المجيء.. ابتسم مع نفسه، وارتسمت على وجهه ملامح شبقة وغاضبة.. قرر مع نفسه أن يفاجئها.. سيذهب إليها بنفسه.. أحس بالنشاط والحبور لقراره المفاجئ هذا. ارتشف ما في الكأس بجرعة واحدة. أخذ جواز السفر والبطاقة معه وخرج.

* * *

ارتبكت حواء ذوالنورين من إتصال آدم الشامي بها تليفونيا. اجتاحتها مشاعر متضاربة.. فرح وخوف.. حزن.. وتوق للرحيل.. لم تكن تصدق بأنها ستغادر دمشق بهذه السرعة. هل هذا يعني بأن حياتها ستتبدل بالكامل..؟ سألت نفسها.

بحدسها الأنثوي أدركت أنه يريد أن يضاجعها؛ مهما كلف الأمر؛ لذلك طلب منها موافاته في جناحه. أحست بأنها تريد ذلك ولا تريد في الوقت نفسه.. ماذا عليها أن تفعل..؟ سألت نفسها. ظلت لدقائق تفكر في الأمر.. فجأة سمعت صوتاً داخليا يهمس لها: „ ماذا لو اعطيته ما يريد وتنهين هذه القصة بسلام..؟ ألا يمكن أن يعرقل كل شيء إذا لم تطاوعيه..؟ „.. هذا الهمس بث القلق في كيانها.. سألت نفسها:” أليس من الممكن بأنني أتوهم ذلك..؟ وأن الرجل لا يبتغي شيئاً وإنما أراد مساعدتي فقط..؟ لا.. لا.. نبرة صوته كانت واضحة „.. هكذا أجابت نفسها.

ظلت قلقة للحظات.. هي تعرف بأن آدم الشامي ينتظر أن تتصل به؛ لتخبره أين سيلتقي بها لتستلم جواز السفر والبطاقة.. فجأة، أحستْ بأنها تحتاج لرأي إيفا سميث. أخذت سماعة الهاتف وطلبت رقم غرفتها فجاء صوت الأخرى إليها، وبدون أية مقدمات قالت لها:

- لقد وصل جواز السفر والبطاقة أيضا.. كلمني قبل لحظات..(صمت) لا لم أستلمه بعد.. طلب مني أن أذهب إليه في جناحه.. أنا خائفة..إني أعرف نواياه..(صمت).. ماذا..؟ تريدين أن تأتي معي..؟ ممتاز.. لن يكون أمامه أن يفعل أي شيء.. طيب.. أنا لم أعطه أي جواب.. هو ينتظر مني أن أذهب إليه إلى جناحه.. أو يأتي هو إليّ.. وأنا لا أريد أن التقيه لا هنا ولا هناك.. لم أقرر بعد.. لكن إذا تأتين معي؛ فلا مانع من أن نذهب إليه في جناحه.. طيب.. حينما أقرر سأتصل بك.. وسنذهب معاً.. (صمت).. شكرا لك حبيبتي إيفا.. بدونك لم أكن أعرف ماذا أفعل.. نعم الجواز وبطاقة السفر.. سأغير البطاقة غداً على نفس اليوم.. وأسافر غداً إذا أمكن ذلك.. سنسافر معاً.. أنا لا أصدق..؟ هذا لا يحدث حتى ولا في الأفلام الهندية..!! سأتصل بك حينما أكون جاهزة.. لن أخبره بأنك ستأتين معي.. سأتصل به وأخبره بأني سأوافيه في جناحه.. وسيتفاجأ بوجودك معي؛ حينها سيضطر لتقبل الأمر.. سنرى.. (صمت).. طيب.. اتفقنا.. سأرتب نفسي واتصل بك.

في تلك اللحظات التي كانت تقول فيها كلماتها الأخيرة عن نزولهما معاً، وأنه سيفاجأ بوجود إيفا سميث معها، كان آدم الشامي عند باب غرفتها، يتنصت لحديثها التليفوني. عرف خطتها الماكرة.. أحس بغضب شديد، وتفجر في نفسه حقد على إبليس الذي دفعه إلى مساعدتها وورطه مع أجهزة الأمن بنفيه وجودها في الفندق ومغادرتها إياه.

اجتاحت أعماقه أمواج من الرغبة والقسوة..إذن هي تريد أن تحصل على كل شيء دون أن تعبر له عن شكرها بشكل حميمي..؟ قال لنفسه، ثم ابتسم مع نفسه ابتسامة شيطانية. أخذ يحمحم.. انتبه إلى أن الصوت الخارج منه يشبه صوت الخنزير.. أحس أن هناك تحولات تجري في كيانه.. ثمة شيء ما يتحرك في طرفي جبينه. مد يده إلى جبينه فوجد نتوئين صغيرين ينبتان كقرنين على رأسه.. ابتسم دونما قلق.. إزدادت خنزرته حتى صار صوتها مسموعاً.. تلفت في الممر. كان الممر خالياً. طرق الباب.

17

الدكتـور آدم كـارثـه

في صباح اليوم التالي انتظرت إيفا سميث صديقتها حواء ذوالنورين على الفطور في المطعم المفتوح الذي في الردهة. كانت الحيرة والشـرود مرتسـمين على وجهها. فكـرّتْ، وهـي ترتشـف قهوتهـا، بصديقتها التي كان تصرفهـا ليلة أمس مريباً. لقد اتفقتا بأن تذهبا معاً إلى آدم الشامي لاستلام جواز السفر والبطاقة، وكانت تنتظر منها مكالمة حينمـا تسـتعد لذلـك كمـا وعـدتْ، لكنها لم تتصـل.. وحينما تأخرت لأكثر من سـاعة بادرت هي بالإتصال.. الغريب، أن صديقتها أخبرتها بأنها اسـتلمت الجواز والبطاقة.. وأن آدم الشـامي هو الذي سـلمه لها بنفسـه.. وحين سـألتها إن كان قد حاول معها، أو تجاوز في تصرفاته عندما سلمّها الجواز فأكدت لها بأن كل شيء كان عادياً، وأنه كان لطيفاً، ولم يطلب منها أي شـيء كما كانت تتوقع.. وقد وعدها بأنه سـينجز كل شـيء لهـا، بـل ويوصلهـا إلـى المطار؛ كـي يطمئن حتى لحظة صعودها الطائرة، وحين أرادت أن تزورها لترى الجواز، اعتذرت لها مؤكدة بأنها أعدت البانيو لتأخذ حماماً قبل النوم، وأنهما ستلتقيان على الفطور صباحاً.. لكنها تتذكر الآن بأن نبرة من الحزن كانت تظلل صوتها، وأنها لم تكن فرِحةً بما يوازي خوفها الذي كانت تعيشه، فقد كان فرحها مثلوماً، وهناك مسحة من الزيف غلفت ذلك الفرح.

كانت الردهة هذا الصباح مكتظة بالزائرين على غير العادة. وكانت هناك زحمة عند طاولات الطعام التي تصطف طويلا في الجهة الأخرى. ولكي تضمن عدم جلوس أي من النزلاء الغرباء على طاولتها وضعت حقيبتها اليدوية على كرسي قربها.

أحست ببعض الضيق من تأخر حواء ذوالنورين، إذ لم يبق على وقت الفطور سوى أربعين دقيقة، بينما هي لم تظهر لحد الآن. نهضت بهدوء ومضت لتصب لنفسها كأسا مـن عصيـر البرتقـال. كانـت تنتقل بنظرها بين نزلاء الفنـدق علّها تلمح صديقتها، برغم

علمها أنها لايمكن أن تكون هنا.

عادت إلى طاولتها، وقبل أن تصل إليها، لمحت رجلاً يجلس هناك. خففت من مشيتها، وهي تحاول في ما تبقى من مسافة أن تدرس الشخص الجالس. انتبهت إلى أن ملامحه تبعث على الإرتياح.. رجل قد تجاوز الخمسين.. كان يبدو لها من بعيد ضخماً، لكنها كلما اقتربت من الطاولة أحست أنه يفقد شيئاً من هيئته الضخمة الأولى، على عكس قوانين الفيزياء. حين صارت عند الطاولة، رفع هو إليها رأسه، وعلى وجهه علامات اعتذار لجلوسه إلى الطاولة دون أن يسألها.. ابتسم لها بارتباك، وقال لها قبل أن تلقي التحية:

- آسف مدام.. أرجو أن لا يكون وجودي مزعجاً لك. معظم الطاولات محجوزة.. وبعضها يجلس حول كل منها ثلاثة أشخاص.. طاولتك الوحيدة التي لم أجد فيها سوى حقيبة واحدة موضوعة لحجز المكان؛ فخمنت أنك وحدك.. أرجو أن لا يضايقك وجودي..

برغم هذه المقدمة الطويلة إلّا أن ذلك أعجبها. أحست أنه رجل متزن. ثم أن الطاولة حولها أربعة كراسي حقاً، وهي وحدها. ابتسمت بطيبة وقالت لها:

- أولا صباح الخير.. ثانيا.. لا يزعجني أبداً وجودك.. أنا انتظر صديقتي فقط، لكنها لم تحضر لحد الآن..
- شكراً جزيلا..

قال ذلك واستمر يتناول طعامه، دون أن يرفع بصره إليها. بعد لحظات رفع رأسه عن صحنه. رشقها بنظرة خاطفة ثم التفت إلى جهة طاولات الطعام، وجال ببصره في أرجاء الردهة وكأنه يبحث عن شخص ما، ثم عاد ليخفض رأسه ناظراً إلى صحنه ليواصل الأكل.

رمقته بنظرة سريعة وكأنها تحاول أن تعرف سره وتزن شخصيته. انتبهت لنفسها بأنها نسيت حنقها على صديقتها المتأخرة، وانشغلت بفضولٍ أخذ يجتاح كيانها لمعرفة هذا الشخص الذي يذكرها وجهه بوجه ما، وكأنها التقته في مكان ما وفي وقت مالكن لا تذكر أين.

حانت منها التفاتة إلى صحنه الذي أمامه، فخمنت أنه نباتي، فليس هناك سوى الفواكه، والخضروات، وصحن فيه فول صُبت عليه كمية مبالغ فيها من زيت الزيتون،

و صحـن آخـر فيـه زعتـر مـع زيت الزيتون أيضا، وشـرائح من الخبـز، وصحن آخر فيه بصل وطماطم وفجل أحمر.

كان الرجل يأكل بشهية ولذة واضحة، وبنهم وتركيز شديد، دون أن يعير إيفا سميث أي إهتمـام، وكأنهـا غيـر موجـودة. وخلال دقائق قليلة كانت صحونه فارغة كلها. جمع صحونه كلها واضعاً صحنا فوق آخر وركنها جانبا، ثم نهض متجهاً إلى طاولة الطعام مرة أخرى.

راقبت إيفا سميث الرجل وهو يتجه إلى طاولة الطعام. استغربت لتناقض تصرفه، فمن جهة كان لطيفاً في اعتذاره لها بالجلوس إلى طاولتها دون أن يسـألها، ومن جهة ثانيـة تصـرف وكأنهـا غيـر موجـودة أصلاً، وزاد اسـتغرابها حينما رأتـه يقبل وهو يحمل صحنين، وضعهما على الطاولة، فكان الصحن الأول يحتوي على ثلاث بيضات مقليات بالدهن، وفي الصحن الاخر قطع عديدة من شرائح السلامي والقديد المحموس. وضع الصحنيـن علـى الطاولـة لكنـه لـم يجلـس، بل رجع مرة أخرى إلـى الطاولة، وعاد وهو يحمل صحنين آخرين، في الأول خليط من الفواكه المقطعة، وفي الصحن الثاني قطعا من الخبز المحمص.

فكرت إيفا سميث بأنها قد أخطأت في تخمينها بأنه نباتي.. فهو ليس نباتياً فحسب وإنما هو رجل شره لا يشبع بسهولة، وقد وجدت في ذلك تناقضا مع ملامحة وقسماته اللطيفة. لم يرفع رأسـه إليها قط. كان منهمكا في طعامه.. كان يأكل وكأنه في سـباق مع أحدهم بسرعة الأكل. شعرت إيفا سميث بالضيق وهي تتأمله. بدأ ضيقها يتصاعد، ووجدت نفسـها توجه ضيقها نحو حواء ذوالنورين التي وضعتها في مثل هذا الموقف غير المريح.

انتبهـت إيفـا سـميث بـأن الوقت المخصص للفطور بـدأ يقترب من نهايته، فلم يبق منـه غيـر عشـرين دقيقـة. كان الرجـل قـد أتى علـى ما في صحونه من طعـام، وقام مرة أخرى ليأتي بصحن فيه فواكه وآخر فيه حلويات سورية شهيرة منوعة. قامت هي لتأخذ فطورهـا. فلـم يبـق مـن الوقـت إلّا القليـل. فكرت وهـي في طريقها إلـى طاولة الطعام بصديقتهـا، وقبـل أن تصـل إليهـا التفـت متجهـة نحو مكتب الاسـتعلامات، ومن هناك اتصلـت مـن خـلال تليفـون الخدمة بغرفة حواء ذوالنورين لتسـتعجلها بالنزول، لكن لم يكن هناك من يجيب. فكرت مع نفسها بأنها ربما في طريق النزول.

عادت لطاولتها وجلست على كرسيها. صحنها كان فيه شريحتان من الجبن الأبيض مع شريحتي خبز محمص، وبضع قطع الزيتون الأسود. جاء النادل ليرفع الصحون التي تكدست أمام الرجل الذي يجالسها حول الطاولة. طلب هو من النادل أن يأتيه بكوب كبير من النسكافيه. فجأة أخذ يتجشأ بشكل متواصل دون أن يعتذر عن تصرفه غير المحبب على مائدة الطعام، أحست بمعدتها تتقلص.. لم يكتف هو بذلك وإنما أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة منها.

كانت قد غيرت وجهة نظرها فيه بالكامل، لكنها قالت لنفسها لماذا تشغل نفسها به، طز.. فهي ستتناول فطورها.. وتقابل صديقتها، كما ستذهب إلى حواء دمشقية؛ لتتأكد من حجز بطاقة السفر، كما عليها الذهاب معها إلى بعض الأسواق القديمة لشراء بعض الحاجات المنزلية كالقهوة بالهيل وبعض الأشياء التي أوصتها أمها بشرائها.

لم تعد تنظر إيفا سميث إلى الرجل الذي كان قد بدأ ينفث دخان سيجارته في الهواء. كان ينظر إليها بإنبهار وكأنه انتبه للتو لجمال وأناقة هذه المرأة التي تجلس قبالته. أراد أن يبدأ الكلام معها لكنها كانت منشغلة بالطعام ظاهراً وبالتفكير في أعماقها. فجأة، قال لها:

- أرجو أن لا يضايقك الدخان..؟

فوجئت هي به. ارتبكت لثوان، ثم قالت بلا مبالاة:

- يمكنك أن تدخن.. المكان مفتوح..

استمرت في طعامها وتفكيرها. لم يأبه هو إلى نبرة صوتها المليئة باللامبالاة وعدم الرغبة في الكلام، فواصل كلامه معها:

- أرجو المعذرة إلى أنني لم أسألك إن كان بإمكاني أن أدخن..؟

نظرت إليه باستغراب، وأدركت رغبته في الحوار معها، إلّا أن رغبتها في التواصل معه كانت قد ماتت بعد أن رأت شراهته في الأكل وقلة ذوقه في التصرف على المائدة، فقالت بلامبالاة ممزوجة بسخرية:

- أنت قد أشعلت سيجارتك وأخذت تدخنها.. فلماذا تعتذر الآن..؟!
- صحيح.. لكن السيجارة بالنسبة لي جزء متمم للطعام.. وقد نسيت أن أسألك..
- على أي حال.. المكان مفتوح.. ولا مشكلة في التدخين..

أحست إيفا سميث بأنها فقدت شهيتها في الطعام، وبدأ الغيظ يجتاحها من إلحاح

هذا الرجل، لكنها لم تشأ أن تكشف عن ذلك.. فجأة نظرت إلى ساعتها اليدوية فعرفت بأن فترة الفطور قد انتهت رسمياً. نظرت إلى جهة طاولة الطعام فلم تجد أحداً. استغربت الموقف. نظرت إلى الرجل نظرة سريعة. وأخذت حقيبتها. نهضت وهي تقول:

- أسمح لي.. طاب يومك..

قبل أن تغادر الطاولة قال لها الرجل الجالس وهو يبتسم:

- عفوا.. نحن جلسنا معا على مائدة الفطور، لكننا لم نتعارف.. أنا الدكتور آدم كارثة. أستاذ الأدب العربي والنقد الحديث في جامعة صفاقس.. عراقي..
- أهلا وسهلا.. تشرفنا..

ما أن استدارت حتى سمعته يسألها بجرأة قائلاً:

- والمدام..؟حضرتك..؟لم تقدمي نفسك..
- عفوا.. هل ذلك ضروري..؟

فقال أستاذ الفلسفة آدم كارثة بوقاحة:

- ولم لا..؟ ضروري..؟ لاسيما وأنا قد قدمت نفسي..

أحست إيفا سميث بالغضب، فقالت له:

- أنا لم أطلب من حضرتك أن تقدم نفسك.. هذا أولاً.. وثانياً لا أجد ضرورة ابداً لأقدم نفسي.. وثالثاً أنا على عجلة من أمري.. سلام.

قالت ذلك واستدارت ذاهبة. بقي آدم كارثة جالساً في موضعه. أحس بصدمة من جوابها الحازم.. أخرج سيجارة أخرى، أشعلها بجمر السيجارة الأولى التي أطفأها في كأس القهوة الفارغة.

* * *

صعدت إيفا سميث إلى الطابق الخامس، وتوجهت إلى غرفة حواء ذوالنورين. فكرت وهي في طريقها إليها بأن صديقتها ربما مريضة أو تشكو من شيء ما؛ فمن غير المعقول أن لا تنزل للفطور، ولا تقابلها، لاسيما وأن عليهما تنسيق الكثير من الأمور قبل السفر، لكنّ المفاجأة كانت عدم وجود أحد في الغرفة. طرقت الباب مرات عدة لكن دون جدوى. ما من أحد فتح الباب. مضت إلى غرفتها. أخذت جواز سفرها وبطاقتها وكمية من المال الذي كانت قد احتفظت به في الخزانة السرية الخاصة بالغرفة. وخرجت.

في مكتب الاستعلامات سألتْ عن آدم الشامي، فكان جواب الموظفة مفاجأة لها، إذ أخبرتها الموظفة بأن الأستاذ آدم الشامي غير موجود، فهو مجاز اليوم؛ لأنه مريض. فجأة خطرت في ذهنها أن تسأل عن حواء ذوالنورين إن كانت الموظفة قد رأتها هذا الصباح، فكان جواب الموظفة صدمة لها، إذ قالت لها الموظفة بأن مدام حواء ذوالنورين قد غادرت الفندق منذ الأمس.. كيف.. لقد كانت معها ليلة البارحة..؟ سألتها إيفا سميث. أجابتها الموظفة بأن سجلات الفندق تؤكد بأن حواء ذوالنورين قد غادرت الفندق نهار أمس. التفتت إيفا سميث فرأت الموظفة التي كانت خفيرة ليلة البارحة والتي طلبت من صديقتها أن تتصل بآدم الشامي مقبلة، ولما وصلت سألتها إيفا سميث إن كانت تتذكر بأنها وصديقتها حواء ذوالنورين جاءتا بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأنها طلبت من صديقتها الإتصال بالأستاذ آدم الشامي، فأكدت الموظفة لها صحة ذلك، فهمست الموظفة الأولى لها في أذنها شيئا؛ فارتبكت الموظفة الخفيرة. فهمت إيفا سميث بأن صديقتها حواء ذوالنورين قد سُجلت بأنها رسميا قد غادرت الفندق بالرغم من وجودها فيه.. لكن لماذا؟! أحد الموظفين كان جالساً أمام طاولة عليها كم من الأوراق والقوائم الخاصة بالفندق كان يتنصت إلى الحديث؛ فتدخل موضحاً أن السيدة حواء ذوالنورين خرجت صباحاً مع السيد آدم الشامي، بعد أن دفعت حسابها، على الرغم من أن سجل الفندق يشير إلى مغادرتها منذ الأمس.. ارتبكت الموظفتان.. أحست إيفا سميث كأن صديقتها قد غدرت بها، فهي لم تبلغها بمغادرتها الفندق صباحاً.. على أية حال ستعرف منها بعد أن ترجع..

في تلك اللحظة سمعت صوت الدكتور آدم كارثة يحدث مرافقاً له، لكنه كان في وضع لا ترى منه سوى ظهره، وكان يبدو من لهجة الآخر أنه عراقي أيضا، كان يحدثه عن امرأة ما، فهمت بأنها هي المقصودة، إذ سأله صاحبه:

- كل ذلك حصل أثناء الفطور..؟ هل تعارفتما..؟ هل أخذت عنوانها أو رقم تليفونها..؟
- لقد بادرت هي بتقديم نفسها لي، وطلبت مني أن أقدم نفسي وأعطيها تليفوني
- وماذ حدث بعد ذلك..؟
- لا شيء.. أعطيتها تليفوني.. فوعدت أن تتصل بي.. وربما ستزورني في صفاقس.. لا أعرف.. كانت تلح بشكل غريب..

أحست إيفا سميث بغضب يجتاحها، لكن الدكتور كارثة لم يذكرها بالإسم، وبالتالي ليس من اللائق أن ترد عليه وتعمل لنفسها فضيحة في الفندق.. ثم أن لديها من المشاغل ما يكفي.. عليها أن تذهب إلى صديقتها حواء دمشقيه لتذهبا معا لتأكيد السفر، ولشراء بعض الأشياء.. أما حواء ذوالنورين فربما ستلتقيها حينما ترجع.. لكنها لم تنس أن تطلب من الموظفة أن تعد لها حسابها؛ لأنها قررت أن تغادر الفندق مساء اليوم.

* * *

حين وصلت حواء ذوالنورين يصاحبها آدم الشامي في حدود التاسعة مساءً من ذلك اليوم نفسه كان مطار دمشق الدولي مزحماً جداً. لم يكن معها سوى حقيبة يدوية نسائية على شكل صندوق مربع الأضلاع، وحقيبة أخرى من تلك الحقائب التي يسمح للمسافر أن يدخلها معه إلى الطائرة، وقد كان آدم الشامي يسحبها من مقبضها الطويل. كان آدم الشامي منتعشاً، وينظر إلى الآخرين، لكنه في الحقيقة لم يكن ينظر إلى أحد، وكانت حواء ذوالنورين تسير إلى جانبه ساكنةً، لكنها كانت في أعماقها مرتبكة، وتتلاطم في ذهنها أفكار مشتتة وغير مترابطة، فقد كان كل ما مر بها خلال هذه الأيام القليلة في دمشق، وليلة البارحة الغريبة والغامضة، أشبه بأحداث رواية مغامرات سيئة كتبها مؤلف مجهول.

كانت عيناها تشيان بتأمل عميق. عينان تنظران إلى الداخل وإن بدتا تنظران إلى الأشياء الخارجية بتركيز وتمعن. كان ثمة حزن شفيف يتصاعد في أعماقها مثل ضباب الصباح في غابة بعيدة.

راودها شعور ضايقها لأنها تصرفت بشيء من الأنانية؛ لأنها لم تلتق صديقتها إيفا سميث هذا اليوم، بل إنها لم تتصل بها تليفونيا؛ لتودّعها حتى. كانت تعرف بأنها لم تستطع ذلك؛ لأنها لا تستطيع أن تخبرها بما جرى في غرفتها بعدما دخل عليها آدم الشامي. أقنعت نفسها بأنها سوف تتصل بها من إيطاليا بعد أن تستقر وتطمئن على وصولها وستروي لها ما جرى بالتفصيل. وربما لن تصدق ذلك.. كيف ستصدق بأن آدم الشامي في جوهره خنزير؟!

سمحت لآدم الشامي أن يسبقها بخطوة أو خطوتين؛ لكي تتجنب نظراته التي تغوص في أعماقها، واحتمال الحديث معها والإستفسار منها. منذ ليلة البارحة حين اقتحم عليها غرفتها، في هيئة خنزير آدمي، حاملاً جواز السفر والبطاقة، ومحاولاته إغواءها، التي

انتهـت بإغتصابهـا بلطـف.. ثـم خروجهما مبكرين إلى المدينـة، ومرورهما على مكتب الخطوط الجوية الإيطالية، وتقديم موعد السـفر إلى هذا المسـاء وكذلك تقديم حجز الفندق، ومن ثم الذهاب معها إلى أحد المحلات لشراء حقيبة سفر صغيرة لها تضع فيها ما تحتاجه من ملابسها القليلة، وأدوات زينتها، ثم التجوال معها في المدينة، والصعود إلى قاسيون، ثم الذهاب إلى منطقة الزبداني، ومضاجعتها في السيارة في منطعف طريق العودة إلى دمشق، ثم تناول طعام الغداء متأخرين في أحد المطاعم الراقية، ثم العودة إلـى الفنـدق فـي وقـت متأخر قبيل الغروب، والصعود عن طريق كراج السـيارات الذي في أسفل الفندق، من خلال طريق خاص بإدارة الفندق، وبالتالي الصعود إلى غرفتها، ومضاجعتها هناك ومرة أخرى وكأنه لا يريد أن يفقدها، أو يريد أن يعوض عن فقدانها، لاسـيما وأن آدم الشـامي طلب منها أن لا تتصل بأحد، ولا أن يراها أحد من موظفي الفندق، وحينما أخبرته بأنها تريد توديع صديقتها إيفا سميث، أمرها بأن لا تتصل بها، مؤكـدا لهـا بـأن ذلـك كلـه من مصلحتها؛ فهي مراقبة، وقـد أبلغ أجهزة المخابرات بأنها قد غادرت الفندق منذ الأمس، وأن تواجدها في الفندق؛ سيثير الشبهات؛ والأفضل أن تتصل بصديقتها بعدما تصل فلورنسا.

لا تعرف كيف صدقته، أحست لحظتها أنه صادق في كلامه، كيف، ولماذا..؟ هي لا تعرف كيف، ولماذا؟ لكنها أحست برعشة الخوف في نبرة صوته حينما كان يحذرها من الخروج لملاقاة صديقتها.. نعم كان خائفاً.. خائفا من شيء ما.. ما هو..؟ لم تستطع أن تعرف ذلك.. لكنها وجدت نفسها تنصاع للأمر، وتقتنع بأنها ستتصل بصديقتها وتعتذر منها وتشرح لها كل شيء بعد أن تغادر هذه المدينة المريبة.. كان عليها أن تغادر بأي شكل، وبأي ثمن.. ففي صفقة الحياة ليس هناك أغلى من الحياة نفسها.

كانت تسـير كأنها في مكان مهجور وخال.. وأن كل الزحمة التي تحيط بها، تكاد تشـبه أشـياء تعرض على شاشـة، أضواء وألوان تحيط بها وتختفي. فجأة، انتبهت إلى أنهما وصلا إلى بوابة وهناك زحمة كبيرة، وبدأت تسمع الضجيج.. كان هناك عشرات من النسـاء المجبات، والرجال قصار القامة وبلحى طويلة نسـبيا.. ومن خلال الجمل التي تناهت إلى سمعها عرفت أن هؤلاء هم زوار إيرانيون.. كانوا يحملون حقائب كبيرة جداً، يضعونها على حزام عريض يسحبها إلى الجهة الأخرى بعد أن يستعروضها بأجهزة كاشفة، ويمر الأشخاص عبر بوابة يقف عندها إثنان من شرطة المطار.

تدافعت النسـاء أمامها ولـم تسـتطع أن تتجاوزهن، لكن آدم الشـامي شـق طريقه إلى البوابة وأخرج هوية من جيبه عرضها قرب وجوهيّ الشـرطيين؛ فأديا له التحية، فأشـار هو إليها بأن تتحرك.. وصرخ هو بالنساء المزدحمات أن يفسحن المجال لها، فارتبكن، ومرت هي عبر البوابة دون أن يسألها أحد.

حين صارا في الصالة وقفا مباشرة أمام شاشة تعرض جدول الطائرات المسافرة. قال لها أن طائرتها ستقلع بعد أربعين دقيقة.. طلب منها أن تنتظره من أجل أن ينجز لها كل الإجراءات بنفسه. سحبت حقيبتها التي تركها إلى جانبها من ذراعها الطويلة. فتشت عن مـكان تجلـس فيـه فلـم تجد. وقفت إلى جانب الجدار. أخذت تتأمل الزحمة.. وتناهى إلـى سـمعها تداخـل فـي اللغـات واللهجات.. إيرانيـون، عراقيون، لبنانيـون، مصريون، خليجيون، روس.. طليان.. أحست أنها تمر بلحظات غريبة.. كانت جامدة المشاعر.. لا هي فرِحة ولا حزينة.. لا خائفة ولا شـجاعة، ليسـت متوترة، وليسـت مسـترخية، هي موجودة وغير موجودة.. كانت تعرف أنها ستغادر أخيراً، وأنها قدمت ثمناً نفسياً وجسدياً غالياً؛ لذا كانت لا تحس بلذة السفر. فكرت مع نفسها بأن الإنسان كائن غريب.. لقد كانت مرعوبة.. ودفعت مبلغاً كبيراً، بل منحت جسدها، من أجل أن تفر من هذه المدينة، لكنها الآن.. الآن وهي على وشـك أن تجتاز الحدود الدولية لسـوريا تشـعر باللامبالاة إزاء كل شيء.. كل شيء!

انتبهت إلى أحد الإيرانيين، الذي بدا رئيسا لمجموعة من الزائرين، وهو يخاطبهم بالفارسـية، فتجمعـت حولـه أعـداد غفيـرة، فأخـرج من جيبه كراسـاً صغيـراً وأخذ يقرأ دعـاء وداع ملـيء بطلـب الغفـران، والعفو، والتوسـل إلى الأولياء بأن يشـفعوا لهم عند رب العالمين بأن يقيهم عذاب جهنم.. فأخذت النساء يبكين ويطلقن صرخات الندب، والرجـال يبكـون ويلطمـون رؤوسـهم.. أحسـت للحظـة بالإختنـاق.. وبالرعب، وكأن البشرية تتدافع أمام بوابة الأبدية، وأن القيامة قد قامت.

لم ينقذها من هذا المشـهد سـوى صوت آدم الشـامي وهو يسـألها ما بها؛ فوجهها شاحب، وملامحها تشي بأنها مرعوبة من شيء ما. لم تقل شيئا سوى أنها علقت مشيرة إلى تجمع زائري السيدة زينب من الإيرانيين، الذين أرعبوها.. ابتسم هو، وقال لها بأن تتبعه؛ فقد أنجز لها كل شيء، ولم يبق سوى الختم النهائي، أي عبور الحدود.. ارتبكت. أحست بالحيرة.. وبهشاشة وضعها النفسي، وبإنبعاث خوف من المجهول كان مطموراً

في أعماقها وكأنه تمساح مطمور تحت الطين على ساحل بحيرة يتربص بها لينقض عليها.. ما الذي يجري لها؟! لقد كانت قبل لحظات لا تهاب أي شيء.. وها هي الآن تحس وكأنها تواجه مصيراً مجهولاً!

نظرت إلى آدم الشامي، فجأة، أحست أنها متعلقة به، أحست للحظة بأنها تحبه.. صحيح انه أغتصبها ليلة البارحة.. لكنه اغتصاب بلطف. منحته جسدها دون إرادتها.. لكنها صعدت مع هذا الخنزير إلى أعلى ذرى النشوة مرات.. حتى تعبت.. لا. لا.. ربما مصدر مشاعرها نابع من أنها تعرف أنه مسؤول كبير في هذه البلاد.. وهي معه تشعر بالأمان.

انتبهت له يقول لها بأنه تحدث مع ضابط الجوازات عنها، وأن كل شيء سيكون على ما يرام.. لكنها أحست بأنها شبه مشلولة.. وبلا وعي منها، ودنما قصد وتخطيط، وضعت ذراعها حول ذراعه، وقالت له بأنها لا تتحرك إلّا وهو معها.. فوجئ هو بحركتها.. شعر بسرور دافق في أعماقه لهذه الحركة الرقيقة، وبنشوة ذكورية تجتاح جسده.. وغمرته عاطفة فياضة نحوها، فأشرق وجهه وسألها مازحاً: هل تريدين أن أطير معك إلى فلورنسا؟.. فقالت بخفوت: إن كان يقدر على ذلك..؟ فضحك وقال لها هذا غير ممكن.. ربما سيزورها في إيطاليا.. لكن ليس الآن.. فقالت له بأنها تخاف عبور شباك الجوازات.. لأنها سترتبك.. نظر إليها للحظات، وقال لها بأنه سيمر معها بنفسه، ويوصلها إلى باب الطائرة.. فشدت على ذراعه نحوها. سحب هو حقيبتها من ذراعها الطويلة، ومضيا إلى شباك تفتيش الجوازات.. خلال ذلك تعالى صوت إعلان بالمايكريفون الداخلي للمطار بأن على المسافرين على الخطوط الجوية الإيطالية في الرحلة المرقمة 555 على متن الطائرة المتجهة إلى فلورنسا أن يتوجهوا إلى البوابة رقم خمسة.. انتبهت هي إلى أن رقم الرحلة يذكرها برقم غرفتها في فندق الشام. كان ضابط الجوازات لحظتها يحدث آدم الشامي غامزاً له، مشيراً إلى جمال هذه الروسية التي تشبه العربيات؛ فابتسم له آدم الشامي قائلاً إنها تترية من روسيا.. فختم الضابط جواز سفرها..

انطلق معها آدم الشامي عبر البوابة.. وحينما أوقفه الشرطي الآخر الذي يقف عند حاجز العبور، أظهر له آدم الشامي هويته، فأعترض الشرطي بهدوء وارتباك كأنه يتوسله ويعتذر له بأنه لا يسمح إلّا للمسافر بأن يمر عبر الحاجز، إلا أن آدم الشامي وضع مئة ليرة في كفه دون أن يراه أحد.. ابتسم الشرطي، وسمح لهما بالمرور.

في الصالة الأخرى كان ركاب الطائرة يتدافعون نحو البوابة لدخول الطائرة. وقف آدم الشامي وحواء ذوالنورين بشكل متقابل. كانا مرتبكين.. فجأة عانقته بشكل سريع، وشـكرته.. وقالت إنها سـتتصل به؛ فابتسـم وقال لها إنه ربما سـيزورها قريباً.. أخذت الحقيبة من يده وتوجهت إلى البوابة.. بينما اختفى آدم الشامي كالبرق؛ فهو يعرف بأنه غير مسموح له التواجد في هذه الصالة..

في تلك اللحظة انتبهت إلى امرأة مرت بجوارها وأشـارت إليها بأن تلتفت للجهة الأخرى. لم تفهم حواء ذوالنورين..إلا أنها التفتت إلى الإتجاه الذي اشارت إليه المرأة المسافرة؛ فرأت إيفا سميث ومعها فتاة جميلة أخرى إلى جانبها تقفان في مكان يفصل حاجز زجاجي عن المكان الذي هي فيه. كانت إيفا سـميث تشـير إليها بيدها، وتبدي حـركات وكأنهـا تسـألها، لكـن وضـع حـواء ذوالنورين لم يكن كافياً للشـرح المفصل؛ فأشارت لها رافعة يدها التي تمسك بالجواز.. ثم أشارت لها بأنها ستتصل بها.. وبعثتا بالقبل الهوائية لبعضهما.. واختفت حواء ذوالنورين بعد أن مرت من أمام طاقم الطائرة الـذي يفتـش البطاقـات والجـوازات.. وانحـدرت فـي الخرطـوم الذي يقـود إلى داخل الطائـرة.. بينمـا ظلـت إيفـا سـميث واقفـة تنظر عبر الحاجز الزجاجي فـي الصالة الثانية إلى حواء وهي تختفي عن الأنظار. كانت نظرات إيفا سميث مليئة برقة قاسية.

18

شجـرة الخيـر والـشر

كان آدم الشامي في الطريق راجعا من المطار في سيارته المرسيدس السوداء حينما رن هاتفه النقال. كان مزاجه رائقاً، ومشاعر طيبة نحو العالم والأشياء تتقمصه. لقد كانت حـركات حـواء ذوالنوريـن فـي اللحظات الأخيرة تعبر عن حنان وحب وحاجة مخلصة للحماية تغري رجولةً فيه طالما افتقدها في علاقاته العائلية وفي علاقاته مع أتباعه من موظفي وموظفات الفنادق التابعة له.

نظر إلى شاشة الهاتف فخفق قلبه، وارتبك. وأخذ جهة اليمين من السير بسرعة، ثم توقـف خـارج الطريـق العـام قليـلاً. كان الهاتف لايزال يرن مما بث الهلع في قلبه، فهو يعرف الكود الذي ظهر له على الشاشة، أنه واحد من أعلى المراتب الأمنية والإستخبارية في البلاد، وهو الكود الذي يتم الإتصال به في الأمور الطارئة وبدرجة الخطر القصوى. برقت في ذهنه خاطرة، أنهم ربما عرفوا بتهريبه لحواء ذوالنورين بجواز روسي مزور، لكنـه أجـاب علـى نفسـه بسـرعة، بـأن هذا غيـر ممكن، إذ لم تبدر أية علامة للشـك أو الإعتراض أو حتى السؤال عند أي من موظفي المطار، لاسيما وأن بعضهم من معارفه.

أخذ جهاز الهاتف، وقال بارتباك ولهفة:

– نعم سيدي..

جاء الصوت من الطرف الآخر طالباً منه أن يتوجه مباشرة إلى المكان المتفق عليه. ولم يكن عليه سوى أن يجيب:

– حاضر سيدي.. دقائق وأكون بين يدي حضرتكم..

إزداد ارتباكه بعد هذه المكالمة، إذ بدا له بأن صوت تلك الشخصية كان فيه نبرة عدم رضى وشيء من العصبية والنفور. فكر مع نفسه، لو أن الأمر يخص حواء ذوالنورين؛ لما اتصلت هذه الشخصية بنفسها، وإنما ربما اتصل مسؤوله الشخصي مباشرة، لكن أن

تتصل هذه الشخصية به يعني أن الأمر أكبر بكثير من قضية حواء ذوالنورين. أحس بحيرة وعدم ارتياح. لكنه توجه إلى المكان وفي أعماقه شعور من يتوجه إلى وكر للذئاب!

وصل المكان. كان مكاناً سرياً. فيلا على أطراف المدينة. متفق عليها للتواصل واللقاءات المهمة. على الأقل هذه إحدى النقاط المتفق معه عليها، فهو يعرف بوجود عشرات غيرها، لكنه رسميا مرتبط بهذه الفيلا.

كان أمام الفيلا ثلاث سيارات مرسيدس، ذات أرقام حكومية. وكان رجلان بملابس مدنية يقفان عند باب الفيلا. مر من أمامهما دون أن يقولا أي شيء، وكأنهما صنمان. دخل الفيلا فلم يجد أحداً في الردهة، لكنه لمح القاعة الجانبية مفتوحة الباب. فجأة، خرج موظف قال له، دون أن يلقي التحية عليه، بأن يتبعه.

أحس آدم الشامي بنبض قلبه يتسارع، وثمة عرق بارد تجمع على جبيه. مشى خلف الرجل الذي توجه إلى طابق أعلى. فتح الرجل باباً ووقف جانباً ليمر آدم الشامي داخلاً.

آدم الشامي وجد نفسه داخل صالة ليست واسعة جداً، ورأى نفسه في مواجهة تلك الشخصية التي لم يلتقها سوى مرة واحدة، وفي مناسبة حزبية، حينما أخذه مسؤوله المباشر؛ ليقدمه إليه مبتسماً وقائلاً، مشيرا إليه، بأنه الوحيد الذي سيوفر لهم تلك السهرة التي يبدو أنهما تحدثا عنها واتفقا بينهما على إقامتها، وفهم هو حينها الإشارة إلى النساء. وفعلا أرسل إليهم في الموعد الذي تم الإتفاق عليه في ما بعد أجمل الفتيات والنساء الأجنبيات والعربيات. لكن السكون المهيمن على هذه الصالة الآن أربكه. دون إرادة منه أدى هو التحية الخاصة برجال المخابرات.

خلال ثوان استوعب آدم الشامي المكان ومن فيه، فإلى جانب هذا المسؤول الكبير الذي يجلس على كرسي عال من الجلد الفاخر وراء طاولة من الخشب الصندل، انتبه إلى وجود الشخص المسؤول عنه مباشرة أيضا، وهو يجلس على صوفا جانبية إلى جانب شخص آخر يعرفه، لكن ليست له أية علاقة به. نظروا إليه بتفحص وصمت. كانت لحظات ثقيلة جداً. أحس بأنه أعزل، ووحيد، وضعيف جداً. وأحس برغبة عارمة في الوضوح، ومعرفة كل شيء مهما كان قاسيا وعنيفا.

فجأة قال له المسؤول الكبير بصوت هادئ، لكنه يخبئ خلفه مكائد خطيرة:

- هل تعرف أين زوجتك وابنتك الآن..؟

أحس آدم الشامي برجفة تسري في جسده، وبرودة تربكه وتجمّد عضلاته، فقال

بصوت مرتعش:

- إنهما في البيت سيدي..
- هل أنت متأكد..؟

صمت هو للحظات، فهو متأكد من أنه غير متأكد، وهو يعرف بأنه يسأله؛ لأنه يعرف أين هما الآن، وإلّا ما سبب هذا السؤال. فقال بارتباك:

- يفترض أن تكونا في البيت سيدي..
- وابنك.. قابيل..؟

أحس وكأن قلبه يهبط من مكانه إلى أغوار عميقة، وأحس بالرعب، فقال بنبرة مرتبكة ومرعوبة:

- ما به سيدي..؟ هو في البيت أيضاً..

نظر الرجل المسؤول إليه بهدوء. كان الآخران ينظران إليه أيضاً، لكنهما لا يتدخلان وإنما يتابعان الحوار. ارتسمت على وجه الرجل المسؤول علامات التفكير، ثم مد يده إلى مغلف أمامه، وفتحه وأخرج بعض الصور منه، ورماها أمامه، وهو يقول:

- المعلومات التي لدينا.. أن زوجتك تدير بيتاً للدعارة.. ليس البيت الذي نعرفه، والذي قد اتفقنا معها ومع ابنتك على إدارته، وإنما هي فتحت بيتا من وراء ظهورنا، بيتا خاصاً بالعاهرات العراقيات ومن شمال أفريقيا.. وتلقب بالمعلمة (أم قابيل).. كما أنها لا تخفي بأن زوجها المسؤول عن معظم فنادق دمشق والشام.. وهذا غير مقبول.

كانت المعلومات صادمة له، فهو لا يعرف بأن زوجته وابنته تعملان مع الأجهزة الأمنية والمخابرات أصلاً، وأنهما فوق هذا كله تديران بيتا للدعارة لصالح هذه الأجهزة، بل وإن زوجته تمادت في الأمر بحيث فتحت بيتا للدعارة خاصاً بها.. لكن ماذا عن ابنه قابيل..؟ لماذا يسألان عنه..؟ لم يجرؤ أن يسأل عنه..إلا أن المسؤول انتبه لحيرته، ولملامح السؤال المكبوت على وجهه، فقال له:

- ابنك قابيل.. هل تعرف عنه شيئاً..؟
- ماذا به سيدي..؟ هل عمل شيئاً مسيئاً لا سمح الله..؟

نظر الجميع إليه.. التفت المسؤول الكبير إلى الشخص الآخر الذي ليست لآدم الشامي به علاقة خاصة، وقال له:

- أخبره عن ابنه..

التفت الرجل الآخر نحو آدم الشامي وقال له بهدوء:

- ابنك قابيل.. مدمن مخدرات.. وقد ألقي القبض عليه وبحوزته كمية من المخدرات التي تصل عن طريق تركيا.. وأحيانا عن طريق الزائرين الإيرانيين.. وهو على علاقة بمجموعة تتاجر بالمخدرات.. وقد هرب بعض أعضاء هذه المجموعة إلى بيروت.. لكن ابنك ليس من تجار المخدرات فحسب، بل هو مدمن..

دون إرادة منه مد آدم الشامي كفه إلى جبينه؛ ليمسح العرق البارد الذي صار على شكل قطرات بدأت تنزل إلى جانبي خده. وقال بصوت فيه توسل واضح:

- سيدي... الله يخليك.. هو شاب طائش.. ربما خدعه بعض أصدقائه.. قابيل شاب ممتاز.. لكن.. ماذا أقول..؟ أنا مشغول طول الوقت.. وكما تعرفون.. لم أقصر في عملي.. ودائما كنت في خدمة الحزب والثورة..

فقال له المسؤول المباشر له، بعد أن نظر إلى المسؤول الكبير الذي اشار له بالموافقة على أن يقول له التالي:

- هذا ليس كل شيء يا آدم.. نحن نعرف إخلاصك.. ولا نشك في ذلك أبداً.. وحتى مسألة زوجتك وابنتك بسيطة.. يمكننا حلها بسهولة.. بل حتى مشكلة قابيل ابنك أعتبرها محلولة..إذ يمكننا أن نستفيد منه أكثر في هذا المجال.. لكن مشكلتنا مع ابنك الآخر.. الأصغر..

ارتعب آدم الشامي، وصدم، وقال دون إرادة منه:

- من..؟ هابيل..؟
- نعم هابيل..
- ماذا به سيدي..؟ إنه مسافر خارج البلد..
- وهل تعرف إلى أين سافر..؟
- إلى فرنسا..

قال آدم الشامي وفي صوته نبرة شك، فلم يعد يثق بأي شيء من معلوماته التي كان واثقاً منها؛ فاستمر مسؤوله المباشر بأسئلته:

- ومتى تراسلت معه..؟ أو تهاتفت معه آخر مرة..؟

أطرق آدم الشامي إلى الأرض وكأنه يحاول أن يستذكر، ورفع رأسه مرتبكا، إذ لم يعد قادراً على إخفاء الأمور فيبدو أنهم يعرفون أكثر مما هو يعرف بالتأكيد.

- ابني هابيل قطع علاقته بنا منذ أكثر من سنة.. هو لا يحب توجهاتنا.. وقد غيّرَ عنوانه ورقم هاتفه.. وانقطع عنا..

فقال له المسؤول الكبير بحزم:

- ابنك هابيل سافر من باريس إلى بلجيكا ومنها إلى أفغانستان..إلى تورا بورا.. لكنه عاد مع مجموعة من الأفغان العرب.. هو موجود الآن في سوريا.. ويعدون لعمليات ارهابية..

أهتز كيان آدم الشامي بكامله وارتج قليلا وكاد يسقط، لولا أنه تماسك. لاحظ الآخرون أثر صدمة المعلومات عليه. فاستمر المسؤول الكبير قائلاً:

- نحن نعرف مدى إخلاصك للقيادة الحكيمة.. وللحزب والثورة؛ ذلك نحن على ثقة بأن أية معلومات ستصلك.. أو أي إتصال بك من قبله.. ستبلغنا به.. مفهوم..
- مفهوم سيدي..
- الآن يمكنك الإنصراف..

أدى التحية بشكل آلي، وقبل أن يستدير ليخرج قال له المسؤول الكبير:

- في ما يخص زوجتك وابنتك.. وابنك.. لا تقلق.. المهم ابنك الأفغاني..

لم يقل هو شيئا. أدى التحية.. وانصرف محطما من الداخل.

حين خرج من الصالة وجد نفسه في ممر لم ينتبه له حينما دخل صاعداً السلم مع المرافق. لكنه انتبه الآن إلى وجود غرفة مفتوحة الباب قليلاً، معتمة، يضيئها مصباح موضوع في زاوية ما، يمكن لمن يمر من أمامها أن يرى ما في داخلها مما تتيحه فتحة الباب. التفتَ لا إراديا وأحس وكأن صدمة شلته. كان الرجل الأشقر الوسيم جالساً على الكرسي كالصنم وأمامه طاولة كبيرة. بعض الضوء كان ينير جانبا من وجهه، بينما كانت عيناه تشعان بلون برتقالي في عتمة الغرفة. صحا إلى نفسه، فلم يجد أحداً.. أخذ يهبط الدرج مسرعاً.

* * *

حين جلس في سيارته أحس بأن هذا اللقاء كان نقطة فاصلة في حياته. اكتشف أنه لا

يعرف شيئا عن عائلته.. وسأل نفسه غاضباً:كيف يضعونه في مثل هذا الموقف..؟كيف لزوجته أن تخفي عنه أنها تتعامل مع الأجهزة الأمنية..؟ فجأة، خطرت في ذهنه فكرة مرعبة: أمن المعقول أنهما كانتا تتجسسان عليه..؟ لكنه مخلص للحزب، ولا يجد ما يشكو منه أبداً.. ثم ما قصة ابنه قابيل..؟ كيف لم ينتبه له؟ الذنب ذنبه.. هو لا يذهب إلى البيت إلّا نادراً.. يمر أحيانا نهاراً فتكون زوجته وابنته نائمتين.. وابنه غير موجود.. وأحيانا يلتقيهما على الغذاء.. بل إن علاقته الجنسية مع زوجته شبه مقطوعة.. يحدث ربما مرة كل شهرين أو ثلاثة.. يمارسان الجنس كأنما كل منهما يحاول أن يبقي خيطا واهيا للعلاقة الزوجية.. لكن أن تدير بيتا للدعارة.. يعني أنها قوادة..؟ وقد أشركت ابنته معها.. هذا يعني أن ابنته ربما تمارس الدعارة أيضا..؟ المسؤول الكبير كانت أمامه صور حينما أخذ يحدثه عن زوجته وابنته.. هل هناك صور خليعة لهما..؟ لكن كل الأمور في كفّة.. وقضية ابنه هابيل في كفّة أخرى.. هذا الفتى الرقيق.. كيف تحول إلى وحش..؟ كيف رحل إلى تورا بورا..؟ بل هو الآن في الشام.. يا إلهي..؟ سيقتلونه.. نعم سيقتلونه.. لديهم معلومات كافية عنه.. لكن أين سيجده لينقذه من مصيره المرعب..؟

ما أن قاد سيارته، وصار على الطريق العام المتجه إلى المدينة.. وإلى الفندق.. حتى رن هاتفه النقال مرة أخرى.. نظر إلى شاشة الهاتف فرأى اسم مسؤول الأمن في الفندق.. أخذ الهاتف وقال بنبرة يائسة:

- ماذا هناك..؟.. ماذا...؟ سأكون خلال دقائق..

الخبر الذي نقله إليه مسؤول الأمن في الفندق أخرجه من حالته التي كان فيها بعد خروجه من الفيلا. أحس أنه عاد لنفسه.. ولدوره المهم كمسؤول أمني كبير برتبة عالية لعدد من الفنادق.. لقد أخبره مسؤول فندق الشام التابع له بأنهم حاصروا الرجل الأشقر الوسيم الذي أخبرهم عنه.

وصل الفندق، لكنه لم يركن سيارته في الكراج تحت الأرضي، وإنما وقف أمام بوابة الفندق. أعطى أحد الحراس مفاتيح السيارة ليقودها إلى الطابق الأسفل. أسرع إلى داخل الفندق متجها نحو مكتبه. رأى مسؤول الأمن ينتظره مرعوباً. كان هذا يقف، وحوله بعض الموظفين من رجال الأمن في الفندق، عند مكتب الإستعلامات.. استقبله مسؤول الأمن قائلا وكأنه يسره شيئا لا يجب أن يسمعه أحد:

- سيدي.. لدينا مشكلة..

- مشكلة..؟
- نعم.. مشكلة.. فقد ألقينا القبض على الرجل الأشقر الوسيم..
- أين المشكلة إذن..؟
- لأنه ليس رجلاً واحداً.. وإنما مجموعة من الرجال.. لكنه هو نفسه!
- لم أفهم..؟
- المرة الأولى إتصل بي رجل الأمن في الطابق الخامس، أخبرني بأنهم شاهدوه في طابقهم. قلت لهم اعتقلوه، وجيئوا به إلى مكتب الأستاذ آدم.. وفعلا قاموا بما أمرتهم.. رافقهم هو بدون مشاكل تُذكر وكأنه كان يتوقع ذلك.. لكني تذكرت أنك لست موجوداً.. وليس لدينا مفتاح المكتب.. فأخذته إلى مكتبي.. حجزته في المكتب وأغلقت عليه الباب بالمفتاح لحين وصولك.. لكن بعد ذلك بقليل إتصل بي رجال الأمن في الطابق الرابع.. أخبروني بأنهم شاهدوه في طابقهم أيضاً.. استغربت. لم أخبرهم بأننا قد اعتقلناه كي لا أبث الهلع في نفوسهم.. عدت إلى مكتبي مسرعاً.. فتحت الباب فشاهدته جالساً بهدوء واسترخاء.. حين رآني ابتسم.. أغلقت الباب وأنا غير مصدق ما يجري.. أمرت رجال الأمن في الطابق الرابع بأني سأمر عليهم.. انتظروني.. وفعلاً رأيته.. هو نفسه.. لم أصدق عيني.. طبعاً لم أخبرهم عن وجود شخص آخر مثله أعتقل في الطابق الخامس، وهو في مكتبي أيضا.. أمرتهم أن يأتوا به إلى مكتبي.. وعند الباب أمرتهم أن يذهبوا.. لم أدعهم يدخلون المكتب.. حينما انصرفوا دفعته إلى داخل المكتب وأغلقت الباب بالمفتاح... وقبل أن اتصل بحضرتك.. جاء الإتصال من الطابق الثالث.. ليخبروني بأنهم أعتقلوا الرجل الأشقر الوسيم.. وبعد دقائق اتصلوا من الطابق الثاني، ثم الأول.. وهكذا.. لدينا الآن خمسة أشخاص.. هم الشخص نفسه.. الرجل الأشقر الوسيم.. وبنفس المواصفات والشكل وحتى الملابس.. كأنهم نسخ مكررة. أي منهم هو الرجل الأشقر الوسيم الحقيقي، المطلوب من قبل حضرتك.. وأيهم المستنسخ.. هذا ما لا أعرفه.. وكيف تم كل هذا الإستنساخ..؟ أكاد أجن!

استغرب آدم الشامي الحكاية لكنه استقبلها وكأنها ممكنة الحدوث ومتوقعة، فهو يعرف أنه يتعامل مع إبليس. لكنه وجد أن الوضع لا يحتمل أن يكشف عن كل ما

يعرفه، وأنه يجب عليه أن يتخذ موقفاً، فسأل:

- أين هو.. أو هم.. الآن..؟
- في مكتبك..
- لنذهب إليهم إذن..؟

سارا معا إلى مكتب مسؤول أمن الفندق الذي هو مرتبط بآدم الشامي مباشرة. فتح الرجل الآخر الباب ليسمح لآدم الشامي بالدخول.

دخل آدم الشامي يتبعه مسؤول الأمن. أصيبا كلاهما بالدهشة، بل إن مسؤول الأمن أصيب برعب شديد وشحب وجهه، إذ لم يكن هناك أي شخص داخل المكتب!

* * *

مرت سيارة سريعة، جاورته، وأطلقت صوتا متواصلاً من زمورها للتنبيه. انتبه آدم الشامي لنفسه. مرت السيارة مسرعة لتتجنب الإصطدام به. كاد يتسبب في حادثة سير مروعة. خفف السرعة. توجه إلى جانب الطريق. شيئاً فشيئاً أوقف سيارته. ما الذي يجري معه..؟ إذن لم يتصل به مسؤول الأمن في الفندق..؟ لقد توهم كل هذا..؟ أترى أن مقابلته للمسؤول الكبير كانت وهما أيضاً..؟ لا.. لا.. وإلا ما الذي جاء به إلى هذه الزاوية من دمشق..؟ بعد دقائق من الصمت المطبق تحرك بسيارته وهو أكثر انتباهاً للطريق وأكثر خوفاً وتوجساً مما سيأتي.

خطرت بباله أن يذهب إلى بيته، أن يواجه زوجته وابنته، لكنه شعر بالخوف منهما، فربما علاقتهما بالمسؤولين أكبر وأوثق من علاقته، وبالتالي ربما إذا ما استاءتا منه أن تؤثرا على وضعه.. لكن هل أعليه أن يصمت عما يجري لعائلته..؟ ألا يحدثهما على الأقل عن ابنهما الذي أدمن المخدرات وصار تاجرا لها..؟ ألا يحدثهما عن هابيل الذي زار أفغانستان وجاء ليقوم بعمليات إرهابية..؟ أليس من المحتمل أنهما تعرفان كل ذلك أيضاً..؟. وبدون أن يقوم بتحقيق ما خطر بباله وجد نفسه يقود سيارته باتجاه الفندق.

وصل الفندق، لكنه لم يركن سيارته في الكراج تحت الأرضي، وإنما وقف أمام بوابة الفندق. أعطى أحد الحراس مفاتيح السيارة ليقودها إلى الطابق الأسفل. أسرع إلى داخل الفندق متجها نحو مكتبه. رأى مسؤول الأمن ينتظره مرعوباً. كان هذا يقف، وحوله بعض الموظفين من رجال الأمن في الفندق، عند مكتب الإستعلامات.. استقبله مسؤول الأمن قائلا وكأنه يسره شيئا لا يجب أن يسمعه أحد:

- سيدي.. لدينا مشكلة..
- مشكلة..؟
- نعم.. مشكلة.. فقد ألقينا القبض على الرجل الأشقر الوسيم..
- أين المشكلة إذن..؟
- لأنه ليس رجلاً واحداً.. وإنما مجموعة من الرجال.. لكنه هو نفسه..
- لم أفهم..؟
- المرة الأولى إتصل بي رجل الأمن في الطابق الخامس، أخبرني بأنهم شاهدوه في طابقهم. قلت لهم اعتقلوه، وجيئوا به إلى مكتب الأستاذ آدم.. وفعلا قاموا بما أمرتهم.. رافقهم هو بدون مشاكل تُذكر وكأنه كان يتوقع ذلك.. لكني تذكرت أنك لست موجوداً.. وليس لدينا مفتاح المكتب.. فأخذته إلى مكتبي.. حجزته في المكتب وأغلقت عليه الباب بالمفتاح لحين وصولك.. لكن بعد ذلك بقليل إتصل بي رجال الأمن في الطابق الرابع.. أخبروني بأنهم شاهدوه في طابقهم أيضاً.. استغربت. لم أخبرهم بأننا قد اعتقلناه كي لا أبث الهلع في نفوسهم.. عدت إلى مكتبي مسرعاً.. فتحت الباب فشاهدته جالساً بهدوء واسترخاء.. حين رآني ابتسم.. أغلقت الباب وأنا غير مصدق ما يجري.. أمرت رجال الأمن في الطابق الرابع بأني سأمر عليهم.. انتظروني.. وفعلاً رأيته.. هو نفسه.. لم أصدق عيني.. طبعاً لم أخبرهم عن وجود شخص آخر مثله أعتقل في الطابق الخامس، وهو في مكتبي أيضا.. أمرتهم أن يأتوا به إلية مكتبي.. وعند الباب أمرتهم أن يذهبوا.. لم أدعهم يدخلون المكتب.. حينما انصرفوا دفعته إلى داخل المكتب وأغلقت الباب بالمفتاح... وقبل أن اتصل بحضرتك.. جاء الإتصال من الطابق الثالث.. ليخبروني بأنهم أعتقلوا الرجل الأشقر الوسيم.. وبعد دقائق اتصلوا من الطابق الثاني، ثم الأول.. وهكذا.. لدينا الآن خمسة أشخاص.. هم الشخص نفسه.. الرجل الأشقر الوسيم.. وبنفس المواصفات والشكل وحتى الملابس.. وكأنهم نسخ مكررة. أي منهم هو الرجل الأشقر الوسيم الحقيقي، المطلوب من قبل حضرتك.. وأيهم المستنسخ.. هذا ما لا أعرفه.. وكيف تم كل هذا الإستنساخ..؟ أكاد أجن..

استغرب آدم الشامي، فقد مر هذا المشهد أمام عينيه قبل قليل، بل وسمع هذا

الحديث حرفاً حرفاً.. لكنه وجد أيضاً، كالمرة السابقة حينما جرى كل ذلك كرؤيا، من أن الوضع لا يحتمل أن يكشف عن كل ما يعرفه، وأنه يجب عليه أن يتخذ موقفاً، فسأل:

- أين هو.. أو هم.. الآن..؟
- في مكتبك..
- لنذهب إليهم إذن..؟

سارا معا إلى مكتب مسؤول أمن الفندق الذي هو مرتبط بآدم الشامي. فتح الرجل الآخر الباب ليسمح لآدم الشامي بالدخول.

دخل آدم الشامي يتبعه مسؤول الأمن. أصيبا بالدهشة، بل إن مسؤول الأمن أصيب برعب شديد وشحب وجهه، إذ لم يكن هناك أي شخص داخل المكتب.

التفت آدم الشامي إلى مسؤول الأمن، فلم يجده. كان وحده في مكتبه. فكر للحظة مع نفسه عما يجري معه، وسأل نفسه: ربما هذه اللحظة الآنية التي هو فيها ليست سوى وهم، وغير واقعية، ولم تحصل إلّا في خياله ورؤاه..؟ وأنه ربما لايزال في سيارته، أو أنه في مكان ما غير هذا..؟ وليتأكد مما يجري معه.. اقترب من الطاولة وأخذ دبوساً وغرزه في إصبعه، فصرخ من الألم. إذن..إن ما يجري معه واقعي ومحسوس..؟ هكذا قال لنفسه، لكنه سرعان ما شكك بهذا اليقين، إذ قال لنفسه أننا نتألم في الأحلام والكوابيس أيضاً.

لم يعرف ماذا يفعل. فجأة غادر المكتب دون أن يقفل الباب. توجه إلى جناحه. وحينما اقترب من مكتب الإستعلامات رأى مسؤول الأمن يتحدث مع الموظفة الخفيرة مازحاً. حين وصل قرب المكتب ابتسم له مسؤول الأمن سائلا بنبرة فيها تملق واضح:

- إن شاء الله صرت أفضل سيدي..؟
- وماذا كان بي حتى صرت أفضل..؟ أنا كما أنا.. لكن أنت.. لماذا اختفيت..؟!

نظر مسؤول الأمن إليه باستغراب، وبدا عدم الفهم واضحا على ملامحه، فقال:

- سيدي.. أنا أسأل عن وضعك الصحي.. ألم تأخذ اليوم إجازة بسبب وضعك الصحي..؟ ثم أنا هنا موجود ولم أغادر الفندق منذ يومين.. فأين أختفي..؟

نظر آدم الشامي إليه بتمعن، ثم قال بتساؤل لكن دون أن يثير استغرابه، وكأنه يريد أن يستمد منه معلومات أخرى:

- ألم تكن قبل قليل قرب المكتب..؟ ظننتني شاهدتك هناك..

- أبداً سيدي.. أنا هنا منذ أكثر من ساعة.. ربما كان أحد موظفينا هناك.. فهم يجولون في كل أرجاء الفندق باحثين عن الرجل الأشقر الوسيم.. دون جدوى.. يرونه في المطعم الصيني.. ثم يختفي.. فيرونه ثانية في المطعم الإيطالي.. ويختفي ثانية.. يرونه في الردهة.. وفي الطوابق.. لكنه خطير فعلا..إذ لم يستطع أحد من موظفينا أن يمسك به.. أو حتى أن يقترب منه.. يشاهدونه من بعيد.. لكنه يختفي.. وفتشنا بدقة في سجلات الفندق، وأسماء نزلاء جميع الغرف، وطابقناها مع النسخ المصورة من جوازات سفرهم وبطاقاتهم الشخصية، فلم نعثر له على إسم ولا على أي حجز.. ولا أية صورة.. ولا نعرف كيف دخل الفندق.. وفي أية غرفة يستقر..؟

لم يأبه آدم الشامي لكل المعلومات التي أدلى بها مسؤول الأمن، لأنه يعرف من هو الرجل الأشقر الوسيم، إلا أنه انتبه لما قاله مسؤول الأمن من أنه لم يكن معه حينما توجها إلى المكتب، ولم يتصل به، ولم يحدثه عن اعتتقال خمس نسخ متطابقة من الرجل الشقر الوسيم.. فأحس بخوف داخلي.. فمضى دون أن يعلق على كلام مسؤول الأمن إلّا بجملة عامة، حين قال:

- سأتصل بالجهات العليا.. وسنرى
- أمرك سيدي..

تجاوز آدم الشامي مكتب الاستقبال متجها إلى الممر المقابل الذي يقع جناحه في طابقه الثاني فلمح من بعيد الرجل الأشقر الوسيم عند تقاطع الممر. كان يقف وحده وكأنه ينتظر آدم الشامي. حين اقترب هو من المصعد اختفى الآخر. لم يولِه آدم الشامي إهتماماً، إذ كان في حالة من التشوش واللامبالاة، وغارقاً في أعماقه. كل الأشياء تحولت إلى ألغاز. لم يعد متيقناً من أي شيء حتى من نفسه، فهو غير متيقن من أنه الآن في حلم أو واقع.

وصل إلى أمام المصعد. فُتح بابه فدخل. وحين صار في الطابق الثاني، وفي الممر الذي فيه جناحه. أحس أن الممر طويل على غير عادته.، كما أحس برغبة قوية في النوم. قرر مع نفسه بأنه سيذهب إلى السرير مباشرة.

حين فتح الباب انتبه إلى أن الجناح مضاء. وحينما صار في الصالون وجد الرجل الأشقر الوسيم جالساً هناك على الصوفا كأنه ينتظره. فوجئ آدم الشامي بوجود هذا

الكائن في غرفته الآن. أحس كأنه عاجز عن الإنتصار عليه، وأنه أخفق في صراعه معه. فقال له مستفسراً، وبصوت في نبرة من العصبية:

- هـل تسـتطيع أيهـا السـيد إبليـس.. أن توضـح لـي مـا تريـد..؟ أن توضح لي ما يجري..؟

نظر إبليس الجالس أمامه وعلى وجهه علامات تعب ويأس ممزوجة بشفقة كبيرة، وقال:

- ليس من السهل أن تكون واضحاً دائماً يا آدم.. ليس دائماً.. هذا شيء صعب..

كان إبليـس يحـس فـي تلـك اللحظة بعزلـة لا يمكن اختراقها. عزلة تتميز عن عزلة البشـر، وإن كان قد اتخذ هيئة رجل أشـقر وسـيم. ولأول مرة انتبه آدم الشـامي إلى أن إبليـس شـخصية تشـع مهابـة.. وأخـذ يفكـر فيه بطريقـة جديدة، فهو صريـح، وجريء، لايعرف التملق، يبدو متحفظاً أحياناً، لكن دون تجهم مصطنع، سـريع البديهة وصافي التفكير دونما أي تفلسف أو إدعاء.. موضوعياً، ومتجرداً من أية غاية أو طموح شخصي.. لا يتذلل من أجل إثبات براءته، ولا يدعي ما لم يكن..

أخذ يفكر مع نفسه بأن إبليس ليس قبيحاً وبشعاً كما يتم تصويره دائماً.. على الرغم مـن أن هيئتـه هـذه هـي ليسـت هيئته.. لكنه في كل الأحـوال يفترض أن يكون جميلاً.. أليس هو ملاكاً..؟. إن البشـر قد أخطأوا في فهمه.. لكن أليس هذا الشـعور بالتعاطف الذي ينتابه هو غواية من غواياته التي لا حصر لها..؟ هكذا سأل آدم الشامي نفسه وهو يتأمـل الكائـن الجالـس أمامـه... لكـن ما معنى قوله: ليس من السـهل أن تكون واضحاً دائماً..؟ سأل نفسه ثانية.

انتبه إلى أن إبليس يتململ في جلسته وكأنه يتأهب للخروج. أحس أنه كائن أعزل ووحيد، ونظراته تكشـف عن حزن وتيه عميق. وفعلاً. نهض إبليس. سـأله آدم الشـامي وكأنه يخشى خروجه:

- إلى أين..؟

أجاب إبليس بنبرة مليئة باليأس:

- لا أعرف.. جئت من اللامكان وأتجه إلى اللامكان..

قال آدم الشامي بنبرة فيها رجاء:

- لكن أريد أن توضح لي ما يجري..

نظر إبليس إليه نظرة فاحصة مثلما ينظر المعلم إلى طفل مشاكس يتظاهر بالتأدب، وقال:

- ألم أقل لك يا آدم أنه ليس من السهل أن تكون واضحاً..؟ هذا شيء صعب.. لاسيما بالنسبة إليكم أنتم البشر..
- لماذا..؟

سأل آدم الشامي بنبرة فيها أحباط واضح. نظر إبليس إليه بتركيز وواصل:

- لأنكم لا تقبلون الوضوح.. الوضوح بالنسبة لكم كفر.. وهرطقة.. وغواية أُتهم أنا بدفعكم إليها..
- لا أفهم..؟

نظر إبليس إليه نظرة متفحصة، وقال وكأنه يلقى آخر ما لديه من حجج أمام آدم:

- سأذكرك بما جاء في الكتب المقدسة للأديان التي يؤمن بها الملايين من البشر.. ألم يأت في كتاب المسلمين المقدس ما يلي: „وإذ قال ربُكَ للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرض خليفةً، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ونحن نسبحُ بحمدكَ ونقدسُ لكَ قال إني أعلمُ ما لا تعلمون"

نظر آدم إليه بحيرة واستغرب من أن إبليس يحفظ آيات من القرآن الكريم، بينما يقول رجال الدين بأنه يحترق عند سماع القرآن.. وسأل بتردد:

- ثم ماذا..؟ ماذا تريد أن تقول..؟
- أريد أن أقول بأن الله أراد من البداية أن يجعل من آدم خليفة في الأرض.. أي قبل أن يخلقه.. وحتى لو أفترضنا أن ذلك الحوار مع الملائكة جرى بعد خلقه فهذا يؤكد القصد أكثر.. فحينما أعترضت الملائكة قال لهم إنه يعلم ما لايعلمون.. أي أن إرسال آدم إلى الأرض لم يكن بسبب الخطيئة.. وإنما أراد الرب له ذلك قبل خلقه.. وقصة خطيئة آدم هي ذريعة.. ومن ثمّ فإن قصة طرده تتناقض مع مشهد حوار الله مع الملائكة حول إرسال آدم إلى الأرض كخليفة له.. أي أن وجود آدم على الأرض ليس بسبب طرده من الفردوس.. ثم ما علاقتي أنا بقصة الخطيئة.. وغواية آدم..؟!

نظر آدم الشامي إليه بقلق وحيرة، فاستمر إبليس في حديثه:

- وكذا في كتب الديانات الأخرى.. ألمْ يأت في الجملة الأولى من سفر التكوين،

في الإصحاح الأول قصة خلق الكون، لدى اليهود والمسيحيين التالي: „ في البدءِ خلق اللهُ السماوات والأرض. وكانت الأرضُ خربةً وخاليةً وعلى الغمر ظلمةٌ وروحُ اللهِ يرفُّ على وجه المياه..“ ثم جاء في الإصحاح الثاني من السفر نفسه ما يلي: „وجبل الربُ الإلهُ آدمَ تُراباً من الأرضِ. ونفخ في أنفهَ نسمة حياةٍ. فصار آدم نفساً حيةً. وغرس الربُ الإلهُ جنةً في عدن شرقاً................ وأخذ الربُ الإلـه آدم ووضعـه فـي جنـة عدنٍ ليعملها ويحفظهـا. وأوصى الربُ الإلهُ آدمَ قائلاً من جميع شجر الجنةِ تأكُلُ أكلاً. وأما شجرةُ معرفة الخيرِ والشرِ فلا تأكل منها"..

إزداد آدم الشامي حيرة، وتاه في مرامي إبليس، فسأله:

- وماذا في هذا أيضاً..؟
- ألم تدرك بأن الرب الإله خلق السماوات والأرض قبل خلق آدم..؟ أي أنه أعدَّ له المكان مسبقاً.. بل إنه نهاه عن الإقتراب من شجرة معرفة الخير والشر.. أي أن الشر موجود قبل أن أدخل أنا في هذه القصة أصلاً.. فما علاقتي أنا بالشر..؟! ولماذا جعلمتوني رمزاً له..؟ ثم دعني أسألك.. هل هناك من قتل وذبح وفجر نفسه باسمي..؟ كل تاريخ الحروب البشرية.. وكل الجرائم.. والقتل والذبح البشع يتم باسم الله؛ فما علاقتي أنا بكل هذا؟! أنتم البشر أشرار.. قساة.. وجودي ربما يذكركم بالخير.. وبالطيبة.. يوقظ فيكم إرادة الخير.. أي أن وجودي هو الذي يدفعكم إلى فعل الخير؛ فالبشر يفعلون الخير خوفاً من الجحيم وليس طمعاً بالجنة!

ارتسمت علامات الأسى والوحشة على وجه إبليس، وغاص في تأملاته الداخلية. فجأة نظر إلى آدم الشامي نظرة حزينة وكأنه يريد أن يقول له شيئاً آخر، لكنه لم يفعل. إتجه نحو باب الخروج. وقف هناك للحظات. التفت إلى آدم الشامي ونظر إليه نظرة مليئة بالشفقة، ثم فتح الباب وخرج.

ظل آدم الشامي متسمّراً في مكانه للحظات، مذهولاً، مشوشاً بما قاله له إبليس.. فجأة تحرك نحو باب الخروج ليناديه.. فتح الباب.. نظر في الممر.. كان الممر خالياً.. رجع إلى الصالة وتوجه إلى الشرفة فألقى نظرة على الردهة فهاله ما رأى.. كان هناك أشخاص عديدون مستنسخون من إبليس يخرجون من بوابة الفندق.. وهناك بعضهم

يجلسـون حـول الطـاولات الفارغـة فـي الردهة.. ركض إلى الجهـة الأخرى من الصالة والتـي تطـل نافذتهـا علـى الشـارع العام، فنظر عبر النافذة إلى الشـارع.. وإلى المدينة.. فرأى الشارع كله، وعلى جانبيه، يزدحم بنسخ متشابهة من إبليس.

أحـس بالرعـب.. لـم يكـن يفهم ما يجري.. التبسـت عليه الأشـياء.. أحس بالعرق البارد يرطب جبينه.. قام مسرعاً إلى غرفة الحمام.. وتوجه ليغسل وجهه.. ألقى بالماء البارد على وجهه، وحينما رفع وجهه لينظر إلى نفسـه في المرآة، رجع إلى الوراء من هـول المفاجـأة؛ فقـد نتـأ أنفـه كأنـف الخنزير، وثمة قرنـان ناتئان صغيـران على جانبي صدغيه! ارتعب.. خرج من غرفة الحمام. توجه إلى سريره. القى بنفسه على السرير... ظل يتقلب للحظات.. مختنقاً من الأسى.. وفي روحه رغبة عارمة في البكاء.. فجأة.. وجـد نفسـه يبكـي، بـل ينتحـب كأنه طفل صغير. وأحس برغبـة عظيمة في وجود حواء ذوالنورين إلى جانبه.

19

فجر مريب

أحسّت حواء ذوالنورين بقلق حينما أُعلن من قمرة قيادة الطائرة بأن على المسافرين شد الأحزمة وتعديل مقاعدهم استعداداً للهبوط في مطار فلورنسا. نظرت من نافذة الطائرة فرأت الظلام يعم الكون حولها، وثمة نقاط مضيئة تبدو مثل سماء مظلمة في القاع. بحركة لا إرادية فتشت في حقيبتها اليدوية التي حشرتها إلى جانبها في المقعد. أخذت الورقة التي فيها معلومات الحجز الذي كانت قد قامت به السيدة الروسية التي تحمل الآن هي اسمها، إيفا بتروفنا تومانوفا، وقرأت فيه اسم الفندق وعنوانه. وضعت الورقة في الصفحة التي فيها التأشيرة الإيطالية.

نظرت إلى أفق السماء من النافذة الصغيرة فلم تر سوى الظلام، الظلام الذي يحيط بكل شيء. راودها شعور مخيف بأن الكون مظلم وبارد جداً، كما بدت لها الطائرة كأنها زورق يطفو في بحر الظلام.

بدأت الطائرة بالهبوط، فأحست بحنين جارف إلى الأرض. أخذ قلبها يرتجف في صدرها مثلما يرتجف العصفور في راحة اليد. فكرت أنها لا تعرف أية كلمة باللغة الروسية، فماذا لو صادف أن شرطي الجوازات يتحدث الروسية..؟. فكرت أن لغتها الإنكليزية لا بأس بها، وتستطيع أن تتفاهم بها، وستحاول أن تتدبر أمرها.

* * *

لم تصدق حواء ذوالنورين، أو إيفا بتروفنا تومانوفا، أن تكون إجراءات التفتيش بهذه السهولة، وربما كان من حسن حظها انها توسطت امرأتين محجبتين مع زوجيهما الملتحين، فانشغل الشرطي طويلا مع المرأة وزوجها، وأخذ يسألهما بالإيطالية وهو يقلب جوازيهما، ويبدو أنهما من المقيمين في إيطاليا، إذ كان الزوج يجيبه بالإيطالية. وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخراً نسبياً، إذ كان الوقت يشير إلى الساعات الأولى

من الفجر، إلا أن شرطي الجوازات كان منتبهاً ونشيطاً، ولم يكن هو وحده، إذ كانت هنـاك كابينـة أخـرى للتفتيـش. لقـد اختارت هي الوقوف في هـذا الطابور حينما لمحت هذا الشرطي الوسيم قياساً لصاحبه البدين ذي الوجه الغاضب.

شعرت بالرهبة حين صارت أمام شباك تفتيش الجوازات. أخذ قلبها يخفق بسرعة، لكنهـا انتبهـت إلـى أنـه أخـذ يتطلع إليها برغبة واضحة، وارتسـمت على وجهه ابتسـامة غامضة؛ ففكرت بسرعة في أن تستخدم سلطة الأنوثة في هذا الموقف العصيب بالنسبة لهـا؛ فابتسـمت لـه ابتسـامة فيهـا إشـارة لإعجاب خفي واسـتلطاف واضح مـن طرفها، ونجحت؛ إذ لم يدقق الشـرطي كثيراً في جوازها، إنما ألقى نظرة سـريعة على صورتها فـي الجـواز، لكنـه تمعـن أكثـر فـي وجهها المثير وهي تقف أمامـه، وبعد لحظات قلب صفحات جواز سـفرها سـريعا متوقفاً عند الصفحة التي فيها تأشـيرة الدخول، ثم أخذ يتنقل بنظراته إلى المرأة المحجبة وزوجها الملتحي اللذين يقفان خلفها؛ فارتسمت على وجهه ملامح الإمتعاض، ولم تصدق أنه ختم على جوازها سريعاً، وهو يبتسم لها متمتماً بكلمات إيطالية فهمت منها أنها كلمات ترحيب، بينما ارتسمت الصرامة والارتياب على وجهه وهو ينظر إلى الزوجين العربيين خلفها. قالت له شكراً بالإنكليزية ومرقت سريعاً.

وبينمـا هـي تمـرق إلـى الصالـة أخذت تتأمل ختم الدخول؛ فأحسـت بموجات من الفرح تغمر نفسـها، وثمة سـلام يسـري في أعماقها، وأحسـت كأنها طوت مرحلة كاملة مـن حياتهـا؛ لتبـدأ مـن هـذه اللحظـة، التي هي فيها وهي في قاعة اسـتلام الحقائب في مطار فلورنسا، فجر حياة جديدة.

لم تنتظر حقيبتها طويلاً؛ فسرعان ما وصلت وإلتقطتها و اجتازت القاعة متجهة إلى المخرج حسب الإشارات الإيطالية والإنكليزية الصفراء.

قرب باب المطار الجانبي كانت سيارات تاكسي تقف في طابور. إتّجهت إلى أول سيارة خرجت منها سائقة امرأة، وسلمت عليها بالإيطالية:

– بونجورنو سينيورا..

فهمت حواء ذوالنورين أن المرأة السـائقة تحييّها.. فقالت لها بالإنكليزية: شـكرا. انتبهت المرأة السائقة إلى أنها ليست إيطالية، كما ظنتها للوهلة الأولى، فأخذت تتحدث معها بإنكليزية جيدة. ناولتها حواء ذوالنورين ورقة حجز الفندق؛ فقالت السائقة:

–رووم ماتا لوكا – شارع السابع والعشرين من أبريل.. جيد. أعرفه.. إنه ليس بعيداً

من هنا، ربع ساعة إلى عشرين دقيقة.. الشوارع فارغة الآن..

كانت حواء ذوالنورين تعيش مشاعر غريبة وغامضة وجديدة عليها؛ فهي الآن وحيدة في أوروبا، بتسمية وجنسية مختلفتين غريبتين لاتعرف عنهما شيئاً، وليس لديها أي تصور عن وضعها، ومستقبلها، وماذا ينتظرها. أحست أن كل ما جرى لها كأنه كابوس ثقيل، وراودها إحساس ان حياتها السابقة أشبه بساحل تودعه مبتعدة في أعماق البحر والأفق المجهول.

أخذت تتأمل الشوارع الخالية من المارة والسيارات، ومباني المدينة النائمة. أهذه هي المدينة العريقة التي يتحدث عنها التاريخ..؟ لم تجد فيها ما هو غير عادي.. فهي مدينة حديثة؛ فسألت السائقة بأنها تصورت أن فلورنسا مدينة قديمة وكلاسيكية بينما الذي تراه لا يختلف عن ايّة مدينة حديثة؛ فالتفت إليها السائقة باسمة وقالت بإنكليزية جيدة جداً بأن هذا الجزء من المدينة حديث البناء، المدينة القديمة في المركز، وفعلا انتبهت بأن بعض التماثيل أخذت تبدو؛ كلما توغلت السيارة متجهة إلى مركز المدينة.

التفّت السيارة داخلة إلى شارع ليس بالعريض، ذي رصيفين ضيقين، تقطعه حديقة كبيرة تتوسطها التماثيل ويخترقها الشارع من وسطها، ثم وقفت السيارة أمام باب زجاجي. قرأت لافتة بالنيون تشير إلى فندقها (ماتا لوكا).. كان العداد قد أشار إلى سبعة عشر يورو وعشرين سنتا؛ فنقدتها هي بعشرين يورو، تاركة ما تبقى بقشيشاً للسائقة التي أخذت تردد كلمات الشكر لها بحرارة.

انفتح الباب الزجاجي أمامها اتوماتيكيا؛ فوجدت نفسها في باحة الفندق الضيقة نسبياً، ومضت إلى مكتب الإستعلامات الجانبي الذي كان في تلك اللحظة خالياً. بعد ثوان جاءت فتاة قصيرة سمراء. ألقت عليها تحية الصباح بالإيطالية: (بونجورنو سينيورا).. ثم انتقلت مباشرة إلى اللغة الإنكليزية. لم تقل حواء ذوالنورين شيئاً، سوى أنها ردت التحية، وقدمت لها ورقة الحجز. أخذت فتاة الإستعلامات تنظر في جهاز الكمبيوتر الذي أمامها، وطلبت منها جواز السفر؛ فسلمتها جواز السفر الروسي.

بعد دقائق قليلة استلمت بطاقة غرفتها الألكترونية في الطابق الخامس، مع إيضاحات بموعد الإفطار.. وأشارت لها إلى قاعة الإفطار المجاورة للمدخل والمطلة بنوافذها على الشارع. انتبهت إلى أن رقم غرفتها في هذا الفندق يتطابق مع رقم غرفتها في فندق الشام، وكذلك مع رقم رحلة الطيران 555، فاستغربت هذه المصادفات الغامضة!

حين توجهت إلى المصعد الجانبي الذي يقابل بوابة الفندق الزجاجية، انتبهت إلى أن فتاة الإستعلامات تناديها:

- سينورا تومانوفا.. مدام.. تومانوفا..

التفت للصوت غير منتبهة إلى أنها المعنية! لم يكن هناك أحد سواها في باحة الفندق في مثل هذا الوقت؛ فأدركت أنها المقصودة، أليست هي إيفا بتروفنا تومانوفا..؟! رجعت إلى المكتب، فقالت لها فتاة الإستعلامات وهي تمد إليها بجوازالسفر:

- سنيورا.. نسيت جواز سفرك.. لقد أخذت منه نسخة مصورة..
- شكراً

* * *

حين فُتح باب المصعد في الطابق الخامس وخرجت إلى الممر، وجدت حواء ذوالنورين نفسها في ممر ضيق جداً لا يتجاوز المتر عرضاً. معتم، أرضيته مفروشة بسجاد أحمر. نظرت أمامها فوجدت قطعة تشير إلى تسلسل الأرقام واتجاهاتها في الممر، وكان عليها التوجه يساراً. فجأة، سمعت قرقعة خلفها فالتفتت مذعورة؛ فرأت امرأة عارية تركض، وقد خرجت من غرفة لتفتح غرفة أخرى إلى جانبها وتصفق الباب خلفها بقوة.

أحست بالأمان حين صارت في غرفتها. وضعت حقيبتيها على طاولة مخصصة لحمل الحقائب. جلست على سريرها العريض. أحست أنها متعبة. كان الفجر يتسلل من النافذة. أخذت تنضو عنها ملابسها.. سترتها وقميصها وتنورتها.. بقيت بسروالها الداخلي وحمالة النهدين، وبحذائها. اقتربت من النافذة، فتحتها، فهب نسيم عليل تشوبه برودة ونداوة. أحست أنها تتنفس شيئاً يبث البهجة في النفس، ومع النسيم أقبلت ضجة، ليست محددة المصدر، ضجة أشبه بضوضاء أو طنين، أو هدير مكائن. أغلقت النافذة. انتبهت إلى أن البيت المقابل للنافذة ليس سوى قصر من قصور القرون الوسطى، ويبدو أنه قد تحول إلى دائرة حكومية أو متحف، إذ كانت هناك لافتة كبيرة كتبت عليها كلمات بالإيطالية تشير إلى عنوان المكان.

ظلت واقفة للحظات. لا تعرف بالضبط هل أنها سعيدة أم لا..؟ كانت تحس كأن في رأسها ثمة هواء يضغط على صدغيها ويمنعها من التفكير. نزعت حذاءها وهي في وقفتها أمام النافذة. قررت مع نفسها أن تأخذ حماماً ساخنا وتنام. توجهت إلى الحمام.

فتحت الباب مستكشفةً إياه. اطمأنت إلى وجود الشامبو والمناشف. نزعت عنها حمالة النهدين وسروالها. دخلت إلى كابينة الحمام وفتحت دش الماء الدافئ.

خرجتْ من الحمام ملتفة بمنشفتين كبيرتين. توجهت إلى السرير وألقت بنفسها عليه تغمرها رغبة واضحة في النوم، لكنها بعد لحظات رفعت رأسها. نظرت إلى النافذة ثم قامت متجهة إليها. سحبت حبل الستائر عن مقبضها، فانسدلت لتغطي النافذة. عادت إلى السرير. دخلت تحت اللحاف الذي كان قد شد إلى أطراف السرير بقوة. أطفأت النور الذي كانت أزراره عند رأسها. وغطت في نوم سريع لا تعرف كيف كان يترصدها.

* * *

في الممر كان هناك رجل مقنّع يرتدي بدلة سوداء وعلى كتفية من الخلف تدلت عباءة سوداء مبطنة بحرير أحمر. كان وجه الرجل مقنعا بالأصباغ والدهون، حيث كان وجهه مدهونا بمادة بيضاء، بينما تطوق عينيه هالة سوداء. وفمه أحمر، رسمت ابتسامة عريضة على شدقيه تمتد على مسافة من الوجه تتجاوز الشفتين بكثير. ويبدو للناظر إليه أنه يبتسم حتى ولو زم شفتيه.

كان الرجل المقنع يقف في أعماق الممر من الجهة الأخرى المقابلة للجهة التي تقع فيها غرفة حواء ذوالنورين. كان الرجل واقفا بصمت. فجأة فرش عباءته بحركة طائر. وبدأ يتحرك نحو الجهة المقابلة. كان صوت قوي لهفيف جناحين جبارين يضجان في الممر.

اجتاز الرجل المقنع الممر، وحين صار عند المصعد سُمعت حركة صعود المصعد. التفت الرجل المقنع نحو جهة المصعد؛ فتوقفت حركة المصعد. تحرك الرجل المقنع مجتازا الممر المقابل وتوقف عند الغرفة التي تحمل الرقم 555 حيث حواء ذوالنورين. بقي واقفا للحظات وهو ينظر إلى الباب. بعد لحظات، مد كفاً مغطاة بقفاز أسود وأدار أكرة الباب. فُتح الباب، ودخل بهدوء.

* * *

في دمشق.. في تلك الساعات الأولى من ذلك الفجر نفسه، كانت نساء أربع يتجولن في الطابق الخامس لفندق (الشام).. وكانت المرأة الجميلة التي تلبس العباءة السوداء والتي تشبه حواء الزاهد، أكثرهن انفعالاً، إذ قالت للآخريات:

- ما دامت حواء ذوالنورين قد غادرت الفندق، فما علينا إلّا الذهاب لمساعدة

حواء الكرخي، فأنا مشتاقة لابني هابيل..

نظرت النســاء الثلاث إليها بتعاطف واضح. لم يعلقن شـيئا، لكن ملامحهن كانت تشير إلى الموافقة.

* * *

علـى مبعـدة خمسـين متـرا مـن بوايـة الفندق، وعلـى جانبي الشـارعين اللذين يقع الفندق بينهما، توقفت سـيارتان. كان في داخل كل سـيارة سـائق وثلاث نسـاء منقبات. كانت المنقبات يتحدثن بتوتر وحذر واضح. أصواتهن كانت خشنة كأصوات الرجال.. لـم يكـن الحديـث سـوى تبـادل بعض المفـردات لا أكثر. نظرت إحـدى المنقبات إلى ساعتها اليدوية المضيئة، وقالت:

-لم يبق على الموعد سوى نصف ساعة.

* * *

في غرفته كان آدم الشامي ملقى على سريره مفتوح العينين، لكن نظراته كانت فارغة، ولا تتوجه إلى شـيء محدد، كأنه مغمى عليه، أو أنه ثمل وخارج السـيطرة على نفسـه. كان نائما على ظهره، متصالباً مع السـرير تقريباً و كانت ذراعاه ممدودتين باستسـلام. يبدو للناظر إليه كأنه ميت، لكنه لم يكن ميتاً.

20

كهنة الجحيم

في حدود الساعة السادسة صباحاً اقتحمت ست نساء منقبات فندق الشام بدمشق. أطلقت إثنتان منهن الرصاص على الحارسين عند البوابة بمسدسات كاتمة الصوت، ودخلن إلى الردهة.

تجمع بعض الضيوف كالعادة عند طاولات الطعام، وجلس البعض متفرقين حول الطاولات في الردهة. توزعت النساء في زوايا الردهة الأربع، ووقفت إحداهن في وسط الردهة القريبة من البوابة، قابلتها واحدة أخرى في وسط الجهة القريبة جداً من مكتب الإستعلامات. فجأة، وبعد أن أتخذن أوضاعهن في الردهة من جميع جوانبها، ألقت النساء المنقبات نقابهن، وفككن عباءاتهن، ليسحبن رشاشات أتوماتيكية متطورة، مع أحزمة معبئة بالقنابل ومواد التفجير. وصرخن بصوت واحد: (الله أكبر) ووجهن أسلحتهم إلى زوار الفندق وبدأن بإطلاق النار الكثيف. كان كل شيء مفاجئاً، مباغتاً، غير متوقع. لم تكن المنقبات سوى مجموعة من الرجال الذين تخفوا في أزياء النساء المنقبات. تهاوت الأجساد، رجالاً ونساء، وتعالى الصراخ المصحوب بالخوف والرعب، بينما ألقى أحد المقتحمين قنبلة في الممر باتجاه المصاعد، فتعالى الضجيج والدخان والأتربة ورائحة الدماء الزنخة..

حاولت فتاة الإستعلامات المرعوبة، وهي مقرفصة على الأرض، أن تتصل طالبة النجدة أو لتبلغ عن المجزرة بالتليفون الذي كان قد سقط أرضاً، لكن المقتحم القريب منها صوب إليها سلاحه ورشها بوابل من الرصاص. علت أصوات الرصاص وصراخ الضحايا ونداءات التكبير والشعارات المضادة للسلطة والداعية لإقامة حكم الدولة الإسلامية. استيقظ نزلاء الفندق هلعين. أخذوا يطلون من الشرفات على الردهة وهم لا يكادون يصدقون ما يرون، لاسيما وأن صوت القنبلة التي هدت المصاعد. رائحة

الدمـاء المتدفقـة أخـذت تمـلأ أجـواء الفنـدق، بينما أخذ رجال الأمـن المتواجدون في الطوابـق العليـا ممـن يحملون المسدسـات يصوبون أسـلحتهم، وبدأ تراشـق للرصاص بينهم وبين المقتحمين.

سقط إثنان من المقتحمين نتيجة مباغتة رجال الأمن لهم من الطوابق العليا. ويبدو أن رجال الأمن قد اتصلوا بجهات أمنية طلبا للنجدة، وخلال وقت ليس بالطويل كان الفندق مطوقاً بقوات عسكرية خاصة. وأغلقت الشوارع والطرقات المؤدية إليه، وحينما حاولـت مجموعـة مـن تلـك القوات أن تقتحم الفندق ألقـى المقتحمون القنابل اليدوية أمـام بوابـة الفنـدق، فتناثـرت الأشـلاء، وانهدت بوابة الفندق، ممـا أوقف عملية اقتحام الفندق من الخارج.

* * *

استيقظ آدم الشامي على صوت إبليس وهو يوقظه من نومه قائلاً:

-اسـتيقظ يـا آدم.. لقـد قـام البعـض باسـم الرب، والدين والإيمـان، بجريمة كبرى في الفندق.. اسـتيقظ وانقذ ما تبقى من أرواح بريئة من قبضة هؤلاء المؤمنين القتلة.. كهنـة الجـحيـم..

لم يفهم آدم الشامي ما قيل له. ظن أنه يحلم.. لكن إلحاح إبليس على إيقاظه وتكرار ندائه بإنقاذ الناس؛ دفع آدم الشامي ليقفز من سريره مرعوباً. تلفت في جناحه.. لم يكن ثمة أحد.. لكنه سمع تراشق الرصاص يأتي من ردهة الفندق.

أطل من شـرفته على الردهة. قابله وجه من الأسـفل يرتدي بقايا عباءة قد تهدلت على وسـطه. حدق للحظات في ذلك الوجه..إنه رأى هذا الوجه، لكنه لا يذكر أين.. أخـذ هاتفـه،؛ فـرأى أنـه هنـاك اتصـالات به لم يسـتجب لها. فكر مع نفسـه بأنه كان قد شـرب كثيراً بعد عودته إلى الفندق، فلم يسـمع رنين الهاتف. قرأ رسـالة كُتبت له من قبـل مسـؤول الأمـن، بـأن هنـاك اقتحامـاً من قبـل مجموعة إرهابية، قامـت بمجزرة في الردهة. انتبه لوجود اتصال من جهات عليا به. لعن نفسـه على تلك الليلة المنحوسـة وهذا اليوم المريب.. ركض إلى جارور قرب السـرير فتحه وأخرج مسدسـاً. توجه إلى الشرفة. وبدون وعي وجه مسدسه إلى المسلح الذي يواجهه في الأسفل وأطلق النار. جاءت الرصاصة في رأس المقتحم المسـلح في الأسـفل. في تلك اللحظة وجهت له رشقة من الرصاص، لكنه تجنبها.

أخـذ هاتفـه وسـلاحه بيديـه، وغادر الجناح. اتصل بمسـؤول الأمن، وتحدث معه. فأخبره الآخر بالتفاصيل. هبط هو إلى كراج السيارات، ومنه خرج إلى الشارع. التحق بالقوات الحكومية التي تحاصر الفندق وقادها عبر الطابق الأرضي، من مرآب السيارات؛ لكي تدخل الفندق.

لم يستمر الوقت طويلاً. فبعد وصول القوات الحكومية إلى داخل الفندق وتوزعها على الطوابق، واقتحام الردهة من قبل مجموعة منها، تم قتل جميع المقتحمين، بعد أن فجر أحدهم نفسه مسبباً خسائر في صفوف القوات الحكومية.

تمـت السـيطرة علـى الفندق من قبل القـوات الحكومية. وحضرت الجهات الأمنية وقيادتها العليا إلى موضع الحدث، وتم الإسـتعلام عن المقتحمين، وخلال سـاعة تم التعـرف عليهـم جميعـا. ومـن بينهـم كان هابيل ابن آدم الشـامي. وحينما طلب التعرف عليه أرشدوه له، فكان هو نفس المسلح الذي خيل إليه أنه يعرفه، والذي قام هو بقتله؛ وعندها أدرك أنه قتل ابنه الأصغر بنفسه.

لم تمر إلّا ساعة على تلك المجزرة، حتى انتشر في دمشق بل وفي سوريا والبلدان المجاورة خبر اقتحام فندق الشـام في دمشـق. وبثته بعض الوكالات في شـريط خاص كخبر عاجل. لا أحد يعرف كيف تسرب الخبر؛ إذ لم تكن هناك وسائل إعلام لتنقله، فقد حدث ما بين السادسة والسابعة صباحاً. لكن الخبر رغم ذلك انتشر.

***

في أحد المقاهي الدمشقية كانت حواء الكرخي وآدم أبوالتنك يجلسان حول طاولة تتوسط الباحة، ويفصلها عن مدخل المقهى حاجز خشبي يحتل الزجاج مساحة كبرى فيـه. كانـت قـد وصلـت لتوهـا بعد أن انتظرت الفتاة المربية العراقية التي جاء بها مسـاء أمس آدم أبوالتنك إلى الشقة واتفقت معها حول طبيعة عملها وواجباتها.

كان آدم أبـو التنـك قـد وصـل قبلهـا. وطلب الشـاي بالنعنـاع، وحينما وصلت هي طلبـت القهـوة. لـم تكـن قـد اسـتقرت علـى كرسـيها حينما أخـذ يحدثها بخبـر اقتحام فندق الشـام في الصالحية. اهتزت حواء الكرخي لهذا الخبر وحضرت صديقتها حواء ذوالنورين في فكرها. تشـوش ذهنها، أحسـت بالضباب يغلف رؤيتها الداخلية وسـألت نفسها: أيكون لحواء ذوالنورين علاقة بهذا الإقتحام، وأنها ربما مشاركة فيه..؟لم تفصح عمـا فكـرت فيـه، لكنهـا قالـت لا إراديـاً:، لا بد وأن أتصل بصديقتـي حواء ذوالنورين.

أخذت هاتفها واتصلت برقم استعلامات الفندق الذي كان محفوظا لديها في الهاتف، لكن لم يكن هناك ثمة أتصال. نظرت إلى آدم أبو التنك وقالت:

-الخط مقطوع..

قال آدم أبوالتنك بلا مبالاة:

-هذا طبيعي.. فهم بأي حال الآن.. من المؤكد أن الاتصالات مقطوعة عمداً أو أن منظومة الاتصالات قد قطعت أو خُربّت.. اتصلي على هاتفها النقال..

-هل يمكنك أن تتصور بأني لا أملك رقم هاتفها النقال..؟

-هل هذا معقول..؟ كل هذه الأيام معاً وليس لديك رقم هاتفها النقال..؟

-مثلما أقول لك.. لقد كنا معا دائما.. وحينما غادرت الفندق كان لدي رقم الفندق والرقم الخاص بغرفتها.. لم أسألها عنه..

-ستتضح الأمور بعد ساعات.. عندها يمكننا أن نتوجه إلى هناك.. ونستطلع الأمر..

على طاولة مجاورة قريبة منهما كان الدكتور آدم كارثة يجلس وأمامه كوب الشاي بالنعاع وثلاثة كتب سميكة، ويقرأ في صحيفة سورية.. لكنه لم يكن يقرأ في الصحيفة بقدر ما كان يتنصت إلى الحديث الذي يجري بين حواء الكرخي وجليسها. التفت إليهما متدخلاً وقال:

-الحمد لله أني غادرته أمس..

التفتا إليه دونما استغراب كبير، وحينما انتبه هو بأنهما لم يبديا امتعاضاً من تدخله، التفت إلى حواء الكرخي قائلاً:

-ألست الشاعرة والصحافية حواء الكرخي..؟

استغربت حواء الكرخي لمعرفته إياها، وقالت باستغراب:

-نعم أنا هي..

-أنا الدكتور آدم كارثه.. أستاذ الأدب العربي والنقد المقارن في جامعة صفاقس..

ابتسم آدم أبوالتنك، وقال له:

-تفضل إلى طاولتنا دكتور كارثه..

تحرك الدكتور آدم كارثة بهمة كأنه كان ينتظر هذه الدعوة.. وبينما كان يهم بنقل كرسيه إلى طاولتهما نظرت حواء الكرخي إلى آدم أبوالتنك نظرة عتاب على دعوته له، فرد عليها بابتسامة طيبة؛ إذ كان ينوي الحصول على معلومات جديدة عن شخصية

جديدة وصلت دمشق.

لم يكن الدكتور آدم كارثه يتميز بأناقة خاصة، برغم وسامته، كما كان يفتقد اللطف فـي تصرفاتـه، علـى الرغـم مـن سـعيه إلى أن يبدو لطيفاً ومهذبـاً، إلا أن محاولاته تبقى محـاولات مصطنعـة وتمثيليـة، وواضحـة في عدم أصالتهـا، بل يبدو غريب الأطوار في تصرفاتـه وفضولـه وعـدم احترامـه لخصوصيـة الآخريـن، وجرأته في فرض نفسـه على الآخرين، ولا يهمه علامات الاستغراب التي ترتسم على وجوه الآخرين كرد فعل على تصرفاته، كأنه يفتقد شيمة الخجل.

ما أن جلس إلى طاولتهم حتى بادره آدم أبوالتنك بأسئلته المتلاحقة والتي تنسجم مع فضوله في معرفة أخبار الآخرين، قائلا:

- هل أنت في الشام من زمان..؟
- لا أنا هنا منذ أربعة أيام.. كنت مشاركاً في ندوة فكرية أقامتها كلية الآداب في جامعة دمشق، وكانوا قد استضافوني في فندق (الشام)، وقد انتهت الندوة ظهر أمس، وغادرت الفندق، بل انتقلت إلى فندق رخيص في منطقة جرمانا.
- لكن جرمانا بعيدة نسبيا..
- لا مشكلة.. فالفندق رخيص حقاً.. وأنا لا أحتاجه سوى عند النوم..

كانت حواء الكرخي صامتة، تنصت للحوار الدائر بين الرجلين. وكان واضحاً إلى أن المعلومات التي باح بها لم تروِ فضول آدم أبوالتنك، فاسـتمر في أسـئلته المباشـرة وكأنه في تحقيق صحافي، فسأل:

- هل أنت خريج بغداد..؟
- لا.. خريج بلغاريا..
- بعثة حكومية لو بعثة حزبية؟

فوجـئ الدكتـور آدم كارثـة مـن جرأة السـؤال، ارتبك لحظـة، ولأنه يعرف أن حواء الكرخي شاعرة يسارية التوجه، فأنه اطمأن لجليسها، فقال بهدوء وهو يتفحص رد فعل آدم أبوالتنك على جوابه:

- بعثة خاصة.. حزبية.. لا علاقة لها بالحكومة..

لمـح وميضـاً غامضـا بـرق في عيني آدم أبوالتنك، واسـترخاء في ملامحه، كما انتبه إلى أن حواء الكرخي استرخت أكثر. أدرك أن هاجس الخوف يطارد العراقيين ويقبض

على أعماقهم من أي شخص لا يطمئنون لولائه الآيديولوجي. ابتسم آدم أبوالتنك وقال:

- يعني أنت من الجماعة؟

أدرك الدكتور آدم كارثه بأنه يقصد الشيوعيين بالجماعة. ابتسم وقال:

- يعني.... كنت منهم..
- والآن..؟
- لقد جرت الكثير من المياه تحت الجسور.. يا صديقي.

في تلك اللحظة نظرت حواء الكرخي إلى الكتب التي أمامه، فانتبه آدم أبوالتنك لها، وقرأ عنوان الكتاب الأول (فلسفة التاريخ عند هيغل)، فأراد أن يبين له عمق ثقافته، فقال:

- هذا كتاب قديم..

نظر الدكتور آدم كارثه إليه نظرة كأنه كان يزن الرجل الجالس أمامه، وقال:

- نعم.. هو كتاب قديم.. صدر في أوائل السبعينيات.. تُرجم عن الفرنسية.. وصدر عن وزارة الثقافة بدمشق.. كنتُ قد قرأته في حينها.. وفي نهاية السبعينات حينما بدأت الهجمة ضد القوى اليسارية والديموقراطية..إضطرت أمي إلى حرق مكتبتي.. أشعلت التنور وألقت بكتبي فيها خوفا من اقتحام رجال الأمن لبيتنا.. وكان هذا الكتاب من بينها.. واليوم اشتريته من إحدى المكتبات.. لم أصدق أنني عثرت عليه..
- لكنك أستاذ في الأدب والنقد كما تقول.. بينما تقرأ في الفلسفة والتاريخ..
- وهل هذا يعني أن لا أقرأ كتباً غير كتب الأدب والنقد..؟
- لا طبعا..

أحس آدم أبو التنك بالإحراج لسؤاله الساذج، بينما مدّت حواء الكرخي يدها للكتاب، قائلة له:

- هل تسمح؟
- طبعا.. طبعا..
- فلسفة التاريخ عند هيغل لجان هيبوليت..

شعر الدكتور آدم كارثة بالحيوية؛ فقد كان بالنسبة له مدخلا طيبا للحديث معها، فقال بنشاط واضح وكأنه يلقي محاضرة:

- جان هيبوليت هو فيلسوف فرنسي.. هيغلي.. وهو المترجم الرئيس لهيغل إلى

الفرنسية.. وأعظم الشارحين لفلسفته..

أحس آدم أبوالتنك بعدم الارتياح حينما توجه الدكتور آدم كارثه بكل اهتمامه نحو حواء الكرخي؛ فأراد أن يسفه النقاش، فسأل حواء الكرخي بشكل مفاجئ:

- ماذا طبخت اليوم..؟

فوجئت حواء الكرخي بسؤال آدم أبوالتنك، لكنها أدركت بأنه شعر بالغيرة، فابتسمت له قائلة:

- اليوم صباحا طبخت الرز مع الباقلاء.. وحضرت اللبن الرائب.. ومرق الدجاج..

أراد آدم أبوالتنك أن يبين للآخر بأنه أثير عند حواء الكرخي وأقرب إليها من محاولاته الاستعراضية للتقرب منها، فقال لها:

- هل أعتبر نفسي مدعواً..؟

- طبعا..

قالت حواء الكرخي بطيبة وعفوية. فوجئ الدكتور آدم كارثه، واتقدت عيناه، وانتبه للحديث، فقال لها:

- آخر مرة أكلت فيها الرز بالباقلاء كان منذ سنوات حينما كنت في زيارة لصديق عراقي يعيش في فلورنسا..

- هل كنت في فلورنسا..؟ سأله أبوالتنك

- نعم.. كان ذلك منذ سنوات.. وهو متزوج من إيطالية.. لكن هل أنا مدعو أيضاً..؟

فوجئت حواء الكرخي بجرأته في دعوة نفسه. ارتبكت، بل إن آدم أبوالتنك ارتبك أيضا، ولم يكن أمامها سوى أن تجيبه:

- أهلا وسهلا.. أنت مدعو أيضاً.

توتر الجو قليلا، وتوترت النظرات والملامح، برغم محاولات الإنبساط التي سعى إليها الجميع، بيد أن الدكتور آدم كارثه لم يكن يعنيه بماذا يفكر الآخران. في تلك اللحظة كان يفكر بالمائدة المجانية العامرة على الغداء.

أخذت حواء الكرخي تتصل دون جدوى بإستعلامات فندق (الشام)، لكن الإتصال كان مقطوعا. راودتها فكرة أن تذهب إلى الفندق وتستفسر عن صديقتها، لكنها لم تتشجع نفسياً على ذلك.

أما آدم أبوالتنك فلكي يذهب عن نفسه الغيظ الداخلي الذي اجتاحه نتيجة اقحام الدكتور آدم كارثه في الدعوة على الغداء ببيت حواء الكرخي وجد نفسه يسأله بنبرة لم تخلُ من إستفزاز:

- كم ستبقى في دمشق..؟

انتبه الدكتور آدم كارثة لنبرة صوت آدم أبوالتنك، وأدرك أنه قد اغتاظ منه لدعوة نفسه على وليمة الغداء، لكن هذا الأمر لم يكن يقلقه، فحتى لو كانت نبرة الآخر مهينة فهو يبتلع الإهانات من أجل وجبة الغذاء المجانية التي توفر عليه بعض الليرات السورية، لذا أجاب بهدوء وكأن الحوار طبيعي:

- ربما لأيام أخرى.. لا أعرف بالضبط.. فلدي تأشيرة لمدة ثلاثة أشهر..

بينما كان الرجلان يتحاوران، رفعت حواء الكرخي رأسها بشكل عفوي لتنظر إلى الطاولة التي تقابلها بالضبط. أحست وكأن مساً كهربائياً خفيفاً قد اجتاحها. تسمرت نظراتها على الرجل الجالس قبالتها بالضبط. لم تر وجهه، لأنه كان يجلس وظهره إليها. وكان يقرأ في صحيفة عربية معروفة تصدر في لندن. أحست أنها تعرف هذا الجالس أمامها، فهيكله، وتصفيفة شعره من الخلف تذكرها بشخص تعرفه جيداً. نهضت إليه، وصارت أمام طاولته من الجهة المقابلة. نظرت إليه مستفهمة، فرفع رأسه إليها. ارتسمت على وجهها الدهشة وصرخت بفرح ممزوج بالتساؤل:

- آدم الشبيبي..؟

لم يجبها مباشرة. صمت لثوان وقد أخرسته المفاجأة، إذ لم يصدق ما رآه؛ فنهض عن كرسيه وقال بصوت هادئ وكأنه يهمس لنفسه:

- حواء..؟

أراد احتضانها لكنه تردد أمام رواد المقهى، فمد إليها يده مصافحاً بقوة، فسألته مباشرة:

- متى وصلت..؟ ولماذا تركت بغداد..؟
- منذ ثلاثة أيام..
- لكن كيف.. ولماذا..؟

تلفت آدم الشبيبي إلى الوراء وجال بنظره في أرجاء المقهى وقال بهدوء:

- تسألني لماذا..؟ لقد سمعت باغتيال حواء الزاهد وابنها.. و رأيت صور السيارة

فـي مقـر المجلـة.. خفـت كثيرا عليك.. لم أعرف عنك أي شـيء.. لكني كنت أعـرف أنـك كنـت مـع حـواء الزاهد فـي بيتها.. لم تتصلي بـي.. ولم تتركي لي أية رسـالة أو خبر.. وفي يوم اغتيال حواء الزاهد أخبرني حارس العمارة التي أسـكن فيها بأن عليّ أن أحذر، ويفضل أن لا أنام في شـقتي لفترة، لأن هناك رجـالاً ملتحيـن سـألوا عنـي بالتفصيـل.. عن الطابق الذي تقع فيه شـقتي، وعن أوقات مجيئي ورواحي.. ولأن حارس العمارة صديق لي، لذا حاول بطريقته أن يحميني ويضللهم بأني قد انتقلت من العمارة إلى مكان آخر لا يعرفه.. حينها اتصلت بك لكن تليفونك كان مغلقاً.. وبقيت اتصل بك لليومين التاليين لكن بدون جدوى.. المهم، حينها، اتفقت مع حارس العمارة بأن أتصل به بين فترة وأخرى إلى أن تهدأ الأمور.. ليلتها لم أنم في شقتي بل نمت في مقر المجلة.. وفي اليوم التالي إتصلت بحارس العمارة فأخبرني بأنهم جاءوا في الليل أيضا، وسألوا عني.. بل إنهم صعدوا إلى شقتي، لكني لم أكن موجوداً.. فطلبت منه أن يوافينـي إلـى المجلـة.. ولمـا جاء أعطيته مفتاح شـقتي وطلبت منه أن يأتيني بجواز سفري وحقيبة ملابسي على أن يضع فيها بعض قمصاني ودفاتري التي فيهـا كتاباتـي والنقـود التـي أحتفـظ بها. ولأني خفت أن يصلوا إلي في المجلة، لذا لم أجد أفضل من مغادرة العراق.. كنت حائراً بين أن أذهب إلى سوريا أو الأردن.. ولأن هنـاك تعقيـدات فـي الدخـول إلـى الأردن، بينما يمكن الحصول على التأشيرة السورية عند الحدود لذا جئت إلى دمشق..

فسألته حواء الكرخي بلهفة:

- وأين تسكن..؟
- في فندق رخيص بمنطقة جرمانا..
- وماذا عن صديقك قابيل الفهد.. هل هناك من أخبار عنه..؟
- ليست هناك أية معلومات عنه.. لكنهم قتلوه.. قتله المدعو آدم الأسير..

ندت عن حواء الكرخي صرخة أسى خافتة، وقالت:

- ماذا تقول.. كيف عرفت ذلك..؟

صمت آدم الشـبيبي، خفض رأسـه بحزن وظل صامتا للحظات وكأنه كان يسـتعيد ذكرى حزينة، ثم قال:

- بدافع من فضولي الصحفي اتصلت ذات يوم قبل مغادرتي العراق بحارس المدرسة التي كان قابيل الفهد مديراً لها، والذي أخبرني يوم اختطافه بما جرى له، ونبهني حينها بأن أحذر.. هذا الرجل نفسه، اتصلت به، فأخبرني بأشياء لم أفهمها جيداً.. أو فهمت بعضها لأني أعرفه، والبعض الآخر من حديثه لم استوعبه بالكامل، إذ أنه يمس أشخاصاً آخرين لا أعرفهم لكنه ذكر لي اسماءهم فقط..
- بماذا أخبرك..؟
- قال لي بأن موظفاً لديهم كان محاسباً اسمه آدم الأسير، وهو يُسمى كذلك لأنه كان أسيراً في إيران، قد صار مديراً للمدرسة وكالة.. بدلاً عن صديقي قابيل الفهد.. كما أخبرني بأنه تنصت للحديث الذي يدور بين المدير الجديد مع موظفة أخرى لديهم اسمها الحاجة حواء آل حجر وهي تنتمي لحزب السلطة، قد فهم بشكل ما، بأن قابيل الفهد قد تمت تصفيته.. وأنهم اختطفوه بأمر من كبيرهم الحاج هابيل، وهو أخو زوج حواء الزاهد.. كل ذلك لأنه يشك بوجود علاقة بينهما، وقد أراد الانتقام منها؛ لأنها اعترفت عليه وعلى الرجال الذين معه بأنه قام بذبح حبيبها آدم المحروم..

فقالت حواء الكرخي بحزن:
- نعم.. أعرف القصة..إنه والد طفلها الثاني هابيل..
- نعم.. نعم..

فقالت حواء الكرخي بنبرة من تريد معرفة أشياء جديدة:
- لكن اخبرني.. ماذا قال لك حارس المدرسة.. أيضا.. ماذا قال لك عن حواء الزاهد ومقتلها..؟

انتبه آدم الشبيبي إلى أن عليه أن يركز في كلامه ويستجمع معلوماته، لاسيما وهو يرى لهفة المرأة التي يحبها لمعرفة التفاصيل، فقال بهدوء وبتركيز جامع:

-أنت تعرفين تفاصيل هذا الأمر.. أقصد قصة التهديد لحواء الزاهد.. وكيف اتصلت بقابيل الفهد.. والذي هو أخبرني بالتفاصيل.. وكيف طلب منك أن تكوني إلى جانبها.. وكيف ذهبت أنت إليها.. وكيف تم اختطاف قابيل الفهد.. بعدها انقطعت الأخبار.. لكن الرجل الطيب.. الذي يبدو أنه يحب قابيل الفهد جداً.. أخبرني بأن هذا الشخص

الذي اسمه الحاج هابيل.. بمعية مدير المدرسة الجديد آدم الأسير وأيضا مع شخصين آخرين، أحدهما اسمه آدم الملا، قد اختطفوا ابن القاضي الذي حكم على الحاج هابيل والبقية لاشتراكهم في جريمة ذبح آدم المحروم.. ويبدو أنه شاب جامعي.. ذكروا اسمه فحفظه الحارس وأخبرني به.. فعرفت اسم والده.. وهو قاضي مشهور تم اغتياله في المنصور بباب بيته قبل أشهر اسمه آدم ذوالنورين...

- من؟

سألت حواء الكرخي متفاجئة. ارتبك آدم الشبيبي للحظات، لكنه أدرك بأن اسم القاضي قد أثارها، فردد قائلاً:

- اسم القاضي آدم ذوالنورين.. شخصية قانونية معروفة.. تم اغتياله بباب بيته قبل فترة من قبل جهة مجهولة.. وابنه اسمه آدم ايضا..

فرددت حواء الكرخي وعلى وجهها ملامح تفكير عميق:

- آدم ذوالنورين..
- هل تعرفينه..؟
- لا.. لكن أكمل..
- طلبوا فدية من زوجته من أجل إطلاق سراح ابنه الطالب الجامعي الذي اسمه آدم أيضا.. وحينما جاءت إليهم بالمال.. ويبدو أنه مئة ألف دولار.. قاموا باغتصابها وصوروا عملية الاغتصاب؛ لكي يضمنوا صمتها ولكي يبتزوها بين فترة وأخرى..

فسألت حواء الكرخي بلهفة:

- وما اسم تلك الزوجة.. أقصد زوجة القاضي..؟
- الحارس أخبرني بأن آدم الأسير، المدير الجديد للمدرسة، كان في مكتبه مع الموظفة الحاجة حواء آل حجر، وحينما أغلقا باب المكتب، تنصت إليهما؛ فسمعه يطلب منها بأن تبحث عن زوجة القاضي التي اسمها حواء ذوالنورين.. إذ أعطاها عنوان البيت بالكامل في المنصور.. ووصفها لها.. وطلب منها أن تساعده في العثور عليها.. لأنه يعتقد أن غريمه آدم الملا قد خان الجماعة وسرق شريط الفيديو..
- وكيف وصفها..؟

- لم أركز حينها على التفاصيل.. كل ما أذكره أنه قال لي هي امرأة جميلة.. في حدود الأربعين من العمر..

فندت عن حواء الكرخي صرخة خافتة، وقالت:

- إنها هي.. حواء ذوالنورين..

نظر آدم الشبيبي إليها مستغربا، وسأل:

- نعم... هكذا هو اسمها كما أتذكر الآن.. لكن هل تعرفينها..؟

نظرت حواء الكرخي نظرة تشي بأنها موجودة وغير موجودة، وأنها تفكر بأشياء أخرى، وقالت:

- أعتقد أني أعرفها.. هي هنا في دمشق.. الآن عرفت لماذا كانت مذعورة.. بل مرعوبة.. وصامتة لا تتكلم.. ولماذا يفتشون عنها حينما سافرت..

- هي هنا..؟

- نعم.. جاءت معي في الباص نفسه الذي أقلنا من بغداد إلى دمشق..

- إذن هربت منهم.. وماذا عن ابنها..

- كانت وحدها..

الآخران، آدم أبوالتنك والدكتور آدم كارثة، كانا قد انتبها إلى نهوض حواء الكرخي من طاولتهم وتوجهها إلى الطاولة الأخرى، وصرخة الفرح الذي أطلقتها لحظة اللقاء بهذا الشخص الذي كان يجلس حول طاولته قبل وصولهما.. كما استمعا لمعظم الحديث الذي دار بينهما.. وأدركا أن جليس حواء الكرخي هو قريب لها وتربطها به علاقة وثيقة، لذا أحس الدكتور آدم كارثه بالضيق، بينما التفت آدم أبو التنك إليهما موجها كلامه إلى حواء الكرخي قائلا:

- ما هذا يا حواء.. لماذا لا تقدمين لنا الأستاذ..؟

ابتسمت حواء الكرخي إليه وقالت لهما:

- أقدم لكم صديقي العزيز جداً جداً الكاتب والصحفي آدم الشبيبي

- أهلا وسهلا تشرفنا..

نهض الدكتور آدم كارثه عن كرسيه وتقدم نحو طاولتهما ماداً كفه لآدم الشبيبي ومقدما نفسه:

- أنا الدكتور آدم كارثه أستاذ الأدب العربي والنقد في جامعة صفاقس.. شرفتنا

أستاذ آدم الشبيبي.. أنا أقرأ لك أحيانا..

- أهلا وسهلا..

مد آدم الشبيبي كفه مصافحا، مدركا بأن أستاذ الفسفة هذا ليس أكثر من مدع ومنافق فهو لم ينشر شيئا يستحق القراءة، وأن معظم عمله في المجلة ذو طبيعة فنية، وأن كتاباته لم ينشرها بعد، فكيف قرأ له..؟. ولأن الدكتور آدم كارثه بادر بتقديم نفسه، فلم يجد آدم أبوالتنك سوى أن يقدم نفسه بطريقة تنم على شعور بالأهمية الذاتية، فقال له وهو يمد يده مصافحا:

- وأنا آدم أبوالتنك..

- أنت أبوالتنك..؟

استغرب الجميع من مفاجأة آدم الشبيبي الذي انتبه لدهشة الجميع واستغرابهم، فقال موضحاً:

- أول لحظة وصولي إلى دمشق سمعت عراقيين يتحدثان في مكتب استعلامات الفندق عنك..، كان أحدهما ينصح الآخر بالوصول إليك لأنك (مختار العراقيين) في دمشق.. وأنك إنسان طيب تحب مساعدة العراقيين..

أحس أبوالتنك بالنشوة، وبرغم ذلك ابتسم بخجل قائلاً:

- أنا أعمل ما أستطيعه وأقدر عليه..

فابتسمت حواء الكرخي وقالت بمرح:

- نعم..آدم أبوالتنك هو مختار العراقيين في الشام.. هذا صحيح.. وصحيح أيضاً بأن قلبه من ذهب.. ويحب مساعدة الآخرين.. لا طمعاً ولا جزاء أو شكورا..

- أشكرك.. أشكرك..

تمتم آدم أبوالتنك خجلاً. فبادرت حواء الكرخي قائلة:

- بما أننا صرنا أربعة.. فهذا يعني أن دعوة البيت قد ألغيت.. فأنا لم أطبخ لأربعة..

ارتسمت ملامح الهلع والاستغراب على وجه الدكتور آدم كارثه. انتبهت حواء الكرخي إلى ذلك، فبادرت قائلة:

- لذلك.. وبمناسبة وصول الأستاذ آدم الشبيبي إلى دمشق، فانتم مدعوون للغذاء في مطعم..

برقت عينا الدكتور آدم كارثة بالفرح، إلا أن آدم الشبيبي قال مستاء:

- هذا غير ممكن.. فبمناسبة لقائي بالأستاذة حواء الكرخي.. سأكون أنا صاحب الدعوة..

فجأة قال آدم أبوالتنك على غير توقع:

- لا أنت.. ولا هي.. الذي سيدعونا جميعاً إلى الغذاء في المطعم هو الدكتور آدم كارثه..

ثم التفت إلى الدكتور آدم كارثه وسأل:

- ما رأيك دكتور..؟

شحب وجه الدكتور آدم كارثه، وابتسم ابتسامة صفراء، وارتجفت شفتاه قبل أن يقول:

- لا مشكلة.. أنتم مدعوون..

أحس آدم أبوالتنك بأنه أقدم على نكتة ثقيلة حينما رأى ارتباك الدكتور آدم كارثه، لذا قال:

- لا يا دكتور.. لا أحد يضيف الآخرين وأنا أبوالتنك في دمشق.. أنا مختار العراقيين كما اسمّى.. لذلك أنتم جميعاً ضيوفي..

ضحكوا بصوت عال. عاد المرح والسرور إلى وجه الدكتور آدم كارثه، بعد أن هزه هلعاً اقتراح أبو التنك. كانت حواء الكرخي تشعر بارتياح واسترخاء نفسي كبير، وكانت متأكدة أن ذلك الاسترخاء هو نتيجة لرؤية آدم الشبيبي عاشقها المتيم، ولأنها أيضاً عرفت الشخصية الحقيقة لصديقتها حواء ذوالنورين، وأحست برغبة كبيرة لرؤيتها.. فلديهما إذاً الكثير مما يمكن أن تتحدثا به، فهي هاربة مثلها من جحيم القتلة، كهنة الجحيم الجدد.

21

باب الفردوس.. مزحة كونديرا.. وآدم وإيفا بوناروتي

استيقظت حواء ذوالنورين على صوت ضربات وخربشات على زجاج النافذة. فتحت عينيها ببطء. رفعت رأسها قليلاً ونظرت إلى النافذة فرأت غراباً أسود ينقر على زجاج النافذة. حين نهضت عن السرير طار الغراب. فتحت الشباك فتسرب هواء بارد عليل إلى الغرفة. أحست بالإنتعاش. أطلت برأسها من النافذة ونظرت إلى جانبي الشارع الذي لم تتبينه فجراً فرأته نابضاً بالحياة، يقود من جهة اليسار إلى البارك الذي يتقاطع مع طرق أخرى، ومن جهة اليمين يقود الشارع إلى ساحة يتوسطها تمثال، لكن الساحة تتقاطع مع شارع رئيسي. كما انتبهت إلى موقف لسيارات التاكسي عند الساحة.

تذكرت بأنها رأت حلما أشبه باليقظة.. رأت رجلاً مقنعاً يرتدي بدلة سوداء وعباءة سوداء مبطنة بحرير أحمر. كان جالساً في الغرفة على الكرسي الموجود في زاوية الغرفة، وكان لا يفعل شيئاً سوى تأملها. تتذكر أنها كانت عاجزة وكأنها مخدرة. فجأة قام الرجل المقنع مغادراً الغرفة، لكنها لم تسمع صفقة الباب وهي تغلق، حتى أنها ظنت بأنه لم يغادر الغرفة ولم يعد إلى مكانه، كما لم تره في الغرفة ثانية. وحين حاولت أن تستذكر الوجه الذي رأته، في الحلم، ظنت أنها تعرفه أو رأته في مكان ما، لم تستطع أن تتذكر ملامحه. انتبهت إلى أن الساعة هي التاسعة، أي هناك ساعة أخرى متبقية من فترة الفطور. توجهت لغرفة الحمام، وأغلقت خلفها الباب.

بعد فترة قصيرة خرجت من غرفة الحمام ملتفة بمنشفة بيضاء كبيرة تغطي معظم جسدها، وأخرى تغطي بها شعرها. فتشت في حقيبتها وأخرجت حمالة للنهدين وسروالا، وأخذت ثيابها التي جاءت بها ودخلت الحمام ثانية. لم تتأخر في غرفة الحمام كثيراً. خرجت وهي بكامل زينتها، فانتشر عطرها في جو الغرفة.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف حينما خرجت من الغرفة. وقفت أمام باب المصعد. نظرت إلى جانبي الممر. استغربت لضيقه.. فكرت لو أن شخصاً سميناً يعيش في هذا الممر فلربما لا يستطيع المرور إلا بالمشي بشكل جانبي. فُتح باب المصعد.. دخلت.. ضغطت على الحرف G الذي يشير إلى الطابق الأرضي.. هبط المصعد بسرعة شديدة أصابتها بالهلع حتى ظنت أنه يسقط إلى الأسفل.

حين دخلت إلى المطعم على جهة اليمين فوجئت بأنه مكان ضيق جداً، مثل غرفتين صغيرتين متداخلتين يفصل بينهما حائط لمسافة ما وتربط بينهما فتحة ضيقة ايضاً. انتبهت لوجود مصاطب طويلة مثبتة على الجدار من جهة الشارع الذي بدت النوافذ واطئة بحيث يمكن للجالسين أن يشاهدوا الشارع ومن يمر من أمامهم.

لم يكن في القسم الأول من المطعم سوى شاب وفتاة يجلسان قرب النافذة، بينما كان القسم الداخلي مكتظاً ببعض النزلاء. جلست على الطاولة القريبة من طاولة الطعام الطويلة. كانت طاولتها مخصصة لشخصين. وضعت حقيبتها على كرسي منها واتجهت لطاولة الطعام.

حين عادت إلى طاولتها مع صحن الطعام، تقدم منها عامل المطعم، الذي خمنت من ملامحه بأنه هندي، فحياها بالتحية التي تعودت عليها:

- بونجورنو سينورا..

وجدت نفسها تقول له بالإنكليزية:

- صباح الخير..

فسألها بالإنكليزية عن رقم غرفتها، فأجابته:

- 555

نظر إليها للحظات وكأنه فوجئ بالرقم.. ابتسم لها وسألها إنْ كانت تحب القهوة أو الشاي، فقالت له: القهوة. بعد لحظات عاد إليها عامل المطعم وهو يضع كوب القهوة أمامها مع دورق الحليب.

لم يكن الطعام لذيذا، ولم تكن مائدة الطعام غنية. نوعان من الجبن.. ونوعان من السلامي، وقطع الكرسو، وبعض الكيك. فكرت مع نفسها بأن مائدة الطعام في فندق (الشام) أغنى في تنوعها، وفي جودة أصنافها.

أخذت تتناول طعامها وتلقي بين فترة وأخرى نظرة على الفتى والفتاة اللذين أمامها،

حيث سمعتهما يتحدثان بالإنكليزية. ويقبلان بعضهما أحيانا.

فكرت مع نفسها بأن عليها شراء ملابس جديدة.. لكن ماذا ستفعل بعد ذلك..؟ بل ماذا ستفعل هنا؟ كيف ستعيش؟ ماذا سيكون مصيرها بعد انتهاء فترة التأشيرة التي هي لمدة شهر لكنها يمكن تمديدها لشهرين آخرين..؟ أي أن أمامها ثلاثة أشهر وليس أكثر، لكـن مـاذا بعـد ذلـك؟ هـل عليها البقاء في هذا الفندق أو تغّيره..؟ كيف عليها التصرف وهي لا تعرف أحداً في هذه المدينة..؟ كانت الأسئلة تنهال عليها وهي ترتشف قهوتها بهدوء.

وعلى غير توقع انبثقت صورة إيفا سميث وآدم الشامي أمام عين أعماقها. هل عليها الإتصال بإيفا سميث لتخبرها بتفاصيل وصولها أو تتريث قليلاً..؟ وهل عليها الإتصال بآدم الشامي لتخبره بسلامة وصولها وتشكره لمساعدته إياها في الخروج من أزمتها أو تنتظر قليلا إلى أن تستوعب الوضع الجديد الذي هي فيه..؟لم تصل إلى قرار.. لكنها دون إرادة منها فتحت حقيبتها وأخرجت ورقة كُتبت عليها أرقام إيفا سميث وعنوانها. أخـذت تطلـب الرقـم، فلـم يحـدث أي إتصال.. انتبهت إلـى أن خطها العراقي لا يقدم لها خدمة هنا. إذن عليها شراء شريحة هاتف إيطالية.

كانت تفكر بسرعة ونشاط، وتسأل نفسها، وتقرر وتجيب.. وكل ذلك خلال لحظات سـريعة. قطع عليها تفكيرها وقوف عامل المطعم الهندي أمامها وهو يحمل دورقاً فيه قهوة، وهو يسألها إنْ كانت تريد المزيد من القهوة، ابتسمت له، وأومأت برأسها موافقة، فصب لها شيئاً من القهوة في كوبها فشكرته. أخذت ترتشف قهوتها بسرعة وبجرعات كبيرة وكأنها تستجعل الانتهاء منها.

حين صارت في الشارع أحست بشعور غامض بالخفة، وبرغبة عارمة بالإنطلاق.. بالتعـرف علـى أشـياء جديـدة، وأولهـا هـذه المدينـة العريقة، وتعطش فـي التعرف على أناس جدد ووجوه جديدة، كانت تحس كأنها فراشـة تحاول أن تتخلص من شـرنقتها، لتنطلق طائرة بحرية.

اتجهت إلى جهة اليمين نحو الساحة. على مبعدة خطوات من الفندق واجهها شارع فرعـي، قـرأت مـن بـاب الفضول اسـمه، وتمتمت مع نفسـها.Via S. Reparataانتبهت إلى أنه يقود إلى سوق شعبي، فواصلت طريقها نحو الساحة فمرت بشارع جانبي آخر قرأت Via S.Gallo. واصلت طريقها فوصلت إلى الشـارع العام الذي يقطع شـارعها

جانبيا حيث تقابله الساحة فقرأت اسمها Piazza S. Marco، أما الشارع الرئيسي فكان اسـمه Via Cavour.. انعطفـت إلـى يميـن الشـارع العـام متتبعـة العديـد من السـائحين الذي كانوا يتوجهون إلى جهة الشـارع اليمنى.. كانت مأخوذة بعظمة المباني الضخمة والقديمة الطراز.. واجهها تقاطع جانبي حيث انتبهت لسوق شعبي هو امتداد للشوارع الجانبيـة التـي قطعتهـا بعـد خروجهـا من الفندق.. على بعد مئتي متر أحسـت بأنفاسـها تتقطع من الإنبهار. وجدت نفسـها أمام سـاحة تقع فيها كنيسـة مذهلة وقرأت Piazza Del Duomo.. رأت حشـوداً مـن البشـر يصطفـون فـي طوابيـر تتجه نحـو بوابة جانبية. وهناك انتشـر في السـاحة مئات من السـائحين يلتقطون الصور، ويتوزعون جماعات و فرادى.. كل مجموعة من السـائحين يقودهم دليل يشـرح لهم بلغتهم معالم المكان.. هنـاك العشـرات ممـن يحملـون كاميراتهـم ليلتقطوا صـوراً للذكـرى.. ويفترش مدارج مدخل الكنيسة الرئيسي في مواجهة الساحة العشرات من الفتيان والفتيات.. بينما يستمر حشد الناس بالتوجه إلى أعماق الطريق.. انتبهت إلى أنه في مواجهة الكنيسة ثمة مبنى كنسـي آخر تتوسـطه بوابة من الذهب.. حين اقتربت وجدت البوابة مقسـمة إلى عشـرة مربعـات، كل منهـا تـروي جـزءاً مـن قصة الخليقة.. وقـرأت بالإنكليزية بأن هذه البوابة تُسـمى (بوابـة الفـردوس) واسـم الفنـان الذي انجزهـا (لورينزو غبريتـي). كانت البوابة محمية بسـياج بحيث لا يمكن للسـواح مسـها. وكانت المربعات تروي قصصا مأخوذة من العهد القديم.. لكنها فهمت منها قصة قابيل وهابيل من خلال صورة رجل يضرب رجلا آخر بهراوة على رأسه.

وقفت أمام باب الفردوس.. تأملته.. انتبهت إلى بعض اليابانيين يتناوبون على أخذ بعض الصور قربه. ظلت لما يقارب النصف ساعة تتأمل مبنى الكنيسة وقبتها والناس.. واجهتها في السـاحة شـوارع متقاطعة عدة، لكنها اختارت أن تواصل السـير في شـارع الرئيسي الذي قرأت لافتة زرقاء كُتب عليها اسم يشير إليه Via de Calzaiuoli. انتبهت حواء ذوالنورين إلى كثرة المطاعم ومقاهي القهوة والآيس كريم.. ومحلات الملابس. فجأة وجدت نفسها لا إرادياً تدخل أحد محلات الملابس. غابت فيه لمدة ساعة تقريبا.

خرجت من المحل وهي تحمل كيسين كبيرين فيهما بدلتان وقمصان وثياب داخلية وجوارب و زوجان من الأحذية.. لا تعرف إن كان ذلك بتأثير الملابس والأشياء التي اشترتها أم بتأثير أشياء غامضة لا تدركها، إلا أنها كانت تشعر بفرح وسلام كأنها تولد

من جديد، وأحسـت كأنها تحب الناس كلهم وتحب أن يكون لها أصدقاء، وأن تتعلم الإيطالية. أحست أنها تحب إيطاليا.. وفلورنسا بالذات.

واصلت مشيها في ذلك الشارع. توقفت عند محل للبوضة. أشارت للبائع بأن يضع لها ثلاثة أقراص مختلفة الألوان من البوضة في قمع من البسـكويت. وقفت أمام باب المحـل لتتـذوق المرطبـات. انتبهـت إلى أن المحل الذي يقـع على يمينها يبيع بطاقات سـياحية وكتيبـات بلغـات مختلفـة عـن المدينة، ولـم تجـد بينها اللغة العربية، فاشـترت كتيباً باللغة الإنكليزية عن فلورنسا، يتضمن شرحا مع الصور لمعظم معالمها السياحية وخارطة للمدينة. لـم تكمل ما بيدها من البوضة، إذا اكتفت بما تذوقته ووضعت ما تبقى منه في جردل للقمامة موضوع على جانب الطريق. مشت قليلاً فانفتح الأفق أمامها عن ساحة عريضة في أحد جوانبها نافورة مكتظة بالتماثيل وعند باب قصر حجري ينتصب تمثـالان لرجليـن عاريين،كثيـرا مـا رأتهمـا في الألبومـات الفنية والبطاقات السـياحية.. رفعت رأسـها لتعرف أين هي الآن فقرأت على لافتة في بداية السـاحة Piazza della Signoria. انتبهت إلى أن روحها اكتظت بمشاعر الانبهار وأنها لم تعد تستطيع تحمل كل هذا الدفق من الجمال.

أحسـت بضيق خفي. وبشـيء من التوتر والاسـتفزاز الغامض لكن غير العدواني. أهي أليس في بلاد العجائب..؟ هل ما تراه هو حقيقة أو خيال..؟ سألت نفسها.. لكنها أجابت نفسها على سؤالها بأنها ليست في بلاد العجائب وإنما في مدينة الفن.. راودتها رغبة في أن تجلس وأن تتأمل الناس والأشـياء المحيطة.. قطعت السـاحة لتجلس أمام باحـة مزينـة بأقـواس وتضـم مجموعة من التماثيل المختلفة.. أحسـت بالتوتر الناتج من مشـاهدتها لتلك التماثيل الرائعة.. لـم تعد تسـتمتع وتسـترخي عند مشـاهدتها للتماثيل المذهلة، وإنما تشعر بدفق من المشاعر المستفزة والتي تقطع الأنفاس.. لذا لـم تواصل مشاهدتها بالتدقيق وإنما حاولت استعراضها سريعا، فقد بدأت تشعر بتوترات أشبه بتيار كهربائـي فـي صدغيهـا.. ولكـي تتخلـص من هذا التوتر قالت لنفسـها بأن لديها الوقت الكافي، لذا ستكرس وقتاً آخر لمشاهدتها بالتفصيل.

جلست على دكة المبنى تحت الأقواس.. أحست برجفة تسري في أوصالها حينما ألقـت نظـرة جانبيـة إلـى التمثـال البرونزي الذي يجسـد مقاتلاً عاريـاً يحمل رأس امرأة قـد نحرهـا، بينمـا يرقـد جسـدها الفتـي تحت قدميه.. قرأت على لوح تحته اسـم الفنان

وعنوان التمثال: Cellini: Perseus. وبرغم أن التمثال ذكرّها برعبها من مطاردة زوجها المغتصب قابيل العباسي، لكنها لم تستطع أن تكبت انبهارها بعظمة هذا التمثال الذي بـدا لهـا وكأنـه مشـهد حـي يجري أمامهـا. التفتت إلى الجانب الأيسـر فرأت تمثالا من المرمـر عمّـق مـن مشـاعر الخـوف التـي انتابتها، إذ كان يجسـد اختطـاف امرأة من قبل رجل فتي بينما زوجها الضعيف يجلس مذعورا تحته، لم تستطع لبعد المسافة أن تقرأ اسم الفنان أو اسم النصب. فكرت بعظمة الفن في أنه يجسد الحياة بكل أوجاعها دون أن يشكل وجعاً.

بينما كانت هي مشغولة مع نفسها بأفكارها أقترب منها رجل وسيم، شرقي الملامح، يحمل على كتفيه حقيبة جلدية تتدلى بحزام وفي يده الأخرى لوحا يقبض على أوراق بيض بمقبض من أعلى اللوح.. سـمعته يسـألها بالإيطالية فلم تفهم منه شـيئا، فسـألها ثانية بالإنكليزية أن كانت تريد أن يرسـم لها تخطيطا.. هزت رأسـها بالنفي.. فألح في سؤالها فقالت بالإنكليزية:

– شكراً..

لم يتحرك من مكانه بل ظل يتأملها. ارتبكت. فسـألها إن كان بإمكانه أن يرسـمها مجانـاً. ابتسـمت لـه وسـألته لمـاذا، فقـال لها بأن وجهها جميل بشـكل خاص، ويذكره بوجه يعرفه من بلاده.. ارتبكت.. لم تبد موافقتها على رسمها لكن راودها فضول بأن تسـأله عن بلاده التي رأى فيها وجها يشـبه وجهها، أيكون روسـيا ويعرف السـيدة إيفا بتروفنـا تومانوفـا.. سـألته، إلا أن أجابتـه أصابتهـا بصدمـة حينما قال لها إنه من العراق. لم تتمالك نفسها فقالت له بالعربية:

– أأنت عـراقي..؟

كانـت ردة فعـل الرسـام غيـر متوقعـة، إذ جلـس راكعـا علـى ركبتيـه. شـحب لونه وارتعشت شفتاه وترقرق الدمع في عينيه، وتمتم بصوت مخنوق بالكاد سمعته:

– وأنتِ..؟ أأنتِ عـراقيـة..؟

كلاهما لم يعرف كم طالت تلك اللحظات من الصمت بينهما، لكنها كانت لحظات خارقة. لحظات استعاد كل منهما تاريخاً هائلاً من الكوابيس والأحلام. لحظات مليئة بالأمـل والضـوء والفـرح الخفـي. إذ أحـس كل منهمـا بـأن تلـك اللحظـة منحتهما قوة وصلابـة وثقـة بالأشـياء المحيطـة، وقشـعت ضباب الغربة الـذي كان يحيط بروحيهما.

ابتسما لبعضهما بصداقة. فجأة، مدّ كفه إليها معرفاً بنفسه:

- آدم بوناروتي..

تأملت كفه الممدوة للحظات ثم مدت يدها مصافحة وهي تعرف بنفسها:

- حواء..
- ماذا..؟
- حواء..

ابتسم.. وقال:

- آدم وحواء.. يا لطيف..

كان لا يزال راكعاً أمامها. ابتسمت له وقالت:

- انهض..

نهض واقفا وسألها وهو يبتسم لها بمرح:

- هل أنت سائحة أم مقيمة..؟
- لا أعرف.. حالياً أنا سائحة.. ولا أدري إن كنت سأقيم..؟
- إيطاليا بلاد ساحرة.. لاسيما مدينة فلورنسا.. فكلما تطول إقامتك فيها تحسين بأنك تحت سحرها، إذ لا يمكنك الإفلات من مدار جاذبيتها.. لكن يا تُرى منذ متى وأنت في فلورنسا..؟
- منذ فجر هذا اليوم..
- ماذا..؟
- مثلما أقول لك.. وصلت فجر هذا اليوم.. وهذا أول نهار لي في المدينة..
- ياه... وفي أول نهار لك هنا ألتقيك.. يا لهذا القدر العجيب!

ابتسمت وقالت:

- وفي أول نهار لي هنا ألتقي عراقياً!
- لا أدري إن كان قد بقي مني شيء عراقي..؟ فأنا هنا قد تطبعت بعادات هذا البلد.. وصرت مثل واحد منهم..
- لكن جذورك تبقى عراقية..
- هذا صحيح..

صمت لحظة، ثم واصل:

- أتدرين.. لقد كنتُ مثل غيمة فوق بحر.. غيمة في سماء للنسيان؟

ابتسمت ورددت بهدوء شيئا مما قال:

- في سماء للنسيان..؟ أتدري أحيانا يكون النسيان رحمة.. رحمة أن تنسى، ورحمة أن تُنسى.. لكن ما هذا.. أأنت شاعر..؟
- لا.. لدي محاولات في الكتابة.. أنا كما ترين رسام.. أرسم الكاريكاتير وأخطط الوجوه.. لكن أعمالي الفنية الحقيقية في مرسمي.. في سنواتي الأولى هنا كنت أكتب الكثير باللغة العربية لكن بمرور الوقت صرت أكتب بالإيطالية أيضا.. أكتب أحيانا لأعبر عما يجول في نفسي.. فقد كانت الشموع قد احترقت في داخلي ولم يبق منها سوى ذبالات ضعيفة.. فالظلام يخيم على كل مساحات أعماقي..

لم تعلق على كلامه، إذ أحستْ أنه قد عبّر عن حالتها دون أن يدري. انتبه إلى أنها سرحت بتفكيرها، فسأل في حماس ودفق فرح مفاجئ:

- هل لديك موعد ما..؟.
- لا.. لماذا..؟
- هل زرت كاتدرائية سانتا ماريا دل فيوري..؟
- لا أعرف الأسماء.. لكني اشتريت كتيباً عن معالم المدينة..
- أتريدين أن أكون دليلك في فلورنسا..؟
- وماذا عن عملك..؟
- لا ضير.. لقد عملت قليلاً.. لكن لنبدأ من المكان الذي نحن فيه فهو من ساحات فلورنسا الشهيرة.. فهنا حيث نحن الآن مبنى مضى عليه أكثر من ثلثمئة عام اسمه الشرفة أو (لوجيا دي لانزي).. وهو تابع للقصر (بلازو فيتشيو)..

وأشار إلى القصر الحجري. وجدت حواء ذوالنورين نفسها تندمج مع شرحه للمكان، ثم تحرك أمامها نحو القصر الذي كان العديد من السائحين يدخلونه أو يلتقطون الصور أمامه.

بعد أكثر من ساعتين انتبه إلى أنها تعبت، وكانا قريبين من الكاتدرائية. فسألها:

- هل يمكنني أن أدعوك على كوب كابيتشينو؟

ابتسمت. صمتت لحظة.. نظرت إليه بتأمل وكأنها تزن مع نفسها قرارها بقبول

دعوته أم لا.. ثم قالت:

- لا مانع..

سار أمامها.. وجهه إليها وظهره للطريق وهو يقول بمرح طفولي:

- لا تقلقي.. سأعرفّك بكل زوايا فلورنسا.. فأنا أعيش في إيطاليا منذ عشرين عاما.. وفي فلورنسا منذ عشر سنوات..

لـم تعلـق علـى كلامـه، لأنه كان يتدفـق بالكلام، لكنها كانت في تلك اللحظة تفكر بعمره..إنه يبدو في منتصف الثلاثين.. ولو كان في إيطاليا منذ عشرين عاماً فمتى يا تُرى غادر العراق..؟ أيكون في الخامسة عشرة..؟ غير معقول.. أتراه يكذب عليّ..؟ ثم أنه قدم نفسه باسم آدم بوناروتي.. ما معنى ذلك..؟ هو عراقي لكن لقبه إيطالي..؟ علي أن أكون حذرة معه على الرغم من أني استلطفته مباشرة. كانت تفكر مع نفسها بينما كان هو يتحدث في تلك اللحظات لكنها لم تكن تسمعه، فجأة سمعت صوته وهو يسألها:

- أين تسكنين..؟
- في الفندق..
- أي فندق..؟
- ماتا لوكا..
- أين يقع..؟
- في شارع أعتقد اسمه فيا 27 أبريل..
- آها.. بالقرب من ساحة سانت ماركو..
- بالضبط..
- أنا أعيش بمكان ليس ببعيد عن مكان الفندق. في شارع (فيا سانت آنا)

انتبه إلى أنها تحمل كيسين، فأراد أن يبدي لها شيئا من الأريحية والشهامة الشرقية، فقال لها:

- هل أحمل لك الكيسين.. دعيني أحملهما..

ترددت قليلاً وقالت:

- إنهما ليسا ثقيلين..

لكن في أعماقها كانت تخاف أن يهرب بهما فقد حذرها آدم الشامي من اللصوص الذين يسـتغفلون السـائحين.. لكنها سـرعان ما خجلت من تفكيرها، إذ أدركت أنه بادر

من باب الشهامة الشرقية، كما أن ملامحه الوسيمة وهيئته لا توحي بأنه لص، بل بدا لها أنه فرحان بها فرحاً حقيقياً. أحست بسلام وسكينة تغمرها.

سار بها راجعا في نفس الطريق الذي جاءت منه، لكنه انعطف جانبا بطريق فرعي ضيق، أنيق، وتتوزعه المطاعم والمقاهي. دخل إلى مطعم ومقهى صغير، فتبعته. رحب به صاحب المقهى وتحدثا بالإيطالية. خمنت أنهما أصدقاء. شربا كوبين كبيرين من الكابتشينو. بعد ذلك قادها آدم بوناروتي في أزقة فلورنسا ومعالمها تقوده مشاعر مختلطة هي مزيج من الرغبة الصادقة في تعريفها بروائع الفن وتحفه النادرة، وبمشاعر الواجب نحو امرأة جميلة أعجبته من النظرة الأولى.. وفوق كل هذا عراقية.. من بلاده.

حينما كان يوصلها إلى الفندق عند منتصف الظهيرة تقريبا كانت تحس بأنها ليست غريبة في هذه المدينة، بل شعرت بإلفة مع المكان وكأنها تعرف المدينة منذ وقت ليس بالقصير، بينما هي لم تكمل يوما فيها.

أوصلها إلى الفندق. وعند باب الفندق سألها أن كانت تحتاج أي شيء يوضحه للعاملين في الفندق، فشكرته على مبادرته وأخبرته بأن العاملين في الفندق يتحدثون الإنكليزية بشكل جيد. وقبل أن يغادرها أتفق معها على أن يمر عليها في الرابعة أو الخامسة ليقضيا المساء خارجا.. وأكد لها دعوته على العشاء وقضاء وقت طيب في هذه المدينة الساحرة..

حين صارت حواء ذوالنورين في غرفتها راودها إحساس بأنها أخذت تفتقد هذا الرجل الذي لم تقابله سوى ساعات.. استغربت لشعورها.. فهي لم تتعرف عليه إلا اليوم لكنها أحست وكأنها تعرفه منذ فترة طويلة.. شعرت نحوه بألفة.. وبرغبة في رؤيته مجدداً..إلا أنها سرعان ما بدأت تفتح الأكياس لتجرب الملابس التي اشترتها.

* * *

تحممت حواء ذوالنورين مرة أخرى. وكانت قد اشترت برنسا قطنياً فارتدته. جلست على حافة السرير وأخذت دليل الفندق متصفحة قائمة الطعام والخدمات الأخرى التي تقدم. أخذت سماعة الهاتف وضغطت على رقم مطعم الفندق. اختارت وجبة طعام شهي، وكوكتيلاً من عصير الفواكه. وبدون قصد منها وجدت نفسها تفكر بآدم بوناروتي مرة أخرى، وتستعرض في ذاكرتها كل مشاهداتها خلال تجولها معه. انتبهت إلى سعة ثقافته ومعرفته بتاريخ الفن وبتاريخ كل معلم من معالم هذه المدينة المتحف.. لكنها

انتبهت أيضاً إلى طريقته التي تفتقر إلى الجدية، إذ هو يميل إلى أن يتحدث عن أعقد الأحداث التاريخية وأشدها إيلاماً بطريقة المزاح.. مثلما انتبهت إلى تواضعه الذي يبدو أقرب إلى السذاجة والبلاهة لمن لا يفهمه.. كما استغربت من تناقض مشاعرها.. فحينما وصلا إلى الفندق كانت تريده أن يذهب بسرعة لتختلي مع نفسها.. بينما هي الآن تنتظر لقاءه.. وتشتاق لرؤيته.. لم يخرجها من تفكيرها سوى رنين الجرس، حيث جاء النادل بصينية الطعام.

بعد أن تناولت طعامها. تمددت على السرير ووجدت نفسها تغفو بسهولة.

* * *

استيقظت حواء ذوالنورين على رنين هاتف الغرفة. حين فتحت عينيها كانت الغرفة غارقة في العتمة. نظرت إلى ساعتها اليدوية فعرفت أنها نامت لأكثر من ساعتين.. أخذت سماعة الهاتف فجاء صوت آدم بوناروتي مرحا يسألها أن كانت قد نسيت بأن فلورنسا تنتظرها. ابتسمت وهي تجيبه بأنها لم تنس ذلك.. لكن عليه وعلى فلورنسا الإنتظار لما لا يقل عن نصف ساعة كي تكون جاهزة. فابتسم وقال إنه وفلورنسا بل وإيطاليا سينتظرونها لنصف ساعة.

* * *

حين وصلت حواء ذوالنورين إلى باحة الفندق الضيقة عند مكتب الإستعلامات لم تجد آدم بوناروتي. تلفتت فلم تجد أحداً. كان الفندق يمتد طويلا من الجهة المقابلة للمطعم، حيث يتألف من قاعات متداخلة.. كل قاعة تقود إلى أخرى، بل وكل قاعة تتميز بلون وطراز خاص بها. هناك قاعة زرقاء وأخرى خضراء، وثالثة أرجوانية، إلا أن ورق الجدران لجميع الصالونات كان نفسه، يختلف في الألوان لكن النقوش الموجودة عليه هي نفسها.

في أعماق القاعة الثالثة وجدتْ آدم بوناروتي يتصحف مجلة فنية، لكنها في القاعة ذاتها انتبهت إلى رجل أشقر وسيم، يكاد يكون توأم الرجل الأشقر الوسيم الذي كان يناقش الراهب في فندق الشام، والذي أحست حينها بإنجذاب كبير نحوه. كان الرجل بكامل أناقته يشاهد التلفزيون ذا الشاشة العريضة والكبيرة. أحست حواء ذوالنورين بدهشة كبيرة عند رؤيته، واستغربت الشبه الكبير بينهما، لكنها استبعدت أن يكون هو، إذ كيف جاء..؟ ومتى..؟ فهي لم تره لا في المطار حينما سافرت ولا في الطائرة التي

جاءت بها..

حين رفع آدم بوناروتي رأسه إليها أحس بما يشبه الهزة الكهربائية تجتاح جسده. أطلق صفيرا يعبر عن الإعجاب وقال لها:

- ما هذا الجمال. لا بد من أن أرسمك.. هل توافقين..؟

ابتسمت له وقالت:

- لاضير.. لكن علينا أن نخرج الآن.. ففلورنسا تنتظرننا..

- أمرك مطاع أيتها السيدة.. وأنت محقة.. فلورنسا تنتظرنا..

نهض عن كرسيه. وقبل أن تغادر القاعة ألقت نظرة على الرجل الأشقر الوسيم فرأته ينظر إليها بتركيز. التقت نظراتهما لثوان أحست بعدها رعشة لذيذة أشبه باللذة الجنسية مست جسدها وسرت في كل مسامات جسدها. خافت من نفسها، ومن تلك النظرات، وبرغم أنها غادرت القاعة إلا أنها كانت تحس بنظراته تتبعها.

* * *

كانا قد تجولا طويلا على ساحل نهر (أرنو). وعبر بها جسر (بونتو فيتشيو) كما تجولا في ساحة الجمهورية. وأخذ يحدثها عن تاريخ هذه المدينة مبيناً لها بأن أهم شاعر إيطالي وهو (دانتي أليجيري) قد تحدث عن فلورنسا بعنف وقسوة قائلاً عنها إنها غابة حزينة بائسة، وإنها مليئة بالحسد والكبرياء والبخل، وأن أهلها لصوص ووحوش، وعبيد للذهب بحيث صارت فلورنسا جديرة بأن تُسمى مدينة الشيطان، كما اتهم نساء فلورنسا بالفجور.. وسماها بذئبة (أرنو) وهو اسم النهر الي يمر بوسط المدينة، مثلما نعتها بالمدينة الأفعى وبالعنزة المريضة.

كانت حواء ذوالنورين تستمع له وفي الوقت نفسه تتخيل علاقتها به وكيف ستتطور. كانت مطمئنة لطيبته، ووضوحه. يضحك معها من كل قلبه، وينظر إليها برغبة واضحة أيضا دونما خجل أو مواربة، لكنها كانت تعود لتكبح اندفاعها نحوه معللة نفسها بأنها لا تعرفه جيداً.

وأخيرا جلسا في مقهى ومطعم مفتوح في ساحة سانت جيوفاني خلف (أبواب الفردوس المغلقة). وقبل أن يطلبا العشاء احتسيا دورقا من النبيذ. كانت لديها رغبة في أن تشرب وتنتعش قليلا، وتتحرر من خجلها قليلاً.. ومع الدورق الثاني من النبيذ أحست بالحرارة تصعد لخديها، وبالجرأة المفاجئة في أن تسأله، فقالت له:

- آدم.. أود أن أعرفك.. اسمك آدم لكن لقبك إيطالي كما ذكرته لي.

ابتسم لها. صمت للحظات. ثم وكأنه قرر أن يروي تأريخه، فقال:

- نعم.. أنت محقة.. لقبي هو بوناروتي..إنه لقب إيطالي.. لقب الفنان العظيم ميكايلأنجلو بوناروتي.. لكنه أيضا لقب عائلة زوجتي.. أخذته عنها حينما تزوجنا..

أحست بوخزة في أعماقها حينما ذكر ذلك فسألته لا إراديا:

- هل أنت متزوج..؟
- نعم.. كنتُ متزوجاً.. لكنني الآن كما يقال بالعربية.. أرمل.. فقد ماتت زوجتي..

أحست براحة غامضة، لكن سرعان ما خجلت من هذه المشاعر، فقالت:

- أنا آسفة لك..إلى رحمة الله..
- شكراً لك..
- جرى هذا منذ خمس سنوات.. لقد تجاوزت الأمر نوعاً ما..
- هل كانت المرحومة إيطالية..؟
- نعم.. ومن العوائل العريقة في إيطاليا.. تعرفت عليها في روما.. كنت هارباً من العراق.. هربت قبل ثلاثة وعشرين عاما..
- ثلاثة وعشرين عاما..؟ كم كان عمرك حينما غادرت العراق..؟
- تسعة عشر عاماً
- هذا يعني أن عمرك إثنان وأربعون عاما..؟
- نعم.
- ظننتك في منتصف الثلاثين..
- شكراً جزيلاً.. إنك ترفعين من معنوياتي.. فأنا في أعماقي عجوز هرم..

انتبه إلى كأسيهما الفارغين.. سألها:

- ما رأيك بكأس آخر من النبيذ..؟

ترددت قليلا، لكنها أحست بأنه يريد أن يروي لها قصته، وكان لديها فضول في أن تعرف عنه كل شيء، فأومأت برأسها. صب لها وله، ورفع كأسه عاليا، وقال لها بمودة:

- في صحتك..

- في صحتك..

وارتشف هو رشفة كبيرة، بينما هي اكتفت برشفة صغيرة. نظر إليها، لكنها أدركت أن نظراته كانت أبعد من وجهها. كان وجهها بالنسبة إليه بوابة إلى عالم الذكريات، وبدأ يروي لها حكايته:

- كان اسمها إيفا بوناروتي.. وكانت تدرس الموسيقى في أكاديمية الموسيقى بروما، أكاديمية شهيرة تحمل اسم القديسة سانتا سيسيليا، معهد درس فيه كبار الموسيقيين في تاريخ الموسيقى أمثال: روسيني، باغانيني، مندلسون، برليوز.. وغيرهم... كان ذلك في السنوات الأولى من وصولي إلى إيطاليا..
- لكنك قلت إنك غادرت العراق قبل ثلاثة وعشرين عاماً، وإنك في إيطاليا منذ عشرين عاماً فأين كنت خلال السنوات الثلاث الأخرى..؟
- في تركيا..
- في تركيا..؟
- نعم.. في تركيا.. هربت إلى تركيا عن طريق دهوك.. كنت في السنة الأولى من أكاديمية الفنون في بغداد.. وحدث أن ألقيت نكتة أعتبرها البعض مساً بشرف رئيس الدولة والحزب والثورة.. وحينما أرادوا أعتقالي بسبب النكتة تذكرت رواية لميلان كونديرا، الكاتب التشيكي الفرنسي.. هل تعرفينه..؟
- من..؟
- ميلان كونديرا..
- لا..
- أوه.. كاتب رائع.. لدي بعض كتبه هنا بالإيطالية و ربما لدي إحدى رواياته بالعربية.. إذا أحببت سأعيرك إياها.. المهم.. تذكرت روايته التي اسمها (المزحة) عن ذلك الشاب الذي يرسل بطاقة إلى حبيبته يمزح فيها من شخصية سياسية.. فيُعتقل بالرغم من أنه كان عضوا في الحزب الحاكم.. ويرسل إلى معسكرات التأديب.. وتتطور الحالة هناك.. المهم يقضي في الإعتقال سنوات عديدة..
- مسكين..
- من..؟
- بطل الرواية..

– ظننتك تقصدينني..

– أنت مسكين أيضاً..

نظر إليها نظرات جامدة.. انتبهت هي إلى أنه يتحدث عن نفسه وقصته بنبرة ساخرة، ربما هي نوع من الدفاع عن النفس أو إخفاء لعدم الثقة بالنفس.. كان يحاول أن يضفي على حكايته المؤلمة نوعاً من عدم الجدية مخففاً من قيمتها، وكأنه بذلك يحاول أن يخفف من كثافة الألم الذي عاناه ومرارة الذكريات التي يرويها. ابتسم هو وقال ساخراً:

– ربما أنا مسكين فعلا.. لكني لا أريد أن أفكر بأني مسكين..

– أنا آسفة..

أحست بالخجل من أنها ربما قد أساءت إليه أو أساءت التعبير عما كان يجول في نفسها. نظر هو إليها بعينين ترقرق الدمع فيهما فجأة مما أثار استغرابها، واسترسل في حديثه:

– المهم.. تذكرت هذه الرواية فهربت.. فإذا كانت مزحة كونديرا قد جرّت بطله إلى معسكرات الأشغال الشاقة.. فمزحتي ستقودني إلى المقبرة.. كان ذلك في العام 1987.. وفي تركيا بقيت ثلاث سنوات..إنها قصة طويلة وموجعة.. هروبي إلى تركيا بحد ذاته يمكن أن يروى في فيلم سينمائي.. وحياتي خلال هذه السنوات التي قضيتهما في استنبول وبعض المدن الأخرى قصة أخرى.. أما قصة هروبي من تركيا عبر البحر إلى شواطيء اليونان ثم شواطئ إيطاليا فتلك ملحمة تشبه الأوديسه لهوميروس.. ملحمة تعجز هوليود عن انتاجها!..

كان هو يتحدث بينما هي تفكر وتحلل الأمور خلال ثوان.. انتبهت إلى أن هذا الرجل الذي يبدو أصغر من عمره الحقيقي بسنوات مثقف ولديه إطلاع أدبي واسع، فحديثه مليء بالشواهد الأدبية، حتى أنها شعرت بشيء من الخجل حينما سألها عن الكاتب التشيكي الذي لم تقرأ له شيئاً. سألته:

– هل كنت وحدك..؟

– وحدي..؟ طبعاً لم أكن وحدي.. كان معي عراقيون آخرون.. لكل منهم قصة توجع القلب. ربما سأروي لك تفاصيل ذلك مرة أخرى.. المهم.. كنت قد وصلت إلى روما.. كان هناك بعض العراقيين الذين ساعدوني.. خاصة شاعر عراقي مات قبل سنوات اسمه آدم السامرائي.. ساعدني بالرغم من أنه كان

يعيش حياة بائسة.. يبيع البرياني في إحدى الساحات.. آواني عنده حينما لم أجد مأوى.. كان يعيش في غرفة هي ليست بغرفة.. وإنما هي الفراغ الذي يتشكل تحت الدرج، ستره بقطع الكارتون والخشب المقوى فصار المكان يشبه الغرفة. كنا بالكاد نتمدد فيه. وكنت أذهب معه أحيانا للعمل في مواسم القطاف.. في مزارع الزيتون.. كما كنا أحيانا نسطو على بعض المزارع لسرقة الفواكه التي نبيعها..إلى أن بدأت أرتب وضعي.. حيث طلبت اللجوء السياسي.. ثم أخذت أعمل رساماً للكاريكاتير.. ورسم الوجوه للسائحين.. وهكذا عشت إلى أن تعرفت على إيفا.. زوجتي.. حدث ذلك بعد سنوات من وصولي.. كنت قد أجدت الإيطالية.. وتحسن وضعي المادي نوعا ما.. لكن صديقي الشاعر مات.. مات بمرض عضال لم يمهله طويلاً.. مات بائساً، يائساً، حزينا، مليئاً بالغضب من العراقيين الذين ناصبوه العداء لاختلافه السياسي معهم، حيث أطلقوا الشائعات التي تمسه شخصياً وتمس سمعته الأخلاقية. ولم أكن أنا في حينها موجودا في روما.. حيث كنت قد رحلت في سفرة قصيرة إلى نابولي، بدعوة من صديق لي اسمه آدم الغفاري.. الذي ينزل الآن في الحبس نتيجة جريمة قتل ليس له علاقة بها سوى أنه صادف أن رسم القتيلة قبل يوم من مقتلها..

- أوف..

انطلقت صرخة التأفف من حواء ذوالنورين لا إراديا تعاطفا مع هؤلاء العراقيين الضحايا. توقف هو للحظة، ثم واصل:

- المهم.. حين عدت من نابولي كانوا قد دفنوه.. زرتُ قبره الغريب.. بكيت كثيرا عند قبره.. بكيت بكاء سنوات من القهر والألم والغربة وغدر الأخوة والأصدقاء.. بكيت صديقي الشاعر الذي حاربه هؤلاء الذين يتشدقون بالأفكار التقدمية والتحررية التي صارت جزءا من الترف الفكري بالنسبة إليهم لأنهم رتبوا أمورهم وتحولوا إلى تجار فن.. أو هؤلاء الذين كانوا بالأمس مع النظام لكنهم هنا تحولوا إلى دعاة اليسارية والأفكار الثورية التي يعرفون جيداً أنها هنا لا تشكل خطراً عليهم، بل على العكس تمنحهم بعض الجاذبية والمغايرة.. لاسيما وأن الشيوعيين والإشتراكيين في إيطاليا أقوياء.. وخصوصاً في أوساط

الطلبة والمثقفين والفنانين.

كانت بعض المفردات بالنسبة لها غريبة، وغامضة المعنى.. لكن الذي أعجبها أنه كان صريحا بدون تحفظ.. وجريئا بدون إحراج..

- وماذا فعلت..؟

- لم أفعل شيئاً.. شعرت بالغربة الحقيقية.. باليتم.. فلقد تعلمت من صديقي آدم السامرائي الكثير.. قرأت الكثير.. وتهذبت مشاعري وذائقتي الجمالية.. عرفت الموسيقى الكلاسيكية من خلاله.. وكان محفزي لاستكمال دراستي في أكاديمية الفن.. كان إنساناً واضحاً، يحلم بالجمال وبالمواقف الجميلة في الحياة، ويتحمل كل تبعاتها، وما يترتب عليها من صراعات نفسية.. كان يحلم أن يمر بمواقف استثنائية كي تمنحه الفرصة للقيام بأعمال نبيلة وبطولية.. على الرغم من أن حياته بحد ذاتها هي عبارة عن موقف إنساني نبيل وشجاع.. فهو سامرائي.. أي أنه شاء أم أبى محسوب على السلطة، لكنه رفض الانضمام للحزب الحاكم الذي كان أقرباؤه من كوادره المتقدمة.. وحينما بدأت الهجمة في نهاية السبعينات على القوى السياسية المعارضة للنظام، غادر العراق إلى إيطاليا.. لكن حياته لم تكن سهلة لاسيما بعد أن نفد ما كان معه من مال.. وبدأت الحرب مع إيران فصار من المتعذر تحويل الأموال إليه من قبل أهله.. لا أدري لماذا أتحدث لك عنه..؟

تأثرت حواء ذوالنورين لحديث آدم بوناروتي عن صديقه آدم السامرائي، ووجدت نفسها دون وعي منها تنبش في ذاكرتها عن صورة ابنها آدم ذوالنورين، مع الإختلاف في الأقدار والمصائر والأزمنة، فقالت بنبرة حزينة:

- ربما لأنه صديقك المقرب.. وفقدته بطريقة محزنة..

صمت هو للحظات ثم قال دونما تأثر لكن بنبرة فيها شيء من الحكمة المرة:

- أتدرين يا حواء.. نحن نتفلسف عندما نتحدث عن الموت.. ندعي دائما بأننا مهيئون له في كل لحظة.. ومقتنعون بهذه الحقيقة الطاغية، لكننا عندما نواجهه نخرس؟!

- نعم.. نحن نتحدث عن الموت كشيء عادي.. كفكرة.. كموت مجرد.. لاسيما حينما يكون هو موت الآخرين.. لكننا نصطدم به حينما يخطف عزيزاً لنا.. كلنا

نقـول بـأن المـوت يرافقنـا في كل لحظـة.. وفي كل مكان.. ونتحدث عن الأمر وكأنه حقيقة نؤمن بها مثلما نؤمن بالخالق.. لكننا لا نصدق ذلك حينما يكون فعلا قريبا، ونفاجأ به..

كان آدم بوناروتي يستمع إليها، مفكراً بكل جملة قالتها، فسألها:

- هل فقدت إنسانا عزيزاً عليك..؟

فوجئت بالسؤال، فقالت بنبرة حزينة:

- فقدت ابني وزوجي..

- يا إلهي!

ندت عنه هذه الكلمة، لكنه وجد في ذلك ما يشده إليها. صمت لحظة وكأنه يقف فـي فيصـل بيـن طـرق الحديث والأسـئلة ولا يسـتطيع أن يقرر بـأي إتجاه عليه أن يقود الحديث، فقال لها:

- أردت أن أتحدث عن موت زوجتي؛ لأواسي نفسي عندك، فوجدتك أكثر ألما وفقدانا مني..

ابتسمت له ابتسامة مواسية حزينة وقالت له بنبرة مشجعة:

- يمكنك أن تتحدث.. أنا أستمع إليك..

صب في كأسـيهما بعض النبيذ، ورفع كأسـه، فاضطرت إلى أن ترفع كأسـها أيضاً، وقال لها:

- في صحتك ثانية..

- في صحتك..

صمت لحظة. كان يفكر في ما يريد قوله، ويتبين الموضع من الحديث الذي يتوقف عنده، فقال مواصلاً حديثه:

- لا أحد من البشـر يعرف مصيره.. لا أحد يعرف إلى أين تقودنا دروب الحياة؛ مهما خططنا لها وظننا بأن الأمور ستسير كما نشاء ونقرر.. وهكذا.. التقيت ذات يوم بإيفا.. كنت جالسـاً أرسـم سـائحة ألمانية.. فإذا بفتاة في النصف الأول من العشرينات، سوداء الشعر، متناسقة الجسد لكن تميل إلى النحول، ذات عينين تفيضـان بالحـزن، وكأنهـا قـد بكت لتوها، وتحمـل صندوقا لآلة الكمان.. تقف جانبا بحيث يمكنها أن ترى ما أرسم وأن تنظر إلى المرأة الألمانية لترى كيف

تنبثق الصورة من بياض الورق.. انتبهت إليها، لكنني كنت مركزا على المرأة الجالسة أمامي.. ظلت واقفة إلى أن انتهيت من الرسم.. بل حتى بعد أن رحلت السائحة من تخطيطها ظلت واقفة لا تتحرك من مكانها.. ولا تقول شيئا.. كانت تتأملني كأني أذكّرها بشخص ما.. وبعد دقائق من الصمت علقت بأني أرسم بشكل جميل.. فشكرتها وسألتها أن كانت تود أن أرسمها.. لم تبد رغبة في ذلك وإنما أخذت تسألني عن الرسم في الساحات إن كان يوفر لي حياة كريمة..؟ وهكذا بدأ الحديث بيننا.. دعوتها إلى كأس نبيذ في حانة قريبة.. وافقت بدون أي تردد.. استغربت ذلك فكثيرا ما ترفض المرأة الاستجابة السريعة، فهي تجعل من الأمور البسيطة أموراً معقدة جداً، فحتى لو كانت ترغب في أن تستجيب من أعماق قلبها، إلا أن كبرياءها تمنعها من ذلك.. لكن إيفا بوناروتي وافقت مباشرة، بل وكأنها كانت تتوقع هذا الأمر..

أحست حواء ذوالنورين ببعض الحرج من تعليقه على زيف ممانعة المرأة، لكنها لم تتفوه بشيء، فواصل حديثه:

- ذهبنا معا.. وحكت لي سيرة مكثفة وسريعة لحياتها.. أخبرتني بأنها في السنة الأخيرة من دراستها بأكاديمية الموسيقى التي تحمل اسم القديسة سانتا سيسيليا.. وهي من عائلة بوناروتي الشهيرة.. وأن أهلها يعيشون في فلورنسا.. وهكذا امتدت جلستنا وأخذنا الحديث، فلم نحتس كأس نبيذ واحدا وإنما قنينتين.. وتحملت هي كلفتها إذ رفضت أن أدفع.. كان وضعها المالي جيداً.. ثم دعتني إلى الغذاء في شقتها.. فاشترينا بعض قطع البيتزا وذهبت معها.. لم يطرأ في ذهني أي تخطيط لهذه العلاقة.. كان الأمر بالنسبة لي مغامرة جميلة مع فتاة جميلة.. لكن كان ذلك اللقاء كان فيصلاً في حياتي.. كان بوابتي التي قادتني إلى عالم آخر، حيث تغيرت مسيرة حياتي بعد ذلك اللقاء بالكامل..
- كيف..؟

سألت حواء ذوالنورين وهي منسجمة بكامل حواسها مع حكاية آدم بوناروتي.. كان تحس بدبيب الخدر في جسدها، وبتصاعد نشوة جميلة إلى خلايا دماغها.. لقد اتضح لها بأن لقبه هو نتيجة تلك المغامرة التي انتهت بالزواج.. لكن ما الذي جرى خلال ذلك.. نظر هو إليها ثم خفض رأسه وبدأ يتحدث وكأنه يستعيد الذكريات من

أعماق بئر مطمورة، فقال:

- قد تحب إنسـاناً ما لكنك تخطئ في فهمه.. ربما هذا ما حدث بيني وبينها.. أحببتها.. وعرفت حكايتها المؤلمة. تعاطفت معها.. كنت أعتقد أنني فهمتها.. لكن أتضح لي بأني كنت واهماً، فأنا في الحقيقة لم أفهمهما.. وهل يمكننا أن نفهم أنفسنا حتى نفهم الآخرين..؟
- ما الذي جرى..؟ ماذا تقصد..؟
- كانت مشوشـة نفسـياً. عصابية.. كانت تعيش في عالم أحلامها.. كثيرا ما كان الواقع والخيال يختلط لديها.. ربما نحن جميعاً كذلك.. لا أدري..؟ لقد تعلقت بي منذ أول لحظة؛ لأني كنت أشبه عشيق أمها..
- ماذا تقول..؟ كيف عرفتَ ذلك؟
- هي قالت لي ذلك..
- روت لـي قصـة عائلتهـا.. والدهـا كان موظفـا معتبـرا فـي بنـك.. وأمهـا تملك صالونـا للملابـس الجاهـزة الغاليـة.. كانت العائلـة تبدو مثالية في وضعها.. كل شيء نظيف ومرتب.. علاقة والديها كما تبدو لهما علاقة رومانسية. والإحترام المتبادل بينهما أصيل وليس مصطنعاً.. ولا نابعاً من خوف أو تقاليد عمياء.. بل أمهـا كانـت تبـدو محافظة في سـلوكها.. وكان أخوهـا الأكبر قد بدأ يتمرد على العائلة.. ويبدو أن علاقاته الخارجية مع أصدقائه جرته إلى تبني مواقف سياسية لا تنسـجم مع عقلية الوالدين.. فكان يسـتفز هدوءهما البرجوازي واطمئنانهما لتقاليدهما الإرستقراطية التي يحكمان على العالم من خلالها.. مما سبب توتراً في العائلة.. ولأول مرة بدأ التوتر بين والديها في كيفية التعامل مع ابنهما.. الأب كان متفهما نوعا ما لأفكار أبنه لكنه لم يوافق عليها، بينما الأم كانت متشـددة وتجادل الأب وتطلب منه أن يكون أكثر حزماً منه..إلى أن حلت الكارثة.. كانت زوجتي المرحومة، حينها في السادسـة عشـرة من عمرها حين بدأت الكارثة.. كانت حينها تأخذ دروسـاً في الكمان في أيام محددة في الإسـبوع.. وذات يوم لم يحضر مدرس الموسـيقى.. أو بالأحرى تأخر في الوصول بسـبب الزحام.. فلم تنتظره وإنما عادت أدراجها.. وخطرت في ذهنها أن تمرق على أمها.. حين وصلت استغربت بأنه أمها أمالت المظلة التي أمام الصالون من الخارج بحيث

يتعـذر الدخـول إلـى الصالـون برغـم أن البـاب لـم يكن مغلقاً لكنه كان إشـارة لعدم السـماح بالدخول.. خفضت هي رأسـها ودخلت من تحت المظلة.. فهي ليست زبونا وإنما ابنة صاحبة المحل.. كان الضوء في المحل شاحبا.. مضت هي إلى الدرج الذي يقود إلى المخزن في الأسفل.. سمعت أنينا وأنات شبقة.. أحست كأنها غير قادرة على المضي أكثر.. لكنها قاومت ذلك ودفعها فضولها الهائل لتعرف ما يجري.. وضعت صندوق الآلة الموسيقية بهدوء على الطاولة الزجاجية.. وهبطت بحذر، متوترة النفس، حابسة أنفاسها متكئة على الجدار.. فلمحت أمها.. أمها العفيفة.. المحافظة.. المتزنة.. الإرستقراطية في نظرتها إلى العالم والأشـياء.. أمها وقد ركعت أمام رجل يشـبهني بالضبط.. وبعمري.. أي أنه كان أصغر من أمها.. كانت تلتقم عضوه في فمها.. وتبربر له بكلمات الحب والشبق.. ثم انحنت أمام كرسي هناك ورفعت تنورتها وطلبت منه أن يخترقها.. طبعا لم تستطع إيفا أن تتحمل المشهد.. ركضت خارجة.. تناولت آلتها.. وحينما صارت خارج المحل سمعت هناك من يصعد الدرج من المخزن.. فلقد انتبها لوجود شخص ما.. لكنهما لم يلحقا به.. ولم يعرفا من كان..

أحسّتْ حواء ذوالنورين بصدمة عند سماع هذا الجزء من الحكاية.. وشعرت بعرق بـارد يتجمـع فـي أعلـى ظهرهـا ويجـري في خط ضعيف.. لقد كانـت إيفا بوناروتي قد واجهت مصيراً مشابها لمصير ابنها آدم ذوالنورين حينما رأى فيديو اغتصابها.. مع فارق الزمان والمكان.. وفكرت بمصائر البشـر المتشـابهة.. لم تعلق.. لكن التوتر والارتباك الممزوج بالخوف كان قد ارتسـم على وجهها.. وغمرتها لهفة لسـماع بقية الحكاية.. حينما صمت آدم بافاروتي، وطال صمته قليلاً.. سألته بصوت خافت وكأنها تبتلع ريقها:

- وماذا جرى بعد ذلك..؟ هل واجهت أمها..؟
- لا.. وإنما بعد أسبوع من العذاب النفسي، حيث كانت قد أهملت دروسها، وتمارضت كي لا تجلس معهم على مائدة الطعام،لم تجد سوى أن تخبر أخاها، الذي فاجأها بأنه يعرف ذلك منذ زمان.. وأن هذا هو أحد أسباب تمرده على أخلاقهـم المزيفـة.. فهـي محافظـة.. ومتزمتة في البيت فقـط.. ولا تبدأ بالطعام دون قراءة صلاة الشكر. وتتحدث مع زوجها بكل احترام، بينما تخونه مثل كلبة شـبقة مع رجل آخر.. رجل تحتقره هي من الناحية السياسـية باعتباره أجنبياً..

لكنها تئن وتصرخ وتعترف بأنها عبدته حينما تتأجج شبقاً.. بل وكانت تساعده بالمال بين فترة وأخرى..

إرتجفت حواء ذوالنورين حينما سمعت تلك الكلمات التي تحدث بها نقلاً عن الأخ بحق أمه.. وتذكرت نفسها كيف أنها تحتقر زوجها الثاني قابيل العباسي، القاتل، الوسيم الذي هو بعمر ابنها بل ربما يكبره قليلاً، وكيف أنها كانت تتوسله في لحظات الشبق بأن يخترقها بعنف، وأنها ستكون عبدة بين يديه.. ارتجفت، وأحست بتجمع عرق بارد خلف شحمة أذنيها.. انتبهت لآدم بوناروتي وهو يواصل حكايته:

– صُدمت زوجتي حينما سمعت أخاها يعرف كل هذه التفاصيل عن أمها.. وأدركت السبب الذي دفعه إلى عالم المخدرات.. وحينما سألته عن دقة معلوماته أخبرها بأنه قد اكتشف ذلك ذات مرة حينما كان ماراً مصادفة من هناك ولمح أمه تودع عند باب المحل رجلاً كان واضح الملامح بأنه أجنبي.. وانتبه للنظرات التي بينهما.. وللإشارة عن القبلة الطائرة التي أرسلها لها.. فارتبكتْ هي ودخلت الصالون مسرعة كي لايراها أحد.. فأخذه الفضول ليتتبع الرجل الأجنبي.. وعرف أنه يبيع الحقائب والأحزمة الجلدية على جسر (بونته فيتشيو) الذي مررنا به قبل ساعة.. وقد انتظره ذلك اليوم لساعات.. وتتبعه ليعرف أين يعيش.. وظل يرصد سلوكه وسلوك أمه.. فاكتشف أنها تزور عشيقها الأجنبي في يوم محدد، وفي ساعة محددة من أيام الأسبوع.. وأحيانا يراه معها في بعض المطاعم البعيدة عن الأنظار.. بل وإمعانا في الإهانة يكون متواجداً في بعض المطاعم التي تذهب إليها مع الأب أحياناً، حيث يجلس على مائدة قريبة وتتبادل معه النظرات الخاصة، وربما تلتقيه في المرافق لتداعبه أو تقبله بينما الأب يعيش مشاعره الرومانسية بأنه يجلس مع زوجته الفاضلة في سهرة ممتعة. عائلة مثالية.. ولا حتى في الروايات العاطفية!

ظلت حواء ذوالنورين صامتة.. كان ينتظر منها أن تعلق، لكنها ظلت صامتة فواصل حديثه:

– كانت المعلومات التي أخبرها بها أخوها صادمة لها.. فانتابتها كآبة سوداء قبضت على روحها.. ولم تستطع أن تتخلص منها إلا بإنفجار مدمر.. دمر كل شيء..
– ماذا حصل..؟

- كمـا قلـت لـك.. كانـت تنتابهـا لحظات من الكآبـة السـوادوية العميقة.. كانت تصحـو أحيانـا لتجـد نفسـها كئيبـة لحد اللعنة.. كان مزيجا مـن الكآبة والضجر والغضـب الحقـود.. واللاجـدوى... وحدث ذات صباح.. حينما كانوا كعادتهم علـى مائـدة الفطـور.. فقالـت الأم للجميع بأنها ربما سـوف تتأخر.. وكان ذلك اليوم هو اليوم الأسـبوع المخصص لزيارة العشـيق حسـب رواية الأخ.. نظرت إلـى أخيهـا الـذي كان قـد توغـل هابطـا إلـى عمق عالـم المخـدرات المظلم.. وبـدون مقدمـات.. وبـكل وقاحـة قالـت لأمهـا.. هل هي تشـعر بجوع جنسـي أكثر من المعتاد بحيث تحتاج إلى سـاعات إضافية من المضاجعة مع عشـيقها الأجنبـي؟! لـم تجـب الأم مباشـرة.. توتر الجـو.. ارتبكت الأم لثوان.. صُدمت لوقاحـة أبنتهـا وللإتهـام المباشـر والصريح لها.. وأدركت أن ابنتها تعرف شـيئاً عن علاقتها بالأجنبي.. لكنها تماسكت وقالت لابنتها بغضب مكتوم محاولة أن تعتبر الأمر إهانة وقحة لا أكثر: أنت وقحة.. مع الأسـف لم ننجح في تربيتك برغم ما وفرناه لك من أسباب التربية الناجحة............

لكن زوجتي لم تسـتطع أن تسـيطر على نفسـها فاندلقتْ بالسـب والشتم والكلمات النابية.. وقالت كل الذي تعرفه عن علاقة أمها بالأجنبي بائع الحقائب والأحزمة الجلدية على الجسـر.. وعن مواعيدها الأسـبوعية التي تذهب إليه فيها..إنهارت الأم... لم تعد تسـتطيع الإنـكار.. لاسـيما وأن الأخ قـد تدخـل مؤيـداً كلام أختـه بأنـه يعرف ذلك منذ شهور، بل أضاف ما لم يقله لأخته حينها.. وكشف عن أشياء هدمتْ كل شيء في هذه العائلة التي كانت قبل لحظة من انفجار زوجتي إيفا تبدو وكأنها عائلة مثالية.. فقد كشف الأبن أشياء حطمت زوجتي وأمه وأباه بضربة قاضية..إذ أقر بأنه سعى إلى صداقة هذا الرجل الأجنبي.. وأن هذا الأجنبي يلوط به أيضاً.. ويسخر من أمه أثناء اللواط به دون أن يعرف أنها أمه.. فهو كان يحكي له عن عشيقة إيطالية يصفها بالكلبة السلوقية التي تتمسـك بقضيبه ولا تفكه من الشـبق.. وأنها أخبرته بأن زوجها عاجز.. وأنه لا يعرف كيف يضاجعها.. وأنها بحكم تدين زوجها لا تستطيع أن تفعل معه أشياء تشتهيها.. بل لا تسـتطيع أن تتكلم بشـبق أثناء المضاجعة.. وهي مغرمة بالكلام البذيء المبتذل أثناء المضاجعة..... صُدمت الأم بكل هذا الكم من التفاصيل الحقيقة.. لكن صدمتها كانت من سـخرية الأجنبي منها بهذه الطريقة المهينة... طبعا لم تسـتطع الأم الإنكار.. فحين

سـألها الـزوج إن كان كل مـا يُقـال هنـا علـى المائدة صحيحاً..؟ أومأت برأسـها موافقة وتمتمت: صحيح...... الأب صُدم بخيانة زوجته الطاهرة، المحافظة، وباعترافات ابنه بالشـذوذ الجنسـي.. أدرك أنه ليس سـوى أحمق كبير.. أرجواز في سـيرك عائلي مقيت ومزيـف.. ولـم يتحمـل الصدمـة..إذ تعـرض لجلطـة قلبية دخل بعدها فـي غيبوبة لمدة أسبوع ثم رحل عن هذا العالم المزيف.. وانهار كل شيء..

- يا إلهي!
- لا أعرف لماذا أروي لك كل هذه القذارة العائلية..؟

صمـت للحظـات. لـم تعلـق هي شـيئاً ولم تجرؤ علـى أن تطلب منه أكثر مما قال، لكنها أحست أنها قريبة منه.. بعد لحظات واصل هو:

- بعـد مـوت الأب.. اعتكفـت الأم فـي بيتهـا لفترة.. باعت محلها.. لكنها بعد شهرين من ذلك طرقت باب عشيقها ذات صباح.. لم تكن تعرف أن ابنها ينام عاريا في سـريره.. في غرفة النوم.. خرج هو إليها عاريا في سـرواله.. لم يكن يتوقع مجيئها لاسيما بعد بيع الصالون.. وانقطاعها بعد موت زوجها.. فوجئ.. دخلت شقته.. لم يكن يريد أن تدخل إلى غرفة النوم لترى رجلاً في السرير.. ولم يكن يعرف أنه ابنها.. لكنه كان فرحا برؤيتها.. فهي في كل الأحوال امرأة جميلة وناضجة وأنيقة وثرية.. وهو يعرف أنها حين تزوره فهذا يعني أنها تريد أن يضاجعهـا.. قادهـا إلـى المطبـخ.. لكنها كانت متلهفة للمضاجعة.. ولم يكن العشـيق يسـتطيع السـيطرة على الموقف.. فانسـاق معها.. لاسـيما وأن الرجل العـاري فـي سـريره لـم يـزل نائمـا بعـد أن أخذ جرعـة كبيرة مـن المخدرات.. وعلى طاولة المطبخ التي كانت مليئة ببقايا الطعام كانت هي مستلقية بينما هو قد دخل فيها بعنف.. وكانت تصرخ من الشـبق. كان العشـيق يحاول أن يغلق فمها بكفه.. لكن حركته العنيفة زادتها شـبقاً.. فجأة.. توقف كل شـيء.. كانت سـكينة المطبخ الكبيرة قد اخترقت ظهر الرجل الأجنبي من جهة القلب.. ولم تسـتوعب الأم ذلك.. كانت تلهث وتصرخ، وسـكون الرجل المفاجئ فسـرته بأنـه قـد انتهـى وقـذف فيها.. ولم تنتبه إلا عندما شـعرت بحـرارة الدم المتدفق منه وانهياره عليها لترفع رأسها قليلاً وترى ابنها عاريا في المطبخ..

نـدّتْ عـن حـواء ذوالنوريـن صرخـة تداركتها بأن تمسـك فمها بكفهـا؛ كي لا ينتبه

أحـد مـن رواد المطعـم الـذي بـدا يكتظ بالناس لردة فعلها. انتبه هو لحركتها.. صمت لحظة ثم واصل:

- لا أعرف ما الذي يجري في عقول المجرمين بعد لحظات من اقتراف الجريمة.. يبدو أن أدمغتهم تعمل بشكل مضاعف وبشكل استثنائي وشيطاني أحيانا.. فلم يدر الحديث بين الأم والأبن.. كان كل شيء مفضوحاً ولا يحتاج إلى كلام..إلا أن الأم تبقى أمّاً.. حتى لو كانت عاهرة؛ لذلك طلبت من ابنها ارتداء ملابسه والمغادرة. وهذا ما جرى.. وبعد أسبوع تم إلقاء القبض على الأم والابن بتهمة قتل الرجل الأجنبي.. العشيق.. وتقطيعه.. ووضع أشلائه في كيس نايلون وتركه في زاوية إحدى الجسور القديمة البعيدة.. وقد عثر على الكيس حينما انتشرت الجيفـة.. ويبـدو أن أجهـزة الشـرطة ومكافحـة الجريمة توصلـت إليهما بطرقها الخاصـة.. وانهـارت الأم.. واعترفـت. وكذلـك الابـن الـذي لم يكن متماسـكا فاعترف أيضا.. وحكم على الأم بعشـرين سـنة وعلى الابن بعشـر سـنوات من السجن..
- وزوجتك..؟
- الغريب أنها لم تتأثر كثيراً.. اعتقدت أن هذه النهاية طبيعية لمثل علاقة معقدة كتلـك.. المهـم.. لقـد انتقلـت من فلورنسـا التي تحبها كثيـراً إلى روما لتدرس الموسيقى.. ويبدو أنها تخلصت من كآبتها وسوداويتها بسبب علاقتها مع رجل يكبرهـا فـي السـن، يـكاد يكون بعمر والدهـا.. كان يعمل قاضياً.. وهو بالأصل أيضـاً مـن فلورنسـا.. عاشـت معـه كعشـيقة..إلى أن تـم إغتيالـه مـن قبل بعض التنظيمـات الإرهابيـة الإيطاليـة.. طبعـاً بعـد التحقيق معها إثـر حادثة الاغتيال.. وبين سين وجيم.. تم اطلاق سراحها.. وتبرئتها من أية شبه بإغتيال القاضي.

بينما كان آدم بوناروتي يسترسل في الحديث عن زوجته المتوفية تذكرتْ هي ذلك اليوم الذي تم في اغتيال زوجها القاضي عند عتبة الباب.. وانتبهت لجليسها وهو يقول لها:

- بعـد ذلـك بسـنة.. بعـد أن تخرجـت.. لـم تجـد عمـلا فـي رومـا.. كنـا قـد تعارفنـا وصرنـا عشـيقين.. نعيـش معاً في شـقة كانت هي التـي تدفع إيجارها.. اسـتأجرناها.. قدمتْ طلبات للعمل في أكثر من أروكسـترا إيطالية.. ولأنها من

مدينة فلورنسا فقدت وافقت أوركسترا المدينة على قبولها كعازفة كمان.. وهكذا انتقلنا إلى فلورنسا.. لاسيما وان لديها شقة فيها.. أنا كنت قد أنهيت دراستي في أكاديمية الفن.. كنا نحب بعضنا.. ربما لأن علاقتنا كانت حرة.. الحب هو وليد الحرية.. الحب هو رعاية كل واحد للآخر والإهتمام به وبشؤونه وتفضيلها على شؤونك من ناحية الإهتمام.. الحب هو إحترام متبادل لمواهب الآخر وقدراته والافتخار بها باعتبارها مجداً شخصياً وليس التقليل منها والحط من قيمتها أو إهمالها؛ لذلك كانت علاقتنا تتوطد كل يوم.. كنا نمارس الحب بشبق وحرارة وجوع.. بل كان كل منا يسعى لمنح الآخر أقصى درجات اللذة..

- هل تزوجتما حينما انتقلتما إلى فلورنسا..؟
- نعم.. لكن الأمر لم يكن سهلاً.. كان برغم كل ما جرى لها تريد تُعلم أمها وأخاها.. فزارتهما في السجن.. حين عادت من زيارة أمها كانت كئيبة جداً.. وأخذت تحدثني بشعور عظيم من الذنب بأنها سبب الكارثة التي حلت بعائلتها.. فماذا لو صمتت عن فضح أمها..؟ ألم يكن ذلك هو السبب في موت والدها..؟ ولماذا كانت تحقد على أمها..؟ أليس الدافع كان غيرة من أمها لأنها تحصل على كل شيء..؟ زوج رائع، مثقف، مهيب، محب، ذو مكانة اجتماعية، وإلى جانب ذلك لديها عشيق وسيم..!! كانت تشعر أحياناً بأن أمها ربما كانت محقة.. فمن كان يعرف ما الذي كان بين أمها وأبيها..؟ أمها رفضت مقابلتها.. حاولت مرات عدة زيارتها كي تحظى بلقائها لكن الأم أصرت على عدم رؤيتها.. بعد أشهر مات الأخ منتحراً نتيجة تناولة جرعة زيادة من الهيروويين الذي كان يتم إدخاله إلى السجون بطريقة غامضة.. وجدوه ميتا في مراحيض السجن.

لا تعرف حواء ذوالنورين لماذا أحست بقلبها يرتعش حينما سمعت بموت الأخ.. أحست أنه قريب من ابنها آدم.. ووجدتْ نفسها تسأله بحزن:

- وهل تزوجتما..؟
- نعم.. لكن ليتنا لم نتزوج..
- لماذا..؟

سألت حواء ذوالنورين مستغربة. نظر إليها للحظة وكأنه كان يريد أن يعرف كيف

سيكون تقبلها لجوابه:

- لأن الزواج يقتل الحب.. يتحول الحب من عطاء وفرح إلى نوع من التملك..
- ليس دائما..
- بلى.. دائما.. وإذا ما حدث عكس ذلك فهذا الأمر يحدث نادرا.. المهم.. عندما تزوجنا حملتُ اسمها بوناروتي.. لكن ذلك لم يساعدني كثيرا سوى في تعميق ارتباطي بها وبإيطاليا..

توقف عن الحديث. نظر إلى دورق النبيذ الذي لم يبق منه سوى بقايا. صبها في كأسه. نهض عن كرسيه متجها إلى البار.. تأملته.. طويلا. ممشوق القامة.. أبعدت عن نفسها التوغل بالتفكير فيه كرجل.. ساعدها في ذلك عودته وبيده دورقا آخر.. فقالت:

- إنك تشرب كثيرا.. كما يبدو لي..
- هذا نبيذ.. وليس ويسكي..

صب في كأسيهما. ترددت هي.. فهي لم تتعود أن تشرب أكثر من كأس أو كأسين. لكنها الآن تشرب كأسها الرابع.. أحست بالإسترخاء وبشيء من الخمول يتسرب إلى صدغيها.. وجدت نفسها تسأله:

- وكيف كانتْ حياتك معها..؟

لم يجب مباشرة، وإنما ارتشف رشفة كبيرة من النبيذ. نظر إليها نظرة أخافتها قليلاً. نظرة فيها رغبة غامضة.. لكنه أحنى رأسه قليلاً، ثم استرسل قائلا:

- هي وجدت عزاءها في الموسيقى.. كانت تحلم بأن تكون عازفة مشهورة.. كانت تتدرب كثيراً.. لكنها كانت واحدة من عشرين عازفة كمان في الأوركسترا.. وكانت تشعر بأنها لاشيء.. ليست سوى آلة مكملة.. وأنها ظل.. شبح.. نغمة تائهة ليس أكثر.. وأن حلمها الموسيقي العظيم لم يكن سوى وهمٍ.. كانت تحس بالضجر من عملها.. وتحس بملل من تكرار التدريب.. على الرغم من أنها تقوم به لساعات يوميا.. كان مرتّبها جيداً.. لكن المال لم يكن مشكلة بالنسبة لها.. مشكلتها أنها لم تكن واثقة من نفسها في الواقع.. كانت تهرب من ماضيها.. تعيش تناقضا بين واقعها وأحلامها الفنية.. في الواقع كانت ضعيفة.. لا تتكلم كثيراً.. ومسالمة بشكل بوذي.. لكنها في الأحلام كانت قوية وشرسة.. ومقتحمة.. ومتحدية. كانت غريبة الأطوار.. وقد ازدادت هذه الغرابة وصارت

واضحة بعد انتقالنا إلى فلورنسا وزيارة السجن لمرات عدة فاشلة محاولة لقاء أمها.. كانت لا تكترث لنقد الآخرين.. بل كانت لا تكترث لإعجاب الآخرين بهـا أيضـاً.. حتـى إذا علِمَـتْ بـأن هناك في الأوركسـترا من ينفـر منها فأن ذلك لا يؤثـر فيهـا.. كانـت شـخصية مكتفية بذاتهـا.. لا تحتاج للآخرين.. ربما كنت مخطئاً.. لا أعرف..

- ألم تحدثك عن مشاعرها..؟
- بلى.. كانت تبوح لي بما يدور في نفسها.. لكنها كانت أحياناً لا تعرف سبب ضجرها.. لم تكن تملك موهبة التعبير عن نفسها بوضوح.. كانت تدعوني إلى الخروج أحياناً لأنها تريد أن تحدثني عما يدور في نفسـها وذهنها وما تخطط له.. وطوال ذلك الوقت الذي يسـبق جلوسـنا كانت تسـتعد لقول أشـياء كثيرة ومهمة بالنسـبة لها، لكننا ما أن نجلس لنتحدث حتى يختفي كل شـيء.. فبعد ثلاث جمل أو أربع تتوقف عن الكلام ولا تجد ما تقول..

أحسـت حـواء ذوالنوريـن بأنهـا تعـرف مثـل هـذه الحالـة التـي كانت تمـر بها إيفا بوناروتي، فسألته:

- هل كان هذا الأمر دائما يحدث معها..؟
- لا.. ليس دائما.. كان هذا التوتر يتكثف بعد كل عرض موسيقي أو حفل تقوم به الأوركسـترا.. كان وجودها كجزء مكمل غير منظور ضمن أوركسـترا يسـبب لها آلاماً وإحباطاً.. كنتُ أحسـها مؤمنة بأنها موهوبة.. وعازفة محترفة.. وأنها كإنسـانة تتميز بحكمة فطرية.. وقوة في الشـخصية وحضور متميز.. وكل هذه الأشـياء كانت تمنحها الشـعور بالإكتفاء الذاتي.. لكنها كانت تعرف أن حلمها هـو أن تكـون عازفـة الأوركسـترا الرئيسـية.. وليـس عازفة في أوركسـترا ضمن عشـرين عازف وعازفة.. لكنها وفي الوقت نفسـه كانت تعرف أن تحقيق ذلك شـبه مسـتحيل.. كانت تخاف من نفسـها ومن رغباتها المكشـوفة بالنسـبة لي.. لذلـك كانـت تهـرب أحيانـا من هـذه التوترات إلى الجنس.. كانت تريد مني أن أضاجعها ونحن في المصعد متجهين إلى شقتنا.. وكانت تكرر معي مشاهد يبدو لي أنها رأت أمها تمارسها.. لا أعرف.. هكذا فهمت.. لأنها تطلب مني أحيانا أن ننقل بعض الأشـياء القليلة الإسـتعمال في شـقتنا إلى مخزن الأشـياء القديمة

في الطابق التحت أرضي للبناية.. ثم تأتي معي.. وهناك في ذلك الطابق البارد والعطـن الهـواء تطلـب مني أن أضاجعها وهي واقفة.. ملتصقة بالحائط القذر.. بل هناك تعيش لحظات من اللذة المكثفة..

- أحست حواء ذوالنورين بتدفق الدماء في جسدها، وبإستيقاظ رغبتها من سباتها، لكنها حاولت أن تسيطر على نفسها، وتقمع رغبتها..
- وكيف خرجتْ من حالتها هذه..؟
- لـم تخـرج قـط.. عملهـا صـار نوعا من العذاب.. وبمـرور الوقت، وتراكم هذه التوترات النفسـية أصيبت بإحباط شـديد وكآبة قوية.. وبعد مرور سـنتين على زواجنا بدأت تميل إلى الصمت.. والعزلة الكاملة.. والابتعاد الجسـدي عني.. وذات يوم جاءت لي وقالت إن لديها عشـيقاً.. هو أحد المدراء المتنفذين في الأوركسترا.. وأنها ستنتقل للعيش معه. وأن بإمكاني البقاء في الشقة..
- ماذا..؟ ماذا تقول..؟

شـعرت حواء ذوالنورين وكأنها ترى فيلما سـيئاً.. لم تكن تعرف مع من عليها أن تمنـح تعاطفهـا.. معـه.. معهـا.. مـع أمها.. مع أخيهـا.. مع الأب المسـكين..؟..إلا أنه واصل سرد حكايته:

- هل تعرفين الكاتب الإيطالي البرتو مورافيا..؟
- نعم... قرأت له رواية شهيرة اسمها (الإحتقار)
- نعم.. نعم.. هل تذكرين مصير بطلة رواية (الإحتقار)..؟

حاولـت حـواء ذوالنوريـن أن تسـتذكر هـذه الروايـة التـي قرأتها منذ أكثر من عشـر سـنوات، وشـدّها عنوانها في حينها، فقرأتها بنهم، واسـتغربت كيف أن الرواية الضخمة ينهـي الكاتـب مصيـر بطلتهـا بأقـل مـن صفحة. نعـم تتذكرها الآن لكن بشـكل ضبابي، فقالت:

- أعتقد أنها ماتت في حادث..
- بالضبط.. كانت مع عشـيقها.. وزوجتي أيضاً ماتت مع عشـيقها في حادث على ساحل نابولي.. ومثلما في الرواية جرى الأمر في الحياة..
- لكنها لم تكن تحتقرك،كما بطلة الرواية التي كانت تحتقر زوجها لأنه تركها لهجمات الرجل الآخر من أجل أن يضمن عمله.. كما أتذكر..؟..

- لا أدري.. صدقيني يا حواء، أنني وبعد كل هذه السنوات من موتها لا أعرف السبب الذي من أجله تخلت عني وذهبت إلى ذلك الرجل.. أ لأنه كان أملها بأن تخرج من وضعها كعازفة كمان مكملة للأوركسترا..؟ لربما أرادت أن لا تبقى ظلاً..؟ لا أعرف.

انتبهت إلى أن الجمل الأخيرة من الحوار قد أثرت على مزاج آدم بوناروتي؛ فشعرت بإنكساره. نظرت إليه فلمحت إرتجافاً تحت عينيه.. كان وكأنه يبكي دون دموع.. وبدون وعي منها مدت كفها إلى كفه ومسكتها بتعاطف إنساني.. فمسك هو بكفها أيضا. ولم يساعده على الخروج من حالته تلك سوى وصول النادل وهو يحمل صينية العشاء.

* * *

بعد العشاء شربا النبيذ أيضا. كان الوقت قد اقترب من الحادية عشرة والنصف مساء. غادرا المطعم. صارا في الشارع العام المؤدي إلى الفندق. كان هو أقل حزناً من بعد رواية حكاية زوجته.. وأقل مرحاً مما هو عليه عادة. بينما كانت حواء ذوالنورين تشعر برضى داخلي وسلام رقيق مع نفسها، فقد كانت تعرف أن آدم بوناروتي قد أعجبها.. وهي قد أعجبته.. فهو لا يخفي ذلك..إذ حدثها عن رغبته في رسمها.. كان للنبيذ تأثيره عليهما.. حين وصلت إلى الشارع فيا 27 أبريل.. وصارت على مسافة قريبة من الفندق مدت يدها لتصافحه قائلة:

- علي الذهاب.. الفندق هنا في هذا الشارع..

نظر إليها..إلى أعماق عينيها مستقرئا رغبتها، وقال:

- بودي أن نشرب القهوة عندي.. دعينا نمضِ إلى شقتي.. نشرب شيئاً من القهوة، لنصحو قليلاً، وفي الوقت نفسه ترين لوحاتي الزيتية.. ثم أوصلك في ما بعد إلى الفندق.
- دع ذلك إلى مرة اخرى..
- ولماذا ليس الآن..؟
- لا أريد أن أثقل عليك.. أولاً.. ولا أريد أن تأخذ عني نظرة سيئة.. بأني أقبل الدعوات بسهولة.. ومن المرة الأولى..

ابتسم لها وقال:

- يعني ممكن أن تقبلي الدعوة بعد المرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة..

ابتسمت له وقالت:

- يعني ممكن.. في ما بعد..

ابتسم لها وقال:

- طيب يا سيدتي حواء.. اعتبريني قد دعوتك للمرة العاشرة.. وأنك خلال المرات العشر قد رفضت.. وها أنا أدعوك للمرة الحادية عشرة.. فهل تقبلين دعوتي..؟!

ابتسمت لحجته المرحة، وقالت:

- أنت تحول كل شيء إلى مزاح..

- الحياة كلها مزحة.. وأحيانا هي أسوأ من مزحة ميلان كونديرا!

صمتت لحظة وقالت له موافقة:

- ربما أنت متعب..؟

- أنا.. سأتعب حينما أكون وحدي.

صمتت للحظات. ابتسمت بشكل غامض وقالت:

- كما وعدتني.. توصلني بعد ذلك إلى فندقي..

- اتفقنا..

وسارا على امتداد الشارع متجهين إلى شقة آدم بوناروتي.

22

فرنتشيسكا داريميني

الساعة الآن قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل. ودع آدم بوناروتي حواء ذوالنورين عند باب الفندق متمنياً لها ليلة سعيدة ونوماً هنيئا؛ فشكرته هي بدورها على دعوته لقضاء هذه الأمسية الممتعة. حين دخلت لم يكن ثمة أحد في مكتب الإستعلامات، لكنها ألقت نظرة نحو القاعات على الجهة اليمنى؛ فرأت الرجل الأشقر الوسيم الذي رأت شبيهه في دمشق يجلس على مقعد وثير مقابل المدخل، لكن في أعماق الصالة. أحست بقشعريرة تسري في أوصالها.. وتمساح الرغبة المطمور تحت الطين قد فتح عينه الحمراء المشعة.. اسرعت خائفة نحو المصعد. أحست كأن كل تأثير النبيذ الذي شربته قد تبخر فجأة.. نظرت إلى لائحة الأرقام فرأت أنه في الطابق الخامس، لكنها في اللحظة التي ضغطت فيها على الزر لتسحبه إلى الأسفل فُتح الباب. استغربت لذلك، فقد رأت أن الرقم يشير إلى الطابق الخامس، فكيف هبط إلى الأسفل وصار في الطابق الأرضي فجأة..؟!

قبل أن يُغلق باب المصعد بالكامل لمحت الرجل الأشقر الوسيم يتجه إلى المصعد. ارتعبت، لكنها أحست بنوع من العزاء لأن باب المصعد قد أغلق بالكامل قبل وصوله. تحرك المصعد صاعداً.

حين خرجت من المصعد في الطابق الخامس، كان الممر شاحب الضوء. كان الضوء يتركز عند باب المصعد، بينما يبدأ بالشحوب حتى يصل إلى ما يشبه العتمة في نهاية كل الممر من الجهتين، لاسيما في هذا الوقت المتأخر حيث الكل نيام تقريباً. اتجهت مسرعة نحو اليسار في الممر الذي يقود إلى غرفتها، وأخرجت البطاقة الألكترونية لفتح الباب، لكنها اثناء ذلك، وبينما هي تقبض على أكرة الباب لتدخل حانت منها إلتفاتة نحو الجهة الأخرى من الممر؛ فاهتز جسدها برعشة رعب؛ إذ رأت

الأشـقر الوسـيم يقـف عنـد بـاب المصعد الذي وصلها صوت انغلاقـه للتو.. كان ينظر إليهـا نظـرات مليئـة بـكلام غامـض، نظرات مليئة بالتسـاؤل، والمـودة، والرغبة، وكأنما تقول لها: لا تخافي.. وفي تلك اللحظة صارت داخل غرفتها، فأغلقت الباب، ووضعت البطاقـة الألكترونيـة فـي موضع عند البـاب؛ فأضاءت الغرفة بالنور.. أدارت أكرة الباب من الداخل كي يغلق بالكامل.

ألقت بحقيبتها على السـرير وجلسـت على الكرسـي القريب من النافذة. ظلت في جلستها صامتة حتى أحست بانتظام أنفاسها واعتدال نبض قلبها.. فكرت مع نفسها بهذا الرجل الأشـقر الوسـيم.. بسـر جلوسـه وحده في الصالة في مثل هذا الوقت؛كأنه كان ينتظرها! ثم كيف وصل الطابق الخامس بينما لم يستطع الدخول إلى المصعد؟ فحتى لو ركض على درجات السلم صاعداً؛ فهو لايستطيع الوصول إلى الطابق الخامس بهذه السـرعة، ثمّ ان السـلّم بعيد في طرف الممر، فكيف صار أمام باب المصعد؟! سـألت نفسها دون أن تستطيع إيجاد أية إجابة منطقية. ما منحها شيئاً من الهدوء هو أن نظراته كانـت غيـر عدائيـة ولا مخيفـة.. علـى العكـس كان ينظر إليها بلطـف؛ مما يوقظ الرغبة في جسدها!

بعد دقائق كانت قد أزاحت الرجل الأشقر الوسيم من مركز انتباهها وراحت تفكر بـآدم بوناروتـي؛ فمنحهـا حضـوره فـي ذهنها نوعا من الاسـترخاء المحبب.. فكرت مع نفسها أنه مختلف عن بقية الرجال الشرقيين الذين عرفتهم؛ فهو لـم يمسها، ولـم يستغل وجودها معه في الشـقة وفي مرسـمه المليء بالصور العارية، علماً أنها كانت في حالة اسـترخاء بسـبب كؤوس النبيذ التي عبّتها طوال المسـاء وعنده أيضاً.. فكرت مع نفسـها لـو أنـه كان مثـل بقيـة الرجـال؛ لمـا فوّت مثل هذه الفرصة.. بل لو أنه كان قد بادر؛ لما امتنعت عن الإستجابة له فهو وسيم ولطيف في التعامل ومرح جداً، بل وحساس لحد الطفولـة.. وقـد انتبهـت إليـه كيف تأثـر بحكايتها التي لا تعرف كيف قصتها له بكاملها، وبشكل الحقيقي دونما رتوش.. وكيف ترقرق الدمع في عينيه حينما حدثته عن انتحار ابنها.. وحدثته عن مشكلتها الحالية كونها متواجدة في إيطاليا بجواز مزور على الرغم مـن عـدم اكتشـاف زيفـه من قبل شـرطة المطـار.. وكيف تعيش الآن بإسـم إيفا بتروفنا تومانوفـا.. وكيـف أنـه أخبرهـا بـأن عليها إنهـاء هذه الحالة الشـاذة؛ إذ أن أجهزة الأمن سيكتشـفون ذلك في ما بعد.. وبالتالي فالأفضل أن تقدم على طلب اللجوء السياسـي،

لكنها لم تفهم كل شـيء؛ لذا اتفقا أن يلتقيا عند الغداء، حيث سـيمر بها خلال السـاعة الحادية عشرة إلى الفندق وسيمضيان اليوم كله معاً.

فكرت مع نفسها أن عليها أن تطلب منه بأن يشتري لها رقما إيطاليا للهاتف النقال؛ بحيـث يمكنهـا أن تتصـل بصديقتهـا إيفـا سـميث في باريس وكذلك آدم الشـامي الذي ساعدها.. رغم انها لا تود ذلك من كل قلبها بعد أن تعرفت على آدم بوناروتي، الذي صارت تحس بحضوره القوي في حياتها الجديدة..

قطع عليها انسـياب تيار الأفكار أصوات شـباب وشـابات مختلطة اللغات ما بين الإنكليزيـة والألمانيـة والإيطاليـة آتيـة من الشـارع رغم ان النافـذة كانت مغلقة. نهضت ببـطء مـن مكانهـا وأخـذت تنزع ثوبها.. وحمالة النهدين. بقيت في سـروالها الداخلي.. شـعرت بنعاس لذيذ يسـري في خلايا دماغها.. دخلت تحت اللحاف عارية. ضغطت على زر قرب رأسها؛ فانطفأ الضوء في الغرفة. وغطت في النوم.

* * *

في تلك الساعة من الفجر كان آدم بوناروتي في شقته. كان حزينا على غير عادته المرحة؛ فحالما ودّع حواء ذو النورين عند باب الفندق ورجع إلى شقته؛ أحس بالحزن يتغلغـل إلـى أعمـاق روحـه والكآبـة تهيمن على أفكاره. أحس أنه عاد إلى عالم كان قد هـرب منـه عشـرين عامـا، بـل إنه حين صار في شـقته أحس قد ضاقـت عليه، وصارت معتمة.. وكئيبة. لـم يكن الأمر كذلك حينما كانت هي موجودة فيها قبل سـاعة تقريبا. كان يحس بدفقات من حنين بارد، مخيف، نحو براري مظلمة.. وشوارع معتمة.. ومدن حزينة، تنام منطوية على أحزانها وهمومها وبؤسها، وكوابيسها المرعبة.. إنه يخاف هذا الحنيـن.. فبقـدر الفـرح الـذي حمله لقـاؤه بهذه المرأة الجميلة، إلّا أنها فتحت الأبواب أمـام العتمـة البـاردة والذكريـات المخيفـة.. فهو لا يريد التفكير بتلك البلاد، بلْ لا يريد حتى تذكر اسـمها، بيد أن ذكرياته عن هذه البلاد بدأت تتحرك وتخشـخش كأنها أفعى تتحرك تحت أكوام من ورق الأشجار المتساقطة والجافة.

لم يكن يشعر بالنعاس رغم انه شرب كثيراً من النبيذ.. بل إنه لكي يخمد هذه الهبة من الذكريات والحنين المخيف فتح قنينة نبيذ جديدة.. كان يحس بهياج نفسي داخلي لـم يعهـده منـذ زمـن طويـل.. أخذ يبـذل جهدا كبيراً من أجل أن يبتعد بذاكرته عن تلك الفترة المظلمة بتفاصيلها المخيفة..

صب لنفسه كأساً حتى ملأه، ثم عبه بدفعتين كبيرتين.. أحس بمرارة وحرقة في معدته.. استلقى على الصوفا.. فكر مع نفسه عن سر هذه الكآبة المفاجئة، وهذا الخوف والتوجس من الذكريات. سأل نفسه: لماذا استعاد بعد لقائه بهذه المرأة الجميلة كل شيء دفعة واحدة.. وكأنه لا يزال هناك. هناك في تلك البلاد..؟ وكأنه لم يعش هنا عشرين عاماً بكاملها..؟ أيمكن ذلك لأنه ألتقى بعراقية حدثته عن تلك البلاد الآن..؟ بينما كان يظن أنه تخلص من تلك الكوابيس التي مرت به.. كان يظن أن البلاد تخلصت من الظلم والرعب والكوابيس وأنها تحررت.. لكن ما روته له هذه المرأة من حكايتها، وعما يجري في تلك البلاد لهو أشد لعنة ورعباً!

أعدَّ لنفسه كأساً جديداً كأنه تقصّد أن يثمل بسرعة كي ينام.. عب كأسه دفعة واحدة.. ألقى نظرة على الموقد المطفأ الذي يحيطه إطار مرمري جميل هو جزء من ديكور الصالة.. نهض من مكانه واتجه إليه.. أحس بأن عليه أن يلهي نفسه عن التفكير بتلك البلاد وكوابيسها.. حاول أن يقرأ.. توجه إلى الكتب المصفوفة فوق الإطار المرمري للمدفأة المطفأة.. كتب بالإيطالية والعربية.. استعرضها بنظرة سريعة.. فجأة برقت في نفسه رغبة غامضة في أن يقرأ شيئا ما بالعربية.. لم يكن يدرك سر تلك الرغبته.. سحب كتاباً برتقالي اللون شبه ممزق، نظر إلى عنوانه وقرأ: (الكوميديا الإلهية، الجحيم/ دانتي إليجييري/ ترجمة: حسن عثمان/ دار المعارف).. وبدون رغبة كبيرة فتح الكتاب على النشيد الأول:

" في منتصف طريق حياتنا، وجدتُ نفسي في غابة مظلمة، إذ ضللتُ سواءَ السبيل.

آه، ما أصعب هذه الغابة الموحشة الكثيفة القاسية، التي يجدد ذكراها لي الخوف.

....

وكمن خرج لاهث الأنفاس من البحر إلى الشاطئ، فيلتفتُ إلى المياه الرهيبة، ويتأمل،

هكذا التفتت روحي إلى الوراء وكانت لا تزال لائذةً بالفرار،

لكي تُحملق في الطريق الذي لم يدعْ أبداً إنساناً حيا "

أغلق الكتاب. وأعاده بحركة لا إرادية إلى موضعه. عاد ليجلس ثانية على الصوفا. أخذ يفكر بما قرأ الآن. سأل نفسه: أحدث هذا مصادفة..؟ لماذا حينما فتح الكتاب

واجهته تلك الصفحة، وتلك الأبيات بالذات..؟! فهذا الكتاب موجود في موضعه هنا منذ أكثر من عشرين عاماً، كان هدية من صديقه الشاعر الراحل آدم السامرائي، قرأه في ذلك الحين، ولم يمد يده ليتناوله منذ تلك السنوات بتاتاً؛ فما الذي جرى الليلة بحيث يفتحه، ويقرأ تلك الأبيات التي تعبر عما يجول في نفسه الآن..؟.. توغل في الأسئلة أكثر، ووجد نفسه يسألها: أهناك سر في اللقاء بهذه المرأة..؟ لقد قطع علاقته بتلك المنطقة وما يأتي منها منذ الموت الفاجع لصديقة آدم السامرائي وانغماره في الحياة الإيطالية، لاسيما بعد زواجه من إيفا بوناروتي.. لقد توغل بعيداً في الحياة الإيطالية حتى صار لعمق توغله في الثقافة الإيطالية، وإجادته للغتها؛ يعتقد نفسه قد وُلد من جديد، وصار إنساناً آخر.. فما الذي جرى الآن..؟ أتبخرَ كل ذلك فجأة..؟ إنه يجد نفسه في شقته الآن وحيداً في مواجهة حياته وكوابيسه التي هرب منها منذ عشرين عاما حينما وصل إيطاليا!

ظل جالساً على الصوفا. نظراته تتجه إلى أعماق الموقد المطفأ، لكن الأفكار كانت تسري مع دبيب خدر النبيذ الذي أخذ يتضح تأثيره فيه شيئاً فشيئاً.. قرر مع نفسه بأن لا يدع روحه تنشغل بهذا الحشد من الكوابيس.. لكن أ يستطيع ذلك..؟ ثم لماذا شدته هذه المرأة منذ النظرة الأولى..؟ نعم أنه يعرف لماذا شدّته؛ فهي امرأة تذكره بذلك النوع من النساء المتميزات.. النادرات.. نساء لا تصادفهن إلّا في الروايات ولوحات الفنانين الكلاسيكيين.. هي امرأة من طراز خاص.. متعددة الوجوه والأدوار في الحياة؛ فهي جميلة ومثيرة توقظ عند الرجل شبقاً خفياً؛ بحيث يفكر أي رجل يراها في مضاجعتها منذ أول نظرة، أو يستمر بتخيلها عارية أمامه، لكن في الوقت نفسه هي شخصية متزنة، تبدو قوية وذات حضور رومانسي محبب، وتفيض حنانا كأم أو أخت، وما أن تبدأ بالكلام؛ حتى تتكشف عن شخصية دافئة وتلقائية، وتفيض طيبة، مما يضفي عليها نوعا من القداسة والطهرانية، إن مجرد رؤيتها يبعث العافية في الروح، ويثير الأسى الشفيف.

لم يستطع الإستقرار طويلاً في جلسته.. نهض متوجها إلى جهاز الموسيقى. وقف لحظات حائراً أمام العدد الكبير من الأقراص الموسيقية المدمجة.. وأخيرا حسم أمره ومد يده إلى قرص مدمج يحمل صورة لجايكوفسكي ولقطعته المستمدة من (جحيم) دانتي أليغييري،، وهي بعنوان (فرنتشيسكا دا ريميني).. وضع القرص في موضعه وشغل الجهاز وعاد إلى الصوفا مستقليا عليها بكامل جسده.. انسابت الموسيقى الرقيقة

والمتوترة في أرجاء الغرفة.

لم يستطع آدم بوناروتي أن يركز على الموسيقى كعادته؛ إذ اندمجت مع تفكيره في علاقته بحواء ذوالنورين لوقت طويل، إلى أن بدأت تباشير الفجر.. وكان للموسيقى.. و للنبيذ تأثيرهما الواضح.. شيئا فشيئا هدأت نفسه، وتلاشت مخاوفه، وانزاحت كوابيسه.. بل وصل إلى قرار مع نفسه بأن يساعدها في حل مشاكلها بكل إخلاص.. سأل نفسه لحظة عن طبيعة علاقته الشخصية بها؛ فلم يستطع أن يجد لها توصيفاً.. هل هي صديقة أم مشروع عشيقة؟ ابتسم من خاطرة أن يتخذها عشيقة.. لكن كيف..؟. استرخى مع هذه الخواطر شيئا فشيئا.. ولا يعرف كيف غط في نوم هادئ وعميق.

* * *

في صباح اليوم الثاني، بينما كانت حواء ذوالنورين تجلس على الطاولة نفسها التي جلست حولها بالأمس لتتناول فطورها، انتبهت إلى أن الرجل الأشقر الوسيم يجلس على الطاولة المقابلة لها عند النافذة المطلة على الشارع. كان ينظر إليها ويبتسم.. وكأنه يعرفها ويحاول أن يذكّرها بنفسه. ارتبكت. أنهت فطورها بسرعة غير اعتيادية ونهضت خارجة من المطعم.

كيف يمكن أن يكون هو الشخص نفسه الذي كان في فندق (الشام) بدمشق..؟ هذا مستحيل، لكنه يشبهه إلى حد التطابق..! فكرت مع نفسها بقلق. نظرت إلى الساعة الجدارية في مكتب الإستقبال؛ فرأت أنها تجاوزت العاشرة بخمس دقائق..إذاً عليها أن تنتظر آدم بوناروتي لمدة ساعة تقريبا.. حين التفتت إلى جهة المطعم؛ رأت الرجل الأشقر الوسيم ينظر إليها مبتسماً، حيث كان يجلس قرب الباب ويمكن رؤيته لمن ينظر نحو المطعم.. لم تستطع أن ترد على ابتسامته. في تلك اللحظة قام عامل المطعم الهندي بإغلاق باب المطعم؛ لإن فترة الفطور قد انتهت، ولم يبق سوى الذين لم ينتهوا من فطورهم.

خرجت إلى الشارع. توجهت إلى جهة اليسار. انتبهت إلى هذا العدد من الصيدليات، ففي مسافة لا تزيد عن مائة متر كانت هناك أربع صيدليات على جانبي الشارع. وصلت إلى تقاطع الطريق حيث امتد أمامها بارك على جانبي الشارع تتوسطه نصب وتماثيل لأبطال انتفاضة السابع والعشرين من أبريل الذين سمي الشارع باسمهم.

عبرت الشارع وصارت في البارك المفتوح. قررت مع نفسها أن تقضي هذه الساعة

مـن الوقـت متجوّلـة فـي البـارك؛ لتتعرف على أصحـاب النصب والتماثيـل. في الجهة الجنوبيـة مـن البـارك لمحـت امرأة شـابة تقـود كلبا. ركض الكلـب أمامها ورفع إحدى قوائمه وأخذ يتبول على وردة عند حافة مربع مخصص للزهور. ابتسـمت مع نفسـها.. فكرت بالمشهد نفسه: كلب يبول على وردة.. المرأة الإيطالية ابتسمت لها أيضا.

حينما أكملت شـبه دورة في البارك تقدمت من التمثال الذي يتوسـط الجانب من البارك الذي يشـقه الشـارع العام إلى نصفين. أرادت أن تتعرف على صاحبه من خلال قراءة المعلومات المكتوبة على قطعة نحاسية على قاعدته، لكنها فوجئت بشاب وفتاة يجلسـان على مصطبة بالقرب من التمثال، وهو يضمها بعنف ويلتهم شـفتيها بينما يده تعبث بصدرها وتنزل إلى ما بين فخذيها. تحرجت وتراجعت، ثم استدارت إلى الجانب الآخر من الشارع. انتظرت إضاءة الإشارة الخضراء؛ فعبرت إلى الجانب الآخر.. لكنها حينما توجهت إلى الوسط لكي ترى النصب فرأت مجموعة من الأجانب، خمنت أنهم من أثيوبيا أو السـودان، يجلسـون عند قاعدته.. أخذ بعضهم ينظر إليها بشـبق واضح، فاجتازتهم. وظلت تدور في هذا الجانب من البارك. رأت فتاتين أوربيتين تقبّلان بعضهما بشـبق واضح. شـعرت بالتقزز. ابتعدت. لمحت مصطبة فارغة تقع تحت ظلال شـجرة في طرف البارك، فذهبت إلى هناك. وجلست.

كان نهارا مشمساً. ظلت تتأمل الأشجار، وظلالها. تتبعت حركة الأغصان الأوراق، ومـا نتـج عنهـا مـن تحـرك للظـلال. بقيت تتابع تحـولات الظل وحركته لفتـرة، إلى أن شـعرت بالملل. نظرت إلى الشـارع الذي كان يضج بالحركة. انتبهت إلى امرأة حامل تدفع أمامها عربة طفل صغير.. استغربت وسألت نفسها، متى استطاعت هذه المرأة أن تحمل بهذه السرعة ما دام لديها طفل رضيع.. لكن المرأة توقفت ثم حرّكت ما موجود داخل العربة، فاتضح أنها تضع حاجات معينة داخلها وليس طفلاً. انتبهت إلى أنها لا تفكر بأي شـيء.. اسـتغربت من نفسـها. جالت بنظرها في الحديقة الكبيرة.. واسـتقرت نظرتهـا علـى نفسـها وعلـى الدرب الضيق، الذي يمتـد قرب قرب المكان الذي تجلس فيه.. أحست بسكون شبه مطلق يهيمن عليها.. سكون أقرب للرضى المكتفي بذاته.

فجأة، وكأنها استيقظت من غفوة لذيذة.. وجدت نفسها تسأل نفسها:

ماذا أفعل أنا هنا في إيطاليا..؟ كيف سـأعيش..؟ وأين..؟ هل أسـتقر هنا في هذه البلاد وهذه المدينة..؟ كيف سأتخلص من اسمي الروسي..؟

وهذا الآدم الإيطالي الذي يبدو وكأنه يقوم بمساعدتها كواجب.. كمشاركة وتفهم للضعف البشـري.. كيف سـتكون علاقتها به..؟ ثم من هذا الرجل الأشـقر الوسـيم..؟ لماذا تحس بالرغبة تتقد فيها عند رؤيته..؟ لماذا يتابعها وكأنه يطاردها..؟

تذكرت آدم الشامي وصديقتها إيفا سميث.. لابد أن تحدثهما اليوم..؟ هكذا قررت مع نفسها. كانت غارقة في أفكارها ولم تأبه لما يجري أمامها، فأن ما يجري كان يمرق كظلال باهتة لا معنى لها. فجأة انتبهت إلى صوت يخاطبها:

- بونجورنو..

التفتت فرأت امرأة ايطالية عجوز تجلس إلى جانبها على المصطبة الخشبية. نظرت العجوز إليها وأخذت تتحدث بالإيطالية. لم تفهم هي شيئا. فقالت للعجوز بالإنكليزية بأنهـا لا تتكلـم الإيطاليـة ولا تفهـم مـا تقولـه لهـا، إلا أن العجـوز ظلـت تتحدث معها بالإيطالية وبسـرعة، وبمشـاركة فاعلة. ولما انتبهت إلى أن حواء ذوالنورين لا تجيبها.. صمتت للحظات وهي تتأملها، ثم استمرت بالحديث..

ظلـت العجـوز تتحـدث بالإيطالية لفترة طويلـة بينما بقيت حواء ذوالنورين صامتة. فكـرت مـع نفسـها ربمـا أن العجـوز غير طبيعية، لكن الأمـر لم يكن كذلك.. فبعد فترة جـاءت امـرأة فـي الخمسـين مـن عمرها.. ألقت التحية عليهما، ثـم أخذت تتحدث مع العجـوز بالإيطاليـة وجلسـت جنبهـا. تحركـت حـواء ذوالنوريـن قليـلاً.. التفـت المرأة الخمسـينية نحوهـا وأخـذت تحدثهـا بالإيطاليـة أيضـاً.. فقالـت لهـا بالإنكليزية بأنها لا تتحدث الإيطالية ولا تفهمها.. ابتسمت المرأة الخمسينية وأخبرت العجوز التي التفت إلـى حـواء ذوالنوريـن وأخذت تتحدث معها مبتسـمة بالإيطالية أيضا.. ابتسـمت المرأة الخمسـينية لها أيضا ورشـقتها بجمل سـريعة بالإيطالية.. لم يكن أمام حواء ذو النورين سـوى أن تبتسـم لهمـا، وتفكـر مـع نفسـها عـن غرابة هذا الشـعب الذي يتحـدث كثيراً وسـريعاً.. لكنـه يبقـى ودوداً وطيبـاً. ولكـي لا تحـرج نفسـها كثيراً نهضـت من مكانها، أومأت لهما برأسها بالتحية.. فصاحتا بصوت واحد:

- تشاو

هي تعرف هذه الكلمة. فقالت لهما:

- تشاو..

حيـن وصلـت إلـى مقربـة مـن مدخل الفندق لمحت آدم بوناروتي مقبلاً، فأحسـت

بمشاعر فرح وحب تغمرها.. وبينما كانت الخطوات بينهما تتقلص سألت نفسها إن كانت قد وقعت في حبه..؟ وإلّا ما معنى أنها فرحت كل هذا الفرح عند رؤيته..؟ بل تمنت لو تجرؤ وتحتضنه..

* * *

-أظن أنه لا شيء يثير اهتمامك.. فأنت حين تمتدح زوجتك أو حتى رساماً ما أو شاعراً ما فأنك تمتدحه بطريقة أحسك لا تحب من تمتدحه، وحينما تقسو على أحد منهم وتنتقده أحس من طريقتك أنك لا تكره من تنتقده.. وكأن المديح والانتقاد لديك سواء..!! أنت لا تكترث بأي منهم.. بل أحسك لا تكترث حتى بنفسك.. وفنك.. وحياتك.. ومستقبلك.. بل إنك تقوم بيوميات حياتك دونما لذة أو تألم.. لماذا..؟ هل أنا محقة في ذلك..؟

-لا أعرف إن كنتِ محقة أم لا.. وحتى لو كان الأمر كذلك فأنا لا أعرف لماذا..! لكنني يمكن أن أوضح لك الأمر بشكل تقريبي.. أحيانا يحدث أننا نفقد إحساسنا بالسعادة وبتدفق الحياة.. ربما لاعتيادنا عليها.. ولا ننتبه لذلك إلّا بعد أن نفقدها.. و بعد فوات الأوان.. وإذا كان المرء ممن لا يندمون على شيء فهذا يعني أنه يواصل حياته غير مكترث.. سيظل ساكنا.. وغامضا.. وربما خاوياً ومضجراً كالأبدية..

- خاوياً ومضجراً كالأبدية..؟!
- خاوياً ومضجراً كالأبدية..

كانت حواء ذوالنورين تنظر إليه بشوق ولهفة مشوبة بأسى.. وكانت في ذلك الصباح قد مرت ثلاثة أيام على وصولها إلى فلورنسا. وكانت لقاءاتها معه تتكرر بعيدة عن أي وعد أو خطة.. لكن هذه اللقاءات المتكررة يومياً قد عمّقت علاقتهما بطريقة صار فراقهما عن بعضهما ليس سهلاً على كليهما.

خلال هذه الأيام انتبهت إلى ان آدم بوناروتي يستسلم أحيانا إلى كآبة حادة، ويتبرم مثل طفل، لكنه ينتبه لنفسه أحيانا إلى أنه كئيب ومتبرم ويبعث على الضجر.. لاسيما حينما تكون معه في الشقة، فيغطي على حالته تلك بوضع أقراص مدمجة للموسيقى في الجهاز، وينصت للموسيقى بتركيز شديد.

كانت حينما تسأله عن سر كآبته، يتهرب منها، ويتعمد إعطاءها أجوبة غامضة وغير محددة، لا تفهمها جيداً، فكانت تصمت ولاتبدي عدم فهمها.

لكنهـا اليـوم، وفـي شـقته بعـد أن ذهبـا إليها، واجهته بما تفكر فيه حول شـخصيته. أحسـت أنه يخفي في أعماقه أشـياء غامضة، وأحسـت في الوقت نفسـه بأنه حين يقول لهـا بأنـه لا يعـرف فهـو صـادق فـي عدم معرفتـه. كان هو يخـاف أن يفقدها، بغموضه، وبأسـراره التي يطبق عليها في أعماق نفسـه، لكن يود مخلصاً أن يكون قريبا منها وأن تفهمه وتكون قريبة من أعماقه، لذلك وجد نفسـه الآن، وهما يجلسـان في شـقته بعد الفطور.. يندفع لكشف الأستار عن بعض أسراره، فقال لها بصوت صادق:

-هـل رأيـتِ ذلـك النـوع مـن الفئـران التي توضع فـي الأقفاص الدائريـة المدرجة والمتحركة.؟حيـث يركـض الفـأر فيـدور القفص الدائري، لكـن الفأر برغم حركته على الدرج الدوار يبقى في مكانه، فهو يركض ويركض دون أن يصل إلى مكان.. هل رأيت ذلك..؟

نظرت إليه دون أن تفهم قصده من ذلك، فقالت له:

- نعم.. رأيت ذلك.. في واجهات بعض المحلات التي تبيع الحيوانات.. هنا أمس رأيت ذلك في أحد المحلات..

نظر إلى عينيها بتركيز دون أن يبعد عينيه عن وجهها وقال:

- ذلك الفأر هو أنا..
- أنت..؟!
- نعم.. أنا..
- أنت..؟ أأنـت فـأر..؟!

قالـت ذلـك متعجبـة مـن محاولتـه إهانة نفسـه، إلا أنه شـعر براحة وهـو يعري ذاته أمامها، فواصل بنبرة أكثر حيوية:

-لا أريـد أن أكـون بطـلاً.. بـل ولا أريـد أن أكـون مثل بطل روائي هارب من رواية دراميـة مليئـة بالحكـم الفلسـفية.. لا أريـد أن أجلـد نفسـي كمـا يفعل بعـض المتدينين المتعصبين في بعض الأديان.. لكنني ببساطة أريد أن أعيش حراً.. ولكي أشعر بحريتي الداخلية فأني أتقبل الأشياء كما هي.. لا أتحمس لجمالها الساحر بشكل مبالغ فيه، ولا أشمئز من بشاعتها المرعبة بطريقة تبعدني من تقويم ذلك بشكل صحيح.. لذلك كثيراً مـا أعيـش تحـت وطـأة وضوح لا يرحمني.. بل يملأ روحي بالكآبة والحزن.. وبعذاب يخز روحي مثل وخز ضوء الشمس الساطعة لبؤبؤ العين بعد الخروج من كهف مظلم.

كانت تنظر إلى وجهه وهو يتحدث، وترى المعاناة التي ترتسم على وجهه الجميل وهو يحدثها، فقالت له وكأنما تريد أن تهون عليه وتخفف ما معاناته:

-لماذا أحسك وكأنك مثل هارب من السجن.. تلتفت إلى الوراء بخوف.. كأنك تهرب من شيء تخشى أن يلحق بك..

-لأن حياتي انكمشت مثل ورقة ألقيت في موقد تشتعل فيه النيران..

-ياه.. ما هذا..؟ ولِمَ كل ذلك..؟!

- لأني لم أحدثك عن الجانب المظلم من حياتي..
- نظرت إليه بصمت للحظات، وأحست بكم العذاب النفسي الذي يكبته في أعماقه، وسألته بهدوء:
- هل لديك جانب مظلم في حياتك..؟ هنا في إيطاليا..؟

نظر إليها وكأنه كان في محكمة ويريد أن يدلي باعترافه الخطير، فقال:

- نعم.. هنا في إيطاليا..
- كيف..؟
- هل انتبهت إلى الموسيقى التي استمع إليها دائما..؟
- نعم... انتبهت.. أنه القرص نفسه الموجود في الجهاز.. وهي القطعة الموسيقية ذاتها.. ما علاقتها بوضعك..؟

صمت للحظات. نهض متجها إلى إلى الموقد حيث الأقراص المدمجة والكتب المرصوفة فوق إطار الموقد المرمري، فأخذ قرصاً مدمجاً لجايكوفسكي وعاد إلى الصوفا، ثم واصل كلامه:

- هذه هي قطعة موسيقية.. قصيدة سيمفونية اسمها (فرنتشيسكا دا ريميني) لجايكوفسكي استمدها من (جحيم) دانتي ألغييري.. وبالتحديد من النشيد الخامس حيث يهبط دانتي الى الجحيم.. وهناك يقابل (فرنتشيسكا دا ريميني).. و(باولو مالاتستا).. فتروي هي له قصتهما..إنها قصة مؤلمة.. حيث اعتقدت أسرة (فرانتشيسكا دا ريميني) التي كانت في صراع مع أسرة (باولو مالاتستا) بأنه يمكنهما عن طريق المصاهرة أن يعيشا في سلام.. فقبلا بأن تتزوج ابنتهم الجميلة (فرنتشيسكا) من (باولو مالاتستا) الشاب القوي والوسيم، فامتلأ قلب العذراء الجميلة بالأحلام الوردية.. وهكذا زفت (فرنتشيسكا) لعريسها.. لكن

اتضح أنها لم تزف للأمير (باولو مالاتستا)، وإنما زُفت إلى أخيه (جانتشوتو) القبيح والمشوه.. وبرغم ذلك.. فبحكم المكان الواحد والسكن المشترك.. فقد نشأت علاقة حب عنيف بين (فرنتشيسكا) و(باولو).. كان العاشقان يجتمعان بشكل بريء في غياب الزوج.. وذات يوم كانا يقرآن قصة فرنسية من قصص المائدة المستديرة في العصور الوسطى.. قصة تتناول الملكة (جينيفرا) زوجة الملك (أرتو) وفارسها الذي أنقذها من لصوص الغابة.. وكان في القصة أن الفارس قبّل الملكة.. فأخذهما الموقف وقبّل (باولو) حبيبته (فرنتشيسكا).. ويبدو أن الأمر استمر بينهما.. وقد نقل رئيس الخدم تفاصيل هذه العلاقة للزوج.. الذي قرر أن يمسكهما بالجرم، ففاجأهما في عزلتهما.. الأخ العاشق (باولو) أسرع إلى الفرار، لكن ثوبه علق بالباب، فاندفع الأخ الزوج وعاجله بضربة السيف، فاعترضته الزوجة (فرنتشيسكا) لحماية حبيبها، فاخترق السيف صدرها ونفذ إلى ظهر حبيبها (باولو) في الوقت نفسه، فماتا معا. هذه القصة أثرت في دانتي ألغييري فاستخدمها في عمله الملحمي العظيم.. وحينما قرأ جايكوفسكي (الجحيم) تأثر بهذه القصة أيضا فكتب هذه القصيدة السيمفونية التي أطلق عليها اسم (فرنتشيسكا دا ريميني)

ارتعش قلب حواء ذوالنورين وهي تستمع لهذه الحكاية، فخمنت أن هناك أسراراً مهولة وراء هذه الحكاية، فقالت بصوت خافت:

- مسكينة..
- من..؟
- هذه المرأة العاشقة.. فرنتشيسكا..

نظر آدم بوناروتي إليها متفحصاً، وسألها بغرابة، وفي صوته نبرة استنكار خفي:

- ولماذا ترينها مسكينة..؟ لقد خدعت زوجها.. فلماذا هي مسكينة..؟ الزوج المخدوع هو المسكين.. أليس كذلك..؟
- لكن كما قلت أنت: إنهم وعدوها بالزواج من الأخ الوسيم.. أي هم خدعوها أولاً.. فهي المخدوعة.. والزوج هو الذي خدعها.. أليس كذلك..؟
- نعم.. ولا.. ومهما كان.. ما كان يجب أن تخدع زوجها..

صمتت حواء ذوالنورين للحظات وهي تفكر بالأسلوب الذي عليها أن تتبعه

لتسـأله عـن الجانـب المظلـم فـي حياتـه الإيطاليـة والمرتبط بموسـيقى (فرنشيسـكا دا ريميني) لجايكوفسـكي. انتظرت لثوان كي يهدأ قليلا إذ أحسّـت أنه اُسـتفز من دفاعها عن العاشقة القتيلة.

كان آدم بوناروتـي ينظـر بشـكل تائـه لا علـى التعييـن حينما سـألته حواء ذوالنورين بهدوء وبتردد خفي:

– لكن ما علاقة هذه الموسيقى بالجانب المظلم من حياتك..؟

انتبه إليها وكأنه لم يكن معها، وسأل:

– ماذا..؟ ماذا قلتِ..؟

– قلت ما علاقة الموسيقى بالجانب المظلم من حياتك..؟

شـردت نظراته ثانية، ولم تسـتقر على موضع معين، لكنه أخذ برغم ذلك يتحدث، فقال لها بهدوء مشوب بمرارة وأضحة:

–ليس للموسيقى علاقة مباشرة بها، وإنما هي تذكرني بها.. فأنا عشت حكاية قريبة من حكاية (فرنشيسـكا دا ريميني) مع (باولو مالاتسـتا).. لكني لم أكن العاشـق وإنما الزوج المخدوع..

– ماذا..؟!

ندت عن حواء ذوالنورين صرخة خافتة، إلا أنه واصل:

–صحيـح أنـي حدثتـك عـن علاقـة زوجتي إيفا مع أحد مـدراء المكان الذي كانت تعمـل فيـه.. وأنهـا ماتـت بحادث إصطدام سـيارة على الطريق في جنوب إيطاليا.. لكن الأمر سبق ذلك.. لقد خانتني مع صديقي المقرب جداً..

صمتـت حـواء ذوالنوريـن للحظـات وقالت بتردد وكأنها تتوجس من أن تسـتفزه أو تغضبه:

– ولماذا لا تقول إن صديقك خانك..؟

نظر إليها لثوان وقال:

– ربما أنت محقة.. وعلى أي حال.. فربما أنا أتحمل جانبا كبيراً في ما جرى..

– كيف..؟

– كان صديقـي هـذا يسـارياً.. وكان قـد أرسـل عـن طريـق الحزب الشـيوعي إلى بلغاريا للدراسة.. وهناك درس الآداب والأدب المقارن.. وحينما أنهى دراسته

لـم يرجـع إلـى العـراق، فقـد بقي في بلغاريا.. إلى أن أضطـر إلى مغادرتها بعد أن عصفت بها رياح التغيير.. فذهب إلى تونس للتدريس في جامعاتها.. وبقي هناك لسنوات.. وفي صيف عام ما.. وكنت أنا أعيش مع زوجتي في فلورنسا.. ومصادفـة قابلتـه.. مثلمـا قابلتـك قبل أيام.. يا إلهي كم كانت فرحتي به كبيرة.. صحيح أنني قطعت علاقتي بالعرب وبالعراقيين وبكل ما له صلة بتلك البلدان، إلّا أنـه صديقـي هـذا هـو جـزء من أجمل ذكرياتي.. لـذا فرحت به وأحتضنته.. كان هـو يعيـش فـي فنـدق ما.. دعوتـه إلى بيتي.. وتعرف على زوجتي.. بل كنا نلتقي كل يوم.. وكان يقضي معظم وقته معي أثناء عملي.. وبعد مرور أسـبوع أخـذ يتشـكى مـن تكاليف الفندق.. فدعوته لتـرك الفندق والانتقال للعيش معنا في الشـقة.. لاسـيما وأن لدينا غرفة واسـعة للضيوف.. لكن منذ أن أخذ يسـكن معنا تغيرت الأمور.. صار لا يقضي وقته معي.. وإنما يبقى في البيت.. لاسيما وأن زوجتي تقضي وقتها في البيت أيضا منشغلة بالتدريب على قطعها الموسيقية اللازمة.. بل إني لسـذاجتي وطيبة قلبي كنت أطلب من زوجتي أن تخرج معه فـي وقـت فراغهـا..!! حيـن نكون معاً كنا نتحدث بأشـياء مختلفة، لاسـيما وأنا كنت أقوم آنذاك بدور المترجم من العربية إلى الإيطالية، فكان يتألق هو حينها بالحديث الفكري والفلسفي والفني والأدبي.. لم أكن أعرف أنه في أعماقه كان رجـلاً وضيعـاً.. برغـم قنـاع الحكيم الكئيـب والمفكر المتأمل الذي يضعه على وجهه بإستمرار.

صمت للحظات وكأنه يستحضر ذلك القناع، فسألته حواء ذوالنورين قائلة:

- وزوجتك..؟ ألم تنتبه لذلك..؟ كيف انزلقت معه..؟
- بلـى.. كان هنـاك صـراع خفـي بيننـا.. صراع خفي منذ بدايـة علاقتنا.. صراع له علاقة بإحساس الأوربي بالتفوق الحضاري.. والنظرة الدونية للشرقيين.. وهذه لا تجدينها عادة في تفكير المثقفين واليسـاريين والكتاب والفنانين، لكنها تبرز هنا وهناك في تصرفاتهم.. ويمكن أن يلمح الإنسـان ذلك من خلال المعاشـرة الطويلـة.. فبرغـم مـن أن زوجتـي إنسـانة طيبـة جـداً.. لكننا كنا نتشـاجر أحيانا لشـعورها بـأن مـا تقولـه أو تعتقده هو الصحيـح؛ لأنها أوربية وأنا قادم من بلاد متخلفة.. كما أن بعض طبائعي الشرقية غير مفهومة بالنسبة لها.. لذا تأتي فترات

تتوتـر العلاقـة خلالهـا فـي ما بيننا.. وحين التقيـتُ صديقي الدكتور آدم كارثة.. وهذا هو اسمه، كنتُ وزوجتي نعيش فترة كان التوتر يطغي على علاقتنا.. لكن وجـوده.. وطريقـة تصرفاتـه زادت الطيـن بلـة كمـا نقول نحن.. بـدأت زوجتي تبتعد عني.. بل تنفر مني.. وتشـاجرنا بسـببه ذات مرة.. كانت ترفض أن تكون معـه بدونـي.. لـم أكـن أفهـم أنا ذلك.. ولم أفهم ما جرى بينهما.. لكن زوجتي صرخت بي مرة غاضبة وهي تقول لي: لماذا تدفعني بعيداً عنك..؟ أتريد مني أن أكون عشيقة صديقك..؟

– ماذا..؟!

– هـذا مـا صرخـت بـه غاضبـة.. بـل إنهـا اتهمتني بأني أدفعهـا دفعا إلى أن تكون عشـيقة صديقـي.. لقـد اتهمتنـي بأنـي أقترح عليها دائما أشـياء هـي غير مقتنعة بها.. اتهمتني بالنفاق.. وضعف الشخصية.. وعبودية التقاليد الشرقية.. فأنا ألّح عليهـا بالخـروج مـع صديقي الدكتـور آدم كارثه.. واتهمتني بأني في أعماقي لا أرغب في ذلك، لكني أرغم نفسـي كي أُبدي شـهامة شـرقية وكرماً وثقة ليسـت في محلها.. كانت تصرخ بي غاضبة.. بأنها ترفض أن تكون موضوعا لشـهامة مزيفـة.. كانـت تقولـي لـي بأنهـا تفضلني أن أكون غيـوراً، وأنانياً، على أن أفرط بها بهذه الطريقة الحمقاء والوضيعة والمغلفة بشهامة تشبه النذالة..

فقاطعته حواء ذوالنورين قائلة بحماس وتعاطف مع الزوجة الغاضبة:

– ما دام الأمر بينكما قد وصل إلى هذ الدرجة من الصراحة والوضوح، فلماذا أبقيته في شقتك؟ ألم يكن بإمكانك إخراجه..؟ ألم يحن الوقت لمغادرته إيطاليا وعودته إلى تونس..؟

نظر إليها متمعنا في وجهها، ثم قال:

– تسألين وكأنك كنت معنا خلال تلك الفترة العصيبة.. لا.. لم يكن بالإمكان أن أطلب منه أن يخرج من الشقة.. أنت تعرفين.. أنه صديق عزيز.. وقد طلبت مني زوجتي أن أطلب منه مغادرة الشقة.. حاولت أن استفسر منها عن سبب كل هذا الغضب منه.. فلم تقل لي شـيئا.. سـوى مرة قالت في لحظة غضب بأنه رجل مكبوت.. وأنه يتصرف بطريقة مهينة.. فهو يدخل أحيانا عليها في غرفتهما أثناء تغييرها ثيابها بحجة أنه يسأل عن حاجة ما.. ومرة انتبهت إلى أنه موجود وراء

باب غرفة الحمام.. حتى أنها ارتعبت بأن يدخل عليها.. وأخبرتني بأنه يغازلها كثيرا.. ويقرأ لها اشعارا بالبلغارية ثم يترجمها إلى الإنكليزية وفيها غزل واضح بي.. وأنه يتعمد أن يطبخ في البيت.. وأثناء ذلك يحاول أن يمس جسدي أو يصطدم بي أثناء الحركة في المطبخ....

- ألم يكن ذلك كافيا لتطلب منه مغادرة الشقة..؟
- لم أكن أفكر بهذه الطريقة.. كنت أفترض حسن النية.. بل كنت أرد على زوجتي بأنها تبالغ في حساسيتها منه.. وهي لاتعرف عاداتنا الشرقية.. لكن زوجتي كانت تعتقد بأني رجل مكبل من الداخل.. وأني أخاف أن أكون متحرراً من تقاليدي.. على الرغم من أني كنت أعتبر نفسي متحررا من عقدة الشرق وثقل تقاليده.. بدليل أني لا أغار عليها منه.. فكانت تردني قائلة بأني أخاف من أن أكون متحرراً، لكنني أضع قناع المتحرر.. أنا أحاول أن أبدو متحرراً لكني أخاف الحرية.. فكنت أرد بأني أرفض هذا الفهم للحرية.. وأني أجدها تبالغ في حساسيتها الأوربية من عاداتنا الشرقية.. وأنها يجب أن تفهم بأنه ليس أوروبيا.. وأنه يعيش في بلد شرقي.. فكانت تردني بأني لا أحبها، وأني أبحث عن تبريرات لكي أبتعد عنها..
- وكيف انتهت الأمور..؟

صمت للحظات، بل طال صمته، حتى ظنت أنه لا يريد أن يكمل حكايته، إلا أنه فاجأها بالحديث مواصلاً:

-أنتن النساء مخلوقات غريبات.. غامضات.. زئبقيات.. لايستطيع أحد أن يمسك بكن.. مخلوقات عجيبات.. فبعد كل هذا الصراع.. صارت تقضي معظم وقتها الحر معه.. صرت أرجع إلى البيت فلا أجدهما.. حتى صرت أشعر بدبيب الغيرة في أعماقي.. لكني كنت أعزي نفسي بغضبها وموقفها منه، وأنها تتعمد ذلك محاولة إغاظتي.. وحينما واجهت زوجتي بذلك أجابتني ببرود غريب، بأني كنت أتمنى أن تخرج معه وأن تقيم علاقة معه كي أجد التبرير للإبتعاد عنها.. وها هي تقوم بذلك كي تدفعني لكراهيتها.. وبالتالي كي لا أشعر بالذنب وأنا أهجرها.. فقلت لها أن تكف عن ذلك؛ لأنها تعذبني بمثل هذا الكلام..إلّا أنها تحولت شخصاً آخر..إذ قالت لي بأني محتاج لمثل هذا العذاب.. لأني أساساً لا أستطيع العيش بسلام مع نفسي.. بل أنا محتاج

للإهانة الداخلية.. أحتاج للعذاب النفسي الذي يمنحني المتعة!

- وماذا حدث بعد ذلك..؟ كيف انتهت هذه الورطة..؟
- انتهت ببساطة بسفره.. لكن نتيجة ذلك انتهت علاقتنا أيضا.. ويبدو أنها في الأيام الأخيرة انسجمت معه.. لاسيما وأنه كان يكثر من المديح لها لموهبتها الموسيقية.. و إطراء جمالها.. بينما كانت هي تعتبر كلمات الإطراء التي يقولها لها وكأنها شيء طبيعي.. وواقعي.. وصادق.. وكانت تشعر بالإمتنان له في الوقت نفسه..
- المهم رحل وغادر إيطاليا..
- نعم... رحل... لكن الطمأنينة العائلية رحلت معه أيضاً.. زوجتي إيفا اعتقدت أنني لا أحبها.. أو على الأقل كففت عن حبها.. وأني أناني.. نذل.. لا أفكر إلّا بنفسي.. وأني لا أحبها بدليل أني لا أغار عليها.. لذلك وجدت في ذلك تبريراً في أن تقيم علاقة مع أحد المدراء في مكان عملها.. أتذكرين حينما سألتك إن كنت قد قرأت رواية (الإحتقار) للبرتومورافيا..؟. لم تكن نهاية الرواية متشابهة مع ما جرى فعلا لزوجتي إيفا بانوروتي فقط.. وإنما كل ما جرى بين الزوج كاتب السيناريو وزوجته الفاتنة.. فحينما كان الزوج يتركها أحيانا مع المنتج الأميركي ليقضي الزوج وقته مع المخرج يتناقشان حول سيناريو الأوديسه.. كانت هي تظن بأن زوجها لا يحبها.. وأنه يتركها عرضة لغزل المنتج الأميركي من أجل الحفاظ على وظيفته.. وبالتالي شعرت نحو زوجها باحتقار عميق.. كان نتيجته أن صارت عشيقة حقيقة للمنتج الأميركي.. هذا ما جرى معي لكن بطريقة مختلفة نوعا ما..

أحسّتْ حواء ذوالنورين بكثافة الألم الذي كان قد ارتسم على ملامح وجه آدم بوناروتي، وسألته بحذر شديد:

- لكنك لم تقتلهما كما قام الزوج المخدوع في القصة التي ذكرتها بقتل زوجته (فرنتشيسكا دا ريميني) وعشيقها.. عند دانتي؟
- لا.. ونعم..!

استفزها هذا الجواب، فقالت له متشائلة:

- ماذا يعني هذا..؟ إما لا.. وإما نعم.. فما معنى ما تقول..؟!

- لـم أقتلهمـا بشـكل فعلـي.. فقـد ماتـا نتيجـة حـادث أصطـدام سـيارتهما فعـلا حينمـا كانـا فـي جنـوب إيطاليـا.. وهذا معنى جوابي: لا.. أما القسـم الآخر من جوابي.. وأقصد:نعم.. فنعم، أنا تمنيت لهما الموت.. بل وتخيلت نفسي مرارا وأنـا أقتلهـا.. بطـرق مختلفـة.. بـأن أسـممها.. أو أخنقها.. أو أذهـب معها إلى أماكـن جبليـة بعيـدة وأقـوم بدفعهـا مـن حافة عاليـة إلى الهاويـة.. أو أن أفكك كابح العجلات في سيارتها.. بحيث تصطدم وتموت.. نعم.. تمنيت ذلك.. و قد تحقق أحد هذه السـيناريوهات الخيالية.. لذلك أشـعر أني قتلتها.. أو على الأقل ساهمت بقتلها بهذه الطريقة النفسية..

-ألا تعتقد أنك تبالغ في إتهام نفسـك..؟ ما علاقتك بإصطدام جرى على الطريق العام..؟ فحتى لو أنك تمنيت ذلك.. فالأماني ليست جريمة.. ولو أن الأمور تحكم على أماني البشر في الانتقام من الآخرين لما وجدنا أي استقرار عائلي.. بل لمات المليارات من البشر.. ولما احتاجت البشرية إلى الحروب للقضاء على الشعوب والبلدان الأخرى التي تحاربها..إنك تبالغ.. هذه حساسية مفرطة.. ربما لكونك فناناً..

نظر إليها مستمعاً، لكن نظراته إليها بدت كأنه كان يشرب صوتها وكلماتها، وحينما انتهت استمر هو بتأملها، حدقتْ هي في وجهه وسألته مستغربة:

- ماذا هناك..؟ هل في كلامي ما يسيء..؟

- أبداً... أنا أشكرك لهذا العزاء..إنك ترممين جروحا في روحي وذاكرتي..

ابتسـمت هي. أحسـت أنها تحبه.. وأنها مسـتعدة أن تمنحه نفسـها في هذه اللحظة، إلّا أنه لم يبادر بأية حركة تشـير إلى رغبته الجنسـية فيها. لا تدري لماذا شـعرت بحزن خفي يتسرب في أعماقها، لعدم مبادرته لإمتلاكها..

23

صـبـاح كـئـيـب

جلسـت حـواء الكرخـي فـي غرفـة الاسـتقبال وراحت تحتسـي قهوتهـا الصباحية، وتتصفـح مخطوطـة (متاهـة إبليـس). لـم يكـن مزاجهـا يميل إلى القـراءة، لكنها بحكم العـادة تنجـذب للكتـب والـورق. كانت تقلب الصفحات، لكن فكرها كان مشـغولاً بما جرى منذ خمسـة أيام، فمنذ ذلك اليوم الذي التقت فيه بآدم الشـبيبي، أحسـت بأن ثمة تحـولات تجـري فـي أعماقهـا. تتذكـر جيداً أنها حينما كانـت في بغداد، كانت أكثر قوة مما هي عليه الآن، فقد كان آدم الشـبيبي يكاشـفها بحبه، ويتوسـل رضاها، بينما كانت هي تصد رغباته واعترافاته بقوة ناعمة.

انتبهـت إلـى أنهـا فـي اللحظـة التي صارت تحتاج فيها إلى حبه، ومشـاعره، وجدته قـد ابتعـد عنهـا. أخـذت تنتقد نفسـها، وغرورها الأنثوي الذي يـكاد يضيع عليها فرصة في أن تعيش قصة حب جميلة.. لاسـيما هما الآن في سـوريا وبعيدان عن أية توترات اجتماعية.. لكن ماذا عليها أن تفعل لتستعيد ذلك؟

قرأت بضع صفحات من المخطوطة، لكنها لم تكن تقرأ.. صحيح أنها تمر بالكلمات والسـطور والصفحـات، لكنهـا لـم تكـن تفقه شـيئاً منهـا؛ فذهنها لم يكـن يتابع عينيها. طوت المخطوطة.. نهضت.. لم تكن تعرف لماذا نهضت.. وبحركة لا إرادية توجهت إلـى المطبـخ.. وفـي المطبـخ لـم تكن تدرك ماذا تريد.. خرجت مـن المطبخ إلى غرفة النوم.. ألقت نظرة عابرة على مهد الطفل هابيل.. كان نائما.. تذكرت فجأة بأن المربية أو مساعدتها العراقية لم تأت بعد.. رجعت إلى المطبخ ثانية صبت لنفسها بقايا القهوة في كوب آخر.. حملته وجاءت إلى غرفة الاستقبال.. وضعت الكوب في الصينية التي فيهـا كوبهـا الأول.. توجهـت نحـو النافذة.. ألقـت نظرة إلى الأفق المحصور بالبيوت.. وبجبل قاسيون من بعيد.. عادت وجلست على الصوفا أمام التلفزيون.. أخذت الريموت

كونترول.. أخذت تنتقل بين المحطات العراقية.. ثمة انفجارات في بغداد.. سبعة عشر انفجار في مناطق مختلفة.. عشرات الضحايا ومئات الجرحى.. أحست بالضيق.. بالإختناق.. وبجمود ذهني يضغط على عقلها.. لم تعد تفكر بشيء.. ظلت تحملق بشاشة التلفزيون.. دون أن ترى شيئا.. ظلت على تلك الحال لدقائق قليلة.. ولم تنتبه على نفسها إلّا حينما سمعت جرس الباب يرن.. وحين فتحت الباب، مرقت الفتاة العراقية المربية وكأنها تيار حياة مليئة بالعنفوان.. فأعادتها بذلك إلى الحياة.

قالت الفتاة وهي تدخل الشقة، وهي تتبع حواء الكرخي التي عادت لتجلس على الصوفا:

- صباح الخير.. هل عرفتِ ما جرى..؟
- ماذا.. أتقصدين الانفجارات في بغداد..؟ أصبح الأمر عادياً..

وقفت الفتاة دونما أن تتحرك، وهي تقول:

- أية انفجارات..؟ أنا اتحدث عما جرى اليوم في منطقتنا..
- وماذا جرى..؟

قالت الفتاة وكأنها كانت قد هيأت نفسها لمثل هذا الموقف في سرد الحكاية، فجلست على أطراف الكرسي المقابل للصوفا، وأخذت تتحدث بلهفة وتوتر:

- اليوم فجراً ذبح أحد العراقيين أخته..
- ماذا..؟!

أثار الخبر انتباهها فعلاً، وأخرجها من حالتها الذاتية، وأعادها إلى حيويتها واهتماماتها الاجتماعية العامة، فسألت:

- ماذا تقولين..؟ من هي الفتاة..؟ وكيف حصل هذا..؟
- واحدة من صديقاتي..
- صديقتك..؟
- نعم صديقتي.. أعرفها منذ حوالي السنة..
- ولماذا ذبحها أخوها..؟
- لأنها كانت تعمل في البيوت..
- وماذا في ذلك..؟ العمل في البيوت ليس عيباً..؟ ألا تعملين أنت هنا مثلاً.. أهذا عيب..؟

صمتت الفتاة للحظات، وقالت بطريقة ملغزة:

- لم يكن عملها في البيوت طبيعيا.. كانت تزور بعض الرجال.. تبيع نفسها..
- آها.. وكيف عرف الأخ..؟
- لا شيء يبقى مستوراً.. لاسيما وأنهم انتبهوا إلى أنها تأتي بمبالغ كبيرة لتساعد الأهل في مصروف البيت.. متحججة بأنها تقبض البقشيش من بعض العوائل الخليجية التي تأتي للسياحة في أوقات قصيرة.. وتقوم هي بتنظيف بيوتهم..
- قد يكون ذلك صحيحا..
- لا.. ليس صحيحاً.. أنا أعرفها..
- وكيف عرفتِ..؟
- أنا أعرفها شخصياً.. هي من عائلة متدينة.. جاءت إلى سوريا منذ سنتين.. الأم والأب وابنهما الأكبر وهي.. كان لديهم بعض المال.. يبدو أنهم هاجروا لأسباب طائفية.. أو خوفاً على الابن أن يُقتل في هذه الفوضى التي تعّم العراق.. حاول الابن أن يجد موضعاً لقدم هنا.. لكن يبدو أن الحظ لم يحالفه. ويبدو أن أموال العائلة قد نضبت.. فاضطرت الفتاة أن تعمل في معمل صغير لأحد التجار العراقيين في دمشق.. هناك تعرفتُ أنا عليها لأني كنت أعمل هناك أيضا.. الفتاة كانت جميلة جداً.. كانت وكأنها خلقت للعز والرفاهية.. كانت مثل زهرة متفتحة؛ لذلك لم يتركها صاحب العمل تعمل بهدوء، وإنما حاصرها وضايقها.. وكانت الفتاة ذات كبرياء.. لم تستجب له.. وتركت العمل.. لكن يبدو أن إحدى القوادات السوريات التي لديها شبكة من العاهرات العراقيات والفتيات من شمال أفريقيا.. قد ألقت حبالها حولها لاسيما وقد عرفت حاجتها..

استوقفتها حواء الكرخي بعد أن أثارت القصة كل انتباهها فأرادت أن تعرفها بالتفصيل، وبكل حذافيرها:

- مهلاً.. مهلاً.. كيف عرفتِ ذلك..؟
- ماذا..؟
- كيف عرفتِ بأن إحدى القوادات السوريات قد ألقت حبالها حولها..؟
- هي التي روت لي ذلك بعد أشهر حينما التقيتها مصادفة.. وجلسنا في أحد المقاهي نشرب الشاي.. وصرت التقيها باستمرار..

- وماذ روت لك..؟ أقالت لك من هي هذه القوادة..؟
- قالت لي بأنها قوادة معروفة من العائلات المهمة هنا.. وتعمل مع مسؤولين في أجهزة الأمن والاستخبارات في البلد.. وإن زوجها شخصية معروفة يدير معظم فنادق دمشق..
- ألم تذكر اسمها..؟
- بلى.. قالت لي نحن الفتيات اللاتي نعمل عندها نسميها أم قابيل..
- أم قابيل..؟ غريب..
- ما هو الغريب..؟
- اسمها.. أليس غريبا إن قوادة تُسمى أم قابيل.. لا أستغرب أن يكون زوجها اسمه آدم أيضاً.. وهي حواء.. لكن دعينا من هذا الآن.. استمري..
- كانت حزينة حينما روت لي ذلك..
- كل النساء حزينات بهذا الشكل أو ذاك.. كلهن يشعرن في لحظة ما بعدم الثقة في أعماقهن.. يشعرن بأنهن غير جميلات.. أو أن هناك شيئاً ما ينقص جمالهن.. مهما كنَّ جميلات.. فهذا الشعور يراودهن..
- لا.. هي ليست كذلك.. لم تكن حزينة لأنها غير واثقة من نفسها.. على العكس.. كانت تتمنى لو أنها لم تكن جميلة.. فجمالها هو النقمة التي جرتها لهذا المستنقع الذي هي فيه.. لقد روت لي كيف صارت تبيع جسدها وتعمل لدى هذه القوادة..

أحست حواء الكرخي بأسى يقبض على أعماقها، متخيلة هذه الفتاة الجميلة وهي ملقاة ذبيحة في إحدى الزوايا في هذا الفجر الدمشقي. فأحست برغبة مفاجئة في أن تعرف كل شيء عنها، فسألتها:

- وماذا روت لك..؟ ولماذا كانت حزينة..؟
- كانت تحس بالأسى للوضع الذي وصلت إليه عائلتها.. فقد كانت تتألم لأنها تكذب على أهلها.. كانت أمها هي الوحيدة التي تعرف طبيعة العمل الذي تقوم به..

استغربت حواء الكرخي، وارتسمت ملامح استهجان واضحة ممزوجة بغضب خفي على وجهها، وسألت:

- أكانت الأم تعرف أن ابنتها تمارس الدعارة..؟
- نعم.. كانت تعرف.. لكنها كانت مضطرة للسكوت، فمن جهة كانت الفتاة تساهم في دعم الوضع العائلي مالياً.. ومن جهة أخرى كانت الأم خائفة من أن يحصل هذا الذي حصل فجر هذا اليوم.. أي أن يقوم أخوها بقتلها فتضيّع الأم الإثنين من أبنائها في وقت واحد.. بينما صديقتي كانت تأسى من أجل والدها.. كانت تتعذب لأنه رجل مؤمن.. يصلي الفروض في أوقاتها ويقرأ القرآن يوميا.. ويحنو عليها جداً.. وحينما كانت الأم تخبره بأنها ساعدت العائلة بما تقبضه من أجر على خدمتها وما تحصل عليه من بقشيش كان يدعو لها بطول العمر والبركة وبرضى الوالدين.. متمنيا أن يرزقها الله بزوج يحفظها ويسترها.. وكان ذلك يعذبها..
- ألم ينتبه أخوها لما تقوم به..؟
- كانت تدّعي بأنها تعمل في خدمة تنظيف البيوت.. وأنها أحيانا تحصل على بقشيش من بعض السائحين الخليجيين.. وأنها ليست وحدها.. وإنما هناك أكثر من فتاة تعمل معها.. ولا أعرف كيف انطلى ذلك على أخيها..
- لكن ألم تجد عملاً آخر تقوم به سوى الدعارة..؟ وكيف وصلت بها الأمر إلى أن تمارس هذه المهنة.. لاسيما وهي بهذا العمر..؟
- معظم الفتيات اللاتي يعملن عند هذه القوادة هن بهذا العمر تقريبا.. ثم أنها تخطط لإلتقاط الفتيات.. وبالنسبة لصديقتي فقد جرتها إلى هذه الدائرة صديقة عراقية.. لكن بأمر وتخطيط من القوادة أم قابيل.. التي رأتها ذات يوم مع صديقتها العراقية.. فأعجبتها.. سألت عنها فأخبرتها الصديقة العراقية بأنها من عائلة متدينة.. وأنها تبحث عن عمل.. فطلبت منها أن تدعوها بطريقة ما إلى العمل في هذه المهنة.. فاعتذرت هذه لأنها تعرف بأنها صدت مدير المعمل العراقي لتحرشه بها فكيف تعمل في الدعارة..إلا أن أم قابيل خططت للأمر، فطلبت من العاهرة العراقية التي تعمل لديها بأن تجرجرها.. لكن بطريقة ملتوية لا تثير أي شك بتاتاً..إذ اتفقت معها على أن تأتي هذه العاهرة مع صديقتي المسكينة إليها حينما تكون هي تنتظرهما في واحد من سلسلة محلات البوتيك التي تملكها.. وحددت لها الوقت والساعة والعنوان.. وفعلا جاءت بها إلى ذاك

المحل وكأن الأمر مصادفة وبتلقائية.. وهناك كانت القوادة أم قابيل تنتظرهما.. استقبلتهما بالترحاب.. ودعتهما إلى مكتبها الخاص.. ودار الحديث أولا بشكل عـام.. ثـم بشـكل خـاص عـن صديقتي وعائلتها.. كان حديثـا عاماً يحصل مثله بشـكل عادي في أول لقاء للتعارف.. ثم سـألتها القوادة أم قابيل عن عملها.. فأخبرتهـا بأنهـا تركـت الدراسـة الثانويـة.. وأنها عملت لفتـرة قصيرة في معمل وتركته.. وهي الآن تبحث عن عمل لتسـاعد به أهلها.. أبدت القوادة أم قابيل تأثرها جداً.. وأبدت شـهامة وروحا خيرة..إذ عرضت على صديقتي أن تعمل لديها في البوتيك.. كتعبير عن تأثرها بقصتها ومحاولة منها لمساعدتها.. وهكذا ابتلعت صديقتي الطعم.. وبعد أسـبوع أو عشـرة أيام... اتصلت بها القوادة أم قابيل من مكان ما.. وأشارت عليها بأن تأتي ببعض قطع الملابس التي حددتها هي.. وطلبت منها تأتي بها حالا إلى مكان محدد ذكرته لها بالتلفون.. وأمرتها بإغلاق المحل والمجيء فورا بسيارة تاكسي.. وهذا ما حصل.. وحينما وصلت إلى المكان وكانت شقة في بناية قريبة من ساحة الأمويين.. وهناك رأت بعض الفتيات.. وبعض الرجال الذين بدوا مهمين من صرامة شخصياتهم.. وكان الجو احتفاليا.. لذلك لن تشك صديقتي بشيء حينما حملت لها القوادة أم قابيل كأسا من العصير بنفسها وطلبت منها أن تشربه لأنها تعبانة من الطريق.. وظلت واقفة أمامهـا إلـى ان تأكـدت مـن أنها شـربت الكاس كله.. ثـم طلبت منها أن تحمل قطع الملابس إلى إحدى الغرف في الأعلى.. وقد أخبرتني صديقتي بأنها عند صعودها الدرج أحست برغبة قوية جداً في النوم.. راودها نعاس لذيذ.. بل كاد تفقد الوعي.. لكنها تماسكت ما استطاعت ووصلت الغرفة.. وخلال لحظات أحسـت بأنها تغيب عن العالم.. عندها وجدت نفسـها أمام رجل.. ينتظرها في الغرفة.. ولم تذكر شيئاً.. وحين صحت وجدت نفسها عارية بالكامل.. والقوادة أم قابيل تجلس على كرسي قريب وبيدها كأس وكأنها كانت تنتظرها لتفيق..

قاطعتها حواء الكرخي معلقة بغضب واستفزاز قائلة:

- هـذه قصـص تحصـل فـي الأفـلام عادة..إنهـا قصـة مبتذلة ومكـررة في عالم الدعارة..
- لكن هذا ما حصل فعلاً..إنه مثل الأفلام.. لكنه حصل فعلاً في الواقع.. بل

حصل وتكرر لدى معظم الفتيات العاهرات.. ثم من قال إن الأفلام ليست من الواقع..؟

- أنت محقة.. أحيانا ما يجري في الواقع أكثر غرابة مما يجري على شاشة السينما.. المهم.. ماذا جرى بعد ذلك..؟.
- لاشيء... القصة المكررة ذاتها.. نزعت القوادة أم قابيل عن وجهها قناعها.. وأخبرتها صراحة بما جرى.. وأكدت لها بوضوح بأنه تم تصوير كل عملية المضاجعة وإزالة بكارتها بالفيديو.. لذا ليس أمامها سوى أن تعمل لديها كعاهرة.. وحسب الطلب.. طبعا بكت صديقتي وأخذت تنتحب.. لكن لا عزاء للفتيات المخدوعات أمثال صديقتي.. لذا انصاعت لها وأخذت تعمل لديها.. شكلياً أنها تعمل في البوتيك لكنها عملياً تنتظر المكالمات منها لتذهب إلى العناوين التي تحددها.. أما صديقتي فقد ادعت لأهلها بأنها تركت العمل في البوتيك كي لا يعرف الأخوة لها مكانا محدداً.. حيث أنها فعلاً تركت البوتيك.. لذا ادعت بأنها تعمل منظفة في البيوت لدى أحد المكاتب المتعهدة بهذا العمل.. لكن حظها العاثر أن أخاها رآها وهي تنزل من سيارة أحدهم.. وحينما واجهها بالأمر أدعت أنه صاحب المكتب الذي تعمل فيه.. وأنه ينقل الفتيات حينما يتأخرن في العمل في منطقة ما.. ويبدو أن حجتها لم تقنع أخاها.. ولا أدري ما حصل.. سوى ما جرى اليوم إذ ترصدها أخوها عند الخروج.. فذبحها قرب باب بنايتهم..

كانت علامات الغضب مرتسمة على وجه حواء الكرخي، فقالت بغضب حقود:

- لكن كيف يمكن لإنسان أن يقتل إنساناً آخر هكذا.. بهذه السهولة.. وبهذه الطريقة البشعة..؟ عائلة تهرب من الصراع الطائفي لتنقذ أبناءها من الذبح الطائفي.. بينما هنا.. في هذا المكان الآمن.. يذبح الأخ أخته.. ليدمر حياته أيضا في البلد الغريب.
- يقال إن الأخ لم يستطع تحمل الشائعات التي بدأ الجيران يتناقلونها.. ويسمعونه إياها بطريقة غير مباشرة حينما يمر أو حينما يكون في السوبرماركت المجاور للبناية..
- البشر مخلوقات غريبة..إنها أسوأ من الحيوانات.. كل الرذائل لصيقة بالبشر..

فالحيوانات لا تعرف الكذب.. ولا النفاق.. ولا النميمة ولا إطلاق الشائعات..

- صحيح والله..

تأثرت حواء الكرخي جداً بهذه الحكاية وأحست بغضب عارم يجتاح كيانها، ولم يخرجها من حالتها سوى صوت الصغير هابيل الذي تعالى بكاؤه من غرفة النوم، فنهضت الفتاة مسرعة إليه. تبعتها حواء الكرخي، متجهة إلى المطبخ كي تعد له الشوربة التي يحبها. وفي الوقت نفسه كانت تفكر بأنها ستروي هذه القصة بعد قليل حينما تلتقي آدم الشبيبي.. فهي تعرف أنه يكره العنف من جهة، ويكره كل هذا الأرث من التقاليد العمياء، وبذلك تجد شيئا ما مشتركا بينهما.. ربما يساعدها في بعث الدفء في علاقتهما.

* * *

حين خرجت من المصعد في أسفل البناية لمحت الحارس الشاب الوسيم يجلس على كرسي في جهة الشمس. انتبهت إليه وهو ينظر إليها برغبة واضحة. ألقت عليه تحية الصباح وتوجهت نحو الشارع العام منتظرة سيارات الأجرة، وحينما تأخرت قليلاً تقدم منها حارس البناية عارضاً عليها توصيلها بسيارته، لكنها شكرته على مبادرته، فلم يكن بينهما سوى التحية، وليس من اللائق بالنسبة لها أن تدعه يوصلها. وبينما هو منهمك بمحاولة إبداء أريحيته أقبلت سيارة الأجرة، فشكرته مرة أخرى وصعدت إلى داخل السيارة. خلال الطريق فكرت به، مستغربة تصرفه الذي كان فيه إشارة صريحة على الإعجاب.

حين دخلت مقهى الروضة وجدت أن الصالة الأولى التي في الواجهة شبه فارغة. لكنها لمحت الدكتور آدم كارثة جالساً يتصفح جريدة تشرين. رآها هو حينما دخلت، أشار إليها بذراعه، داعياً إياها، ولم يكن بإمكانها التراجع. فتوجهت نحوه وجلست على كرسي حول طاولته.

كان وجود الدكتور آدم كارثة يثير أعصابها، فكانت على الرغم منها، ترد على أسئلته المجاملة بجفاء وغيظ مكتوم، وحينما أخذ يحدثها في موضوع ثقافي كان يقرأه في الصفحة الثقافية بالجريدة، كانت تحاول أن تستخف بشكل غير مباشر بآرائه.. وتقلل من قيمة الموضوع الذي كان يتحدث عنه.. لكنّ الدكتور آدم كارثة كانت لديه مناعة ضد الإهانات.. فكان تبرمها الواضح من حديثه ووجوده لا يترك لديه سوى ابتسامة صفراء..

ابتسـامة جبانـة دون أي رد فعـل أو حتـى إنهـاء تلـك الأحاديث التـي تثيرها.. وكان هو يعرف بأنها متضايقة لعدم وجود آدم الشـبيبي، فقد خمن تعلقها به.. مثلما انتبهت هي أيضا لنفسـها ولطريقة حديثها معه، وتأكدت من نفسـها بأنها متضايقة نفسـياً لأنها فعلا لـم تجـد آدم الشـبيبي فـي المقهـى، إلى جانب قصة الفتـاة العراقية الذبيحة.. لكن أنبت نفسـها بأنه من غير اللائق التعامل معه بهذه الطريقة الاسـتفزازية المهينة.. فحاولت أن تحسـن التصرف معه، وتخفف من وقع كلماتها السـابقة.. لذا خففت من نبرة السـخرية في صوتها، وانسحبت من طبيعتها المشاكسة بمعارضة أي رأي يصدر عنه.. ولـم يطل الحديث بينهما حينما دخل آدم أبوالتنك وآدم الشبيبي معاً إلى المقهى.

حيـن رأى آدم أبوالتنـك حـواء الكرخي جالسـة مـع الدكتور الكارثة كما كان يلقبه، أحس بغيرة خفية وغيظ واضح يسريان في أعماقة، بينما لم يثر الأمر لدى آدم الشبيبي أية مشـاعر، وكأن الأمر لا يعنيه. وبينما كانا يتجهان نحوهما قرر أبو التنك أن يسـتفز الدكتور آدم كارثة، لكنه لم يجد المناسبة ليقوم بذلك.

أحست حواء الكرخي بالحيوية والبهجة عند وصولهما. وما أن جلسا حتى سألتهما بمودة:

- أين كنتما..؟ ليس من عادتكما أن تتأخرا إلى مثل هذا الوقت..
- كنا نبحث عن شقة لآدم.. ذهبت معه لنتفحصها ونستكشف المنطقة..

نظرت حواء الكرخي إلى آدم الشبيبي بعتاب، فهي لم تعرف بهذا الأمر بينما كانت تعتبر نفسـها هي أقرب شـخص إليه في دمشـق، مع أنها لو كان قد سـألها للجأت إلى أبوالتنك أيضاً.. حاولت أن لا تبدي مشاعر الإحباط، فقالت له بحرارة مصطنعة:

- مبروك.. هذا خبر جيد.. وهل اتفقتم مع صاحب الشقة..؟
- لا.. فالشقة لم تعجبني.. أجاب آدم الشبيبي.

أبوالتنك نظر إلى الدكتور آدم كارثة وقال بغضب مكتوم:

- هذا صباح كئيب.. أينما تذهب تواجهك الكآبة..

لم تفهم حواء الكرخي تلميحاته، فقالت بعفوية:

- نعم.. صباح كئيب.. فمن الصبح جرت جريمة قتل.. حيث قام أحد العراقيين بذبح أخته لأنها كانت تعمل في الدعارة..

انتبه الجميع لهذا الخبر. أثار الخبر انتباه آدم أبوالتنك أكثر من غيره، فسأل باهتمام:

- وهل تعرفين من هو الأخ أو الأخت.. أقصد الأسماء.. وأين يسكنون؟
- لا أعرف يا أبوالتنك.. الفتاة العراقية التي جئتَ بها لتعمل عندي هي التي أخبرتني.. فهي تعرف الفتاة القتيلة وأهلها..

فسأل الدكتور آدم كارثة بحيادية وكأنه يناقش قضية أدبية:

- وهل كان الأخ متأكداً من أن أخته كانت تمارس الدعارة..؟
- يبدو أنه كان متأكداً.. لأنها فعلا كانت هكذا..

علق آدم الشبيبي قائلاً بنبرة في شماتة خفية:

- إذن.. نالت جزاءها..

فتحت حواء الكرخي عينيها متعجبة، إذ لم تصدق ما سمعته من آدم الشبيبي الذي بدا لها غريباً برأيه هذا، فردت بشكل عفوي:

- ماذا تقول..؟ عن أي جزاء تتحدث..؟
- إنها العدالة..

قال آدم الشبيبي بحزم، فتدخل الدكتور آدم كارثة قائلاً وكأنه يلقي محاضرة:

- عن أيّة عدالة تتحدث يا أستاذ آدم..؟ لقد قام الأخ بذبح أخته.. أي أخذ بثأر العائلة وسمعتها منها، حسب اعتقاده.. العدالة هي ليست أكثر من عقلنة للثأر.. أي أنها بهذا الشكل أو ذاك ثأر اجتماعي.. ثأر اتفق المجتمع عليه وصاغه في ما نسميه القوانين.. العدالة هي محاولة المجتمع للخروج من الانتقام والثأر الفردي.. أي أنه إعتراف ضمني بالعنف الاجتماعي.. أي كما يقول (جيرار) في كتابه (العنف و المقدس) أنه تثبيت لشرعية العنف ومحاولة لتلطيف العنف.. لذلك فإن الذبح بما في ذلك القتل يؤديان دوراً أساسياً في المجتمعات المحرومة من كل نظام قضائي.. لكن حينما يكون هناك قضاء، أي حكم المجتمع على جريمة محددة، فأن الانتقام الفردي يصبح جريمة قانونية..

وجد أبوالتنك فرصته الذهبية في حديث الدكتور آدم كارثة، فشن هجوماً مفاجئاً، إذ قال باستفزاز:

- يا أخي نحن لسنا في الجامعة حتى تلقي علينا منذ الصباح محاضرة عن العنف و المقدس.. مستشهدا بفلان وعلان.. بهذا الكاتب وذاك الكتاب.. تُسمعنا خطبة طنانة عن مفهوم العدالة.. وعقلنة الثأر..

لأول مرة انتبه الجميع إلى أن الدكتور آدم كارثة شعر بالإرتباك والإحراج؛ فسكت مصدوماً من كلام أبوالتنك، ونبرة صوته المهينة. توتر الجو. صمت الجميع.. حتى آدم أبـو التنـك نفسـه أحـس بأنـه تجـاوز حدوده في التعامل مع الدكتـور آدم كارثة، لكنه لم يشأ أن يتراجع عن موقفه، ويقدم اعتذاره، أو يخفف الجو من خلال محاولة استرضاء الدكتور آدم كارثة.

اسـتاءت حـواء الكرخـي مـن طريقـة هجوم أبوالتنك على الدكتـور آدم كارثة، على الرغم من أنها كانت مسـتاءة منه، لكن ليس من أفكاره وحديثه، وإنما من صفة البخل التي فيه، لذلك قالت رداً على أبوالتنك:

- يا أبوالتنك.. أنت غير محق في هذا.. ما الذي يجري اليوم..؟ الدكتور تحدث محاولاً تفكيك مفهوم العدالة.. وجوهرها.. وعلاقتها بالثأر الفردي.. وهو محق في حديثه.. ثم أنه رد مقنع على ما تفضل به أستاذ آدم الشبيبي الذي استغرب موقفه هذا حقيقة.. الذي نظر إلى جريمة ذبح فتاة في التاسعة عشرة من عمرها لأنها تمارس الدعارة بأنها تحقيق للعدالة.. ما الذي أصابكم..؟ ما الذي يجري في هذا العالم..؟

التفت الدكتور آدم كارثة إلى حواء الكرخي، وهو يلملم صحيفته، وقال وهو ينهض:

- شكراً لك أستاذة حواء الكرخي.. لن أنسى موقفك هذا.. شكرا لك..
- إلى أين أنت ذاهب..؟ نحن في بداية النهار..
- لا.. شكراً لك.. علي الذهاب.. لدي بعض الأشغال التي علي أنجازها.. كما علـي أن أمـر علـى المكتبـة القريبة من هنا قرب المركز الثقافي الروسـي أحتاج إلى بعض المصادر لكتابي الجديد..

كان أبوالتنك يحس بالإحراج، أما آدم الشبيبي فقد كان خجلاً من موقفه، فهو نفسه لا يدري كيف نطق بتلك الكلمات، فليست هذه هي وجهة نظره الفكرية والاجتماعية.. وازداد إحراجه حينما قام الدكتور آدم كارثة ليغادر المقهى، بينما حاولت حواء الكرخي أن تستبقي الدكتور كارثة، فقالت:

- طيب إنهِ أعمالك وتعال ثانية.. وليكن خاطرك طيباً.. ولا تبق شيئا ما يغيظك.. لا عليك هو صباح كئيب لا أكثر.. أتمنى أن تعود لنتغدى معاً..
- شكرا لك.. سأحاول..

غادر المقهى مسرعاً. خمنّت حواء الكرخي بأنه لن يعود مرة أخرى. وربما سيغادر دمشق إلى تونس دون أن يودعهم. أحست بغضب مفاجئ من آدم أبوالتنك، فقالت له معاتبة:

- كيف تجرأت أن تحدثه بهذه الطريقة يا آدم..؟ لقد تحدث الدكتور بكل تهذيب.. وعلمية.. وحديثه عميق جداً لو فكرت فيه ملياً.. بينما أنت أهنته.. منذ أيام وأنت تستفزه.. لكنه تحملك ولم يصدر منه أي رد فعل.. اليوم تجاوزت حدودك معه..
- أنا أعتذر..
- تعتذر مني..!! ما لي واعتذارك..؟ كان الأولى أن تعتذر منه هو..؟

فقال آدم الشبيبي بخجل:

- وأنا أعتذر أيضا.. لم أقصد ما قصدت.. لا أعرف لماذا كان رد فعلي هكذا..

نظرت حواء الكرخي إليه للحظات، وقالت محاولة أن تلطف الجو بطريقتها المرحة:

- ربما لأنك لم تنم جيداً..

ابتسم آدم الشبيبي، بينما ظل آدم أبوالتنك محرجا. فقام وهو يقول لهما:

- سأذهب خلفه.. وأعتذر منه..

دهشت حواء الكرخي من موقف آدم أبوالتنك المفاجئ، لكنها لم تعترض على ذهابه، بينما حاول آدم الشبيبي استبقاءه، فقال له:

- إبق قليلاً.. أين تذهب الآن..؟ ربما لن تلحق به..؟
- لا.. سألحق به..

قال ذلك وغادر المقهى. بقيت حواء الكرخي وآدم الشبيبي جالسين حول الطاولة. كان ثمة حرج وتوتر بينهما. كانت هي مرتاحة لخلو الجو لهما، لكنها كانت مستاءة من رأيه في ما قاله عن مقتل الفتاة، إذ أن اعتذاره كان في رأيها استدراك لخطئه.. ولكي تلطف الجو وتخفف من التوتر الذي ساد جلستهما، سألته إن كان يحب السحلب، فلم يفهم ماذا تقصد، فقالت له بأن السحلب هو أشبه بالمهلبية مرشوش عليها الجوز.. فهز رأسه موافقا.

24

سؤالي بسيط جداً:
هل أنت مؤمن أو ملحد..؟

مرت عشرة أيام على وصول حواء ذوالنورين إلى فلورنسا. خلال ذلك وجدت نفسها تنسجم شيئاً فشيئاً مع إيقاع الحياة الإيطالية الصاخبة والسلسة والمليئة بكل ما هو جديد. أحست أن بلادها هي خارج التاريخ الحضاري للبشرية، أو على الأقل إن الناس هناك لايعرفون الحياة الحقيقية.. أحست وكأن حياتها قد بدأت منذ لحظة وصولها إلى إيطاليا، ومن خلال علاقتها بآدم بوناروتي، لكنها لاتزال قلقة بصدد وضعها وإزدواجية شخصيتها، وهي تريد التخلص من ذلك.

قبل أيام اشترت بطاقة تليفونية إيطالية فصار لديها رقم إيطالي جديد؛ يمكنها أن تتصل بكل العالم من خلاله، إلا أنها لم تتخلص من توترها. لقد اتصلت بآدم الشامي لكن تليفونه كان مغلقاً، وقد حاولت مرات عديدة، لكن دون جدوى. كذلك اتصلت بصديقتها إيفا سميث في باريس وتحدثتا طويلاً، حدثتها بالتفصيل الممل عن كل ما جرى لها منذ اليوم الأخير لها في الشام وحتى يوم الاتصال الأول بها، بل أخذتا تتواصلان بشكل دائم. اتفقتا أن تنتقل حواء ذوالنورين إلى فرنسا.. وحين أبدت تخوفها من السفر عبر بعض البلدان بالقطار، أبدت إيفا سميث استعدادها أن تزورها في فلورنسا وتأتي بها إلى باريس.. وأكدت لها بأنها سترتب أمورها وتزورها قريباً جداً لترافقها في الانتقال إلى باريس.

كان موعدها مع آدم بوناروتي اليوم الساعة الحادية عشرة والنصف في ساحة (سينيوريا) التي التقت معه فيها. الآن هي العاشرة. وقد انتهت من فطورها، وجلست في اللوبي المستطيل الذي يواجه القاعات الجانبية. أخذت تتصفح مجلات سياحية موضوعة على الطاولة. كانت مستغرقة في تأمل الصور حينما لمحت القسم الأسفل

من رجل يقف أمامها، وبلحظة خاطفة رفعت رأسـها فوجدت الرجل الأشـقر الوسـيم يقف مبتسما أمامها ويقول لها بالعربية:

- نهارك سعيد سيدتي..

ارتبكت حواء ذوالنورين وأحسـت بما يشـبه الصدمة، فنسـيت أن ترد على تحيته. كانت مندهشة، أدرك ذلك فسارع بالقول:

- هل تتذكرينني..؟ لقد التقينا في فندق الشام، كنت أنت مع صديقتك وكنت أنا مع الراهب في الردهة.. وتحدثنا عن الحب والعائلة والإنسـان.. وقد أعجبتني آراؤك..

صُدمـت حـواء ذوالنوريـن أكثـر من كلامه، فهو إذن الشـخص نفسـه الذي تذكرته، وبلحظات كانت تفكر عن كيفية وصوله إلى فلورنسا، فراودتها مشاعر مختلطة، لكنها رحبت به قائلة:

- أهلا وسهلا.. لكن متى جئت إلى إيطاليا..؟ وكيف..؟

ابتسم الرجل الأشقر الوسيم وقال:

- كنت معك على نفس الطيارة.. وفي نفس الرحلة..
- كيف..؟ أنا لم أنتبه لوجودك في الطيارة..؟
- كنت موجوداً.. ربما لم تنتبهي لوجودي لأني كنت في جناح الدرجة الأولى..

ارتبكت حواء ذوالنورين للحظات، فربما حقا لم تنتبه إليه، إلا أنه واصل حديثه:

- أنا كنت موجوداً في المطار حينما عبرت أنت نقطة تفتيش الجوازات.. وكان معك الأستاذ آدم الشامي..
- هل تعرفه..؟
- طبعاً أعرفه.. إنه من أعز أصدقائي.. لقد كان موجوداً في الحوار ذلك اليوم في الردهة.. ألا تتذكرين..؟

لا إرادياً أحست حواء ذوالنورين بمشهد الحوار في فندق الشام يحضر في ذهنها. أحسـت ببعض التشـويش في ذهنها.. سـألت نفسـها: أمن المعقول أن يكون في المطار وفي الطائرة نفسها ولم أره.. بل ولم أره حتى عندما وصلنا مطار فلورنسا..؟ سألته:

- لكني لم أرك في مطار فلورنسا حينما وصلنا..!

كان الرجل الأشقر الوسيم جاهزاً للجواب كأنه كان يعرف مسبقاً بأنها ستسأل هذا

السؤال، إذ ابتسم قائلاً:

- جاء أصدقائي الطليان وأخذوني بسيارة خاصة من باب الطيارة.. وقاموا بكل الإجراءات بأنفسهم.. وأتوا بي إلى الفندق..

كانت حواء ذوالنورين حائرة بين وضوح حججه التي قدمها وبين ظلال الشك التي حولها. انتبه هو لذلك، فباغتها، قائلاً:

- صحيح أننا فطرنا قبل قليل.. لكن هل يمكنني أن أدعوك إلى وجبة الغداء..؟

فوجئت. لكنها تداركت الموقف بسرعة قائلة:

- لا يمكنني مع الأسف تلبية رغبتك.. فأنا لا أستطيع التصرف بحرية في وقتي.. وقتي محدود.. ولدي بعض الإلتزامات..
- لكنك تستطيعين أن تجدي الوقت لإلتزاماتك..إذا لم تكن اضطرارية جداً.. أنت امرأة قادرة أن تدير الأشياء.

بوغتت بجرأة جوابه. نظرت في عينيه وكأنها تريد أن تدرك ما أسرار هذا الشخص، فقالت بنبرة فيها بعض انزعاج الخفي لأنها تعرف أنها تشعر بالضعف أمامه:

- يبدو أن انطباعك عني ليس في محله.. بل إن لديك انطباعاً أفضل بكثير مما أنا عليه في الواقع..

كانت حواء ذوالنورين تدرك أن مثل هذا الحديث سيقودها إلى منعطفات غير آمنة، وربما سيفضي بها إلى مناطق مجهولة وغامضة. كانت تحس بأن عليها أن تكون حذرة في الإجابة، وإلّا ستجد نفسها تتصرف وتجيب حسب توقعات الآخر منها.. وهذا ما يوترها جداً.. وحينما تتوتر تجد نفسها تتصرف بطريقة تعطي إنطباعاً سيئاً عنها.. وهذا أيضا لا تريده لنفسها.. لأنها ستؤنب نفسها على أي تجاوز وأي رد فعل أو حركة أو حتى نبرة فيها شيء من الوقاحة والخشونة.

ظل الرجل الأشقر الوسيم ينظر إليها صامتاً وكأنه يريد أن يسبر غورها، بينما في داخلها كان يتصارع فضول في معرفة ما يدور في ذهنه، وبماذا يفكر. فجأة ابتسم وقال لها:

-عدم دقة تصوري عنك، كما تقولين، لا يمنعني من دعوتك.. فلو كنت أجد الناس كلهم يتطابقون بالضرورة مع تصوراتي عن البشر والأشياء لما وجدت أحداً.. أو ربما لم أجد سوى القليل النادر.. لأني أنا نفسي لا أتطابق مع التصورات التي لدي عن

نفسـي أو لدى الآخرين عني.. فالآخرون ربما يجدونني مليئاً بالشـر أو الخطيئة، بينما أنا أعتبر نفسي ملاكاً هالكاً منطفئاً.. وربما أنا لست كذلك.. ربما كنت ملاك الخطيئة.. ملاكاً ملعوناً.. لا أدري.. عموماً.. هذا موضوع شائك.. كان عليّ أن لا أتحدث فيه.. فأنا أكون على حقيقتي حينما أكون صامتاً..

نظرت إليه مستغربة طريقة كلامه، وأحست بتعاطف غامض معه، فقالت بدفء:

- أنت تقسو على نفسك كثيراً..
- أتراني كنتُ مخطئاً حينما قلت إنك امرأة قادرة على أن تدير الأشياء؟
- لا.. لحد ما لستَ مخطئاً.. أقصد يمكنني تأجيل بعض تلك الإلتزامات غير الملحة.. لكنك تدعوني.. دون أن تعرفني!

كان الرجل الأشـقر الوسـيم يسـترق النظر إليها حينما كانت تتحدث محاولاً أن لا تنتبـه لنظرتـه المتفحصـة. ومـا أن انتهـت من جملتها تلـك حتى قال لها وهو يحدق في عينيها مباشرة:

- أتقولين إنني لا أعرفك..؟ طيب.. ليكن.. من تُرى هو على يقين من نفسه بأنـه يعـرف الآخريـن جيـداً..؟ بل من تراه يعرف نفسـه جيداً..؟ ثم أن معرفتك بتفاصيل حياة إنسـان ما وما جرى معه لايعني أنك تعرفين ذلك الإنسـان على حقيقته.. الإنسان نفسه لايعرف نفسه بشكل حقيقي..

ابتسمت له وقالت:

- يبدو أننا بدأنا نتفلسف..!
- لا.. هذه ليست فلسفة.. وإنما وجوه أخرى للحقيقة..
- وجوه أخرى للحقيقة..؟!
- نعـم.. أنـت تعرفيـن جيـداً أنـه لا يمكـن قيـاس المشـاعر وكثافتها وسـرعتها بالسـاعات والأيـام والشـهور والسـنين.. فالضـوء مثلاً سـرعته فـي حدود 300 ألف كيلومتر في الثانية، لكن الإنسان لا يشعر بذلك قط. مشاعر البشر، وربما الملائكة أيضاً، تنتقل أحياناً بسرعة موازية لسرعة الضوء.. ولأكن صادقاً معك.. منذ أن رأيتك في فندق الشام.. ثم رأيتك هنا.. كنت أحس بأني أعرفك.. على الرغـم مـن أننـي لا أعرفك..إلـى أن حدثنـي عنـك صديقي آدم الشـامي.. وعن مشكلتك.. واستفسر مني عن كيفية مساعدتك.. فأرشدته إلى ذلك..

شـحب وجـه حـواء ذوالنوريـن. أحسـت برجفة خوف تسـري فـي أعماقها، فقالت بإرتباك وبنبرة مرتجفة محاولة أن تسيطر على نفسها:

- وماذا قال لك عني..؟
- حكى لي عن مسـألة هروبك من العراق إلى سـوريا.. ومحاولتك الخروج من سوريا بأي شكل.. فنصحته بمسألة الجواز.. وأنا الذي أقنعت السيدة إيفا بتروفنا تومانوفا بقبول عرض الأستاذ آدم الشامي ببيع جوازها إليك.. وأنا الذي أقنعت الخبيـر المختـص بتبديـل الصـور أن ينجـز الجـواز في نفس اليـوم، كما أقنعت آدم الشامي بتسفيرك في اليوم نفسه؛لأنك لو تأخرت ليلة واحدة لما أستطعتِ السفر.. وربما لم تكوني هنا في مثل هذه اللحظة في فلورنسا.. أتدرين ما جرى هناك؟

كانـت حـواء ذوالنوريـن ترتعـش خوفاً، وتحس بأنها على وشـك الإنهيار، فتمتمت بصوت بالكاد كان مسموعاً:

- لا..
- لقد اقتحمت مجموعة إسلامية إرهابية، متخفية بثياب نساء، فندق الشام فجر اليـوم التالـي مـن سـفرك.. وقامـوا بمجزرة ضـد الأبرياء من نـزلاء الفندق عند الفطـور.. وقـد قـام آدم الشـامي نفسـه بالمقاومـة.. فأطلق النار من شـرفته على أحد الأشـخاص المقتحمين.. واتضح في ما بعد بأن ذلك الشـخص الذي قتله كان ابنه هابيل الذي كان قد هاجر إلى فرنسـا ومنها إلى افغانسـتان، لكنه عاد سراً إلى سوريا.. وقام مع مجوعته بإقتحام الفندق..
- ماذا؟!
- وقد جُن آدم الشامي حينما عرف بأنه قام بنفسه بقتل ابنه الأصغر هابيل..

أحسـت حواء ذوالنورين بالإغماء.. لكن إغماءها لم يسـتمر سـوى لثوان.. وحينما أفاقت لم يكن هناك أي أحد قربها.. فالرجل الأشقر الوسيم قد اختفى فجأة. تلفتت في ما حولها فلم تجد أحداً.. نهضت تفتش في القاعات المتوازية مع الممر فكانت خالية.. اتجهت إلى مكتب الإستقبال وسألتهم بالإنكليزية عن الرجل الأشقر الوسيم..، فقالوا إنهـم لـم يـروا أي رجـل أشـقر.. وإنها كانت وحدها تقرأ فـي إحدى المجلات. عادت مستغربة مما ترآى لها خلال تلك الدقائق فجلست على المقعد نفسه حيث كانت، وفي

تلك اللحظة رن هاتفها. نظرت إلى شاشة جهاز الموبايل فعرفت أنها إيفا سميث تتصل بها من باريس. ما أن فتحت خط الإتصال حتى جاءها صوت إيفا سميث:

- مرحبا حواء.. كيفك..؟ أتدرين ما الذي حصل..؟

لم تلحق حواء ذوالنورين أن ترد على تحيتها وإنما سألت مباشرة:

- ما الذي حصل يا ساتر.. يا رب..؟
- آدم الشامي..
- ما له آدم الشامي..؟
- يقال إنه جُن لأنه هناك مجموعة إسلامية إرهابية اقتحمت فندق الشام.. فقاومها هو.. وقتل رئيسها الذي اتضح أنه ابنه هابيل..
- ماذا تقولين..؟ أنا عرفت لكن بطريقة غريبة.. أنت من أخبرك بذلك..؟
- الرجل الأشقر الوسيم.. هل تذكرينه.. الرجل الأشقر الوسيم الذي كان جالساً مع الراهب في ردهة الفندق..
- ماذا تقولين..؟ كيف قابلته..؟ ومتى..؟
- قبل قليل كنت قرب مبنى الأوبرا.. وهناك قابلته.. تقدم مني وسلم عليّ.. وذكرني بنفسه، علماً أنا عرفته مباشرة.. فأخبرني بما حصل.. ثم قال إنه مستعجل.. فمضى.. فاتصلت بك مباشرة..
- لكنه كان هنا أيضاً..
- من؟!
- الرجل الأشقر الوسيم.. كان هنا.. وأخبرني بالأخبار نفسها..
- متى؟!
- قبل قليل..
- غير معقول!
- بل ألف معقول.. أقول لك إنه تحدث معي.. بل وحدثني عن تفاصيل جواز السفر الروسي.. وعما جرى في فندق الشام.. لكنه اختفى.. سألت الإستعلامات فقالوا إنهم لم يروا أحداً يتحدث معي.. أكاد أجن.. وها أنت تتصلين بي.. لتخبريني بأنك رأيته أيضاً في باريس.. ما الذي يجري..؟!

فجأة انقطع خط الاتصال بينهما.. ظلت حواء ذوالنورين تردد:

– ألو.. ألو..

لكن لم يكن ثمة أحد على الخط. فقررت أن تتصل هي بها، لكنها انتبهت إلى أن الاتصال قد حذف أيضاً، فطلبت الرقم من الذاكرة.. فجاء صوت إيفا سميث على الخط:

– ألو.. مرحبا حواء.. كيفك..؟

– أخبريني.. ما الذي حصل..؟

فجاء جواب إيفا سميث مستغرباً:

– ما الذي يمكن أن يحصل..؟ لماذا تسأليني: ما الذي حصل..؟

– ألم تتصلي بي قبل قليل وانقطع الاتصال بيننا..؟

– أنا..؟ أنا لم أتصل بك منذ يومين..

صُدمت حواء ذوالنورين، وقالت متستغربة ومتسائلة:

– ماذا تقولين يا إيفا..؟ قبل قليل إتصلتِ بي وأخبرتني بأنك كنت عند دار الأوبرا وهناك التقيت الرجل الأشقر الوسيم الذي قابلناه في فندق الشام بدمشق.. وقلت إنه أخبرك بأن..

فقاطعتها إيفا سميث مستغربة وبصوت مليء بالدهشة والخوف:

– ماذا تقولين يا حواء..؟ هل أنتِ على ما يرام..؟ أنا لم أخرج من البيت هذا اليوم قط.. ولم أقابل أحداً.. وكذلك لم أتصل بك.. هل أنت على ما يرام..؟.

أحست حواء ذوالنورين بالخوف.. صمتت لحظات.. بينما كان صوت إيفا سميث يُسمع بأنها تناديها، فأجابت بهدوء مصطنع:

– لا شيء.. يبدو أنني متعبة جداً.. فقد تراءى لي الرجل الأشقر الوسيم الذي التقيناه في فندق الشام.. تراءى لي أنه هنا في هذا الفندق.. حتى إنه اليوم تقدم مني وحدثني عن إيفا بتروفنا تومانوفا..

– عن مَن..؟!

– المرأة الروسية التي أحمل جوازها.. وعن آدم الشامي.. وأخبرني بأن هناك مجموعة من الإرهابيين اقتحموا فندق الشام بزي نسائي، وقتلوا الناس وقت الفطور الصباحي.. وقد قاومهم آدم الشامي.. وقتل رئيسهم الذي اتضح أنه ابنه هابيل.. فجُن..

– ماذا تقولين..؟

- لكن الرجل الأشقر الوسيم اختفى فجأة..
- كيف اختفى..؟
- اختفى هكذا ببساطة.. مثل حلم.. أو وهم.. شبح.. واختفى..

بعد لحظات من الصمت امتدت بينهما جاء صوت إيفا سميث قائلا بنبرة حنونة ومليئة بالإهتمام:

- حبيبتي حواء.. ارتاحي قليلاً.. هذه كلها مخاوفك ووساوسك بأن هناك من يعرف بقصة جواز السفر.. ومشاكلك.. ارتاحي قليلا.. وقريباً سنلتقي.. لا ترهقي نفسك.. حاولي أن لا تبقي وحدك.. كيف تجري الأمور مع الشاب العراقي الإيطالي..؟
- جيدة.. علي أن أذهب إليه بعد قليل..
- إذهبي إليه.. وحاولي أن تستمتعي بوقتك.. سأتصل بك لاحقاً..
- طيب..إلى اللقاء..
- إلى اللقاء.

أحست حواء ذوالنورين بالإرتباك.. وبراحة من خلال تطمينات إيفا سميث، وحاولت أن تقنع نفسها بأن كل ما جرى لها ليس أكثر من أوهام في أوهام.. لكنْ ثمة فضول في داخلها ظل يتحرك ويلتف.. فقالت لنفسها بأن عليها أن تتصل بحواء الكرخي؛ لتستفسر منها فربما هي تعرف إذا ما كان هناك هجوم على الفندق فعلا فمثل هذه الأخبار لا تخفى. أخذت هاتفها واتصلت برقم حواء الكرخي البيتي.. لكن لم يكن أحد يجيب عليها. فكرت مع نفسها بأن هناك فرقا في الوقت وهذا يعني أنها ربما خرجت.

ظلت جالسة على مقعدها كأنها مربوطة بخيوط غير مرئية تمنعها عن الحركة والنهوض. استجمعت مع نفسها كل قواها الداخلية مقطعة تلك الخيوط الوهمية ونهضت مغادرة الفندق. حين صارت في الشارع أحست بأنها كانت مختنقة وأنها الآن تتنفس هواء نقياً. أحست بدفق الحياة في الشارع. رأت على الرصيف المقابل لبوابة الفندق حيث تقف مجموعة من الفتيان والفتيات يتحدثون بالإنكليزية بمرح، ومن أمامها مر رجل وامرأة في الأربعينيات من العمر يتحدثان بلغة لم تكن تستطيع تحديدها. فجأة، توقفت سيارة تاكسي أمام بوابة الفندق.

خرج السائق ليفتح الصندوق الخلفي، ثم فُتح الباب، فأصيبت بالدهشة، إذ خرج من التاكسي الرجل الأشقر الوسيم. لم تستطع أن تسيطر على مشاعرها وصدمتها، فاتجهت مبتعدة بإتجاه اليمين، وحين ابتعدت لأكثر من عشرة أمتار التفت إلى الخلف فرأت الرجل الأشقر الوسيم ينقد السائق مبلغاً، ثم وقف للحظات ينظر نحوها، فأحست بخوف طاغ، أسرعت الخطى وكأنها تهرول، وحين صارت على مبعدة أكثر من عشرين مترا التفتت لا إرادياً، فلم تجد أحداً. بل انتبهت إلى أن التاكسي كان يفترض أن يمر من جانبها قاطعاً الشارع أمامها ليستدير في أحد الفروع أو يتوجه إلى ساحة (بيازا سانت ماركو) لأنه لا يستطيع أن يستدير في الشارع العام، لكن لم يكن هناك تاكسي في الشارع، ولم تلمح تاكسياً يمر من جانبها. فكرت بحاجة ملحة لكي ترى آدم بوناروتي.

* * *

في ساحة (سينيوريا) التقت حواء ذوالنورين بآدم بوناروتي. كان هو في حالة نفسية متهيجة، فبريق عينيه وملامح وجهه تشي بإنشغاله الفكري وبكثافة من كلام صامت مخنوق. بدا أنه كان قد خطط جولة هذا اليوم، إذ أخذها، أول ما التقى بها، إلى زيارة لبيت دانتي أليغييري الذي لا يبعد كثيراً عن الساحة. ولم يكن البيت مهما من الناحية الفنية كقصور النبلاء والحكام التي هي تحف معمارية، وإنما أهميته تاريخية بإعتباره البيت الذي ولد فيه وترعرع الشاعر العبقري دانتي أليغييري.

كانت معلوماتها الأدبية والفنية السابقة، وخصوصاً عن دانتي قليلة، لكنها من خلال علاقتها بآدم بوناروتي صارت تعرف عن حياته ومؤلفاته وحبيبته (بياتريتشي) الكثير، وكل ما يتعلق بملحمته (الكوميديا الإلهية)، كما قرأ لها بعض المقاطع من (الجحيم) الذي كان ينطقها باسمها الإيطالي (أونفيرنو)، التي استمعت لها بالإيطالية والعربية.

بعد أن أنهيا جولتهما جلسا حول طاولة في باحة تطل على الشارع لمطعم ومقهى يقع بالقرب من بيت دانتي. كان آدم بوناروتي وكأنه مشحون بالكلام ومزدحم بالأفكار، ويريد أن يفرغ ما في ذهنه، لاسيما وأن زيارة بيت دانتي زادته توترا وشروداً. طلبا كابتشينو، فجاءت النادلة بكوب كبير جداً لكل منهما. ابتسمت حواء ذوالنورين حينما رأت كوبي الكابتشينو الكبيرين جداً وأرادت أن تعلق، إلا أن آدم بوناروتي قال لها بنبرة متسائلة وجادة:

- أنا أعتقد أن الجحيم هي فكرة ليس أكثر..!

استغربت حواء ذوالنورين أن يبدأ حديثه بهذه الجملة. سألت نفسها: لماذا يعذب نفسه بهذه الأفكار..؟ ألا يرى أن الحياة قصيرة ولاتحتاج أن يغرق الإنسان نفسه بهذه الأفكار السوداء.. فهي بحد ذاتها هي أشبه بالجحيم..؟ لكنها وجدت نفسها تستجيب للتواصل معه، فسألته:

- أتقصد أنه لا توجد جحيم..؟

انطلق آدم بوناروتي بالحديث وكأنه يحدث نفسه ويناقش نفسه أكثر مما هو يجيب على سؤالها فقال:

- الجحيم هي تصور البشر الذي وُلد نتيجة تفكيرهم بالموت وبما وراء الموت ومحاولة تفسير الفعل البشري وجدواه.. ثم صار وسيلة مهمة ومفيدة ومضمونة للسيطرة على البشر في الحياة من خلال الأديان.. لذلك صار هو الموضوع الأثير للدعاة والمبشرين والأنبياء والوعاظ!

وجدت حواء ذوالنورين نفسها مأخوذة بهذه الفكرة فسألته متوترة:

- أمعنى ذلك أنه لا توجد الجنة أيضاً..؟

لم ينظر هو إليها مباشرة. ظل صامتاً للحظات، فواصلت هي:

- إذا لم توجد الجحيم، فهذا يعني أنه لا يوجد حساب وعقاب، وبالتالي لا توجد جنة أيضاً، بل ولا يوجد صراط أو برزخ.. هل هذا ما تقصده..؟

رفع آدم بوناروتي رأسه وقال وفي عينيه نظرات تائهة:

- البرزخ فكرة مسيحية.. محاولة لتقبل فكرة الجحيم.. وقد وجدت لتمنح البشر شيئاً من الأمل بالفردوس.. لكن الجحيم بالأساس هي فكرة فرعونية.. الفراعنة الأوائل هم من فكروا بالجحيم.. وكانت عندهم بحراً من الظلمات..

- آدم.. هل أنت مؤمن..؟

فوجئ هو بسؤالها. نظر إليها مستغرباً. صمت للحظات ثم قال بإنفعال بارد:

- ما هو الإيمان..؟هل الإيمان ينحصر بالضرورة في مسألة الإعتقاد بما جاءت به الأديان..؟ أنا أجد أن ما جاء في الأديان مليء بالتناقضات.. كل الكتب التي تُسمى مقدسة مليئة بالتناقضات؛ فلو كان الكتاب الأول منها مقدساً؛ لما كان هناك داع لنزول كتاب مقدس ثان، وإذا كان الثاني مقدساً فلماذا نزل كتاب ثالث.. وكلها مقدسة.. فلِمَ ينزع أي كتاب منها قداسة الآخر.. هل الرب مؤلف

سيىء بحيث يعيد كتابة كتبه كل مرة..؟ ثم هل تعتبرين أن التسليم بما جاءت به الأديان دون إعادة تفكيكها وتفسيرها تاريخياً أمر مقبول عقلياً..؟ أنا لا أقبل بمثل هذا الإيمان.. ولست مؤمنا بهذا المعنى.. أن لا أثق ثقة عمياء بما جاءت به الأديان.. بل لا أريد أن أضع الإيمان في مواجهة مع العقل.. لأن الإيمان يفترض أن لا يكون نقيضاً للشجاعة في التأمل وطرح الأسئلة، ولا يكون خوفاً وهروباً من مواجهة خيبة الأمل التي يمكن أن تواجهنا أثناء بحثنا المحموم عن الأجوبة..

ابتسمت حواء ذوالنورين بطيبة وقالت:

– لم أفهمك بالكامل يا آدم.. لكن هون عليك رجاءً.. لستَ بحاجة إلى أن تبرّر وضعك أمامي.. سؤالي كان بسيطاً جداً: هل أنت مؤمن أو ملحد..؟

– إذا كان الإلحاد هو رفض الأديان وتصوراتها عن الكون والإنسان وتحريماتها وتشريعاتها؛ فأنا ملحد.. أنا لا أؤمن بالأديان.. أحترمها لأني على الأقل أحترم الناس البسطاء الذين آمنوا بها.. أمي وأبي مثلاً والناس البسطاء الذين عرفتهم.. لكني شخصياً لا أؤمن بها.. أنا مؤمن بوجود خالق لهذا الكون.. ولدي تصوري عن هذا الخالق، هذا الذي تسميه الأديان باسم الله.. وهو يختلف عن تصور الأديان..

– لا أفهم..؟ هل تؤمن بالله.. بالخالق..؟

– نعم..

– وفي الوقت نفسه لا تؤمن بالأديان التي تدعو إلى الشيء نفسه..؟

– الأديان تسيء إلى الخالق من خلال هذا الركام من الهذيانات والتحريمات والتصورات المتناقضة مع العقل والمنطق وتجريم كل من يختلف معها.. انظري.. اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار.. المسيحيون يعتقدون أن من لم يتم تعميده مسيحياً فهو خارج مجال الخلاص والرحمة.. المسلمون يعتقدون أن من جاء بغير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.. أترين.. هذه هي الأديان.. كل منها يعتقد أنه هو الفرقة الناجية..

– ناجية من أي شيء..؟

ابتسم آدم بوناروتي بمرارة وقال:

- ناجية من الجحيم..
- الجحيم..؟ هل تأسست الأديان بالأساس لتنقذ الناس من الجحيم..؟
- نعم..
- إذن كيف تقول أن الأديان استخدمت فكرة الجحيم للسيطرة على البشر..؟

نظر آدم بوناروتي إليها متأملاً وجهها المثير والمتألق بقلق الأسئلة، وقال وكأنه يحاول أن يؤجل مثل هذه المناقشة.. أو وكأنه لم يشأ أن يثير قلقها أكثر، فقال:

- هذه قضية يطول شرحها.. سأشرحها لك في ما بعد..
- طيب.. قبل قليل كنا في بيت دانتي.. وأنت من أشد المعجبين به وبعبقريته.. كيف إذاً تنكر وجود الجحيم والفردوس بينما أنت تؤمن بجحيم دانتي.. وفردوسه إيضاً..؟

ابتسم آدم بوناروتي لها بطيبة وقال بنبرة مازحة:

- لم أكن أتوقع منك مثل هذه المحاججة المثيرة.. طيب.. سأجيبك بإختصار.. حينما بدأ دانتي بكتابة (الكوميديا الإلهية).. كان ذلك في حدود العام 1307 أي قبل أكثر من سبعمائة سنة.. ولم يكن عصر النهضة قد بدأ.. ولم يكن يعرف النظريات العلمية الحديثة.. واكتشاف الذرة.. وسرعة الضوء.. والوصول إلى القمر والمريخ وقوانين النسبية وقوانين الجاذبية والكهرومغناطيسية، ونظرية الكم وغيرها من المنجزات العلمية.. وبالتالي كان ضمن تصورات زمانه.. وبرغم ذلك.. فقد كان دانتي عبقرياً عظيماً ومثقفاً شجاعاً.. فقد ألقى في جحيمه بعدد من البابوات والأساقفة.. جحيم دانتي هي جحيم النفس البشرية.. جحيم أخلاقي.. جحيم الإنسان في مواقفه.. وهي إعادة قراءة لتاريخ البشرية كله وتاريخ زمانه.. وبصراحة.. الأديان اليوم تقود إلى الإلحاد.. وليس إلى الإيمان.. العلم هو الذي يقود إلى الإيمان.. حينما توغلت في الدين فقدت روحي وعقلي.. ورجعت من رحلتي محملاً بألم الضياع.. جميع الأديان في ظاهرها تدعو إلى التسامح لكن في باطنها تربي على الحقد والعنصرية..
- لحد الآن لم أفهمك بالكامل.. يعني أنك تعتقد أنه لا وجود للملائكة ولا للشياطين.. ولا لإبليس.. وليس هناك جحيم أو فردوس..؟
- ليس كما جاء في الأديان.. يمكن فهم الملائكة والشياطين وإبليس بشكل

مختلف.. هناك قوى في الطبيعة لا نعرفها.. وهناك ظواهر لا نستطيع تفسيرها بما لدينا من علم.. نحن لسنا وحدنا في هذا الكون.. ربما هناك مخلوقات تمتلك قدرات خارقة موجودة في هذا الكون الرحيب.. وربما تزور الأرض.. وربما تتمشى بيننا دون أن نستطيع أن نميزها.. نتعامل معها دون أن نعرف من هي.. وربما توجد مخلوقات لا نراها.. لا أعرف.. العلم لا ينفي مثل هذه الأشياء.. هناك عوالم موازية لنا.. وهناك تعدد للعوالم.. أي نحن موجودون بنسخ أخرى..

ارتسمت ملامح خوف حقيقي على وجه حواء ذو النورين، وقالت بإرتباك:

- ربما ما تقوله صحيحاً.. فأنا مررت بمثل هذه الحالة.. وربما قابلت أحدهم..
- ماذا..؟

صرخ آدم بوناروتي متفاجئاً. ارتبكت حواء ذوالنورين من رد فعله. التفت في ما حولها. ارتسمت علامات رعب على وجهها، فقد كان الرجل الأشقر الوسيم عند منعطف الشارع على بُعد أمتار منهما. تجمد وجهها محتفظاً بعلامات الرعب. انتبه آدم بوناروتي لذلك. فوجئ بما هي فيه فسألها:

- حواء ما بك..؟

التفت إليه بحيرة وخوف وقالت:

- هذا هو الرجل الذي أعتقد إنه ليس من عالمنا!
- من..؟!

فقالت حواء ذوالنورين دون أن تلتفت إلى الرجل كي لا ينتبه أنها تتحدث عنه، فقالت بصوت خافت:

- ذاك الرجل الأشقر الوسيم الذي يقف على بعد أمتار منا عند منعطف الشارع.. إنه الذي أقصده..

التفت آدم بوناروتي إلى الناحية المقصودة ثم قال لها مستغرباً:

- لكن لا يوجد أي رجل يا حواء.. لا أشقر ولا أسود.. ولا حنطي..!.

التفت حواء ذوالنورين ناحية الرجل الأشقر الوسيم فلم تجده. أحست بإرتباك وتوتر، فقالت بنبرة إعتذار وكأنها تحاول تبرير ما بدر منها:

- يبدو أني مرهقة.. أشعر بالخوف يا آدم.. أرى رجلاً أشقر وسيماً، كنت قد

التقيته في دمشق صدفة ولأقل من نصف ساعة لا أكثر وكنت مع صديقتي إيفا سميث وكان هو يجلس مع راهب.. لكني فوجئت حين رأيته في فندقي.. وقد تحدث معي اليوم صباحاً قبل أن ألتقيك.. وأخبرني بأشياء مرعبة حدثت في دمشق.. لكنه فجأة اختفى.. ثم رأيته ينزل من تاكسي وكأنه وصل إلى الفندق للتو.. وها أنا أراه هنا ينظر إليّ.. ثم اختفى فجأة.

نظر آدم بوناروتي إليها بتعاطف مد يده إلى يدها ممسكا بكفها وقال بحنان:

- أنت مرهقة يا حواء.. تعالي نذهب لنستريح في الشقة.. لنأخذ معنا شيئاً من الطعام.. ولديّ نبيذ في البيت.. وهناك سنتحدث براحتنا.

أحست حواء ذوالنورين بموجات الحنان في صوته؛ فشعرت بدفق دافئ يسري في خلاياها وأعماقها. ضغطت بدورها على كفه وقالت برقة موحية باستجابة دافئة، وكأنها مدفوعة برغبة عارمة للحظات من الرومانسية:

- لنذهب إلى شقتك.. أحتاج أن نكون وحدنا..

غادرا المكان متوجهين إلى شقة آدم بوناروتي التي تقع في شارع (فيا سانتا آنا)، الذي لا يبعد كثيراً عن فندقها.

* * *

كانا يسيران في الشارع الرئيس الذي يقود إلى ساحة الكنيسة (بيازا دومو Piazza Duomo). كانت الشمس الدافئة تمنح النفس بهجة لا إرادية. حواء ذوالنورين كانت تشعر بدفق من مشاعر فرح غامض، لا تعرف مصدره بالتحديد، فأبراج الكاتدرائية الشاهقة بلونها الأبيض الناصع تمنح الناظر إليها مشاعر روحانية دافئة، كما أن زحمة الشارع ببشر من جنسيات مختلفة يبث فيها حيوية داخلية تدفعها إلى الإحساس بأنها تعيش في واقع أشبه بالحلم. آدم بوناروتي كان منهمكاً بالحديث شارحاً لها بشكل موجز ومختصر تاريخ بناء هذه الكاتدرائية، ومتنقلاً بين الأسماء التي تطن في أذنيها بلا معنى محدد لأنها لا تعرف أصحابها ولم تسمع بهم. كان هو يتدفق في حديثة، تقاطعه أحيانا زحمة من السائحين التي تجبرهما على أن يفترقا قليلاً، ثم يعودا جنباً إلى جنب.

آدم بوناروتي كان يستغل أية فرصة لينظر إلى وجهها الجميل، بينما كانت هي تتفادى نظراته المتقدة. أسهب في الحديث عن تاريخ بدا لها غامضاً ولا تعرف عنه شيئاً، بينما كان هو يتحدث كأنه دليل سياحي. فجأة أحست كأن التواصل بينهما قد انقطع، إذ لم

تعد تسمع ما يقول. كانت تقتنص بعض اللحظات؛ لتنظر إليه فتلمح وجهه وهو يتحدث دون أن تسمع أي شيء مما يقول!

وجدت حواء ذوالنورين نفسـها وكأنها معزولة عن العالم، على الرغم من أنها في وسـط الشـارع المزدحم، وأحيانا كانت تصطدم ببعض السـائرين الذين يواجهونها، أو تحتك بها أجساد بعض الذين يمشون مسرعين فيتجاوزونها. راودتها رغبة غريبة، على غيـر توقـع منهـا، فـي الإنفراد بنفسـها.. لكن كيف لها ذلك وقد طلبت بنفسـها الذهاب معه إلى شقته؟!

كانت تمشي بشكل ميكانيكي. فهي موجودة معه بجسدها، لكن أفكارها تائهة في البعيد. كان هو يتنقل في حديثة من موضوع إلى آخر، حسب تغيير الأماكن والمشاهد في الطريق. فجأة سمعته يقول:

- أحياناً أحاول أن أقتنص ما يدور في نفسي من رغبات عنف غامضة..، لكنني حين لا أستطيع أن احققها كنت أستعيض عنها بالكلام الفاحش البذيء والشتائم باللغة العربية.. شتائم تعبر عن سادية جنسية.. عن عنف لغوي.. لكنها بالنهاية هـو عنـف غيـر مـؤذٍ، لأنهـا لا تعـرف اللغـة العربية.. وهذا مـا كان يريحني من أي شـعور بالذنب.. لكني بعد ذلك كنت أسـال نفسـي: من أنت يا آدم..؟ أمن المعقول أنك تمارس هذه السادية وبهذا العنف الواضح..؟

لم تكن قد استمعت إليه في بداية حديثة؛ لذلك لم تفهم ماذا كان يقصد بحديثه، وشـعرت ببعض الارتباك والخجل من أن تسـأله؛ لكي لا ينتبه إلى أنها لم تكن تسـتمع إليه؛ لذلك أجبرت نفسها على أن تخرج من حالتها التي هي فيها، إذ يجب أن تستمع إليه؛ كي لاتعرض نفسها للإحراج، لاسيما وهو متدفق بحماس في حديثه.

أحست ببعض الراحة حينما توقفا عند أحد المطاعم فدخله ليبتاع لهما طعاماً، حينها سـألها إن كانـت تحـب البيتـزا، فأكـدت لـه بأنها تحبها مع الباذنجان والزيتون الأسـود. فابتاع لهما ما يكفي لوجبتين.

* * *

حين صارا في الشقة، وجلست هي على الصوفا الجلدية في الصالون، انهمك هو فـي المطبـخ ليأتـي بالصحـون وبقنينـة النبيذ. أثناء ذلك فتحت هـي حقيبتها، وأخرجت مرآة صغيرة، ثم نظرت إلى وجهها في المرآة، ليس لأنها كانت تريد تصفيف شـعرها،

أو التأكـد مـن مكياجهـا، بقـدر مـا كانـت تريـد أن تكسـب بعض لحظـات من الصمت والتأمل والتفكير. لحظات تسـتعد فيها لمواجهة الموقف الذي هي فيه، والإحتمالات التي يمكن أن يقود إليها.

كانت تحس بأنها أمام هاوية مفتوحة، فهذه ليست المرة الأولى التي تحس نفسها فيها بأنها تبدو قوية، ومهيمنة، لكنها مهزوزة ومتوترة من الداخل، كما أنها ليست المرة الأولـى التـي يكـون هنـاك من ينجذب نحوها، بل يكشـف عن ضعفه أمامها، بينما تبدو هي ظاهرياً في موقع المتحكم، وفي الوقت نفسـه تحس بالضعف الداخلي أمامه أكثر منه. كانت تلح على نفسها بصمت بأن تكون قوية ومتماسكة، لكنها كانت تعرف بأنها لا تثق بنفسها، وكانت ترتعش من فكرة أنها ربما ستنهار أمامه.

ظلـت هـي فـي مكانهـا. لـم تذهـب إلـى المطبخ لمسـاعدته، لأنهـا بغريزتها كانت تدرك بأنها لو ذهبت إلى هناك فربما سـيحتكان ببعضهما، وربما سـتتطور الأمور التي هي أحيانا تتخيلها قبل أن تحدث، بحيث حينما تحدث لها في الواقع فكأنما تسـتعيد شريطا سينمائياً.

نادى هو من المطبخ مازحاً بأن عليها أن تصبر قليلاً؛ لأنه سيعد السَلَطة. فلم تجبه إلا بكلمة: (أوكي) ولم تتفوه بأية جملة حول مساعدته؛ لأنها كانت تشعر بأنه لن يمانع، لأنه يريدها أن تكون قريبة منه.

مرت دقائق صمت.. كان الوقت كافياً لها لكي تشعر بأنها صارت أهدأ، لكنها كانت في أعماقها تعرف جيداً بأنها لن تصمد أمام أي إقتحام مفاجئ لعالم حواسها الجسدية.

آدم بوناروتي كان بدوره يفكر فيها بحنان. كان يشعر بأنه يحتاجها، لكنه يعرف بأن هنـاك حواجـز بينـه وبينهـا. حواجز لم يكشـفها هو لهـا. حواجز حولت حياته إلى عبث وحركة في الفراغ واللاجدوى، وأفقدتها اللون والطعم والرائحة.

لم يستمر الصمت بينهما طويلاً. أتى بالصحون والإناء الكبير الذي أعد فيه السَلَطة، وأشياء أخرى من المقبلات التي يحتفظ بها في ثلاجته. بدا واضحاً أن فترة الطعام هي أشبه بالهدنة لكل ما فكر به كلاهما، وأن هناك شيئاً ما لا بد وأن يحدث بعد ذلك.

كانـت هـذه الأفـكار قـد انعكسـت لا إراديـا على تصرفاتهما وحديثهمـا أثناء تناول الطعـام؛ حتـى بـدت بعـض الجمـل والكلمـات كأنها بـاردة، أو جمل فاتـرة، ومعظمها

مجاملة، وكأنهما يهربان من نقطة يعرفان جيداً أنهما يتجهان إليها.

* * *

- أرجوك يا آدم.. أنا صرت أخاف من كلمات التعبير عن الإعجاب والعواطف العنيفة.. لاأنكر أنني أحس بالراحة معك.. أحياناً أحس بأشياء أنا شخصياً لا أستطيع تفسيرها.. أحس أنك تفكر بأشياء أتوق أنا لمعرفتها.. تجتاحني أحيانا مشاعر متناقضة بشكل مخيف.. بل أحيانا لا أستطيع فهم نفسي؛ لذلك أرجوك لا تجعلني أتخذ موقفاً يدفعني للندم في ما بعد.

جثا آدم بوناروتي على ركبتيه أمامها وأحاط ساقيها بذراعيه وخبأ وجهه في حضنها، بين ساقيها. أحست هي برعشة هزت كيانها. امتزجت لديها مشاعر الأمومة، والشفقة، واستيقظت في جسدها رغبة كانت نائمة، لكنها حاولت أن تروض نفسها على الصمود وعدم الهرولة وراء الرغبة والشبق الذي بدأ يجتاحها؛ لذلك تشنجت إراديا.

ظل آدم بوناروتي جاثياً أمامها، وحاضناً ساقيها بذراعيه. بقيا كلاهما على هذا الوضع للحظات، ثم رفع رأسه إليها، وقال وفي صوته نبرة تهيج وشبق يحاول أن يخفيه:

- أنا أفهمك.. وأفهم لماذا تتجنبين أن تتحدثي في هذا الموضوع.. أنا أفهمك.. ولا أريد أن أضغط عليك..

كلماته أثرت فيها، فقالت بحنان:

- أنا سعيدة جداً بلقائي معك.. وأعتبر أن لقائي بك كان مثل ابتسامة الحظ النادر لي بعد كل هذه المصائب التي مررت بها والتي حدثتك عنها.. لقد تعلمت منك الكثير.. بل إني وجدت الإجابات على الكثير من تساؤلاتي الغامضة التي كانت تصطخب في أعماقي.. تساؤلات عن الحياة ومعانيها الغامضة..
- أنا أيضاً وجدت فيك ما كنت أحن إليه منذ سنوات..

أحست بنشوة لهذا الإطراء، فاسترخت قليلا.

- أنا..؟!
- نعم أنت..

تألقت عيناها بفرح غامض وعميق ونظرت إليه وكأنها تبحث عن التأكيد لما قاله. انتبه هو لذلك، فواصل متدفقاً بالكلام:

- أنا أشعر بجوهر ذاتي معك.. صحيح أنني هنا منذ عشرين عاماً.. وكنت طوال

هذه السنين أحاول أن أغلق الأبواب والنوافذ على ذاكرتي وطفولتي وماضيٍّ.. تزوجت.. وترملت وعرفت نساء ونساء.. لكن كل ذلك تحطم بوجودك.. منذ أن رأيتك أحسست بأنني أولد من جديد.. معك وجدت طفولتي وشبابي وأحلامي الهاربة.. ليس تلك الذكريات الحزينة، وإنما أحلامي بالحرية.. وجدت حريتي التـي أشـتهيها، والتـي هربـتُ من بلادي من أجلهـا.. وجدتها فيك.. لذلك أنتِ بالنسبة لي لستِ امرأة عابرة التقيتها.. سائحة أقضي معها أياماً ثم تمضي.. وإنما امرأة استقرت في أعماقي.. صحيح أن حياة كل منا سارت حسبما مقدر لها.. وربما ستسـير هكذا أيضاً.. لكن ليس من السـهل تجاوز ذلك.. صار وجودك متداخـلاً مـع يوميـات حياتـي، ويلقـي بظلاله على مصيري وقـدري.. أنا أعرف أنك تكنين لي مشاعر صافية وحقيقية.. لا أعرف طبيعتها.. لكنني أشعر أن لي مكاناً في أعماقك.. ربما أنك تخافين أن تواجهي هذه الحقيقة؛ لذلك تروضين نفسك على كبتها.. بل أشعر أنك لا تريدينني أن أقترب منك أكثر من اللازم، لكنك في الوقت نفسـه لا تريدين أن أبتعد عنك أو أن أختفي من حياتك.. أنا حقيقتك.. ورفيقك في البحث عن نفسك، التي تجدينها أحياناً من خلالي..

كانـت حـواء ذوالنوريـن ترتجـف محاولة السـيطرة على نفسـها، وكانت كلما يغمر آدم بوناروتي رأسه بين ساقيها أكثر مقترباً من منطقة الحوض، يتضح ارتجاف جسدها أكثر، وترتجف نبرة صوتها ويتقطع الهواء عند تنفسـها. كانت تبذل جهوداً نفسـية غير عادية من أجل أن تصمد ولا تنهار، لكنها كانت تعرف أنها ضعيفة أمام رغبتها الجنسية لاسيما حينما تستيقظ. وكان كلامه قد زاد من استرخائها.. وهيجانها العاطفي.. كانت رغبتها تجتاحها مثلما يجتاح السـيل أرضاً جدباء؛ كلما توغل آدم بوناروتي برأسـه إلى منطقتها الوسـطى أكثر، لاسـيما وأنه قد أحاطها أسـفل ظهرها قريبا من وركها بذراعيه. لقد كانت حواء بوناروتي تدرك عبوديتها لرغبتها الجسدية.

- لا يمكنني أن أثق بك..

قالت حواء ذوالنورين رداً على دفق المحبة التي أعلنها لها آدم بوناروتي لأول مرة. رفع رأسه وكأنه على شفا هاوية:

- لماذا..؟

- لأنني لا أستطيع أن أثق بنفسي.. أنا على يقين من شيء واحد..

- ما هو..؟
- ضعفي.. أنا على يقين من ضعفي.. لا أستطيع أن أصمد أمام تيار الرغبة حينما يجتاحني.. أنجرف معه مثل قشة..

حين قالت ذلك أحستْ للحظات أنها صارت بعيدة عن المكان والموقف، وفكرت مع نفسها: لماذا يتحول كل تعارف لها بشخص جديد إلى كارثة أو منعطف حاد في حياتها..؟ فجأة نظرت إليه وكأنها تبحث عنده عن إجابة، وسألت:

- هل هو عيب أن ينجرف المرء مع رغبته العميقة، الغامضة، والقوية، بالرغم من أنه يعرف أنها قد تستهجن اجتماعيا، وأخلاقيا، أهذا عيب..؟
- لو كنت تتحدثين عن العيوب فجميعنا لدينا عيوب، بل لدينا عيوب قاتلة.. الكذب.. النفاق.. النميمة.. وغيرها.. أليست هذه عيوب.. أما أن ينساق المرء مع رغباته الجسدية فهذا ليس عيباً؛ فهو لا يسبب ضرراً مادياً لأحد..

نظرت إليه بحنان، وبرغبة غامضة، وقالت:

- أنت تتفهم مشاعر الآخرين.. وهذا الأمر يحتاج إلى موهبة.. أنت موهوب فعلاً.. لكنها موهبة مرتبطة بك لحكمتك ولعفويتك..

نظر إليها بحنان، وبدأ يسحبها من وسطها نحوه، وهو يقول:

- نحن البشر مثل السلاحف.. كل منا هو سلحفاة.. لكل منا درعهُ القوي الذي يتحصن تحته.. ويخفي رأسه وأسراره ورغباته السوداء.. لكننا لا يمكننا إلا أن نكون معاً.. كل داخل درعه. وبرغم ذلك نكون بدروعنا جنباً إلى جنب.

فجأة، وبلا وعي منها مررت كفها على شعره وقالت:

- أحيانا نلتقي ببعض الناس الذين نحس أنهم دخلوا حياتنا بقوة.. ويكون لهم التأثير الواضح علينا، ما يدفعنا إلى أن نسلمّهم، تحت تأثير جاذبيتهم وسحرهم الشخصي، مفاتيح خزائن أعماقنا وأسرارنا بسهولة وقناعة.. بعد ذلك نصاب بالذعر، ثم الغضب من جرأتهم في كشف وتنوير المناطق المظلمة عن الزوايا المعتمة والمبتذلة أحيانا من طباعنا ونزواتنا.. لكننا سرعان ما يتحول غضبنا من هذا الإقتحام لأعماقنا وأسرارنا إلى إعجاب.. فنستسلم لهم أكثر.. وأنا أحس بنفسي معك هكذا، لكني خائفة..

أنزل كفيه على وركها، وسحب إحدى يديه وأخذ يلامس بها الجزء الأسفل من

ساقها وهو يقول:

- لكن أحيانا تشعرين أنك أمام واحد من هؤلاء الناس الذين تتحدثين عنهم.. تحبينه.. أو تظنين أنك تحبينه، وأنه قريب منك.. تضمينه إلى صدرك بقوة ورغبة في الإلتحام به.. لكن في تلك اللحظة بالذات.. في اللحظة التي تضمينه فيها.. ويكون رأسك على كتفه وليس في وجهه.. في تلك اللحظة تشعرين أنه بعيد عنك..

كان آدم بوناروتي خلال حديثه يفتح ساقيها شيئاً فشيئاً، بحيث صار وجهه تقريبا في وسط ساقيها المنفرجتين، وكان خلال ذلك يرفع ثوبها إلى الأعلى وتتناوب يداه في رفع الثوب من الجانبين. كانت هي تحاول أن لا تركز على الأمر، تتقصد في تشتيت انتباهها عن ذلك، فهي تريد ذلك ولو ركزت عليه؛ فلا بد لها من الاعتراض عليه أو اتخاذ موقف ما، وهذا ما تحاول تأجيله، لذا قالت بانفعال:

- إنني أشعر بقلق دائم، وتفكيري كله يتركز في كيفية أن لا أنجرف مع سيل الرغبة العارم، وأن أتماسك ولا أنهار بسهولة، لكنني في اللحظة الحاسمة، وحينما يهب السيل أجدني أضعف بكثير مما لو لم أفكر بالأمر قط.. إنني امرأة ضعيفة.. ليس في أمر الرغبة فقط وإنما في الأشياء الأخرى.. أنا أفكر في الآخرين وما سيقولونه عني كثيراً. أحاصر نفسي، وأكبت مشاعري، ولا أتصرف بتلقائية، كل ذلك من أجل أن يقبل بي الآخرون ولا ينتقدوا تصرفاتي، بحيث صرت أرى نفسي من خلال عيون الآخرين..

في تلك اللحظات ضغط هو نفسه بثبات بين ساقيها المنفرجتين قليلاً، ونظر بالتحديد إلى ما بين ساقيها، فاشتعلت رغبته العارمة، فقال محاولاً أن يعطي انطباعاً بأن الأمر لا يتعدى هذه الوضعية، بينما كانت أنفاسه لاهثة، ونبرة صوته تتكسر بموجات الشبق والرغبة:

- ليذهب الآخرون إلى الجحيم..إنهم سيدينونك في كل الأحوال.. ولن تستطيعي الحصول على رضى الجميع.. طز بنظرات الآخرين لنا.. كل منا هو آخر بالنسبة للآخر..
- لكن نظرة الآخر هي التي تشكل قيمتنا..!
- قيمتنا كمخلوقات بشرية فردية لا تحددها نظرة الآخرين لنا يا حواء..

لم تكن تستطيع أن تتجاهل الوضع الذي هما فيه أكثر من ذلك، كما كانت تشعر بأنها على وشك الإنهيار، وأن أمواج النشوة تقترب منها؛ فأردت أن تسيطر على نفسها بكل ما تملك من إرادة، وأن تبعد التفكير في الوصول إلى الذروة؛ فمسكته برقة من كتفيه الممدودين أمامها، وسألت بنبرة مبتلة بالنشوة المفضوحة:

- إذن، ما الذي يحدد قيمتنا..؟ هل هو ما نملك من مال..؟ أو ما نمارسه من عمل..؟ أو ما نحتله من موقع وظيفي..؟ أو انتماء لطبقة أو عائلة أو عشيرة معروفة..؟ أو تراه ما نكون عليه من هيئة وجمال وشكل..؟

سحب نفسه قليلاً نظر إليها وكأنه كان يريد أن يتأكد مما هي فيه قبل أن ينتقل إلى الخطوة التالية. نظر إلى وجهها القلق والمتألم من محاولة إخفاء شهوتها، وإلى عينيها المتألقتين، وقال:

- قيمتنا بأن نكون بشراً.. أن لا نؤذي الآخرين.. أن لا نفعل الشر.. ليس بالضرورة أن نفعل الخير. وإنما أن لا نفعل الشر.. فعدم قيامنا بما هو مؤذ للآخرين وللأشياء حولنا من حيوانات ونباتات.. هو بحد ذاته خير.. علينا أن نكون مسالمين.. وأن لا نتحرج من أن نتصرف بحرية.. وأن لا نكبت مشاعرنا.. ما دمنا لا نؤذي أحداً..

قال ذلك ووضع رأسه بين فخذيها مقبلا فرجها.. لم تستطع أن تسيطر على نفسها، فصدرت عنها تنهيدة شبقة، وارتعشت بذروة أولى، لكنها لم تكتف، فأرخت جسدها قليلاً لتتيح له الحرية في أن يقتحمها، لكنها برغم ذلك كانت تحاول أن تشغل نفسها، إلا أنه تجرأ بخطة لا مجال للتراجع بعدها، إذ مد يده وسحب سروالها الداخلي نازعاً إياه، فساعدته برفع قدميها ليتخلص منه.. وبحركة قوية أقرب إلى العنف ألقاها على الصوفا رافعا ثوبها إلى الأعلى، فصارت عارية من قسمها الأسفل بالكامل، لكن فجأة، وعلى غير توقع منها ومنه هدأ كل شيء. أحس آدم بوناروتي بإنطفاء كل شيء.

هيمن صمت دام للحظات بينهما. استغربت هي. مدت يدها لتسحبه نحوها بحنان. فرفض الاستجابة لها. وإنما مد يده فسحب ثوبها مغطيا عريها، وجلس على حافة الصوفا، مغطيا وجهه بكفيه.. نظرت إليه بحنان، شاعرة براحة نفسية بأنه لم يحدث شيء بينهما، إذ تخلصت من شعور بالذنب كان سيعذبها، لكنها كانت منجذبة لمعرفة سر هذا الإنطفاء، إذ سألته بنبرة متعاطفة، وحنونة:

- ماذا هناك..؟!
- لاشيء..
- أمتأكد من أنه لاشيء هناك..؟

لم يجبها مباشرة، وإنما رفع يديه ببطء عن وجهه، ثم نظر إلى الأرض وقال:

- الأشباح..
- الأشباح..؟ أية أشباح..؟
- أنا لم أرو لك قصتي بكاملها..
- أية قصة..؟
- قصتي مع أم زوجتي..
- لكنك قلت أنها في السجن..
- نعم.. هذا صحيح..
- إذن..؟
- لكنها خرجت بعد ست عشرة سنة..
- ماذا تقول..؟ وماذا حصل..؟

سحبت حواء ذوالنورين نفسها قليلاً، وجلست إلى جانبه على الصوفا الجلدية. كانت تنتظر من أنه يشرح لها. التفت إليها وملامح وجهه تعبر عن معاناة كبيرة، ولهفة، لم يقل شيئاً وإنما أخذ وجهها بين يديه وقبلها من شفتيها قبلة دافئة ورقيقة. استجابت له، لكنها كانت تريد أن يتخلص من توتراته، وأن يوضح لها، فسألته:

- ماذا حصل لك معها..؟
- سأروي لك كل شيء.. فهو يعذبني.. بل دمر حياتي كلها، وبعد ذلك يمكننك أن تقرري..
- أقرر..؟ أقرر ماذا..؟
- سأروي لك الحكاية..

نظرت حواء ذوالنورين إليه نظرة قلقة، ولم تعلق وإنما انتظرت منه أن يدلي بما يثقل على روحه.. صمت آدم بوناروتي للحظات ثم انطلق في سرد حكايته.

25

انتقام ايزيس..
ومحنة سيت

–رنّ جرس الباب وكنتُ قد انتهيت للتو من حمامي الصباحي. كنت أنشّف جسدي فلم ألحق بسرعة لفتح الباب لطارقه. وبرغم ذلك فقد ارتديت ملابسي بسرعة وذهبت لأفتح الباب. حين وصلت الباب وفتحته، لم أرَ أحداً، لكني سمعت وقع خطى لحذاء أنثوي على درجات السلّم، فأدركت بأن الطارق كان امرأة. كان شعري لا يزال مبللاً. خرجت من الشقة، وانحنيت من سياج الطابق ناظراً إلى الأسفل، فلمحت امرأة شقراء أنيقة الملابس قد وصلت إلى الدرج الأخير وانعطفت إلى الباب الخارجي. لم أتأكد من ملامحها بفعل زاوية النظر. صحت منادياً إياها: سينيوريتا.. سينيوريتا..، لكنها لم تسمع إذ يبدو أنها صارت في الشارع. رجعت إلى الشقة. أخذت أجفف شعري، وخلال ذلك نظرت من نافذة غرفتي المطلة على الشارع، فرأيت المرأة الشقراء التي عرفتها من ثوبها ذي اللون البرتقالي المائل للذهبي الذي أحبه جداً وهي تقف بالقرب من موقف باص نقل الركاب القريب من بيتي على الجهة المقابلة للبناية التي شقتي فيها، لكنها كانت تقف وحدها وليست ضمن الأفراد المتجمعين هناك.

ارتديت ملابسي بسرعة، أخذت أوراقي وأقلامي وعدة الرسم وركضت خارجاً من شقتي. هبطت مسرعا إلى محطة الباص. حين وصلت المكان رأيت امرأة في نهاية الأربعينات أو بداية الخمسينات.. جميلة جمالاً آسراً.. كان شعرها أشقر شقرة جميلة تميل إلى اللون الفضي، وكان وجهها النحيل وعيناها الكبيرتان التي يحيطهما كحل خفيف ينم عن ذوق خاص في المكياج، وفمها الشهواني العريض بشفتيه الدقيقتين لكن المليئتين قليلاً، وصدرها الذي يرتفع منتصبا قليلاً برغم سنها، وجسدها المتناسق.. وأناقتها.. يا إلهي كم كانت أنيقة.. ثوبها البرتقالي المائل للذهبي الذي يميل إلى تلك

الألوان الصينية والذي تتخله ضربات من الذهبي.. وحقيبتها الجلدية الصغيرة ذات اللون الحليبي.. وحذاؤها الأسود الجلدي.. لا أعرف ماذا أقول لك.. أحسست أنني أرى واحدة من نساء الطبقات الثرية اللواتي نجد صورهن في المجلات، أو امرأة من عالم الموضة.. كان كل شيء فيها رقيقاً وآسراً ومثيراً حد الشبق.. لكن من هي..؟ ولماذا طرقت بابي..؟ هل أخطأت العنوان..؟.

اقتربت منها قليلاً وفي نيتي أن أعرّف بنفسي.. وأسألها عمّا تريد، لكنها كانت تتحدث مع شخص ما بهاتفها النقال.. يبدو أن الأمر بدا وكأنه سيناريو كتبه شخص مجهول ويخرجه شخص لا أراه.. فما أن اقتربت حتى سمعتها تقول للآخر بأنها كانت عنده وطرقت الباب.. لكن هذا التافه لم يكن موجوداً. شعرت كأن جردلاً من ماء مثلج سُكب على رأسي.. تجمدت في مكاني.

لم أكن واثقاً من أنني فهمت ما قالته بالضبط.. لكن نبرة صوتها الغاضبة والمليئة بالإحتقار الدفين دفعني للتراجع عن فكرة التقدم إليها معرّفاً بنفسي بأني صاحب الشقة التي قصدتها، وأني كنت موجوداً لكنني لم ألحق كي أفتح الباب لها.. ابتعدت عنها خطوات بحيث يمكنني أن أتأملها جيداً.. راودني شعور خفي بأني رأيت هذه المرأة لكن أين..؟ لم أستطع التذكر، بل لم أكن على يقين كامل بأني أعرفها.. لكني كنت على يقين بأن وجهها ليس غريباً عني.. ربما كانت عارضة أزياء، أو مذيعة في التلفزيون.. أو أستاذة تظهر في المناقشات الفنية والثقافية التلفزيونية.. لا يمكنني تحديد ذلك.. لكنها في كل الأحوال امرأة مثيرة جداً قياساً إلى عمرها..

في تلك اللحظات وأنا أراها تنظر إلى ساعتها وتضع جهازها في حقيبتها، قررت مع نفسي أن أتقصى أمرها، وأن أعرف سرّها.. ولماذا أنا تافه في نظرها..؟ ما الذي فعلته لها كي تشتمني بهذا الحقد..؟. سألت نفسي: ربما هي أخطأت في الشقة وكانت تقصد شخصاً آخر..؟ لا.. هذا غير معقول.. فاسمي مكتوب على لائحة الباب عند مدخل البناية، وكذلك عند باب الشقة أيضاً، لذا فمن غير المعقول أن تكون قد أخطأت..

ألقت عليّ نظرت عابرة.. انتبهت إلى أنها لا تعرفني.. فقد كانت نظراتها عادية.. نظرة امرأة ناضجة إلى رجل على مشارف الأربعين..، فلو كنت الشخص الذي قصدته، لعرفتني، لكنها كانت تنظر إليّ نظرات عابرة، غير مفهومة..، نظرات فيها توجس، ورغبة، وفضول أنثوي.. في تلك اللحظات أقبل الباص فانتظرتُ حتى تصعد، وصعدتُ خلفها.

لم تكن هناك ثمة أماكن فارغة. لذلك ظلت واقفة، ووقفت أنا بالقرب منها، بل تحركت بشكل لا يثير الانتباه بحيث صرت محاذياً لها.. أحسست أنني قد سُحرت بجمالها المثير الغريب الطراز وبعمرها الآسر.. لحظتها فكرت بنفسي.. هل أنا مصاب بعقدة أوديب..؟ لماذا أنجذبت إليها..؟ ألأنها بعمر أمي حين غادرت العراق..؟ فجأة انتبهت إلى أن فيها شيئا من ملامح أمي أو أختي التي تكبرني..! أهذا هو سبب تعلقي وانجذابي إليها..؟ أأنا مريض..؟ لا.. فهذه امرأة مختلفة.. امرأة كل ما فيها مثير وساحر، امرأة تتجسد فيها الرومانسية والشبق المحموم. كنت أحاول أن أجعل نظراتي إليها وكأنها عفوية، بالرغم من أنني كنت أخطط للنظر إليها.

بعد محطتين نزل الرجل المسن الذي كان جالساً أمامنا إلى جانب امرأة عجوز. كان المقعد قريباً مني بحيث يمكنني الجلوس مباشرة، إلا أني دعوتها للجلوس.. ابتسمت لي وشكرتني.. وجلستْ.. بقيت بوقفتي، إذ صارت هي أقرب إليّ.. تأملتها أكثر.. تبادلنا بعض النظرات.. كانت نظراتها إليّ لطيفة ولينة، لكني لمحت في وجهها حزناً، وتعباً، وكانت تبدو كأنها برغم وجودها في باص مليء بالركاب، تفكر مع نفسها، فقد كانت تشرد بنظراتها أحياناً.

كان الباص يتجه نحو محطة القطارات الرئيسة في المدينة.. وقبل أن يصل الباص إلى إحدى المحطات في الطريق انتبهت إلى أنها تستعد للخروج، فقررت أن أنزل معها، ولكي لا تنتبه لقصدي فقد ابتعدت مقترباً من باب النزول قبل أن تنهض من مقعدها. وفعلاً كانت هي قد نهضت أيضا. استشعرت ذلك من خلال الضجة التي كانت ورائي..

ربما كان القدر قد هيأ لي كل ذلك لأدخل في نفقٍ ضبابي مخيف..إذ حدث شيء ما أمام سائق الباص مما أضطره إلى التوقف المفاجئ.. فاصطدم الركاب الواقفون ببعضهم.. ولولا أني كنتُ أمسك بالمسند الحديدي عند الباب لكنت تدحرجت داخل الباص، بينما هي لم تستطع أن تسيطر على وضعها، فاصطدمت بي، بحيث انضغط نهداها على كتفي وبطنها على جزء من ظهري، واضطرتْ إلى التشبث بي ماسكة ذراعي وكتفي كي لا تسقط. أحسست بطراوة جسدها المذهل، وطراوة نهديها وبطنها. التفتُ إليها متقداً وكأن تياراً كهربائياً مسني، وخجلاً في الوقت نفسه. اعتذرتْ لي بكلمات أشبه بالهمس لكن وجهها وملامحها كانت تفيض بالارتباك والإحراج.. فقد انضغط جسدها على جسدي بطريقة خاصة وبقوة غير عادية وقد انتبهت هي لذلك أيضاً.. بعد

لحظات عرفنا من السائق بأن فتى مر بدراجته الهوائية ووصل إلى محطة وقوف الباص في اللحظة نفسها التي كان على الباص أن يتوقف هناك فيها، ولكي لا يصدمه اضطر السائق إلى طريقة الوقوف المفاجئة تلك.

نزلتُ قبلها.. شاغلت نفسي بطريقة ما متأملاً بعض عناوين المتاجر متلفتاً في ما حولي وكأني أبحث عن مكان مقصود ما.. لكنني كنت أنتظر الجهة التي ستتوجه هي إليها.. وما أن اتجهت هي إلى موقف إشارات عبور الشارع حتى صرت إلى جنبها. وقفنا ننتظر الإشارة الخضراء.. سرنا جنباً إلى جنب بطريقة وكأنها عفوية لنقف معاً عند إحدى إشارات شارع الشعب (فيا ناتسيوناله Via Nazionale) فانتبهَتْ لوجودي أكثر، ابتسمتْ أول الأمر ابتسامة مجاملة دون أن تقول شيئاً.. وأخذت ترمقني بنظرات متفحصة لكن مليئة بالأنوثة.. لم تكن تعرف أنني الشخص الذي قصدته قبل قليل ولم يفتح لها الباب.. واستهوتني هذه المغامرة، فجأة وجدت نفسي مدفوعاً للحديث معها.. قلت لها بعد أن صرنا في ساحة الوحدة الإيطالية (بيازا ديل اونيتا ايتاليانا Piazza dell Unita Italiana) متجهين نحو مركز المدينة القديم:

- الحمد لله لم يحصل حادث..
- ماذا..؟

فوجئت بأني تحدثت معها، إذ لم تتوقع ذلك، لاسيما وأنا حدثتها بإيطالية مضبوطة ذات لهجة فلورنسية. صمتت لثوان وكأنها خلال هذه الثوان كانت تحلل الموقف كله وتقرر طبيعة استجابتها. فجأة قالت وعلى وجهها ابتسامة دافئة:

- أوه.. تقصد السائق..؟ كلهم متهورون.. السائق وراكبو الدرجات الذين وكأنهم يتسابقون مع الريح.. وحتى الناس في الشارع.. كلنا متهورون بهذه الطريقة أو تلك.. أنظر كيف يعبرون ويمشون في الشارع كالمجانين..
- نعم.. هذا صحيح..

ارتبكتُ لحظتها. نسيتُ ما أردته أساساً من مغامرتي، ولم أفكر سوى بالمرأة التي تسير جنبي.. اكتشفت جمالها الأخاذ.. بل أحسست انني أنجذب نحوها بشكل سريع، بل أهوي في عشقها الخاطف مثلما يهوى النيزك بسرعة مذهلة حينما يتوجه إلى الأرض.. أردت أن أواصل الحديث معها، لكني لم أجد أي موضوع يمكن أن أتحدث به، إذ اكتشفت من طبيعة جملتها أنها امرأة مثقفة.. كنا نمشي وسط زحام السائحين

وأهل المدينة.. كانت تنتظر مني أن أتحدث.. أن أقول شيئاً.. وبطريقة غريبة، لا أعرف لها تفسيراً، وجدتني أقول لها:

- هل أنت موظفة..؟

- أنا..؟

التفتت إليّ مبتسمة بدفء وقالت بارتباك خفي مواصلة الكلام:

- هل أبدو لك كموظفة..؟ ثم من أين عرفت ذلك..؟

شعرتُ بنشوة. أحسست بجرأة أكبر في مواصلة الحديث معها فقلت بتهور:

- لأنك جميلة جداً.. وأنيقة جداً..

كنتُ أعرف أنني أقول شيئاً سخيفا لا علاقة له بسؤالها، لكن الذي يهمني كان أن أقول لها تلك الكلمات، لأني أعرف أنها ستفرح لها بغض النظر عن خروجها عن السياق، فابتسمت وقالت بنبرة مازحة:

- وهل الجميلات والأنيقات يجب أن يكن موظفات بالضرورة..؟ أو لا يحق لغير الموظفات أن يكن جميلات وأنيقات..؟

في تلك اللحظة برقت في ذهني مجموعة من الأسئلة التي فكرت بأنها ربما ستكشف لي سر هذه المرأة، فقط:

- لاطبعاً.. ليس بالضرورة أن تكون الموظفات جميلات وأنيقات.. أنت محقة.. لكن جمالك الآسر.. وأناقتك المذهلة.. أوحتا لي بأنك ربما شخصية استثائية.. ففكرت بأنك ربما موظفة كبيرة..

ابتسمت بدفء وقالت بنبرة فيها مزاح سخرية:

- موظفة كبيرة..؟ وهل الموظفة الكبيرة تذهب إلى دائرتها في باص عام لنقل الركاب..؟ تتحدث وكأنك لست من هذه البلاد.. ولولا لغتك الإيطالية الجيدة جداً؛ لظننتك غريباً لا تعرف ما يدور حولك..

ابتسمتُ لذلك.. وجدت فيه مدخلاً عفوياً للحديث، فقلت لها بجرأة ممزوجة بمزاح:

- ما دمتِ لستِ موظفة، فهذا يعني أن بإمكاني أن أدعوك إلى فنجان قهوة أو كابيتشينو.. فلست مرتبطة بدوام رسمي.. ومهما كانت الأشغال التي تنتظرك..، فأنها تستيطع أن تنتظر لما بعد فنجان القهوة.. ما رأيك..؟

وقفتْ فجأة. نظرت إلى وجهي، إلى عيني مباشرة، نظرة صريحة وكأنها تبحث عن شيء ما. ابتسمتُ لها بطيبة وأعجاب شديد، فابتسمت باستسلام وقالت:

- طيب.. لا بأس بكوب كابيتشينو..

كنا قد صرنا في الزقاق الذي يقود إلى قبة ومدفن آل ميدتشي، في جادة (فيا ديل ميلارانكيو Via Del Melarancio)وفي مقهى صغير على الطريق دخلنا.

لا أعرف من أين وكيف جاءني كل ذلك الحذر والانتباه في إدارة اللعبة؛ بحيث أكشف سر هذه المرأة الفاتنة.. كنت أفكر بمئات الإحتمالات في سرعة مذهلة، أثناء قيامي لكي أطلب قطعا من التورتة الموجودة قرب فتاة المقهى.. أشرت إلى نوعية التورتة ورجوت فتاة المقهى بأن تجلب لنا قطعتين منها مع كوبين من الكابتشينو، دفعت المبلغ وعدت إلى حيث تجلس هذه المرأة الفاتنة التي بدا أنها كانت تتأملني خلال اختياري للحلوى.. وما أن جلست حتى سألتها مازحا:

- طيب.. الآن سيأتون بالكابيتشينو والتورتة.. لكن هل لي أن أسأل كيف يمكنني مخاطبة السيدة الجملية التي شرفتني بالجلوس معي في هذا اليوم السعيد..؟

ابتسمت لي ومدت يدها مصافحة، وهي تقول:

- إيفا ماريا بوناروتي..

كيف أصف تلك االحظة.. لا أعرف.. أحسست أن لساني قد شُل.. ولم أستطع أن أسحب كفي من كفها.. لكن كما قلت لكِ إن السيناريو المكتوب لي كان محبوكاً بشكل عجيب.. ففي تلك اللحظة التي كدت أفقد سيطرتي على نفسي.. في تلك اللحظة بالذات أنقذني وصول فتاة المقهى وهي تحمل صينية فيها ما طلبت.. وبينما فتاة المقهى تضع الأشياء على الطاولة كنت قد وصلت إلى قرارات حاسمة..إذ قررت أن أخفي هويتي الحقيقية.. وأن لا تعرف هذه المرأة التي تحمل لقبي نفسه عني أي شيء.. وفجأة.. اتضح لي كل شيء.. الآن عرفت لماذا شعرت بأني أعرف هذا الوجه..إذن.. هذا هو وجه المرأة التي رأيت صورتها قبل عشرين سنة تقريباً..إذن أنا أمام حماتي.. أم زوجتي..إيفا.. لكن كيف تحمل كلتاهما اسم إيفا.. لا اسم زوجتي الأول إيفا.. وليس إيفا ماريا.. كيف هذا..؟!

حين ذهبت فتاة المقهى نظرت إليّ منتظرة أن أقدم نفسي، فابتسمت وقلت بمرح:

- أنا آدم.. جوردانو..

- جوردانو..

سألت حواء ذوالنورين وهي مأخوذة بهذه القصة المثيرة التي أدركت منذ البداية بأنها انتهت بماساة وكابوس مرعب بالنسبة لآدم بوناروتي.

كانت حواء ذوالنورين متلهفة لسماع قصة آدم بوناروتي، لكنها لا تعرف لماذا اجتاحتها مشاعر غيرة غامضة من هذه المرأة التي اتضحت أنها حماته، لأنها بغريزتها خمنت بأنه سيكون معها.. نظر آدم بوناروتي إليها نظرة شاردة ثم واصل:

- هذا ما رددته هي أيضاً.. جوردانو..؟ سألتني.. ثم واصلت الكلام سائلة:
- من أي بلد أنت..؟
- من الأردن.. جوردانيا..

لا أدري لماذا كذبت وقلت لها ذلك..؟ ربما لأني تحصّنت باللاوعي من أن تعرف بأني عراقي، فربما هي تعرف بأن زوج ابنتها عراقي..؟ لكني لم أكذب عليها في التفاصيل الأخرى بأني هنا منذ حوالي عشرين عاماً، وأنني رسام... هل تعرفين يا حواء.. يحدث أحياناً أن تري لوحة ما، وتعجبك أجواء اللوحة وألوانها وطبيعة الإنارة فيها فيجتاحك حنين جارف وتتمنين لو كنت داخل اللوحة وفي ذلك المكان بالذات.. هذا الحنين والتمني الذي يمكن أن يغير قدرك ومصيرك ربما سيكون كابوساً.. لأنك لا تدرين أنه لو تحققت أمنيتك فأنك تكونين قد سجنت نفسك داخل اللوحة.. وهذا ما جرى معي في تلك اللحظات.

- كيف..؟

سألت حواء ذوالنورين بلهفة. نظر إليها بإنكسار ثم واصل:

كنت أمارس لعبتي الخطرة معها؛ فقد عرفتها مَن هي، لكنها لم تعرفني.. كنت مقنعاً معها.. لكني كنت في حالة نفسية غريبة، فهي أم زوجتي لكني كنت أتقد رغبة في مضاجعتها.. كل مشاعر تأنيب الضمير، وكل الحجج الأخلاقية التي سقتها لنفسي لم تؤثر فيّ قط.. أحسست بمشاعر جنسية أخذت تضغط على حالتي العصبية والنفسية؛فانطلقت دونما أية لباقة بحديث متهور عن إعجابي المفاجئ بها.. وعن ملامحها الجميلة التي تذكرني ببعض الوجوه في الفن العالمي.. كانت تنظر إليّ غير مصدقة لكنها برغم ذلك كانت مستمتعة بالكلام، ولم تستوقفني، بل حتى حينما كانت تقول لي بدلال وغنج بأنها ليست كما أوصفها، وأنني أبالغ في مديحها كعادة الفنانين،

كانت تقول ذلك بمتعة ومرح دونما تكذيب لما أقول.. برغم ذلك فقد أشبعتُ غرورها بمديح جمالها وسحر شخصيتها.. وأحسست أنها ارتاحت لي جداً.. بل ومنحتني ثقتها..

- بهذه السرعة..؟!

علقت حواء ذوالنورين؛ لكنها سرعان ما تذكرت المواقف التي مرت بها هي أيضاً، وكيف منحت ثقتها للرجال بعد سماعها لكلمات الإطراء والتغزل بجمالها.. فأحستْ بخجل داخلي، لكن آدم بوناروتي لم يدرك ما كان يجول في أعماقها، لذلك واصل حديثه:

- نعم.. بهذه السرعة.. نحن البشر لكل منا ثمنه.. رجالاً ونساء.. ليس هناك من ليس له ثمن.. حتى الشخصيات المرموقة إجتماعياً وسياسياً وفكرياً لديهم أثمانهم.. ويعلو ثمن الرجال بعلو مقامهم وأهمية مناصبهم، لكن مهما كان علو مكان المرأة؛ يمكن الوصول إليها مجاناً، بالكلام اللطيف عن جمالها وسحر شخصيتها، فحتى لو كانت لا ترضى بمثل هذا الكلام وتعتبره وسيلة للإيقاع بها، فهي لاتصمد كثيراً أمامه، بل وتقبل أن تقع..
- شكراً..

علقت حواء ذوالنورين بعتاب لكن دونما أية علامة عن الإستياء، فانتبه إلى أنه مارس هذا الأمر معها أيضاً، فارتبك، ثم قال:

- أعتذر..
- لا تعتذر.. فما تقوله فيه الكثير من الصحة.. أذكى النساء وأكثرهن كبرياءً وغروراً لا تصمد أمام الكلمات الرقيقة، وأمام الإطراء بجمالها ومحاسنها وسحر شخصيتها.. حتى وإن كانت تعرف بأنها ليست جميلة، وأنها ليست حسناء، بل إنها شخصية متعجرفة، وإنها انطوائية، وشريرة.. أنا لم أزعل منك.. أكمل حكايتك..

نظر إليها بامتنان، فقد شجعته كلماتها على الاستمرار دونما أرتباك، فواصل:

- حدثتني عن حياتها.. ويا ليتها لم تحدثني.. لقد خلخلت حياتي بحكايتها.. ولحد الآن لا أعرف ما هي الحقيقة..؟ وأية حكاية هي ما جرت في الواقع..؟.. فحين سألتها عن نفسها، صمتت.. ارتبكت قليلاً.. ثم قالت لي:
- كثيراً ما تكون الحياة ظالمة.. لكنها أحياناً تظلم بعض الناس الذين لا

يستحقون الظلم..

- (هذا صحيح(قلتُ.

نظرت إليها متأملاً ومنتظراً أن تسرد لي حكايتها لأجد موضعي فيها، لكنها بدت لي كأنها دخلت قارة تطأ أرضها لأول مرة.. منطقة مجهولة لا تعرف كيف تتصرف في أنحائها.. كانت في حيرة من أمرها، أحسست أنها لم تحسم أمرها معي، هل تروي لي حكايتها أو لا.. بعد لحظات نظرت إليّ وقالت:

- لنخرج من هنا.. فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن نفسي في مثل هذه الأجواء..

وقبل أن ننهض سألتني بشكل مفاجئ:

- هل لديك التزامات ما عليك انجازها..؟
- لا.. أنا أعمل بشكل حر.. أرسم.. ويمكنني أن أفعل ذلك في أي وقت.. لماذا..؟
- هل لديك مانع في أن نذهب إلى بيتي؟
- لا..

لم أكن أصدق ما سمعت، وفي اللحظة نفسها تذكرت أن زوجتي لم تحدثتني عن بيت العائلة قط، فقد كنا نعيش منذ وصولنا إلى فلورنسا في هذه الشقة التي كانت تملكها.

فجأة أوقفت سيارة وقالت للسائق بأن يتجه إلى شارع غاريبالدي (Via G. Garibaldi).. لم يكن المكان بعيداً جداً عن المكان الذي كنا فيه.

كان البيت من الطراز القديم المطلي بالأبيض، أشبه بفيلا صغيرة، ويقع ضمن حديقة مسيجة. حينما دخلت البيت كان اللون الأبيض هو المهيمن. فالجدران بيض، وطقم الكنبات من الجلد الأبيض.. أحسست وكأنني في مستشفى، أو في عالم ضبابي.. أعجبني ذلك ومنحني شعوراً بالنظافة، وفعلاً كانت الشقة نظيفة جداً، حتى أرضيتها كانت من الباركيت الأبيض. لكن الذي أثارني وجود تماثيل صغيرة من المرمر الأبيض لوجوه غريبة، لوجوه بلا محاجر، ذكرتني ببعض التماثيل السومرية.

حالما دخلنا الشقة حتى أحسست أن هذه المرأة قد تغيرت. صارت أكثر حرية، وأكثر تألقاً، وبساطة. طلبت مني الجلوس على الكنبة الجلدية. وذهبت إلى المطبخ الذي بدا هو أيضاً غارقا بالبياض.. بعد لحظات جاءت وهي تحمل صينية فيها قنينتان،

واحدة من شراب لكيور البطيخ المسكر، والأخرى قنينة مقسمة من الداخل فيها قهوة وحليب ممزوجان بقليل من الكحول. جلست أمامي وقالت:

- لنشرب شيئاً من الليكيور..

صبّت لنا في كؤوس كريستالية صغيرة جداً، فارتشفناها دفعة واحدة. وصبت لنا ثانية. وبرغم أن نسبة الكحول في الشراب كانت قليلة، لكنّها منحت شعوراً بالاسترخاء.. جلست أمامي بحرية، فلمحت بعض عري ساقيها الجميلتين. نظرت إليّ، ثم بدأت حكايتها:

- لقد جئت بك إلى هنا لأني لا أستطيع أن أروي لك حكايتي وأنا في المقهى.. لا أعرف لماذا.. أحس وكأن آلاف العيون ترصدني.. لكني هنا في مملكتي التي هجرتها ستة عشر عاماً..
- وأين كنت خلال كل هذا الوقت..؟

سألتها ببراءة مصطنعة وكأني لا أعرفها. ارتبكت. تجنبت أن تنظر إليّ للحظات، ثم رفعت رأسها ونظرت إليّ نظرة واضحة وصريحة من عينيها الغامضتين وقالت:

- كنت في السجن..
- السجن..؟!
- نعم السجن..
- ولماذا كنت في السجن كل هذه السنوات..؟
- لأني كنت متهمة بالقتل..
- متهمة.. أم أنت قتلت فعلاً..؟
- لا.. متهمة بأني قاتلة.. بل أنا التي اعترفت على نفسي..

صدمني كلامها. كيف هي متهمة وليست قاتلة..؟ ربما هي تقصد بأنها اعترفت بأنها القاتلة وليس ابنها كما روت لي ابنتها، التي هي زوجتي..؟. لذلك وجدتني استفسر منها بفضول حاولت أن لا يكون مثيراً للشك، فسألتها:

- أهذا يعني بأنك لم تقتلي أحداً، وأنك اعترفت بجريمة لم ترتكبيها أبداً..؟
- نعم..
- ولماذا أقدمت على ذلك..؟
- لأنقذ ابنائي... ابنتي و ابني..

- ما معنى لتنقذيهما..؟ هل هذا يعني أنهما من قاما بالجريمة..؟
- نعم..

ليست هناك مرآة لأرى نفسي فيها، لكني شعرت بأن وجهي شحب بشدة، كما أحسست بإنقباض في صدري، وسرعة في نبض قلبي وفي تنفسي.. انتبهت هي إلى ذلك.. لكنها فسرت الأمر بشكل آخر، إذ سألتني:

- ألا تصدقني..؟
- أصدقك.. لكني لا أفهم.. كيف قاما بذلك.. ولماذا..؟
- لقد فعلت ذلك لسبب بسيط هو أني أم.. أم وجدت نفسها ستخسر ابنها الذي في بداية الثامنة عشرة وابنتها التي في السادسة عشرة مرة واحدة.. لم أستطع أن أرى ابني وابنتي وهما يتحطمان أمامي نتيجة لأخطاء وتهور الشباب.. أنت لا تعرف أن حب الأم هو حب مطلق..
- أعرف ذلك.. لكن كيف جرى كل ذلك..؟ ولماذا..؟

صمتت للحظات. ظننتُ أنها لن تسرد لي حكايتها، بل فكرت مع نفسي بأنها تصمت لسببين إمّا لأنها تفكر بأني لن أصدقها، أو أنها تفكر بتشكيل حكاية مقنعة لسردها لي، لكني رددت على نفسي بأنها غير مجبرة على أن تتهم نفسها، ومن ثم تتهم ابنها وابنتها.. وأمام شخص تراه لأول مرة.. فإذا بها تفاجئني قائلة:

- ربما لا تصدقني.. وأنت محق في أن لا تصدقني.. لكن أنا عاجزة عن أن أؤذي نملة.. فكيف أن أقوم بالقتل..؟ ليس لدي أي شعور وهمي بأهميتي الشخصية.. فأنا امرأة عادية.. كنت أعيش حياتي بشكل متقد.. عشت قصة حب قصيرة حينما كنت طالبة في الجامعة.. وتزوجت وأنا في الثامنة عشرة. طبعاً لم أكن أريد الزواج في هذا العمر، لكني حملت وأنا في السابعة عشرة من صديقي الذي صار زوجي.. فاضطررنا إلى الزواج.. يعني أني أنجبت ابني وأنا في الثامنة عشرة.. ثم ولدت ابنتي وأنا في العشرين.. ودخلت السجن وأنا في السادسة والثلاثين.. حكم علي بعشرين عاماً.. قضيت ثمانية عشر عاماً من أعوام السجن، أي في حدود ستة عشر عاماً ميلادياً، وتم إعفائي من بقية المدة سنوات لحسن السلوك.. شخصياً بعد هذا العمر والخبرة في الحياة.. صرت مقتنعة بأن الزواج خطأ بشري.. فالبشر يرتكبون الأخطاء الفادحة أحيانا في

غفلـة عنهـم.. دون أن يشـعروا.. والـزواج هـو أحد الأخطـاء الفادحة..إنه عادة سـيئة صارت ضرورة بشـرية.. ربما تجربتي الشـخصية هي التي قادتني إلى هذا الرأي.. مشكلتي أنا في وعيي.. بل إن خطيئتي في وعيي.. الآن انظر إلى الزواج وكأنه حكم بالسـجن المؤبد.. تعتاد عليه.. ثم تستسـلم له؛ فتعيش بلا أمل أو طموح أو مفاجآت سعيدة.. بل إن الحكم بالسجن المؤبد أهون.. فالسجين يشعر بالصعوبة في البداية ثم يعتاد الأمر، بينما البشـر يعيشـون بسـعادة في البداية ثم تتلقفهم الخيبة بعد ذلك..

- وهل كان زواجك سيئاً إلى هذا الحد..؟
- كل زواج هو عقد سيىء، مهما حاول البشر أن يلونوه بالألوان الزاهية.. ولولا مجيء الأطفال؛ فالزواج ليس سوى كارثة إنسانية.. سوى سجن مقيت.. حريتك الوحيـدة أن تتجـول قليـلاً يوميـا فـي باحته الضيقة المحاطة بالأسـوار الحجرية العالية والأسلاك والحرس المدجيين بالأسلحة.. شخصيا كانت حياتي الزوجية تبدو مثالاً للنجاح العائلي.. فزوجي كان موظفاً كبيراً في أحد البنوك.. وأنا كان لـدي بوتيـك لبيـع الحقائـب والأحزمـة والثياب الفاخرة.. لكـن حياتي الزوجية كانـت محبطـة.. وربمـا كل المتزوجيـن محبطـون مـن الزواج لكنهـم لا يبدون ذلك.. يحاولون أن يجملوا حياتهم بمختلف الأشـياء والأسـاليب.. يهربون من ذواتهـم بوضـع أهـداف جانبيـة لهـا.. لا أدري أن كان هـذا الأمـر يخص جميع النـاس.. لكنـي أقـول ذلك عن نفسـي.. وفي مـا بعد عن ابنتي.. بحيث يضعون الأقنعة.. ويعيشون حيوات مزدوجة من أجل استمرار عقد الزواج.. لأن البشر المرعوبين أساساً من الوحدة والعزلة لا يطيقون الإنسان الأعزل والوحيد.. هم يجدون الذي يظل أعزبَ، رجلاً كان أو امرأة، إنساناً شاذاً.. وربما يتهمونه سراً بالشـذوذ الجنسـي.. أو بالعقد النفسـية.. فقط لأنه يرفض أن ينظم إلى القطيع.. أتدري أن البشـر أحياناً يخفون خيبتهم بالإنصراف إلى الكثير من التفاهات في حياتهم؟!

حينمـا ذكـرت ابنتهـا، التـي هـي زوجتي، أحسسـت بهزة داخلية.. راودتني مشـاعر مختلفـة.. تفجـر فـي داخلـي غضـب مـن ابنتها التي خدعتني، وحنيـن غامض لا أعرف الحقيقة.. ضغطت على نفسي كثيراً من أجل أن لا أكشف عن علاقتي بابنتها، بل أردتها

أن تتحدث أكثر عن علاقة ابنتها بالجريمة.. فسألتها:

- لكنك كما قلت أن حياتك العائلية من الناحية الخارجية ناجحة..؟
- نعم.. هي كذلك.. أو على الأقل في بداياتها.. أتدري أن الزواج في بدايته جيد.. أو لنقل بما أن الزوجين في فترة شبابهم.. فالمتع الجنسية ثم ولادة الأطفال تلبي جانباً نفسيا مهما.. على الأقل في حياة المرأة.. لكن هذا ليس كل شيء.. بعد ولادة الأطفال تكون المرأة في الكثير من الأحيان مكتفية بذاتها.. لاسيما إذا كانت المرأة مكتفية اقتصادياً.. المهم.. برغم كل ذلك النجاح الظاهر للآخرين فإن حياتي الزوجية الحقيقية كانت إحباطاً حقيقياً..
- لكن ما علاقة زواجك بالجريمة التي سُجنت كل هذه السنوات عقاباً على اقترافها..؟
- ابني هو الذي قام بفعل القتل.. وابنتي كانت موجودة وشريكة له..
- ماذا..؟

أحسستُ بصدمة كبيرة، فقد انقلبت الأدوار، تذكرت كل التفاصيل التي حدثتني بها ابنتها، والتي رويتها لكِ.. لأني لم أصدق ما سمعته من أمها.. بل إني لحد الآن أشك في وجودها وفي مقابلتي لها..

- تشك في وجودها..؟ وفي مقابلتك لها..؟ ما معنى ذلك..؟

سألته حواء ذوالنورين بحيرة وخوف وأحست للحظة بأن آدم بوناروتي يعاني من هلوسات، فما معنى كل هذا الحديث الذي يفاجئها الآن بأنه ربما كله غير حقيقي، وأنه لم يقابل هذه المرأة أبداً، لكنها أرادت أن تسمع الإجابة منه. انتظرته للحظات صامتة، فواصل حديثه:

- لأنها حدثتني عن أشياء لا يصدقها العقل البشري.. أشياء من الغرابة بحيث أشك أنني قابلت هذه المرأة أصلاً..
- كيف..؟ ما معنى ذلك..؟
- حدثتني عن ابنتها.. وكأنها كانت تتحدث عن امرأة أخرى لم ألتق بها يوماً.. قالت إن ابنتها ليس أكثر من فتاة مدللة تريد أن تملك كل شيء.. مزدوجة.. تبدو للآخرين بأنها مثقفة.. وتكن احتراماً شديداً للثقافة والمثقفين.. وخاصة للأدب والفن.. وربما من يجلس معها لأول مرة سيظن أنها قارئة جيدة للأدب،

لكنهـا فـي الحقيقـة لـم تكـن تقرأ سـوى المجلات.. وأخبار رجـال المجتمع.. وصفحات الأبراج.. وتذهب إلى مكتبات بيع الكتب فتجمع كتيباتهم ومجلاتهم التي يستعرضون فيها كتبهم بنصف صفحة أو ربع صفحة.. وفي أحس الأحوال بصفحة كاملة.. فتقرأ عناوين الكتب وأسماء المؤلفين ودور النشر.. تقرأ ذلك وكأنها تسـتعد للإمتحان.. وكل هذا لسـبب بسـيط هو أنها تحاول حينما تلتقي بالآخريـن، والذيـن معظمهـم ممـن يهتمـون بالثقافـة والأدب والفـن كجزء من السـمعة الإجتماعية، أن تبين لهم كم هي مثقفة وقارئة نهمة.. لكن هذه العادة تحولت إلى ولع حقيقي.. صارت تسعى إلى أن تتعرف على الكتاب والفنانين دون أن تكون قد قرأت مؤلفاتهم وإنما قرأت عناوينها أو بعض أسـطر عنها.. حينها كانت في السادسة عشرة، وحتى في ما بعد حينما صارت عازفة.. كانت تعتقد أن أفكارها وآراءها وتصوراتها عن الأشـياء هي الصحيحة دائماً وبشـكل لا يقبـل النقـاش.. لكنهـا كانـت متناقضـة دائماً.. تبدي رأياً ما أو تفعل شـيئاً ما صباحا، وتقول أو تعمل شيئا ضده مساء.. تقول رأيا ما لشخص ما.. وتقول رأيا آخر بالضد منه وحول الموضوع نفسه لشخص آخر.. وكانت في كل الأحوال تعتبر نفسها صادقة في جميع المواقف والحالات.. فهي ابنة الحالة والموقف.. ولا يعنيها أنها قالت أو فعلت شيئا مناقضا حول أمر ما نفسه.. كانت تعيش في عالمها..

- هل كانت زوجتك كذلك فعلاً..؟

سـألته حواء ذوالنورين مسـتغربة. لم ينظر إليها، وإنما واصل بهدوء وكأنه يحدث نفسه أو يحاول أن يستعيد صورة زوجته، فقال:

- لا أدري.. لم أعد أعرف شـيئاً حقيقياً.. بل إني بالكاد صرت أعرف نفسـي.. فمن الصعب أن تتعرف على ذاتك في عالم خسيس مليء بالأكاذيب.. شخصياً وجـدت فـي حديثهـا إضـاءة لجوانـب كانـت معتمة بالنسـبة لي حول شـخصية زوجتي.. للحظة ظننت أن كل ما قالته عنها صحيح.. فأحيانا كنت أناقشها حول كتاب ما.. نبدأ بمعلومات بسيطة عن الكتاب والمؤلف.. لكن كلما توغلت معها أجدها تنكمش على نفسـها، وتحاول أن تهرب من النقاش.. واكتشـفت أحيانا أنها لم تقرأ الكتب أو المؤلفين الذين هم موضوع نقاشنا، وإنما كانت تحتفظ

بكتبهم للزينة كديكور منزلي أو أنها تصفحت هذه الكتب وقرأت صفحة هنا وصفحة هناك.. لكني لم أكتشف ذلك بكل هذا الوضوح إلا بعد أن حدثتني أمها عنها..

- وماذا عن جريمة القتل..؟

- لقد حدثتني الأم عن غيرة ابنتها منها.. حدثتني عن طفولتها المدللة وغيرتها من أخيها.. ثم فترة مراهقتها، ومشاكلها الفضائحية في المدرسة.. وكيف كانت تسرق بعض أدوات زينتها من حقيبتها أو من طاولة المكياج.. بل كانت تغار من أصدقاء العائلة إذا ما حاول أحدهم أن يبدي أعجاباً بالأم.. وحينما صارت ابنتها في السادسة عشرة كونت لها أول علاقة حقيقية مع رجل.. كان هذا الرجل من أشد المعجبين بالأم.. رجل من حلقة أصدقاء العائلة.. لم تحدثني بالتفصيل عن ذلك.. الأم المتحصنة بذاتها.. والتي وضعت لنفسها إطاراً محدداً من التقاليد العائلية كانت تتجنب أن تقيم علاقة مع أي من الأصدقاء المحيطين بالعائلة.. على الرغم من محاولة البعض ذلك.. لذلك كانت قد حصلت على لقب السيدة الفاضلة من قبل حلقة أصدقائهم المقربين.. لكنها لم تسلم من الشائعات إذ كان البعض يظن بأن لديها مغامراتها السرية التي لا يمكن أن تصل معلوماتها إليهم.. كانوا يخمنون أن امرأة بهذا الجمال لا بد وأن يكون لها عشيق سري ومغامرات غامضة غير معروفة..

- وماذا عن جريمة القتل..؟

سألت حواء ذوالنورين مرة أخرى، فانتبه إلى أنها سألته عن ذلك ولم يجب، فقال:

- إنها روت لي الحكاية مقلوبة.. بأن ابنتها لم تكتف بتصرفاتها من أجل نيل إعجاب بعض حلقة أصدقاء العائلة من الرجال وإغوائهم.. وإنما كانت، برغم أنها قاصر من الناحية القانونية، على علاقة برجل أجنبي من شمال أفريقيا.. من ليبيا حسبما تظن.. شخص يشبهني لحد ما..

- أنت ذكرت لي عندما رويت قصة تعارفك معها بأن زوجتك قالت لك بأنك تشبه عشيق أمها.. أليس كذلك..؟

سألت حواء ذوالنورين.

- بالضبط.. شخصياً أذكر بأنها قالت لي ذلك حينما قابلتني لأول مرة في

روما.. المهم أن الأم واصلت حكايتها قائلة: المشكلة كانت في ابني.. الذي كان يكبرها بسنتين.. والذي أخذ يتعاطى المخدرات.. ولا أعرف كيف عرّفت ابنتي أخاها على عشيقها الليبي.. الذي كان، كما يبدو، إلى جانب مهنته الظاهرة ببيع الأحزمة الجلدية تاجر مخدرات.. ويبدو أن ابنتي تعرفت عليه عن طريق تناولها للمخدرات.. المهم.. أخذ هذا الرجل يزود ابني بها.. وصارت علاقتهما قوية جداً.. ولا أدري كيف حصل أن بدأت بينهما علاقة مثلية.. فبدأ الصراع بين الأخ والأخت حول العشيق الليبي.. حيث انتهى كل ذلك بكارثة مروعة.. فذات صباح كان ابني عنده في الفراش ووصلت ابنتي إليه قبل أن تذهب إلى مدرستها..إذ كانت في السنة ما قبل الأخيرة من ثانويتها، فلم يشأ الرجل الليبي أن يدخلها غرفة النوم.. ويبدو أنها كانت تريد شيئاً من المخدرات.. لا أعرف.. الذي عرفته أنه أخذ يضاجعها في المطبخ.. ويبدو أن ابني استيقظ على ضجيجهما وصراخهما الشبق.. وحينما وجد الليبي مع أخته لم يتمالك نفسه فطعنه بسكين المطبخ في ظهره.. مات على الفور.. اتصلا بي فوراً من هول ما حدث.. غير مبالين بفضيحتهما أمامي وأمام أبيهما.. ذهبت إليهما.. حين وصلت كانت الجثة ملقاة على الأرض في المطبخ.. طلبت منهما أن يغادرا المكان فوراً.. ثم قمت بإخفاء الجثة حيث ألقيتها في مكان بعيد.. كتبت الصحف بعد العثور على الجثة.. وبعد فترة تم كشف الأمر.. وألقي القبض عليَ.. وعلى ابني..

- وزوجك..؟
- الزوج عادة آخر من يعلم.. كنت شبه منهارة طوال تلك الفترة.. كنت لا أفكر بشيء سوى بإنقاذ ابني وابنتي.. كنت واثقة بأن أجهزة مكافحة الجريمة ستصل إلى القاتل عاجلاً أم آجلاً.. حتى لو أخفى تفاصيل الجريمة.. كنت أخمن بأن هذا الرجل الأجنبي من المؤكد بأنه مرصود من قبل أجهزة مكافحة المخدرات.. فمعظم الأجانب مرصودون دون أن يعلموا بذلك.. ومن المؤكد قد انتبهوا لعلاقة ابني وابنتي معه.. لذلك لم استغرب وصولهم إلى ابني وابنتي.. فبعد أن أخفيت الجثة جئت إلى البيت حيث كانا ينتظرانني.. حدثاني بالتفصيل عن علاقتهما بالرجل الأجنبي.. كان ابني منهاراً بينما ابنتي كانت غاضبة من أخيها؛

لأنـه قتـل عشـيقها.. وطبعـاً لـم يكن زوجي يعرف بما جـرى؛ حيث كان يعيش في عالمه بعيداً عن هذا الجانب المظلم من الحياة.. ولا يمكنه أن يتصور ولو للحظة بأن عائلته سـتتحطم بهذه الطريقة الفاجعة.. لكن لم يكن من الفضيحة من مفر.. فقد اكتشـفت أجهزة مكافحة الجريمة الكثير من الدلائل التي تشـير إلى ابني وابنتي.. وحينما أنكرا معرفتهما به كشفت الأجهزة عن كم الصور التي التقطت لهما في أماكن مختلفة والتي تجمعها فرادى أو معاً مع الأجنبي.. انهار ابني واعترف.. لكني تدخلت معترفة باقتراف الجريمة، مدعية بأني اكتشفت لعبة هذا الأجنبي القذرة مع ابني وابنتي.. وأن لدي من الدوافع الأمومية ما يسـوغ لي اقتراف مثل هذه الجريمة.. زوجي أصيب بجلطة قلبية.. وشلل.. مات على أثره.. أنا حُكم عليّ بعشرين عاما خففت في ما بعد إلى ستة عشر.. ابني حُكم بعشر سنوات.. ابنتي لم يُحكم عليها سوى بسنتين في مدرسة إصلاحية.. ابني لم يتحمل حياة السـجن فانتحر.. بعد موته أحسسـت أن حياتي لا معنى لها.. لقد دخلت السـجن من أجل انقاذ ابني وأنا في السادسـة والثلاين من العمر.. وخرجت وأنا في الثانية والخمسين من العمر.. والآن ما تراني سأفعل بحريتي.. أنا حرة لكن حياتي فارغة..!

راودتني رغبة في معرفة علاقتها بي.. أقصد بزوج ابنتها.. فسألتها:

- وابنتك..؟ كيف كانت علاقتك بها..؟
- ابنتي..آه.. ابنتي.. ابنتي كائن غريب.. كانت تشعر بولع شديد للتفرد والاحتفاء بذاتها.. لقد حدثتك عنها.. كانت لا تسعى لإرضاء أحد بل لإرضاء نفسها فقط.. عموماً.. أنا محبطة جداً من عائلتي.. أتدري كم هو مر وقاس حينما تكتشـف أن كل ما صنعته في حياتك، وكل ما ضحيت به ومن أجله صار سُدى.. لستُ ملاكاً.. لكني أم.. ولم أتخل عن هذا الدور برغم كل الخيبات التي توالت عليّ.. كنتُ أفكر فيها وأنا داخل زنزانتي.. أفكر كيف ستعيش وحدها بعد هذا الزلزال المدمـر الـذي دمـر عائلتنـا.. لكنها كانت قويـة أكثر مما توقعت.. كانت تواصل دراسـتها في المدرسـة الإصلاحية.. وبعد ذلك انتقلت إلى شـقتها الجديدة في شـارع (فيا سـانت آنا).. الشـارع الذي تقابلنا فيه اليوم.. كان والدها قد اشـترى لها الشـقة، التي كانت قيد البناء قبل حلول الكارثة بأشـهر. حينما بلغت الثامنة

عشـرة بالضبط.. كانت قد أنهت دراسـتها الثانوية.. لكنها لم تشـأ أن تبقى في فلورنسا، وإنما انتقلت إلى روما لدراسة الموسيقى.. بعد ذلك التقت بشخص أجنبي من العراق.. تزوجته برغم اعتراضي عليه..

- هل كانت تحبه..؟
- أعتقد ذلك.. أو أنها كانت تعتقد بأنها تحبه..
- لماذا تقولين ذلك..؟ ألم تكن تحبه فعلاً..؟
- لا أدري ماذا أقول.. الذي أدريه أنها لا تحب سوى نفسها.. لكنها كانت متعلقة به في البداية..
- في البداية..؟
- نعم.. لكنها في ما بعد ابتعدت عنه كثيرا..
- ولماذا ابتعدت عنه..؟
- أنت تطرح الكثير من الأسئلة..؟ عموماً.. كانت مولعة به.. جاءتني مرة مأخوذة بما كان قد قال لها..
- وماذا قال لها..؟
- كان قد قال لها بأننا يجب أن نعيش وكأنما نرسم لوحة أو نكتب قصيدة.. كل خطوة في حياتنا يجب أن تكون محملة بالدلالات الروحية العميقة، وباللطف والجمـال.. يجـب أن نجعـل مـن الحياة اسـتعارة فنية باهـرة.. أن تكون علاقتنا بالأشياء علاقة جمالية..

تذكـرّتُ أننـي فعـلاً كنـت أؤمـن بذلك.. وكثيراً ما حدثتها عـن رؤيتي تلك وفهمي للحياة.. وكان ذلك يبهرها.. فقد كنت حين أتحدث تنظر إليّ بإعجاب شـديد مأخوذة بآرائي ورؤيتي للأشـياء.. لكن كان هذا في البداية فقط.. أردت معرفة رأيها هي بي.. فقلت:

- هذا كلام جميل فعلاً.. هل كان هو يؤمن بهذه الأشياء فعلاً..
- لا أدري..؟ أنا لا أعرفه.. بعد اعتراضي على زواجها منه لم تتحدث عنه إلا نـادراً.. فقـط بعدمـا بـدأت علاقتهما بالبرود، وأقامـت علاقات مع غيره، عندها أخذت تكشف عن بعض جوانب شخصيته..
- هل كانت تزورك في السجن..؟

- نعم.. بعد أن خرجت من الإصلاحية.. وانتقلت إلى روما.. وبعد أن عادت مع زوجها إلى فلورنسا..آخر مرة رأيتها كانت قبل موتها بشهر تقريباً..

أصبتُ بصدمة جديدة، فقد كانت تزور أمها بينما أخبرتني بأن أمها رفضت لقاءها.. ناهيك عن علاقتها بالجريمة.. لكني أحسست برغبة حارقة في أن اعرف شيئاً عن نفسي فسألتها:

- و لماذا لم تتركه إذن..؟
- كان لديها ميل فطري نحو الغرباء.. والضعفاء.. والمشردين.. كانت مشاعر قسرية خارجة عن إرادتها.. ميل يرضي كبرياءها الشخصية أكثر مما هو نابع من دوافع الخير التي فيها.. لذلك لم تشأ أن تنفصل عنه رسمياً من باب الشفقة.. فربما كان ذلك سيؤثر على وضعه القانوني، ومن جهة أخرى عرفت منها أنها كانت عشيقة مديرها في الفرقة حيث تعمل، لكن المدير كان متزوجاً ولديه أطفال..

أحسستُ بغضب خفي تفجر في أعماقي، لكني حاولت أن أسدّ منافذه، فسألت بنبرة لم تخلُ من إستفزاز لم أسيطر عليه:

- ألم تقولي إنها كانت تحبه..؟ فلماذا خانته؟!

نظرتْ إليّ باستغراب، وقالت:

- من قال إنها خانته..؟ هي لم تخنه.. وإنما تركته.. لقد كان قواداً..
- ماذا..؟

صرختُ دون إرادة مني، فاستغربت ردة فعلي، لكنها فسرتها باعتبارها استهجاناً مني لزوج ابنتها، فواصت هي:

- نعم.. زاره صديق له من بلده.. فكان يجبرها على أن تكون مع صديقه.. بل وكان يتركهما وحدهما.. على الرغم من أنها اشتكت لزوجها بأن صديقه يتحرش بشكل غير مباشر بها، لكن زوجها لم يأبه لذلك.. وأخذ يبرر لصديقه تصرفاته.. فشعرت نحوه بإحتقار وقررت حينها أن تبتعد عنه.. ولأنها من جانب آخر كانت طموحة؛ فأرادت أن لا تبقى مجرد عازفة في أوركسترا فاختارت بشكل مخطط له أن تكون عشيقة لمديرها؛ كي تتسلق إلى الأعلى... بالمناسبة. ألا تحس بالجوع؟ يمكننا أن نعد بيتزا أو معكرونة..

كنتُ أحس بشيء من الجوع، كما كنت أريد أن أهدّئ من غضبي، لاسيما وأنني ارتحت قليلاً حينما تأكدت من أنها لا تعرفني، ولم تر أية صورة لي.. ولم تشك قط بهويتي.. فابتسمت وقلت:

- سأساعدك إذن في إعداد السَلَطة..

ابتسمتْ وأرادت أن تمد كؤوس الشراب من الطاولة فمالت بحركتها بطريقة ملتوية فانفرجت ساقاها ورأيت ما بين فخذيها، إذ كانت ترتدي سروالاً أسود خفيفاً ومشبكا يكشف عن شعر عانتها الأسود.. أو الأشقر المائل للعتمة؛ فتأججت رغبتي، وقررت مع نفسي أن انتهز الفرصة لإغوائها..

في تلك اللحظة نظرت حواء ذوالنورين إلى سروالها الداخلي الملقى على الأرض؛ فرأته كما وصفه هو أسود ومشبكا، لا يخفي ما تحته بشكل كامل. أحست برغبة مفاجئة في أن تقترب منه، فمدت يدها وأمسكت بكفه التي كانت تستقر على فخذه.. أرادت أن تعبر عن تعاطفها معه. نظر إلى كفها الممدودة على كفه للحظات، وببرود شديد وضع كفه الأخرى على كفها. انتبهت هي لشروده. فسحبت يدها بطريقة سلسلة جداً، وسألته:

- ماذا حدث بعد ذلك..؟ لماذا جاءت تبحث عنك..؟ ولماذا تخاف منها..؟

لم يجب آدم بوناروتي مباشرة. ظل صامتاً للحظات، ثم التفت إليها وفي عينيه حزن كثيف وإنكسار واضح، وقال:

- هل تعرفين يا حواء أن رغبتنا في الإلتحام بالآخر، وشهوتنا المتأججة نحوه لا تعني حبنا له.. صحيح أنني للحظات شعرت بأنني انجذبت لهذه المرأة المثيرة، واعتقدت أنني أحبها، لكن الأمر لم يكن كذلك من قبلها على الرغم من أنها كانت أكثر شبقاً ورغبة مني.. لقد كانت مثل بركان يغلي منتظراً لحظة الإنفجار.. وفي المطبخ.. وبينما كانت هي تعد المعكرونة.. مسستها وكأنما حدث ذلك بطريقة عفوية.. ثم وقفت خلفها قريباً منها بحيث كانت أنفاسي تمس رقبتها.. فما كان منها إلا أن التفت نحوي بكامل جسدها.. بقينا ننظر واحدنا للآخر لبضع ثوان ثم ارتمينا واحدنا بين ذراعي الآخر.. وهناك على أرضية المطبخ دخلت فيها بعنف.. كان عنفي في الدخول فيها قد أفقدها رزانتها؛ فأخذت تصرخ بكلمات شبقة بذيئة، بينما كنت أنا أعبر عن غضبي منها ومن ابنتها.. كنت أحتج بطريقتي..

- لكنها لم تخبرك لماذا جاءت تبحث عنك..؟

سألت حواء ذوالنورين نبرة مرتجفة من الإثارة.

- بلى.. سألتها بعد صرنا قريبين انتهينا من ممارسة الجنس وكذلك انتهينا من الأكل.. فأجابتني بطريقة ملتوية.. لم انتبه لها في حينها..إذ شرحت لي بأنها سمعت بأن زوج ابنتها لا يزال يعيش في شقة ابنتها.. وجاءت لتتعرف إليه.. لكني في تلك اللحظة لم أكشف لها عن نفسي، لأني انتبهت إلى نظرتها برقت بطريقة غامضة.. فترددت.. لكني لم أكن أخمن نواياها القاسية والعنيفة تجاهي.. كل ما فكرت لحظتها بأني سأقوي علاقتي بها.. بحيث تصبح عشيقتي.. وحين تتعلق بي بما يكفي.. حينها أكشف لها عن نفسي.. وفي تلك الحالة سأكون في آمان من نواياها مهما كانت خطرة، لكني كنت مخطئاً..

- كيف..؟

- تكررت لقاءاتي معها.. وتطورت علاقتنا.. لكني كنت حذراً من الكشف عن شخصيتي. بل صرت لا أفتح باب شقتي إلّا بعد أن أتأكد من خلال عدسة الباب من الطارق.. وخلال شهر من علاقتنا جاءت مرتين إلى شقتي وطرقت الباب فلم أفتح.. وربما جاءت أكثر من ذلك ولم أكن موجوداً أيضاً.. لكني خلال تواجدي المتكرر عندها حاولت أن استدرجها للحديث عن زوج ابنتها وما تريده منه فلم تسهب في الحديث سوى أنها تريد أن تتعرف عليه.. ثم ترمقني بنظرة حذره وغامضة.. وتغير الموضوع.. بيد أني انتبهت أيضاً إلى أنها لم تدعُني، ولو لمرة واحدة، أن أبيت الليل في شقتها، علما أنها كانت جائعة، بل نهمة للجنس؛ إذ كنت أمارس معها يومياً تقريبا.. باستثناء بعض أيام دورتها، وحتى في تلك الأيام كانت تمارس وتتلذ بطريقة أخرى.. وكل ذلك كان يجري في شقتها.. وهناك في شقتها انتبهت إلى أن إحدى الغرف كانت مغلقة بالقفل.. ولم تشر إليها قط وكأنها لا تعود إليها أو وكأنها ليست من غرف تلك الشقة.. سألتها عنها.. فقالت إنها غرفة مهملة تعود لابنها وترفض أن تفتحها.. وذات مرة راودني فضول جامح في أن أعرف سرّ هذه الغرفة.. فبعد مضاجعة عنيفة معها، والإرتقاء معها إلى ذرى النشوة مرات.. حتى أُنهكت.. ذهبت لتتحمم.. أتذكر لحظتها أنني كنت أيضاً عارياً مستلقياً على قطعة الفرو

الكبيرة التي تتوسط الصالة، والتي كثيراً ما كنا نمارس الجنس عليها.. نظرتُ إلى جهة الغرفة.. وبهدوء تحركت متجهاً نحوها.. قرفصتُ أمام الباب ونظرت من ثقب المفتاح إلى داخلها.. كيف أحدثك بما رأيت.. لقد تراجعت من هول الصدمة إلى الخلف.. وسقطت على ظهري.. لم تكن تلك غرفة وإنما بدت لي وكأنها معبد فرعوني.. بل رأيت بخوراً يحترق ويتعالى منه الدخان، وشموعاً متقدة تلتهب بهدوء.. وفي وسط الغرفة تمثال فرعوني هائل الحجم من الحجر الأسود لرجل يجلس لكن رأسه كان رأس حمار.. وهناك لافتة ذهبية كتبت عليها بأحرف هيروغلوفية وكذلك ثلاثة حروف باللاتينية SIT حاولتُ خلال ثوان أن أفك رموز ما رأيت. إذن هذا هو الفرعون الإله (سيت أو شيت)، إله الظلام والشر والأمراض في الحضارة الفرعونية.. وهو الذي منه تم انتشار كلمة الشيطان أو (سيتان).. إنه (ست أو شيت) الذي غدر بأخيه (أوزيريس) فقطعه ووزع أشلاء جسده على الأنهار والبحيرات.. فقامت زوجته (ايزيس) بجمع أشلائه ومساعدة ابنها (حورس) ولم يبق سوى عضوه الذكري، إلى أن استطاع (حورس) الانتصار على عمه وتمزيقه والاحتفاظ بعضوه الذكري لكي لا يمكنه التناسل..إنه أصل فكرة (الشيطان) في تاريخ الحضارات البشرية.. وبينما كنت مستغرقاً في هذه الأفكار والمراجعات الأسطورية السريعة.. فوجئت بقاعدة التمثال تُفتح ويخرج منها رجل أشقر وسيم توجه نحو الباب حيث أقرفص أنا.. ارتعبتُ.. ركضت من شدة خوفي، ولكي لا أثير أي شك توجهت إلى غرفة الحمام ودخلت معها تحت دش الماء.. استغربت هي.. وسألتني: ماذا حدث..؟ لكني لم أجب وإنما أخذت أقبلها، بل كنت ألتهم جسدها بشبق.. لكنه لم يكن شبقاً جنسياً، لم تكن رغبة بدافع الشهوة، وإنما شبق دافعه الخوف..

- ماذا قلت..؟ رجل أشقر وسيم..؟
- نعم..
- ربما هو نفسه الذي أخبرتك عنه..؟
- ماذا..؟ لا أعتقد..
- بدأت أخاف من حكايتك.. المهم... ماذا حدث بعد ذلك..؟

سألته حواء ذوالنورين بنبرة خوف حقيقي.. لكن فضولها في معرفة تفاصيل الحكاية

كان أكبر من خوفها.

- لا شيء.. وكل شيء..
- ما معنى ذلك..؟

سألت حواء ذوالنورين بارتباك.

- خلال تلك الفترة التي كنت معها، والتي و يا للغرابة لم أعد أتذكر طولها بالضبط.. كانت حياتي مثل دوامة أزلية تمضي إلى القاع.. ربما إلى القاع الساحر.. لا أعرف.. فقد كانت يوميات مليئة باللذة.. والخوف.. والترقب.. وكثيرا ما كنت لا أجد الكلمات للتعبير عن كل هذه المشاعر؛ فكنت أعبر عنها أثناء الممارسة الجنسية الشبقة معها.. لكن خوفي.. وفضولي لمعرفة سرّ هذه المرأة تحول إلى هاجس.. هاجس مرضي.. فأخذت اتتبعها سراً في الوقت الذي كنت أدعي بأنني مشغول.. لكني لم أجد شيئاً غير عادي.. فحركتها عادية.. كانت تخرج أحياناً.. تذهب إلى الأسواق القريبة من بيتها.. تخرج بعد ذلك وهي تحمل أكياساً مليئة بالحاجات التي ابتاعتها.. وأحيانا تذهب لمتاجر العطور.. والغريب أنها كانت تذهب إلى محلها لبيع الألبسة الجاهزة والأحذية والحقائب النسوية في ساحة (بيازا سانت كروسه).. لكنها تغلقه من الداخل وتضع علامة الإغلاق على الباب من الخارج.. تبقى هناك لساعات طوال.. ثم تخرج.. تذهب إلى شقتها.. أي ليس هناك ما يريب في يوميات حياتها.. التي كانت تقضيها في شقتها التي كانت تبقى مظلمة طوال المساء بإستثناء نوافذ تلك الغرفة المعبد التي تبقى مضيئة حتى الساعات الأولى من الفجر..إلى أن جاء ذلك اليوم المشئوم..
- أي يوم..؟ ماذا حدث..؟

سألت حواء ذوالنورين وهي تلتقط سروالها من الأرض.. فالخوف الذي تسرب إلى أعماقها؛ أطفأ شهوتها وشبقها الذي خمد أثناء استماعها لهذه الحكاية. تردد آدم بوناروتي للحظات.. نظر إلى السروال الذي في يدها.. وبصمت مد يده وأخذه منها بهدوء.. ثم رفعه إلى أنفه وشمه وأخذ يمرغ وجهه بسروالها.. ثم ارتسمت على وجهه علامات الارتياح والنشوة.. التفت إليها.. ابتسم لها بحزن وأخذ ينظر إليها بحنان.. لكنه ظل صامتاً، فكررت سؤالها:

- ما الذي حدث..؟

استدار وهو ينظر إلى النافذة وشردت نظراته، بينما أخذ يواصل حكايته:

- ذات صباح استيقظت على رنين جرس الباب.. وكعادتي نظرت من عين الباب الزجاجية.. رأيتها.. ملامحها كانت قلقة.. لم أفتح.. ليس فقط لأني لا أريد لها أن تكتشف هويتي وإنما لأنها كانت مختلفة هذه المرة.. فبرغم طيبتها ووجهها الجميل الذي يكشف عن رقة أنثوية آسرة، إلا أن شكلها هذه المرة ونظراتها كانا يشيان بالقسوة والعصبية وكأنها ساحرة شريرة.. انقبضت أعماقي.. جمدتُ قرب الباب.. سمعت خطواتها وهي تهبط السلّم ولم تهبط بالمصعد.. استغربت.. بعد دقائق.. وبعد أن تأكدت بأن الوقت صار كافياً لخروجها من المبنى.. نظرت بحذر من النافذة.. وقفت جانباً مغطيّاً نفسي بستائر النافذة ونظرت إلى الشارع.. ارتعبت.. رأيتها تتحدث مع الرجل الأشقر عند المحطة.. ثم رأيتهما يعبران الشارع متجهين ثانية نحو بنايتي.. ارتبكت.. فكرت بالهروب من الشقة.. لكن كيف..؟ وإلى أين..؟ أخذت محفظتي ولوحي وأوراقي.. وفكرت مع نفسي أن انتبه لحركة المصعد.. فأن تحرك فهذا يعني أنهما يصعدان إليّ فيه، وإذا سمعت حركة على درجات السلّم فهذا يعني أنهما يصعدان مشيا.. فأتخذت السبيل المعاكس لهما.. لكني في اللحظة التي فتحت فيها الباب واجهتني.. ذهلت.. كانت وحدها.. ولم تكن غاضبة.. وكانت بثياب تختلف عن التي كانت عليها قبل قليل حينما نظرت إليها من النافذة.. شعرت بشيء غامض يجري، إذ أن الوقت لم يكن كافياً للوصول بهذه السرعة إلى الأعلى.. لم أستطع أن أهرب.. بل وجدتني لا أشعر بأي خوف منها، ولا من عدم كشفي لهويتي.. فلم يعد هناك مجال للإنكار.. كما أنها كانت مغرية وساحرة بطريقة مذهلة.. وقفنا وجها لوجه.. كانت هي تبتسم بأنوثة ورقة وشبق.. ابتسامة فيها شيء من المزاح.. وكأنها اقتنصت طفلاً كان مختبئاً في لعبة (الغميضان أو الإستغماية) التي يلعبها كل الأطفال في العالم وعلى مر العصور.. طال وقوفنا ونظراتنا لبعضنا، فقالت لي:

- هذا أنت إذن..؟

- نعم.. وأنا آسف أنني لم..

فقاطعتني وهي تدخل الشقة دون أن أدعوها، وهي تقول:

- لا ضير.. ربما كان هذا أفضل.. نحن الآن لا نحتاج للتعارف..

أغلقتُ الباب خلفي وعدتُ.. وضعت محفظتي ولوحاتي جانباً.. وقفت أمامي وهي تنظر إليّ بأغراء مؤثر.. كانت شفتاها ترتعشان من الرغبة.. وبصمت نزعت عنها بلوزتها.. ثم رفعت ثوبها بإغراء محترف إلى الأعلى.. فكشفت عن فخذيها وسروالها الأسود المشبك الخفيف.. ثم استدارت وطلبت مني أن أفك سحّاب الثوب.. التهبت.. كنت منجذباً إليها بطريقة مسحورة.. أحسست بالإسترخاء بعدما لاحظت أنها لم تُستفز عند كشفها لهويتي.. نزل ثوبها عند قدميها.. كان جسدها الأشقر المشمشي اللون مع سروالها الأسود قد أفقدني السيطرة على نفسي.. أخذنا نقبل بعضنا بطريقة أقرب إلى إلتهام واحدنا للآخر.. نزعتْ عني ملابسي.. ونزعت عنها سروالها.. وفي حمى عرينا طلبت مني الذهاب إلى المطبخ لاختراقها هناك؛ لأننا مارسنا الجنس أول مرة في مطبخ شقتها.. لم أفطن لشيء قط.. كنت متهيجاً وفاقداً لقدرة التفكير سوى في ما يتعلق بلذائذ الممارسة.. اخترقتها من كل الجهات.. وفي لحظة خارقة كنت ألهث فيها.. وقبل أن أصل إلى ذروتي.. في تلك اللحظة بالذات حانت مني التفاتة لا إرادية نحو جهة الصالون.. ذهلت.. لأني رأيت الرجل الأشقر الوسيم يقف وسط الصالة وهو ينظر إلينا مبتسماً بإزدراء واضح.. ويبدو أنها انتبهت اليه أيضاً.. وفي تلك اللحظة بالذات شعرت بألم حاد في عضوي.. ووجدت نفسي أبتعد بطريقة لاإرادية.. كنت مغطى بالدماء.. وكان عضوي مثل موزة مهروسة ملوثة بالدماء على أرض المطبخ.. ورأيت تلك المرأة الساحرة تتحول إلى وجه غاضب وحقود.. وكانت عيناها تلتمعان بضوء فسفوري غريب.. وسقطت على الأرض مغمى عليّ

- ماذا..؟ يعني أنها قطعت..؟!

صرخت حواء ذوالنورين مرعوبة دون أن تكمل جملتها، فلقد أدركت الآن سبب عدم تمكنه من مضاجعتها.. كانت تنظر إليه نظرة يمتزج فيها الإشفاق بالخوف.. وسألت بحشرجة بالكاد تُسمع:

- وماذا حصل بعد ذلك..؟

- ما حصل كان أغرب مما جرى لي في المطبخ.. فقد صحوت على نفسي وأنا غارق في دمائي.. متمدداً على الصوفا الجلدية هذه التي نجلس عليها الآن..

اتصلت بالشرطة فوراً وبالمستشفى.. فجاءوا سريعا.. وحينها أدليت بكل المعلومات عن علاقتي بالمرأة (إيفا ماريا بوناروتي).. وشرحت لهم من هي.. فلم يصدقني أحد.. كل الذي صدقوه هو أن عضوي مقطوع.. لكن كيف؟! هذا ما لم يصدقوه.. بل الأغرب من كل ذلك فأن عضوي المقطوع قد فُقد.. كانت هناك دماء على أرضية المطبخ.. لكن عضوي كان مفقوداً.. وبعد أن أجروا التحقيقات عن زوجتي وعائلتها اكتشفت أهوالاً أخرى.. فقد اتضح بأن زوجتي إيفا بوناروتي لم يكن لديها أي أخ.. وأن أمها لم تسجن.. وأن أباها لم يمت متأثراً بجلطة في الدماغ، وإنما مات كلاهما بحادث أصطدام سيارتهما بسيارة مسرعة للشرطة فسقطت سيارتهما في البحيرة.. وبعد استخراج السيارة والجثث من البحيرة وجدوا أن الجثتين قد تمزقتا.. لكن الغريب أن جثة الأب كانت منزوعة السروال.. وكان عضوه مقطوعاً... وحين طلبت من الشرطة أن يروني صورتيهما.. فقد كشفوا لي مباشرة عن طريق الانترنيت صورتيهما.. لكن الذي أصابني بالذهول أكثر هو تأكدي من أن صورة الأم التي غرقت في البحيرة هي نفسها المرأة التي قطعت عضوي.. لكن لا أحد كان يصدق قصتي.. أعتبروني مهلوساً نتيجة تعاطي المخدرات.. وأني قمت بإيذاء نفسي بنفسي في حالة هلوسة.. أما حديثي عن الرجل الأشقر الوسيم الذي كان يشبه الممثل النمساوي الذي كان يمثل دائما في افلام فيسكونتي فقد أثار سخريتهم واتهموني بالمثلية الجنسية!

صمت آدم بوناروتي.. وكأنه كان يسافر في أعماق نفسه وذكرياته وأوهامه.. حواء ذوالنورين شعرت برعب من هذه القصة التي يمكن أن تكون فيلماً مرعباً لا يمكن تصديقه في الواقع.. شعرت بخيبة غامضة من أن ذلك يعني بأن علاقتها معه قد وصلت إلى طريق مسدود.. فهي لا تستطيع أن تتصور الرجل بلا عضو.. لكنها شعرت برقته، وعذاباته وألمه.. وأحست برغبة في أن تواسيه، إلا أنه التفت إليها مستفزاً وسأل:

- أنت لا تصدقيني أليس كذلك..؟

نظرت إليه بحنان وقالت:

- أنا أصدقك.. لأني شاهدت الرجل الأشقر الوسيم أيضاً..

- هل هو نفسه..؟ ربما أنت رأيت رجلاً آخر..

- لا أعلم.. إن كان هو نفسه.. لكنه رجل أشقر وسيم.. يشبه نجوم السينما..

فجأة قال لها متحمساً:

- لقد رسمته..إنه في لوحة عندي.. وكذلك هي كنت قد رسمتها..
- ماذا تقول..؟
- نعم.. بعد الحادث بأيام أحسست أنني أكاد أجن.. فرسمت صورتهما.. لكني لا أحتفظ بها في مرسمي وإنما هناك في دولاب خاص أقفلت عليه.. لحظة..

ثم قفز متجهاً إلى زاوية في الشقة، ففتح باباً لدولاب مبني ضمن الجدار، وأتى بلوحتين.. كان يمشي وظهر اللوحتين نحوها.. وقف أمامها ساكناً، وبطريقة استعراضية قلب اللوحتين بحيث يمكنها رؤيتهما.. فارتسمت علامات الخوف والدهشة على وجهها.. كانت اللوحة الأولى للرجل الأشقر الوسيم نفسه الذي يتبعها.. والصورة الثانية كانت لها.. كانت صورتها.. لكن شعرها كان يميل إلى الشقرة.. وليس أسودَ كما هي عليه الآن.. أحست بالخوف.. نظرت إليه بتساؤل وذهول.. كان هو ينظر إليها بحزن.. لكنها خلال ثانية أحست وكأن من عينيه يشع ضوء فسفوري أصفر.. هبت واقفة.. فترك اللوحتين تسقطان من يديه.. وركع أمامها محتضناً ساقيها.. أحست بمأساته.. فمررت أصابعها في شعر رأسه. رفع رأسه إليها. تبادلا نظرات هي مزيج من مشاعر مختلطة، رغبة جامحة وإنكسار، وأسى، وشفقة، ورقة، ومحبة واضحة، ووداع مؤجل.. أخذ يتشممها مع قبل صغيرة متلهفة.. يتشمم فخذيها ويقبلهما.. منطقتها الوسطى ما بينهما حيث مرغّ وجهه هناك.. صعد مقبلاً بطنها.. صدرها.. أخذ يعصر نهديها.. يصعد به مثل الأفعى..إلى أن صار واقفا بمواجهتها.. فأخذا يقبلان بعضهما البعض بشبق محموم.. وكأنهما يلتهمان بعضهما.. فجأة أحست أنها منهكة.. أغمضت عينيها.. أحست أنها ترتعش من طعم القبل اللذيذ.. وها هو يحتضنها ليرقدها على الصوفا.. استرخت.. سلّمت نفسها وجسدها لذراعيه القويين.. أرقدها على الصوفا.. وعلى غير توقع منها رحلت في غفوة مفاجئة.

حين صحت من غفوتها التي لم تعرف كم استغرقت، وجدت آدم بوناروتي واقفاً بالقرب منها، وأمامه ستاند عليه لوحة، وهو في حالة هيجان عاطفي وعصبي.. و منهمك بالرسم.

26

قـصيـدة المـوت

حين دخل آدم أبوالتنك إلى مقهى الروضة لم يجد حواء الكرخي. انقبضت نفسه، فهـو يحـس بالإرتيـاح حينمـا تكون موجودة، وهو يميزها عن بقية العراقيين المتواجدين في دمشق، فهي إنسانة مرحة بطبيعتها، تمزح وتغني، وتتعاطف معه، وكانت حين تبتسم يحس أن كل شيء يبتسم من حوله، لكنه كان يخاف صمتها، فهو أن تعارضة أو تنتقده مباشرة على أن تصمت، لكنه يعرف أيضاً أنها طيبة القلب، والأمل في عفوها وغفرانها كبيـر جـداً، وهـو يعـرف أنه تصرف بخشـونة زائدة عن حدودها مـع الدكتور آدم كارثة، وقد استاءت هي من تصرفه جداً. ولم يرها منذ الأمس. لذلك أحس بالضيق من ذلك، لكنه برغم ذلك جلس في زاوية ما يراقب الجالسين منتظرا وصولها.

صحيح أنه يبدو ساهما وغارقاً في أفكاره، إلا أنه في الواقع كان يتنصت لحوار يدور بين رجلين عراقيين لم يتعرف عليهما سـابقاً في هذه المقهى التي يقضي فيها سـاعات يطوال يومياً. كان الرجلان يتحدثان عن سبل الوصول إلى المرأة هنا في دمشق، ومن أيـن يبـدآن.. حينهـا لـم يفهـم آدم أبوالتنـك عن أية امرأة يتحدثان..؟ لكنه أدرك من نبرة صوتهمـا وملامحهمـا أنهمـا ينويـان شـراً لهذه المرأة التي لم يذكرا اسـمها. حينها تذكر أبوالتنك ما حدثه به أحد رفاقه الذي وصل من بغداد قبل يومين في أن هناك من جاء يسـأل عـن حـواء ذوالنوريـن فـي محطة السـيارات التـي تتجه إلى سـوريا، لذلك خمن مع نفسـه بأنها ربما المقصودة.. وعليه أن يبلّغ حواء الكرخي بالسـرعة الممكنة.. كما عرف أيضاً صباح هذا اليوم تفاصيل كاملة عما جرى في فندق الشام، وعن جنون أحد المسؤولين في الفندق لأنه قتل ابنه في الهجوم.. وقد فكر هو لحظتها بالمرأة العراقية صديقة حواء الكرخي، لاسـيما وانه سـمع بأن من نجا من مجزرة الفندق قد نُقل إلى مكان آخر.. وربما تكون صديقة حواء الكرخي بين الضحايا أو بين المنقولين.. والآن

سمع هذين الرجلين المريبين.. لكن أين هي حواء الكرخي.. ليس من عادتها أن تتأخر إلى هذا الوقت.. أين أنت يا حواء..؟ سأل نفسه.

غادر الرجلان المقهى. ودعهما بنظراته، وبينما هما عند المدخل يتجهان إلى الشارع لمح حواء الكرخي تدخل. كانت متوترة قليلاً. توجهت إليه مباشرة. أحس بالفرح يغمره، لكنه انتبه للإنزعاج المرتسم على وجهها. سلمّت عليه وجلست على الكرسي حول الطاولة. كان يحس برغبة عارمة في أن يفضي إليها بالمعلومات التي عرفها هذا الصباح في ما يخص الفندق، وما سمعه من الرجلين اللذين غادرا المقهى قبل قليل. جاء النادل فطلبت قهوة. انتبهت إلى أنه قلق في جلسته ونظراته مترددة، فأحست أن لديه ما يود قوله لكنه يتحين اللحظة الماسبة، لذلك سألته:

- ماذا هناك..؟

تردد آدم أبو التنك في الإجابة مباشرة، على الرغم من تشوقه للحديث، لكن بدا عليه وكأنه يزن جوابه أو ينظم النقاط التي يريد أن يدلي بها في ذهنه قبل أن يتحدث. بعد لحظات قال بما يشبه الهمس:

- اليوم عرفت أخباراً مهمة عما حدث في فندق الشام..

نظرت إليه باهتمام ولم تعلق وإنما ندت عنها كلمة قصيرة، لكنها كانت تشير إلى استعدادها للإستماع إذ قالت:

- آها..

شرح لها كل التفاصيل التي فيها الكثير من المبالغات المتأتية من تناقل رواية ما حدث في فندق الشام، بما في ذلك جنون أحد مدراء الفندق بعد قتله لابنه البكر الذي كان مع المقتحمين الإسلاميين، ثم حدثها عما سمعه من الرجلين العراقيين اللذين جاءا خصيصاً لملاحقة امرأة ما يظن أنهما يقصدان صديقتها، فالرجلان لما يذكراها بالإسم.

إزداد اهتمام حواء الكرخي، لكنها أبدت له حيرتها عن انقطاع الإتصال بينها وبين حواء ذوالنورين منذ فترة ليست بالقصيرة، وعدم قدرتها في الوصول إليها لأنها لا تعرف أين استقرت الآن بعد الهجوم على الفندق. أبدى آدم أبوالتنك تذمره من تصرفات حواء ذوالنورين، متملقاً حواء الكرخي، بأنها قدمت المساعدة لها، ولكن اتضحت ناكرة للجميل، بيد ان حواء الكرخي لم تقبل منه ذلك، فقالت له:

- أنا لا أحكم على تصرفات الآخرين سلباً، لأني بالأساس أكره أن يطلق أحد ما

حكماً على تصرفاتي.. بل أعتبر أنه لا يحق لأي إنسان أن يطلق أحكام قاطعة على تصرفات الآخرين.

ارتبك آدم أبو التنك لجوابها وأحس بالإحراج، لكنه لم يستسلم فقال بهدوء، وبحقد بارد، وبنبرة لا تشي بالعصبية:

- من الصعب أن تكتشف أنك غير مرغوب بك أو منسي من قبل الناس الذين منحتهم وقتك وتفكيرك وكانوا مركز اهتمامك.

نظرت حواء الكرخي إليه للحظة، وكأنها تريد أن تسكتشف ما وراء جملته العامة والغامضة، التي ليس لها علاقة بسياق الكلام، فقالت متجنبة الإندفاع في أفكارها وأحاسيسها الدفينة:

- هذا تعميم فضفاض.. أنا لا أحب أن يشفق أحد عليّ.. شخصياً أعرف الشعور المعذِب والمهين حينما يكون الإنسان موضع شفقة، على الرغم من أن البعض يسعى إلى أن يكون موضع الشفقة لأن ذلك يروي لديه الشعور بأنه ضحية.

انتبهت حواء الكرخي إلى أن آدم أبوالتنك ارتجف بشكل عفوي، وخمنت أنه فسر حديثها بشكل شخصي، بأنه تقصده هو، فأحست بشفقة داخلية عليه، فأرادت أن تخفف عنه، فقالت:

- لقد ساعدتُ حواء ذوالنورين انطلاقاً من روح التضامن الأخوي بين البشر.. وأنت تعرف أن ذلك هو الذي يحدد مواقفي الفكرية وكذلك يتحكم في تصرفاتي وعلاقتي بالأشياء.. أنا لا أعرف حواء ذوالنورين.. كانت مجرد مسافرة عراقية من بغداد إلى دمشق، لكنها كانت مرعوبة بشكل يصعب وصفه بالكلمات.. أحسست بالتعاطف الإنساني معها.. وهي في الوقت نفسه وجدت فيّ ملاذاً.. وهنا في دمشق عشت معها لأيام عرفت خلالها أنها مرت بمآسٍ وكوارث حياتية مرعبة.. وأن رغبتها في الحياة كانت أقوى.. فلديها آمال وأحلام عن الحياة.. لكنها بدت لي تائهة وحائرة، وخائفة من أشباح مجهولة، برغم الأمان الذي يفترض أن تعيشه هنا في دمشق.. لكن أين هي الآن؟ لقد اختفت بسرعة.. لقد كانت تخاف الموت.. لا.. لا.. كانت تخاف التفكير في الموت.. لكنها كانت أحيانا تتمنى لو لم تكن موجودة.. لو أنها كانت عدماً..

كان آدم أبوالتنك ينصت لها وقد استرخى قليلاً، فقال وكأنه ينطق بحكمة جليلة:

- لا تُدرك قيمة الشيء إلّا بعد أن تفقده أو تحرم منه..

وافقته حواء الكرخي بهزة من رأسها، ثم سألته فجأة عن آدم الشبيبي:

- أين آدم الشبيبي..؟ يفترض أن يكون هنا.. فلقد اتصل بي وأخبرني بأنه سيكون قبلي في المقهى موجوداً... وها أنا قد وصلت بينما هو لم يصل بعد..؟
- حجة الغائب وعذره معه..
- لكن بدا لي صوته قلقاً وحزيناً..
- هو دائما هكذا يحاول أن يضفي على نفسه بعض الكآبة والحزن.. لأن يفكر بأن على المثقف أن يكون كئيباً..
- ما أين لك هذه التصورات السلبية عن المثقفين..؟
- أنا..؟
- نعم.. أنت تسخر من المثقفين دائما وتستهزيء بهم.. بينما تحاول سراً وعلانية أن تقلدهم..

فوجئ آدم أبوالتنك من هذا الهجوم المفاجئ، فقال مستغرباً وفي صوته نبرة احتجاج خفيف:

- أنا..؟

لم تجبه حواء الكرخي لأنها فجأة انتبهت إلى الطاولة التي أمامها فرأت الرجل الأشقر الوسيم الذي بدا لها أنها رأته لكنها لم تستطع أن تتذكر أين..؟ كان هو ينظر إليها.. لا..إنه ينظر نحو الاتجاه الذي تجلس فيه، لكنه ينظر إلى شيء ما خلفها في عمق المكان.. وبدون وعي منها التفتت إلى الجهة التي هي مركز نظره، فهالها ما رأت. كانت النساء الأربع يجلسن حول طاولة طويلة وليست مستديرة أو مستطيلة كبقية طاولات المقهى، بحيث جلسن جميعهن الواحدة إلى جانب الأخرى.. ذهلت هي حين رأت حواء الزاهد بين النساء الأربع وإلى جانبها امرأة عراقية الملامح أيضاً.. فأدركت أنها حواء المؤمن من رواية (متاهة حواء) للكاتب آدم البغدادي، وكذلك عرفت الراهبتين من تلك الرواية أيضا.. ظلت نظراتها مسمرة على وجه حواء الزاهد البهي، إلّا أنها انتبهت بأن النساء الأربع جميعهن كن ينظرت نحو الرجل الأشقر الوسيم أيضاً، ويتحدثن همساً في ما بينهن.

أطالت النظر لدقائق عدة. كانت خلالها تسأل نفسها عن هذه الرؤيا الغريبة:..

كيف اجتمعت هذه الشخصيات معاً..؟ إليست النساء الثلاث من رواية (متاهة حواء) هن شخصيات روائية للكاتب آدم البغدادي، بينما حواء الزاهد امرأة من لحم ودم.. صديقتها وأم الطفل الرضيع هابيل..؟ كيف حدث أن صارت معهن..؟ هل صارت شخصية روائية أيضاً..؟ كيف ذلك..؟ أليس من الممكن أن تكون هي، حواء الكرخي، شخصية روائية في رواية يكتبها كاتب ما وهي لا تدري بذلك..؟!. لا.. لا.. هذا غير ممكن.. لكني أرى حواء الزاهد أمامي..؟ ألم تُقتل مع ابنها آدم الملاك في السيارة حينما كنت معها..؟ ما الذي يجري..؟!

لم تعد حواء الكرخي تشغل نفسها بأسئلة عن واقعية أو وهم ما ترى.. وإنما كانت تنتظر إلى أن تنتبه حواء الزاهد إليها، لكن انتظارها كان سدى.. في تلك اللحظة كانت ترى النساء الأربع بشكلهن المتجسد الواقعي، وكانت تصدق ما ترى على الرغم من يقينها بأن ما تراه هو وهم أيضاً.. فجأة، التفت حواء الزاهد نحوها وابتسمت لها، ورفعت يدها إليها بتحية متواضعة.. لم تكن حواء الكرخي متأكدة مما ترى.. ربما هذه الابتسامة والتحية ليست لها وإنما للرجل الأشقر الوسيم الذي كان ينظر إليهن.. ولكي تتأكد من ذلك التفتت إلى جهة الرجل الأشقر الوسيم.. فازدادت حيرة حيث لم تجد أحداً، فقد اختفى الرجل الأشقر الوسيم، بل لم تكن هناك في تلك البقعة أية طاولة يمكن أن يجلس الرجل الشقر الوسيم حولها..

أحست أنها صارت في قبضة العزلة الروحية.. وأن هناك ما يشبه الغيم الأسود السريع الذي بدأ يغطي سماواتها الداخلية ترافقه ريح باردة.. ولثوان أحست بالخوف.. التفتت إلى جهة النساء الأربع فلم تجد أي أثرٍ لهن، بل لم تكن هناك أية طاولة طويلة في المكان الذي رأتهن فيه. أحست بخوف حقيقي من نفسها.. من رؤيتها وأوهامها.

انتبهت إلى آدم أبوالتنك الذي كان ينظر إليها مندهشاً. ارتبكت. أحست أنه انتبه لارتباكها، لكنها وجدت نفسها تسأله:

- هل رأيت شيئا لافتاً للأنظار هنا.. أقصد خلفي..؟
- ماذا تقصدين..؟
- ألم ترَ نساء أربع يجلسن على طاولة هناك خلفي..؟

التفت وأشارت إلى الناحية حيث كانت النساء الأربع يجلسن. نظر هو إلى حيث أشارت ونظر إليها بدهشة قائلاً:

- لا توجد أية نساء.. ولم أر أية نساء هناك.. ربما ترآى لك ذلك..؟
- ربما..

قالت حواء الكرخي بإنكسار واضح. انتبه آدم أبوالتنك إلى أنها همدت وكأنها شمعة قد انطفأت. كانت خائفة.. لكنها كانت تحاول أن لا تبدي ذلك.. ولكي يكسر حاجز الجمود المفاجئ الذي خيم على جلستهما أشار للنادل وطلب دون أن يسألها سحلباً وكوبين من الشكولاته الساخنة. لم تعلق هي بأية كلمة. مضى النادل. حاول آدم أبوالتنك أن يخرجها من الكآبة التي حلت عليها فجأة، فسألها وكأنه لا يبغي سوى الكلام:

- كيف حال الفتاة المساعدة التي جئت بها إليك..؟ هل تقوم بواجبها..؟ وكيف حال الصغير..؟

وجهت إليه نظرات شاردة للحظات، ثم انتبهت إلى نفسها، فقالت وعلى وجهها إمارات حيوية مصطنعة:

- أوه الصغير هابيل..إنه جيد.. ينمو بشكل سريع ما شاء الله..
- والفتاة المساعدة..؟
- لا بأس بها.. تثرثر كثيراً.. وتطرح أسئلة دون توقف..

في تلك اللحظة بالذات ارتبك آدم أبوالتنك وتوترت ملامحه. انتبهت هي لذلك. فقرب جذعه الأعلى منها وقال بهمس:

- الرجلان اللذان حدثتك عنهما قبل قليل واللذان جاءا يبحثان عن صديقتك قد دخلا الآن..

حانت التفاتة من حواء الكرخي فرأت الرجلين اللذين كانا ملتحيين لحية خفيفة لكنها كثيفة. أحست برعشة تسري في أوصالها لرؤيتهما. نظر أحدهما إليها وفتح عينيه على آخرها، لكنه حاول إشغال نفسه كي لا يرتبك. لم يبتعد الرجلان عنهما بل جلسا حول طاولة جانبية على مبعدة قليلة منهما. لم يتكلما، وإنما تبادلا بعض الكلمات الموجزة جداً التي بدت وكأنها شفرات ورموز متفق عليها بينهما.

التفت هي إلى آدم أبوالتنك وقالت بصوت خافت تتخلله رجفة خوف واضحة:

- لا أعرف أين رأيت هذين الرجلين..؟ وجه أحدهما مألوف لديّ.. لا أعرف يا آدم.. وجوه العراقيين صارت تتشابه..

حاول آدم أبوالتنك أن يبتسم لكنه لم يستطع، فقال لها بصوت قلق:

- يجب أن تتصلي بصديقتك وتنبهيها...
- كيف أنبهها وأنا لا أعرف كيف أتصل بها..؟

في تلك اللحظة ارتسمت على وجه آدم أبوالتنك ملامح إنزعاج، حاول كتمانه حينما كان ينظر نحو باب المقهى، لكن حواء الكرخي انتبهت إلى أنه رأى ما يزعجه، ولم تستطع أن تلحق بالتأكد مما سبب له القلق إذ أن آدم الشبيبي صار واقفا عند طاولتهما، ينظر إليهما بقلق وتوتر. كان واضحا أن حدثاً مهما، مقلقاً، قد أخره كل هذا الوقت. جلس على كرسي بينهما فصار ظهره إلى طاولة الرجلين العراقيين المريبين. سألته هي مباشرة بقلق مكتوم:

- أين كنت كل هذا الوقت..؟

لم يجب مباشرة، إذ ظل صامتاً للحظات وكأنه يتقصد في أن يضفي الأهمية على سبب تأخره. ولأنهما كان ينظران إليه منتظرين الإجابة، فلم يستطع أن يستمر في الصمت، إذ قال بحزن وتوتر:

- حدثت مصيبة..؟
- ماذا تقول..؟ أية مصيبة..؟

سأل آدم أبوالتنك مباشرة، فالأخبار، أية أخبار كانت، حسنة أو سيئة، هي نقطة ضعفه الكبرى، إذ لا يستطيع أن يقمع فضوله في تسقط الأخبار اياً كانت.

كان آدم الشبيبي ينتظر مثل هذه اللهفة لسماع ما لديه تأتي من حواء الكرخي وليس من آدم أبوالتنك، بيد أن حواء الكرخي ظلت صامتة، وهي تنظر إليه منتظرة أن يتكلم، نظر إليها وقال بحزن:

- لا أعرف شعبا أقتيد أبناؤه إلى الموت والجحيم وإلقي إلى الهاوية المظلمة بهذه القسوة والعنف مثل شعبنا.. حياتنا صارت كابوساً طويلاً.. صرنا نخاف النوم كي لا تأتينا الكوابيس المرعبة، ونخاف الصحو لأنه يعني الاستمرار في الكابوس.
- تكلم.. ماذا هناك..؟ هل هذه مقدمة لقصيدة أو لمقال..؟

علق آدم أبوالتنك ساخراً. نظر آدم الشبيبي إليه بغضب مكتوم وقال له ساخطاً:

- هذا ليس زمن القصائد..إلّا إذا كنت تقصد كتابة المراثي..

التفت إلى حواء الكرخي التي كانت تحس بمعاناته، لكنها لم تشأ أن تمنحه مشاعر

الدفء، لاسيما أمام آدم أبوالتنك، التي خمنت بأنه انزعج من مجيئه، وقال لها:

- البارحة رأيت كابوساً مرعباً..
- وماذا رأيت..؟

سألته حواء الكرخي بإهتمام. وحين أحس بإهتمامها تسربت إلى روحه ومضة من الأمل، فقال بحيوية مشحونة بالحزن:

- رأيت نفسي وكأني كنت في عمر 12 سنة. وأني كنت أشاهد جنازة يحملها أربعة رجال تمر أمامي في الشارع. كانت الجنازة قد أخرجت من أحد البيوت في شارعنا، ثم خرج أربعة رجال آخرون يحملون جنازة أخرى من البيت نفسه، وحينما مروا من أمامي كانوا هم الرجال أنفسهم الذين مضوا.. وهكذا كانت الجنازات تخرج من البيت نفسه ويحملها أربعة رجال هم أنفسهم يتكررون في كل مرة... ثم رأيت نفسي أتسلل من فراشي.. فجأة، وجدت نفسي في مشهد آخر.. مشهد يتكرر في كوابيسي الليلية أيضاً لكن ليس كمثل حاملي التابوت المكررين.. رأيت بيوت مبنية من الجثث.. جثث عارية.. جثة فوق جثة مصفوفة كالطابوق.. وعلى امتداد البصر تمتد بيوت الجثث.. بيت إلى جانب بيت آخر لكنها من جثث.. وليس هناك أي أثر لكائن حي!

نظرتْ حواء الكرخي إليه وقالت متسفسرة بتعاطف مبطن باستخفاف مبطن:

- أهذا الذي أخرك عن المجيء..؟
- لا..

أجاب آدم الشبيبي بأسى، ثم واصل:

- الذي أخرني حدث حزين جداً..
- ما هو.. ما الذي حدث..؟

سأل آدم أبوالتنك بلهفة. نظر إليه آدم الشبيبي لثوان، ثم التفت إلى حواء الكرخي قائلاً:

- لقد وجدوا جثة أحد العراقيين ميتاً في غرفته..
- ماذا..؟

صرخت حواء الكرخي لا إرادياً. فواصل حديثه:

- اليوم صباحاً، وبينما كان عامل التنظيف يريد تنظيف غرف الطابق الثاني في

الفنـدق الـذي أسـكنه، طـرق بـاب أحـد النزلاء لكـن لا أحـد كان يجيبه، ففتح البـاب بمفتـاح الفنـدق، فوجـد نزيل الغرفة ميتاً في فراشـه.. وبعد التعرف على هويـة النزيـل اتضـح أنـه رجل عراقي في الخمسـينات من العمر، كان جندياً في جبهات القتال أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وهرب من هناك.. التجأ إلى جبال كردستان ملتحقاً مع الأنصار الشيوعيين..، ثم التجأ إلى السويد، وقد جاء إلى سورية ليقضي بعض الوقت منتظراً من تبقى من أهله.. لكنه تعرض لسكتة قلبية أثناء النوم.. طبعاً هذه المعلومات أكدها بعض العراقيين الذين جاءوا من السويد أيضا لمقابلة عوائلهم..

شـحب وجـه حـواء الكرخـي وارتعشـت المنطقـة المحيطة بشـفتيها مـن الجانبين، وارتعشت تلك المنطقة التي يظللها بعض السواد تحت عينيها، وهمست بحزن وكأنها تخاطب نفسها:

- مسكين..
- نعـم.. مسـكين.. لـم يمـت فـي الحـرب.. ولا فـي الجبـال.. وإنمـا هنا في غرفة بفندق بائس في جرمانا..

قال آدم أبوالتنك بحيادية ودون تعاطف حقيقي، وكأنه كان يحلل أمراً نظرياً. التفتت حواء الكرخي إلى جهة الرجلين العراقين الغامضين. ألقت عليهما نظرات تائهة، وقالت بهدوء ونبرة كئيبة:

- الحرب تضع الإنسان وجها لوجه أمام الموت.. وربما المواجهة لا تتم.. لكن الإنسـان في كل الأحوال يقترب منه بشـكل مباشـر.. لكأن الموت يظل يتبعنا كظلنا..إنه معنا في كل لحظة..إنه ظلنا.. الموت هو ظل الحياة..
- غموض الموت.. والتفكير في لغزه كان أساس التفكير الفلسفي..

قال آدم الشبيبي بحزن، إلا أن حواء الكرخي ردته قائلة بضجر:

- لا أعتقد ذلك..

ثم واصلت:

- إن البشـر حينما يدخلون الحروب يعرفون أنهم سـيقتلون أعداءهم..إنهم لا يفكرون لحظتها في الموت وإنما في الحياة.. كل جبهة تقاتل الأخرى بشراسة.. لا أحد يفكر في الموت حينما يسقط عدوه.. بل يعتبر ذلك نصراً.. فقط حينما

يسـقط أحبابه.. سـواء في القتال أم في الحياة العادية.. عندها يفكر في الموت وقسوته باعتباره مأساة.. ورحلة غامضة نحو المجهول.. حتى موت هذا العراقي المسـكين فـي فندقـه وحيـداً.. يبعـث فينا مشـاعر التعاطف الإنسـاني، لكنه يثير مخاوفنا من الموت.. والمجهول.. أكثر.

آدم أبوالتنك وجد نفسه حائرا، أراد أن يقول شيئاً، فهو لا يريد أن يكون زائداً في مثـل هـذا الحـوار الـذي يـدور بين حواء الكرخي وغريمه آدم الشـبيبي، لكنه لم يجد ما يقول، وحينما حاول أن يقول شيئا، سمع آدم الشبيبي يقول لحواء الكرخي:

- إنك تقتربين من أفكار سيغموند فرويد في هذا المجال، فهو يرى أيضاً أن الإنسـان لا يسـتبعد الموت من تفكيره حينما يموت عزيز عليه.. وهو أيضاً لا يفكـر فـي المـوت حينمـا يقتل عـدوه، بل يعد ذلك انتصاراً.. لكن حينما يموت أحبابه يواجه الموت وجها لوجه.. بيد إن الإنسـان لا يستسـلم للموت، لذلك يعتقد فرويد أن الإنسان تحايل على فكرة الموت وأقنع نفسه بموقف متوسط.. فقـد تقبـل المـوت كحقيقـة وأقـر بحقيقة موته هو نفسـه، لكنه رفض أن يعترف بـأن المـوت هـو نهايـة الحياة.. ولأنه يتذكر المتوفي لأنه من أحبته لذلك رفض فكرة فنائه، ولذا وجد شـكلا من أشـكال الذكرى الأبدية التي صارت تشـكل تصوراتـه عـن الحيـاة الأخـرى بعـد المـوت.. حياة تتجاوز حقيقـة الموت.. ثم جاءت الأديان فعمقت هذه الفكرة وصورت هذه الذكرى الأبدية.. هذه الحياة بعـد المـوت بطريقـة أكثـر تفصيلاً وإغراءً.. بل وضعـت لها مقارنات مع الحياة الدنيـا.. ولكـي يهـدئ خوفـه من فكرة الفناء أكد الإنسـان من خلال الأديان بأن هذه الحياة هي زائفة ومآلها الفناء.. وأن الحياة بعد الموت هي الحياة الأبدية!
- تحليل مثير.. لكن وأثناء حديثك راودتني فكرة وردت في القرآن بأن الشهداء أحيـاء عنـد ربهـم يرزقـون.. أي أن البلـدان والحكومات والدول والبشـر خلال الحـروب، وبعدهـا، يعتبـرون الذيـن سـقطوا منهـم في جبهات القتال شـهداء.. والشـهداء يذهبـون إلـى الجنـة.. فهـم أحياء عند ربهم يرزقـون.. وفي حال مثل حالنا.. أثناء الحرب العراقية الإيرانية.. فقد سقط الملايين من الطرفين.. وكلهم مسـلمون.. كانوا يدافعون عن أوطانهم.. أي أنهم شـهداء.. وهذا يعني أن كل طرف يعتقد أن شـهداءه في الجنة.. أي أنهم سـيلتقون في الجنة.. وإذا ما كان

أحدهـم علـى حـق.. فلمـاذا يدخـل الجميـع للجنـة.. وإذا مـا كان المـوت في الدفاع عن الوطن شهادة.. فأية مهزلة وعبث إلهي تزن تلك الموازين.. أتراهم سيخوضون الحرب أيضاً في حياتهم الأبدية تلك؟!

قالت ذلك وعلى وجهها ابتسامة ساخرة يائسة. انتهز آدم أبوالتنك لحظات الصمت القليلة، فسأل بفضوله المعتاد:

– وهل عرفت اسم الرجل العراقي الذي مات..؟

– اسمه الكامل لم أعرفه.. لكن أذكر أنهم رددوا اسم آدم كثيراً..

أخذ آدم أبوالتنك يسأل بالتفصيل عن الرجل المتوفي، وعن موعد دفنه، وتفاصيل أخرى لم يستطع آدم الشبيبي أن يجيبه عنها لأنه ببساطة لا يعرفها. لكنّهما إنتبها إلى أن حواء الكرخي كان غائبة بذهنها عن التواجد معهما.. كانت تبدو متعبة.. شاردة الذهن.

أحسـت حواء الكرخي بموجة عاتية، مفاجئة، من السـأم، السـأم من الحياة، ومن بطء الزمن، ومن عدم وجود هدف قوي يمنحها الأمل في الاستمتاع بالحياة.. بالزمن.. وبالأشياء المحيطة. كانت روحها مليئة بالمرارة.. والضيق.. ضيق لا تعرف مصدره أو سببه.. تراءى لها وجه حواء الزاهد وهي في المقهى.. لكنها كانت تعرف أنها تراها بعين أعماقها لا أكثر. وكانت ثمة فكرة واحدة تهيمن على روحها وذهنها في تلك اللحظة، هي أن الإنسان مخلوق تافه جداً وضئيل جداً.. وغبي جداً.. مخلوق متعجرف وأجوف.. والذكي من بين البشر من يعرف أنه تافه وضئيل وأجوف وغبي.

صحيح أن الخوف من الموت يستقر عميقاً في أعماق النفس البشرية، لكنها كانت تحس أن سأمها المفاجئ من الحياة قد ألغى هذا الخوف في أعماقها.. تمنت في تلك اللحظـات لـو أنهـا لـم تكـن موجودة ولم تُخلق أصلاً.. لو كانت عدماً.. لو كانت نسـياً منسـيا.. أحسـت برعشـة كئيبة من هذه الأفكار.. وكأنها صحت من غيبوبة.. خافت من تلـك الأفـكار والمشـاعر التـي راودتهـا قبـل لحظات.. فكرت مع نفسـها بأن في الحياة هناك الكثير من الأشياء الجميلة.. فالصداقة.. والحب.. والفن.. والجمال.. والطبيعة.. والرجال.. وكشوفات العلم التي تجعل الإنسان جزءاً من هذا العالم اللامتناهي.. كلها جميلة وتسـتحق أن يعيش الإنسـان من أجلها وأن يسـتمتع بالحياة.. لكن سـرعان من انطفـأت هـذه الأحاسـيس المضيئـة فـي نفسـها ثانيـة.. وكأنها موجة اندثـرت في عباب البحر المتلاطم.. وأحسـت نفسـها كأنها تختفي في نفق السـأم المظلم والتي تهب فيه

رياح باردة جداً..

- هلو.. نحن هنا!

قال لها آدم الشـبيبي ملوحاً بكفه أمام وجهها. انتبهت لنفسـها، أحسـت بالخجل.. ارتسمت على وجهها ابتسامة مرتبكة وحزينة.. وقالت بنبرة اعتذار:

- اعتذر.. أحس بتعب مفاجئ.. أعتذر منكم.. لأني أريد أن أغادركم..
- تغادرينا..؟ إلى أين..؟

قال آدم أبوالتنك متعجباً. نظرت إليه وابتسمت قائلة:

- أقصد أغادر المقهى.. أحس برغبة في أن أكون وحدي..
- هل تريدين أن تكتبي قصيدة أو مقالاً..؟
- لا أدري.. أريد أن أكون وحدي فقط.. لا أعرف.. ربما سأكتب قصيدة عن الموت..

ابتسم آدم الشبيبي بارتباك مستغربا تحول مزاجها المفاجئ وقال:

- لكنك لست وحدك.. حتى وأن كنت وحدك فأنت لست وحدك..

التفت إليه آدم أبوالتنك وقال ساخراً:

- هل هذه حزورة..: حتى لو كنت وحدك فأنت لست وحدك..؟

نظر آدم الشبيبي إليه ولم يجبه، ثم التفت إلى حواء الكرخي وسأل برجاء:

- هل يمكنني أن أوصلك..؟
- لا.. أود أن أكون وحدي..

أحس آدم الشبيبي بالإنكسار، بينما تألق وجه آدم أبوالتنك بغبطة لم يستطع كتمانها فاتقدت عيناه، وقال:

- دعها.. لا تشوش على حالتها الإبداعية..

نظرت حواء الكرخي إليهما بأسـى نظرة رقيقة. لم تقل شـيئاً. نهضت من مكانها. ظلت لثوان واقفة، ثم قالت:

- وداعاً..

وخرجت. ظل الإثنان مصدومين من طريقة خروجها. كان يدركان أنهما لا يطيقان البقاء مع بعضهما البعض. ظلا صامتين لثوان. نهض آدم أبوالتنك متوجهاً إلى المرافق الصحية، بينما ظل آدم الشبيبي تائهاً، شارد الذهن، محاولاً أن يسترجع كل الحوار الذي

دار بينهما فلربما كان قد أخطأ بحقها أو أساء إليها دونما قصد.

ما أن ذهب آدم أبوالتنك مختفيا في أعماق المقهى حتى نهض الرجلان الغامضان وغادرا المقهى بعد أن وضعا بعض النقود على الطاولة.

حين عاد آدم أبوالتنك بعد دقائق انتبه لغياب الرجلين الغامضين. فجأة، وكأنما اكتشف شيئاً خطيراً. صاح بآدم الشبيبي:

- هل رأيت الرجلين..؟
- أي رجلين..؟

أدرك آدم أبوالتنك بأن آدم الشبيبي لن يفهم شيئا من كلامه، ولن يفهم، إذ أن ظهره كان للرجلين وأنه لم ينتبه لهما، فصاح به:

- قم لنلحق بها.. أعتقد أنها في خطر..
- من..؟
- قلت لك قم.. وتعال معي

من بعيد أشار هو للنادل الذي كان يعرفه جيداً إشارة من سيأتي في ما بعد، فهز النادل رأسه موافقا. خرجا بسرعة وعلى وجهيهما علامات توتر واضحة.

أوقفا تاكسيا وصعدا إليه. طلبا منه التوجه إلى منطقة الطبالة التي تسكن فيها حواء الكرخي. كانت الطرقات مزدحمة.. وكان القلق بادياً على وجه آدم أبوالتنك أكثر مما على وجه آدم الشبيبي، إذ أن الآخر لم يشرح له ما يدور في ذهنه من مخاوف سوى أنهما يجب أن يكونا قرب حواء الكرخي لأنها في خطر.

على بعد مئتي متر تقريبا من البناية التي تسكنها حواء الكرخي كانت ثمة سيارات شرطة وازدحام.. وتجمع أناس من الجنسين. لم يستطع سائق التاكسي المرور بسهولة. اقتربت من الزحمة. توقف. لم يكن بالإمكان المرور. فتح النافذة وسأل شاباً كان قد غادر التجمع البشري ومكان الحادث:

- ماذا هناك..؟ لماذا كل هذا التجمع..؟

وقف الشاب واقترب من النافذة ثم قال:

- هناك امرأة قتيلة.. يقال مرت سيارة خاصة.. اغتالتها بمسدسات كاتمة للصوت وفرّت.. كان هناك بعض المارة.. الشرطة تقول إنها امرأة عراقية.. مسكينة.. ما تزال في عز شبابها.

قفز آدم أبوالتنك من السيارة فتبعه آدم الشبيبي الذي دفع للسائق مبلغا أكبر مما يجب قبل أن يغادر السيارة.

أحس أبو التنك بهاجس خطير. حين اقترب من التجمع شق طريقه وسط الدائرة المحيطة بالقتيلة. حين صار في المقدمة رأى امرأتين عراقيتين تلبسان العباءات السوداء وخلفهما راهبتين بملابس الراهبات، إحداهما امرأة جميلة جداً في ريعان الشباب والأخرى امرأة مسنة، تقفان خلف المرأتين العراقيتين اللتين جلستا قرب جثة القتيلة. حدق في الجثة بتركيز فعرف على الفور أنها حواء الكرخي. إذاً أن الرجلين جاءا لإغتيال حواء الكرخي وليس صديقتها كما كان يظن.. كيف لم ينتبه أو هي نفسها لم تنتبه لذلك..؟ أتراها كانت تحس بموتها..؟ لماذا قالت لهما وداعاً..؟!

وبدون وعي منه انهار آدم أبو التنك على ركبتيه أمام الجثة باكياً، بينما انسحب آدم الشبيبي من حلقة الجمع البشري.. ركض باتجاه شارع جانبي والدموع تنهمر من عينه.. لم يكن يعرف إلى أين يذهب؟!

في تلك اللحظات رن الهاتف النقال للقتيلة. لم يجرؤ أحد أن يأخذ الجهاز الذي كان خارج حقيبتها اليدوية الملقاة بجانب الجثة. ظل الهاتف يرن.. ولا أحد يجرؤ أن يأخذه ويجيب. وبرغم نحيبه المكتوم على حواء الكرخي لم يستطع آدم أبوالتنك أن يقضي على فضوله في معرفة الأخبار، فألقى نظرة على شاشة الجهاز.. وركز برغم أنه في تلك الحالة إلى الرقم الدولي 0039 فعرف أن الإتصال يأتي من إيطاليا.. وسأل نفسه من تراه يتصل بها من إيطاليا..؟

27

الطريق إلى باريس..... البداية

في طريقها إلى الفندق اتصلت حواء ذوالنورين بحواء الكرخي. ظل الهاتف يرن ولا أحد يجيب، ثم جاء صوت أنثوي. سألت حواء ذوالنورين عن صديقتها فأجابها الشخص على الطرف الآخر بأنها مساعدتها في شؤون المنزل، وأن المدام حواء غير موجودة، ويمكنها أن تطلبها على الهاتف النقال، فأخبرتها بأنها لا تعرف هاتفها النقال. ترددت الفتاة المساعدة، لكنها حينما انتبهت إلى أن الإتصال من الخارج، أعطتها رقم الهاتف النقال.. دونته حواء ذوالنورين سريعاً على الهاتف مباشرة، وشكرت الفتاة على لطفها. لم تتوانَ حواء ذوالنورين عن الإتصال مباشرة بحواء الكرخي على هاتفها النقال، لكن دون جدوى، حاولت الإتصال مرة أخرى دون أن يجيبها أحد، وفي المرة الأخيرة اتصلت فكان الهاتف مغلقاً. لم تفهم لماذا أغلقت حواء الكرخي الهاتف بعد أن رن مرتين دون أن تجيب..؟!

لم تستطع البقاء عند آدم بوناروتي.. كانت تحس بأنها في حالة استرخاء تام. جسدها صار خفيفا، بعد أن اجتاحتها تيارات اللذة الكهربائية مرات عدة متتالية. لم تشعر بمثل هذه اللذة منذ فترة طويلة جداً.. صحيح أنها لم تكن تمارس بشكل اعتيادي ومتكامل، وأنه كان يلعق ويلحس ويتوغل بلسانه فيها، لكنها أحست بأن ذلك منحها لذة مضاعفة. لم تكن قد جربت ذلك. أحست أنها خفيفة، وجسدها يكاد يحلق. لكنها كانت تريد أن تستحم وتنام قليلاً.

وعلى الرغم من أن قصة آدم بانوروتي أدخلتها في متاهة لم تخرج منها بعد، فهي لم تفهم، مثله، أية حكاية من الحكايات هي الصحيحة، حكاية زوجة آدم بوناروتي أم حكاية أمها..؟ وكيف كان الرجل الآخر الذي خرج من الغرفة التي كانت معبداً فرعونيا هو نفسه الرجل الأشقر الوسيم الذي رأته في الفندق، وأن أم زوجته هي نفسها حواء

ذوالنورين لكن بشعر أشقر..؟ وما قصة قضيبه المقطوع..؟ لكنّها رغم كل ذلك كانت تشعر أنها منتعشة، إلّا أن هذه الحالة النادرة، التي لم تمر بمثلها منذ سنوات، لم تستمر سوى وقت قصير لا يتعدى نصف الساعة. لم تكن تعرف كيف تمر بالأزقة الجانبية الأقرب إلى الفندق وإنما اتجهت إلى الشارع العام، وما أن استدارت من زقاق (فيا سانت آنا) بإتجاه الشارع العام (فيا كافور Via Cavour) متجهة نحو (ساحة سانت ماركو Piazza S. Marco)، وهناك قرب متحف (سانت ماركو) انتبهت إلى أنها رأت شخصاً ما تعرفه جيداً.. ولثوان قليلة لم تتمكن من تذكر من هو ذلك الشخص، حاولت مع نفسها فأحست بأنها مشتتة، لكن فجأة وكأنها استلمت رسالة توضح لها كل شيء، تذكرت أن من تراه هو الفتاة الخليجية التي كانت في فندق الشام. كانت وحدها، بيدها كتاب سياحي عن معالم المدينة، وكانت تقف أمام المتحف تنظر إلى التماثيل عند بوابة المتحف.

لم تصدق أنها هي نفسها الفتاة التي كانت في المصعد، تلك الفتاة المرتبكة، والمرعوبة من الجن، فهي الآن تضع نظارة سوداء كبيرة الحجم، لوزية الشكل، على عينيها، بحيث تبدو وكأنها من مخلوقات الفضاء بعيونها الكبيرة اللوزية السوداء التي تحتل مساحة من وجهها، وتحمل بيدها الأخرى حقيبة كبيرة الحجم من الخوص، وحذاء رياضياً.

كانت المسافة بينهما أقل من مائة متر. مشت إليها مسرعة، إلا أن الفتاة الخليجية استدارت. لم تدخل المتحف، وإنما اجتازت الساحة صاعدة الشارع العام بإتجاه الكاتدرائية وبوابة الفردوس.

كان طريق حواء ذوالنورين ينتهي عند ساحة سانت ماركو لتنعطف منها باتجاه الشارع الجانبي المقابل حيث يقع فندقها، إلا أن رغبة اجتاحتها في الحديث مع الفتاة الخليجية.. وأجج هذه الرغبة أكثر هو أن المسافة بينهما قد تقلصت إلى حدود العشرين متراً.

أرادت حواء ذوالنورين أن تناديها، لكنها انتبهت إلى أنها لا تعرف اسمها. فأسرعت الخطو نحوها. فجأة دخلت الفتاة الخليجية إلى محل جانبي. حين وصلت حواء ذوالنورين إلى المحل ونظرت إلى الداخل وجدته محلاً صغيرا لبيع الآيس كريم، لكن لم يكن في المحل أحد سوى صاحبه الذي كان منشغلاً بوضع قناني المياه الصغيرة

في الثلاجة التي تتوسط المحل من الداخل. صُدمت، فهي قد رأتها بنفسها وهي تدخل إلى هذا المحل.. أين اختفت..؟ سألت حواء ذوالنورين نفسها.

مشت للأمام قليلاً لتنظر في المحل المجاور، فانتبهت إلى أنه سوبر ماركت ليس بالكبير لكنه أكبر من محل الآيس كريم، فدخلته. أخذت تتنقل بنظراتها بين المتواجدين فيه، وهم عدد قليل لا يتجاوز الأربعة، ولم تكن الفتاة الخليجية بينهم. رجعت ثانية إلـى محـل الآيـس كريـم التـي كانت هي على يقين بأنها قد دخلته، فلم تجد أحداً مرة أخرى. خرجت إلى الشارع وأخذت تنظر إلى الطريق العام الصاعد نحو مركز المدينة القديمـة فلـم تجدهـا بيـن الماشـين.. ما الذي يجري معها..؟ أمـن المعقول أنها رأت شـخصاً آخر فأعتقدت بأنها رأت الفتاة الخليجية..؟ ثم أجابت نفسـها، بأنها حتى لو كانـت قـد اشـتبهت بالفتـاة ولـم تكن هي الفتاة الخليجية، فأين هي الفتاة المشـتبه بها والتـي تلبـس النظـرات اللوزية السـوداء، وتحمل حقيبـة يدوية كبيرة من الخوص بيد، وباليد الأخرى كتاباً سياحياً..؟. ظلت حواء ذوالنورين واقفة أمام المحل لفترة قصيرة، ثم توجهت راجعة إلى السـاحة لتنعطف يسـارا إلى السـابع والعشـرين من أبريل الذي يقع فندقها فيه.

في تلك الحظات، وبعد أن خطت أقل من عشرة أمتار في الشارع الجانبي متجهة إلى الفندق، داهمتها الأسئلة، أحست وكأن هدوءها واسترخاءها يهربان منها، فقد بدأت تسـأل نفسـها: لماذا أنا هنا في هذه المدينة..؟ وإلى أين سـتقودني غربتي هذه..؟ أين أنا..؟ وماذا بعد يا حواء ذوالنورين..؟ زوجي قتل.. وابني انتحر فمن بقي لي في هذه الحيـاة..؟ أأظـل كالضحيـة أتنقـل بين الرجال ليقضوا معـي وطرهم وأرتعش أنا تحتهم كالكلبـة الشـبقة..؟ أأنـا ضعيفـة إلـى هـذا الحد بحيث لا أسـتطيع العيـش بدون قضيب الرجل..؟ لو يسـمعنني النسـاء السياسـيات وناشطات المجتمع المدني ويعرفن ما يدور في ذهني من أسـئلة تخص علاقة المرأة بالرجل؛ لربما اعتبرنني مريضة نفسـياً.. لكن لا ضير.. قد أكون مريضة نفسـياً، لكنني على الأقل صادقة مع نفسـي.. بينما هن ربما يشـغلن أوقاتهن بالعمل والأفكار.. لكنهن في النهاية نسـاء.. وكل امرأة تقلل من قيمة الجنس وأهميته في الحياة ليست سوى امرأة لديها عطب في أنوثتها وشخصيتها السوية كامـرأة.. لا. لا.. لايحـق لـي الحكـم علـى الأخريـات.. لكن ما هـذا الصداع الذي بدأ يتسرب إلى رأسي.. لقد كنت في أحسن حال قبل قليل.. فما الذي جرى لي..؟ علي

أن أستحم وأرتاح قليلاً.. لقد وعدت آدم بوناروتي أن نلتقي مساءً. كانت تحدث نفسها بينما هي تقترب من مدخل فندق (ماتا لوكا)

* * *

حين اقتربت حواء ذوالنورين من بوابة الفندق لمحت إشارة الصليب الأحمر لصيدلية على مبعدة أمتار من الفندق، فمرت من أمام بوابة الفندق متجاوزة إياها متجهة إلى الصيدلية لشراء بعض الحاجات النسوية، إذ أنها تقترب أياما قليلة من بدء دورتها الشهرية. كانت صالات الفندق المتداخلة مكشوفة من جهة الشارع بنوافذ زجاجية كبيرة. ما أن اجتازت البوابة ماشية على الرصيف ناظرة عبر نوافذ قاعات الفندق الأرضية المطلة على الشارع حتى وقفت مذهولة بحيث لم تستطع التقدم خطو أخرى نحو الصيدلية التي صارت قريبة جداً.

لقد رأت صديقتها إيفا سميث تجلس ففي إحدى قاعات الفندق الأرضية بالقرب من النافذة، وليس معها سوى حقيبة يدوية صغيرة تضعها إلى جانبها بينما يجلس بالقرب منها الرجل الأشقر الوسيم. وكان واضحاً أنها تصغي إليه باهتمام.

لم تصدق حواء ذوالنورين ما رأته عيناها.. سألت نفسها غير مصدقة: كيف جاءت إيفا سميث إلى هنا..؟ لقد اتصلت بها صباحا.. فكيف وصلت بهذه السرعة خلال ساعات..؟ ولماذا تجلس مع الرجل الأشقر الوسيم..؟ ولماذا لم تتصل بي لتخبرني بمجيئها..؟ ألا يمكن أن يكون كل ما تراه وهماً في وهم.. مثلما توهمت رؤية الفتاة الخليجية..؟!

لم تذهب إلى الصيدلية، وإنما رجعت إلى الفندق مباشرة، دخلت على عجل واتجهت إلى الصالون حيث يفترض أن تكون إيفا سميث مع الرجل الأشقر الوسيم، فانتبهت وهي في طريقها إليهما بأنها لا ترى وجوداً للرجل الأشقر الوسيم الذي يفترض أن يكون كرسيه على أطراف الممر الوسطي، ويفترض أن يراه كل من ينظر إلى القاعات من داخل الفندق..؟ لا.. لقد غمر جسدها تيار فرح عارم.. كانت إيفا سميث تجلس وحدها على كرسيها مثلما رأتها عبر زجاج النافذة من جهة الشارع، لكن لم يكن هناك وجود للرجل الأشقر الوسيم.

صرختا حينما رأتا بعضهما، وتعانقتا وتبادلتا القبل على الطريقة الشرقية في التحية. ثم أخذت إيفا سميث بيد حواء ذوالنورين وأجلستها إلى جانبها، وهي تسألها أن كان

كل شيء على ما يرام؟

روت لها إيفا سميث كيف أنها قلقت جداً بعد إتصالها الصباحي، وأنها أحست بضرورة أن تكون إلى جانبها، فاتصلت بالمطار وبمكاتب بيع بطاقات السفر في الدقائق الأخيرة، فحجزت بطاقة، ثم اتصلت بأمها راجية منها أن تجلس مع الأطفال في البيت، أخذت تاكسيا إلى المطار.. وصعدت الطيارة مباشرة.. ووصلت إلى فلورنسا.

بعد تبادل بعض الحديث طلبت إيفا سميث من حواء ذوالنورين أن تغادرا فلورنسا إلى باريس فوراً.. بالقطار.. فربما يكون خطر كشف الجواز في المطار الفرنسي أكثر احتمالاً، بينما في القطارات من النادر أن يأتي أحد ليفتش جوازات المسافرين، فالسؤال دائما عن تذكرة السفر.

طلبت حواء ذوالنورين من صديقتها أن تمهلها ساعة من الوقت؛ كي تستحم وتستعد للسفر. صعدتا إلى غرفتها.

ما أن دخلتا الغرفة حتى أخذت حواء ذوالنورين تحزم حقيبتها. فوضعت فيها ما اشترته من ملابس، وأدوات الزينة، بينما كان الكتابان، قصائد كفافيس ورواية (البريء) ما يزالان في الحقيبة، ولم تمسسهما طوال أيامها في فلورنسا.

* * *

جرى كل ذلك بطريقة خيالية.. فقد حُسم مصيرها خلال ساعة من الزمان.. لم تنتظر طويلاً.. نزلتا إلى اللوبي. دفعت حواء ذوالنورين كشوفات الحساب. أرادت أن تتصل بآدم بوناروتي، لكن إيفا سميث ترددت في الأمر وطلبت منها تأجيل الإتصال حتى تصل باريس.. حيث يمكنها أن تشرح له كل شيء.. وعندها يمكنه أن يأتي إلى باريس..

في محطة القطار المركزية اشترتا بطاقتا سفر في الدرجة الثانية.. كان عليهما أن تنتظرا عشرين دقيقة..

* * *

إنطلق القطار السريع من الرصيف واحد متجها إلى باريس. في إحدى عربات الدرجة الثانية كانت امرأتان جميلتان وأنيقتان جداً تتحدثان بمودة وانسجام واضح.. وعلى ملامحهما شيء من التوتر الخفي. على مبعدة منهما، وفي نهاية العربة نفسها كان رجل أشقر وسيم يجلس في زاوية وحده لا أحد يشاركه في الجوار أو في المقاعد المقابلة، أمامه الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وكتاب القرآن الكريم.

كانت الغيوم قد بدأت تغطي السماء. وراح الظلام يمرر ريشته الخفية على الوهاد والسـهول والبراري، وكانت الأشـجار تبدو كأشـباح يعبرها القطار سـريعاً. فجأة اتقدت الأنوار في العربة، بينما دخل القطار في نفق مظلم طويل.

البـدايـة

انتهـت الكتابـة فـي هذا النص السـردي فجـر يوم الخميس المصادف 20 – مارس 3 – 2014 في السـاعة الخامسـة وعشـر دقائـق بينمـا ابتدأت الكتابة فيـه 20013/ 10/ 11 فـي سـيانا – توسـكانا – إيطاليـا – ثـم لنـدن، وبرليـن.